كتاب

خطط الشام

الجزء السادس

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

طبع في مطبعة المفيد بدمشق ١٣٤٧ هـ و ١٩٢٨ م

كتاب

خطط الشام

الجزء السادس

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

طبع في مطبعة المفيد بدمشق ١٣٤٧هـ و١٩٢٨م

التاريخ المدني

البيع والكنائس والديرة

بيوت العبادة عند الأقدمين

لم يخلف التاريخ الصحيح مستنداً يركن اليه في وصف بيوت العبادة عند قدماء سكان الشام ايام كانوا يعبدون الأصنام والاوثان ثم بعد ان اصبحوا يعبدون النيران · فلا نعرف اذاً شيئاً يعتدُّ به عن هياكل الفينيقيين في صور وصيدا وبيروت وجبيل ولا عن هياكل مشارف الشام الجنوبية ولا عن بيوت النيران في حلب ولا عن بيوت العبادة عند الحثيين والبابليين والاشوريين ولا عن هيكل الرب مرناس الذي كان يعبد في غزة ويحجون الى هيكله من الأقطار ولا عن معبد جوبتر الذي أنشأه أدريانوس الروماني في جبل جرزيم من نابلس ولا عن هياكل المشتري (جوبتر) معبود الرومان الذي وجد في السخنة بين تدمر وديرالزور ولا عن هيكل اليونان في انطاكية ولا عن هيكل بزيزة بالغرب من كوسبة في الكورة من لبنان ولا عن بعل مرقد في أطلال دير القلعة قرب بيت مري بلبنان ولا عن هيكل الزهرة في افقة في جبل كسروان · والهيكل الباقي من هياكل القدماء هو هيكل بعلبك وقليل امثاله جداً مما صبر على ضربات الدهر ·

اما بيع اليهود فقد تبين انهم شرعوا بانشاء بيعة لهم في سبي بابل يجتمعون فيها ويتعبدون · واهم ما كان من بيعهم بيعتهم في القدس بنوها بعد رجوعهم من بابل بجانب المعبد وقسموها قسمين قسم للرجال وقسم للنساء ثم كثرت البيع في المدن

الصغرى والكبرى في كل بلد كان فيها لليهودية معتقدون وأنصار . ولكل كنيس خزانة مقدسة تقام في داخل البناء على خشب وتجعل متجهة نحو القدس وهي مغشاة بالكتان وفيها الطوامير المقدسة وامام الخزانة ستار يذكر بستار المعبد وفي وسطه امام الخزانة شيء اشبه بمنبر .

هذا غاية ما يقال في هياكل القدماء وبيوت عباداتهم وكيف السبيل الى وصف المعابد القديمة والتاريخ لا يعرف شيئاً يعتدّ به عن العالم الاسرائيلي بل ولا عن نصارى القرون الاولى وكل ما يعرف عن موسى وعن قضاة اسرائيل وداود او المسيح والحوار يين لا يكاد يملأ سوى صفحات قليلة والنصرانية نفسها لم تنتشر في الشام الا في القرن الرابع للميلاد على يد قسطنطين او ام قسطنطين بن قسطنطين باني القسطنطينية وهو الذي بنى كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال انه بني في زمانه اثني عشر الف كنيسة .

ولا بد لنا قبل وصف الكنائس والبيع والأديار ان نعرفها تعريفاً يقر بها من جميع الأذهان ولا يوقع فيها لبساً . فالدير كما قالوا في تعريفه بيت يتعبد فيه الرهبان ولا يكاد يكون في المصر الاعظم انما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال فان كان في المصر كانت كنيسة او بيعة . وربما فرّق بينهما فجعلوا الكنيسة لليهود والبيعة للنصارى . وقال بعضهم البيعة متعبد النصارى وقيل كنيسة اليهود . وجاءت لفظة الدير من الدار والجمع اديار والديراني صاحب الدير والذي يسكنه ويعمره ويقال له ديّار . ويقال دَيْر ودِيَرة وأديار وديران ودارة ودارات وديَرة ودير ودور ودوران وادوار ودوّار وادورة .

* * *

منشأ الاديار والبيع | أنشئت الاديار الاولى في الشام فهي موطنها الاول ذلك ان من المسيحيين من اخذوا يألفون العزلة لاول ظهورهم في صعيد مصر وجبال انطاكية ينقطعون للنسك . ولما زاد عدد هؤلاء الناسكين دعت الضرورة الى إنشاء اكواخ منفردة أشبه بعمرات جعلت برئاسة رئيس . وأنشئت دور عظيمة يعيش فيها اولئك الزهاد عيشة مشتركة يجمعهم سقف

واحد وتسيّرهم إدارة رئيس واحد . ثم اتحدت تلك الاكواخ والبيوت . ثم أنشئت أديار في المدن تولاها الاساقفة وانتقل ذلك الى الغرب . وكما كانت الشام منشأ الأديار كذلك كانت اول من وضع هندسة الكنائس ذات القباب فقد جرت في هندستها لاول مرة على مثال المعابد القديمة فالشام اذاً اول من أنشأ الاديار والكنائس كما قامت فيها النصرانية واليهودية .

قلنا انه يردُّ انشاء الكنائس الى عهد قسطنطين وقد بدأت البيع بالتكاثر في سنة ٣٣٠ للميلاد وذكر بعض المؤرخين ان ثيودوسيوس الكبير حول بعض هياكل الوثنيين في بعلبك الى كنائس فبنى كنيستين في القلعة احداهما في وسط البهو الكبير القائم امام هيكل الشمس . وقال المسعودي ان هيلاني بنت بايليا الكنيسة المعروفة بالقامة (القيامة) في هذا الوقت الذي يظهر منها النار في يوم السبت الكبير الذي صبحه الفصح وكنيسة قسطنطين وديارات كثيرة للنساء ولرجال على الجبل المطل على مدينة بيت المقدس المعروف بطور زيتا وهو بازاء قبة اليهود وعمرت مدينة ايليا عمارة لم يكن قبلها مثلها ولم يزل ذلك عامراً الى ان اخربته الفرس حين غلبت على مصر والشام .

تكاثرت الكنائس والاديار في الشام فلم يمض على انتشار النصرانية قرنان حتى زاد عدد الاديار والبيع على صورة مستغربة حتى ان الغسانيين ولعوا ايضاً بعمارة الاديار في الجزء الذي ارتفع سلطانهم عليه من جنوب الشام في ظل ملوك الروم فشادوا دير حالي ودير ايوب ودير الدهناء ودير ضخم ودير النبوة . واشتهر الغساسنة باقامة الديرة والبيع وكانوا كما قيل يعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه ويجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب ومثلهم كان شأن آل المنذر بالحيرة وبنو الحارث ابن كعب بنجران من بيوتات العرب .

✡ ✡ ✡

أعظم الكنائس واقدمها ويظهر ان كنيسة القبر المقدس في القدس هي أقدم كنيسة في الشام قامت في مكان نظر اليه في كل وقت بانه مقدس . وذكر الاسقف اوزيب القيصري (٣١٤ — ٣٤٠) وهو والد تاريخ الكنيسة ان في الحفريات التي جرت على عهد الملك قسطنطين اكتشفت مغارة المخلص المقدسة .

وزاد المؤرخون المحدثون ان الملكة هيلانة والدة قسطنطين المتوفاة نحو سنة ٣٢٦ م زارت القدس واكتشفت القبر المقدس وصليب يسوع فالبنايات التي اقيمت في ذاك المكان سنة ٣٣٦ هي من البناء[1] المدور قد دعي كنيسة القيامة ومؤرخوا المسلمين يسمونها كنيسة القمامة كما كان هناك كنيسة كاتدرائية خاصة برمز الصليب وقد احرق الفرس هذين المكانين سنة ٦١٤ . واحدث الراهب مودست رئيس ديرتيودوس في سنة ٦١٦ و ٦٢٦ كنيسة القيامة وكنيسة الصليب وكنيسة الجلجلة وأضيفت سنة ٦٧٠ الى الجنوب كنيسة للعذراء .

ولما فتحت القدس وجاء الخليفة عمر بن الخطاب ادركته الصلاة فلم يرض ان يصلي في كنيسة القيامة لئلا يكون بعده للمسلمين حجة في استصفاء تلك الكنيسة العظمى وبنى مقابل ذلك جامع عمر في جوار بيعة القيامة وبنى بجانبها مصلى آخر . ولما تنصر الروم على رواية ابن بطريق وبنت هيلانة ام قسطنطين الكنائس في بيت المقدس كان موضع الصخرة وحولها خراب فترك ورموا على الصخرة التراب وهذه التي بُني عليها المسجد الاقصى ثم ذهب الخليفة الى بيت لحم فحضرته الصلاة فصلى داخل الكنيسة عند الحنية القبلية وكانت الحنية كلها منقوشة بالفسيفساء وكتب عمر للبطرك سجلاً ان لا يصلي في هذا الموضع من المسلمين الاَّ رجل واحد بعد واحد ولا يجمع فيه صلاة ولا يؤذن فيه ولا يغير فيه شيء . وكنيسة بيت لحم من الكنائس القديمة المشهورة أنشأها قسطنطين سنة ٣٣٠ فكانت كاتدرائية كبرى وأنشأ يوستنيانوس حيطانها واقيمت فيها اديار وكنائس كثيرة حتى اطلق عليها سنة ستمائة للميلاد اسم المكان الزاهر .

(١) قال ياقوت قُمامة بالضم اعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس وصفها لا ينضبط حسناً وكثرة مال وتنميق عمارة وهي في وسط البلد والسور يحيط بها ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم ان المسيح قامت قيامته فيها والصحيح ان اسمها قمامة لانها كانت مزبلة اهل البلد وكان في ظاهر المدينة يقطع بها ايدي المفسدين و يصلب بها اللصوص فلما صلب المسيح في هذا الموضع عظموه اه .

ومن اشهر كنائس الشام كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة مار يوحنا مكان الجامع الاموي اليوم صالح المسلمون على نصفها الشرقي لانهم اعتبروا دمشق بما فتح صلحاً وعنوة فكان النصف من هذه الكنيسة العظمى — التي كانت اكبر معابدهم على رواية ابن كثير — في النصف الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف . وكان بدمشق خمس عشرة كنيسة كتب بها عمر بن الخطاب كتاب امان واقر ما بأيدي النصارى اربع عشرة كنيسة فجعل ابو عبيدة من الكنيسة الكبرى مسجداً فكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الاصلي في القبلة قال جرجس بن العميد وقيل ان الوليد بذل للنصارى في كنيسة مار يوحنا اربعين الف دينار فلم يريدوا ان يأخذوا المال فاخذها فاخربها ولم يعطهم شيئاً . وفي تواريخ دمشق ان النصارى رفعوا الى عمر بن عبد العزيز في خلافته ما بيدهم من عهد ابي عبيدة بن الجراح من ان كنائسهم لا تهدم ولا تسكن وان الوليد اخذ كنيستهم بغير حق قهراً فلما رأى عمر ذلك منهم دفع لهم مالاً يرضيهم به حتى بلغ مائة الف فأبوا فكتب الى محمد بن سويد الفهري ان يدفع اليهم كنيستهم او يرضيهم في ذلك . فلما وصل كتاب عمر الى دمشق اعظم الناس ذلك وفيهم يومئذ بقية من اهل الفقه ، فشاورهم محمد بن سويد فقالوا هذا امر عظيم ندفع اليهم مسجدنا وقد اذنا فيه بالصلاة وجمعنا فيه يهدم ويعاد كنيسة . فقال رجل منهم هنا مسألة فان لهم كنائس عظاماً حول مدينتنا وهي ديرمران والكنيسة بباب توما وغيرها من الكنائس ان احبوا ان نعطيهم كنيستهم فلا يبقوا حول مدينة دمشق ولا بالغوطة كنيسة الا هدمت او نبقي لهم جميع كنائسهم ويتركوا هذه ونسجل لهم بذلك سجلاً فرضي النصارى على ان يسجل لهم الخليفة سجلاً منشوراً بامان على ما بدمشق والغوطة من كنيسة ان تهدم او تسكن . وهكذا استحالت كنيسة مار يوحنا الى مسجد جامع للمسلمين اخذوه بحكم الفتح وارضوا ابناء ذمتهم على كل حال . وما ندري كيف آل الى هؤلاء من اليهود او الى النصارى من الصابئة وغيرهم . ولعل التقليد القائل بان في الجامع رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام اتى من كون الكنيسة كانت على اسم مار يوحنا . و يوحنا هو يحيى والله اعلم .

وخاصم النصارى حساناً بن مالك الكلبي الى عمر بن عبد العزيز في كنيسة

بدمشق فقال له عمر ان كانت من الخمس عشرة كنيسة التي في عهدهم فلاسبيل لك اليها . وقال غيره خاصمت العرب في كنيسة بدمشق يقال لها كنيسة ابن نصر كان معاوية أقطعهم إياها فأخرجهم عمر بن عبد العزيز منها فدفعها الى النصارى فلما ولي يزيد ردها الى بني نصر . وفي كتاب سجل يحيي بن حمزة ان النصاري ذكروا لعمر بن عبد العزيز ان عنقاء العرب قد سخروا بهم و برئيسهم و بدينهم وجماعتهم من اهل القرى وإن اولئك العنقاء احلاف وفرق وانهم غلبوهم على كنائسهم وسألوا الوفاء لهم بما في عهدهم وبما في الكتاب الذي كتبه لهم خالد بن الوليد عند فتح مدينتهم فأمرهم ان يأتوا بحجتهم فأتوا بكتاب خالد بن الوليد فاذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق يوم فتحها اعطاهم اماناً لانفسهم ولاموالهم و كنائسهم لا تهدم ولا تسكن لهم على ذلك ذمة الله وذمة الرسول عليه الصلاة والسلام وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين لا يعرض لهم احد الا بخير اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية شهد بهذا الكتاب يوم كتب عمرو بن العاص وعياض بن غنم و يزيد بن ابي سفيان وابو عبيدة بن الجراح ومعمر بن غياث (عتاب) وشرحبيل بن حسنة وعمير بن سعد و يزيد بن نبيشة وعبد الله بن الحارث وقضاعي بن عمر وكتب في شهر ربيع الاول سنة خمس عشرة » .

قال يحيي بن حمزة فنظرت في كتابهم فوجدته خاصة لهم ، وفحصت عن امرهم فوجدت فتحها بعد حصار ، ووجدت ما وراء حائطها آثاراً وضعت لدفع الخيل ومراكز الرماح ، ونظرت في جزيتهم فوجدتها وظيفة عليها خاصة دون غيرهم ، ووجدت اهلها عند فتحها رجلين رجلاً رومياً فتلقه الحرب او نفقه ، ومساكنهم و كنائسهم قسمة بين المسلمين معروفة لاتخفى ، ورجلاً من اهلها حقن دمه هذا العهد ، فمساكنهم و كنائسهم مع دمائهم لهم لم تسكن ، ولم تقسم معروفة ليس تخفى ، فقضيت لهم بكنائسهم حين وجدتهم اهل هذا العهد وابناء البلد ، ووجدت من نازعهم لفيفاً طراً وذلك لو انهم اسلموا بعد فتحها كان لهم صرفها مساجد ومساكن . فلهم في آخر الدهر ما لهم في اوله واثبت في الاصول قبل واشهد الله عليه وصالح المؤمنين ، وفاء بهذا العهد الذي عهده لهم السابقون الأخيار فلم يكن بينهم خاصة في ذلك اختلاف نظر لهم . . وقضيت

لمن نازعهم بما كان لهم فيها من حلية او آنية او كسوة او عرصة أضافوا ذلك اليها ان يدفع ذلك اليهم باعيانها ان قدروا عليه وسهل قبضه ، او قيمة عدل يوم ينظر فيه شهد الله على ذلك اه ·

هذا ما كان من المسلمين مع ابناء ذمتهم ومراعاة العهود التي أقطعوها على انفسهم · ولم تزل سيرة خلفاء بني أمية وبعض بني العباس مع النصارى وكنائسهم سيرة الخليفة الثاني والفاتحين من الصحابة الكرام · فقد بني ابو جعفر المنصور كنيسة في دمشق لبني قطيطاني الغوريق ، ذكر ذلك ابن عساكر · ولما وقع حريق في كنيسة مريم بدمشق ايام احمد بن طولون امر ان تفرق على اهل الحريق سبعون الف دينار ففضل عنهم اربعة عشر الف دينار فأمر ان تفرق عليهم على قدر سهامهم ثم امر ففرّق على اهل دمشق وغوطتها مال عظيم فأقل من أصابه من ذلك دينار ·

* * *

مبدأ هدم الكنائس — اول حادث وقع في تخريب الكنائس قبل الاسلام كان المثار بفلسطين اهل السامرة وهدموا في سنة احدى وعشرين وخمسمائة الكنائس كلها واحرقوها من بيسان الى بيت لحم وقتلوا النصارى وعذبوهم عذاباً شديداً فأعاد يوستنيانوس الكنائس وكتب الى عامله في فلسطين ان يعفي اهلها من الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات وبنى بيمارستاناً للغرباء في القدس ·

وبقدر ما رأى النصارى من عدل المسلمين معهم ايام عزهم اخذ بعض ملوكهم بعد القرن الثالث يحكمون العواطف بدل العقل في الكنائس والبيع وكان من اثر ذلك ان نالت السياسة من بيوت العبادة فكان اذا احسّ القائم بامر المسلمين ان قومه في شدة ببلاد غير المسلمين انتقم من اهل ذمته في بلاده ، وسلط العامة من طرف خفي ليخربوا كنائس النصارى وبيعهم ·

قال القلقشندي وفي السنة الاخيرة من رياسة البطريرك قسما وهي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق ونهبوا مافيها وتتبعوا كنائس اليعاقبة والنساطرة · وقال ابن بطريق ان هذه الحادثة وقعت في رجب سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة وذلك ان المسلمين في دمشق ثاروا فهدموا كنيسة مرتمريم الكاثوليقية

وكانت عظيمة كبيرة حسنة انفق فيها مائتا الف دينار ، ونهبوا ما كان فيها من ابنية وغير ذلك من حلي وستور ، ونهبت ديارات وخاصة دير النساء الذي كان في جانب الكنيسة وشعثوا كنائس كثيرة للملكية ، وهدموا كنيسة النسطورية . وثار المسلمون بالرملة وهدموا للملكية فيها كنيستين كنيسة مارقزماس وكنيسة ماركورقس وهدموا كنيسة عسقلان وقيسارية وذلك سنة ٣١١ . وثار المسلمون بكنيسة بيت المقدس واحرقوا أبواب كنيسة قسطنطين القبلية سنة ٣٢٥ .

وكان الداعي الى ذلك ماوقع من اضطهاد المسلمين في بلاد الروم على الغالب فلم يجد ملوك الاسلام واسطة لتخفيف الشر الواقع على رعاياهم من اهل الاسلام الا بالضغط على النصارى في بلادهم والتأثير في ملوك النصارى بضربهم في اكبادهم في كنائس هي مهوى قلوب ابنائهم في بيت المقدس وما اليها بدليل ان ابن بطريق نفسه قال بعد ايراد تلك الحوادث : وقع بين الروم والمسلمين هدنة مرضية في سنة ست وعشرين وثلاثمائة وقال في حوادث السنة التالية ان المسلمين ثاروا في عسقلان فهدموا كنيسة كبيرة بها تعرف بكنيسة مريم الخضراء ونهبوا جميع ما فيها وأُحرقت وعاضد المسلمين اليهود في هدمها . وكان اليهود يشعلون النار في الحطب ويجرونه بالبكر الى اعلا السقوف حتى يحرقوها ويحل رصاصها وتقع عمدها وخربت الكنيسة وبقيت خربة . وروى ايضاً ان الصناجي والي القدس اضطهد بطريرك القدس فاستعدى عليه ملك مصر فأعداه فلم يسمع الوالي لذلك واختبأ البطريرك في كنيسة القيامة فهاجمها الوالي وأُحرقوا ابوابها وسقطت القبة ، وتوجه لرعية الى كنيسة صهيون واحرقوها ونهبوها . وهدم اليهود واخربوا اكثر من المسلمين .

واهم ما نال الكنائس في الشام من الاذى ، كان على عهد الحاكم بامر الله الفاطمي فانه لم يبق في مملكته ديراً ولا كنيسة الا هدمها . ففي سنة ٣٩٨ كتب الحاكم الى دمشق بهدم كنيسة السيدة القاثوليكي فهدمت ، وكتب الى والي الرملة بهدم كنيسة القيامة في القدس وإزالة معالمها والقضاء على آثارها وهدم الاقرانيون كنيسة ماري قسطنطين وسائر ما اشتملت عليه حدودها واستقصوا في إزالة الآثار المقدسة وكان في جوار المقبرة دير للنساء يعرف بدير السري فهدم ايضاً . وكان

ابتداء نقضها سنة اربعمائة ووضعت اليد على الاملاك والاوقاف وجميع ما في تلك الكنائس من آلاتها وحلاها ·

ومعلوم ان الحاكم كان من ارباب التناقض في اعماله ، يقر عملاً اليوم وينقضه من الغد ، وسيرته سلسلة غرائب واعاجيب ، ولذلك لا يستغرب منه اذا امر امس بضرب النصارى في كنائسهم في جميع ارجاء مملكته ، ثم عاد بعد مدة فاعطاهم عهداً كما كان يعطي الخلفاء العادلون ومنها هذا المنشور الذي اورده ابن بطريق :

« بسم الله الرحمن الرحيم امر امير المؤمنين بكتب هذا المنشور لنيقيفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من اجابة رغبته ، واطلاق بغيته ، من صيانته وحياطته ، والذب عنه وعن اهل الذمة من نحلته ، وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم ، وترك الاعتراض لمن يصلي منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها ، على اختلاف رأيه ومذهبه ، ومفارقته في دينه وعقيدته ، واقامة مايلزمه في حدود ديانته ، وحفظ المواضع الباقية في قبضته ، داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم ولد ، وما برسم هذه المواضع من الدور المنضوية اليها ، والمنع من نقض المصليات بها ، والاعتراض لاحباسها المطلقة لها ، ومن هدم جداراتها وسائر ابنيتها ، احساناً من امير المؤمنين اليهم ، ودفع الاذى عنهم وعن كافتهم ، وحفظاً لذمة الاسلام فيهم ، فمن قرأه او قرئ عليه من الاولياء والولاة ، ومتولي هذه النواحي وكافة الحماة ، وسائر المتصرفين في الاعمال ، والمستخدمين على سائر منازلهم ، وتفاوت درجاتهم ، واستمرار خدمتهم ، او تعاقب نظرهم ، في هذا الوقت وما يليه ، فليعلم ذلك من امير المؤمنين ورسمه ، و يعمل عليه و بحسبه ، ويحذر من تعدي حده ومخالفة حكمه ، ويتجنب مباينة نصه ومجانبة شرحه ؛ وليقر هذا المنشور في يده حجة لمودعه ، يستعين بها على نيل طلبته ، وادراك بغيته ، ان شاء الله تعالى · وكتب في جمادى الاخرى سنة احدى عشرة واربعمائة » · وفي اعلاه بخط الحاكم توقيع : الحمد لله رب العالمين ·

قال ابن بطريق وانفتح حينئذٍ باب رجعة الكنائس ورد اوقافها عليها ، واطلق عمارة جميع الكنائس والديارات التي يستدعي منه الاذن فيها وفي عمارتها بمصر وفي سائر بلاد مملكته ، وكتب لكل منهم سجلاً لاعادة اوقافها اليها ، الا ما كان من

الاوقاف والكنائس قد بيع في وقت القبض عليها في دمشق وفي جميع بلاد الساحل، وصرف ثمنه في النفقات السلطانية ، لضيق الاموال وقلتها ، وما كان منها فقد حصل لمن يتوقون شره من المسلمين . ولما تسامح الحاكم بعمارة الكنائس وتجديدها ورد اوقافها عاد الذين اسلموا من النصارى وقت الاضطهاد الى دينهم بامره وتسامحه . ولما هلك الحاكم وبويع لابنه الظاهر واستولت عمته على الملك بالفعل تقدمت بمسير نيقيفور بطريرك بيت المقدس الى حضرة الملك ليطالبه بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة ببيت المقدس وسائر البيع في جميع بلاد مصر والشام ورجوع اوقافها اليها .

وكان البطاركة اشبه بسفراء سلام بين ملوك الاسلام وملوك الروم . اذا وقع حيف على المسلمين في بلاد اعدائهم يندبهم ولاة الاسلام الى مطالعة الروم بما ينال النصارى في الشام وغيرها من الاضطهاد ان هم اساؤا الى المسلمين الواقعين في اسرهم ، او الراحلين اليهم في التجارة . ومما اشترط ملك الروم على الظاهر العبيدي في عقد الهدنة ثلاثة شروط منها ان يعمر الملك الظاهر كنيسة القيامة ببيت المقدس و يجددها من ماله ، ويصيّر بطريركاً على بيت المقدس ، وان تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب التي في بلاد الظاهر . فقبل الظاهر ما شرطه الملك من بناء كنيسة القيامة ومن اقامة بطريرك ومن تجديد النصارى بقية الكنائس سوى ما كان منها قد عمل مسجداً .

وقد علل مجير الدين الحنبلي عمل الحاكم في هدم البيع تعليلاً غير مقبول كثيراً قال انه بسبب ما أنهي الى الحاكم من الفعل الذي يتعاطاه النصارى يوم الفصح من النار التي يوقدونها في سبت النور يوهمون انها تنزل من السماء وقال ان المستنصر بالله ابا تميم معد ، هادن ملك الروم على ان يطلق خمسة آلاف اسير ليمكن من عمارة القيامة التي كان خربها جده الحاكم فأطلق الاسرى . قال والذي يظهر ان تخريبها لم يكن تخريباً كلياً بل كان في غالبها .

وقد وقع في العصور التالية بعض حوادث من تخريب كنيسة او بيعة كان السبب فيه داخلياً هو ان يميل اهلها الى عدو خارجي يداهم البلاد ، فقد استطالوا سنة ٦٥٨ هـ على المسلمين كما يقول المؤرخون فنهبهم المسلمون وخربوا كنيسة مريم

بدمشق وكما وقع لهبة الله النصراني متولي خزانة السلطان فانه «كان تمكن من المسلمين وآذاهم ، ورفع منار النصارى وتسلطوا بجاهه على المسلمين ، وجدد لهم بناء كنيسة مريم وشيد بنيانها ، ورفع بابها ، وحسن عمارتها ، ثم هدم مازاده ، وأُعيدت الكنيسة الى ما كانت عليه ، وتولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم» .

وكل تخريب وقع كان عن دواعٍ كلية في الغالب يرجع في جملته الى اعتداء النصارى في غير بلاد الاسلام على المسلمين . فان نيقيفور دومستيقس صاحب الروم لما غزا جزيرة اقريطش (كريت) في اسطول ونازلها في النصف من المحرم سنة خمسين وثلاثمائة وحاصرها ثمانية اشهر وفتحها وخرب ما فيها من المساجد وسبى من اهلها خلقاً كثيراً قام المصريون فخربوا بعض ما عندهم من الكنائس انتقاماً من الروم على فعلتهم وهكذا دواليك في تلك العصور المظلمة .

وفي سنة ٨٥٦ صدر مرسوم الملك بالكشف على الاديار و بهدم ما استجد بدير صهيون في القدس وانتزاع قبر داود من ايدي النصارى فهدم البناء المستجد وفيها اخرج المسجد من دير السريان وصار زاوية وهدم البناء المستجد ببيت لحم و في كنيسة القيامة وكشفت جميع الاديار وهدم جميع ما استجد بها . وفي سنة ٨٩٥ هدمت القبة التي احدثها النصارى في دير صهيون . والسبب في ذلك على ما يبدو للنظر ان الدولة في تلك الايام حاذرت من ان يكون من بعض الاديار والكنائس اماكن يعتصم فيها تساعد في الايام العصيبة على ان تكون ثكناً وقلاعاً لمن يداهم البلاد من غير اهل الاسلام .

ومع هذا لم يخل زمن من ظهور حكام استعملوا العدل في تلك الاعصار مع ابناء ذمتهم فقد ذكروا ان المفرج بن الجراح لما تغلب على ارجاء فلسطين الزم النصارى ببناء كنيسة القيامة ببيت المقدس قال ابن بطريق انه عاون على بناء كنيسة القيامة واعاد فيها مواضع بحسب امكانه وقدرته .

* * *

كنائس دمشق

ولم يحدثنا التاريخ بما كان من انواع الكنائس بعد القرن الثامن ومعظم الكنائس والاديار في الشام اليوم بعد كنائس القدس وبيت لحم ودمشق هي من مما أُنشئَ في القرون الأخيرة . فالكنائس في دمشق جددت بعد سنة ١٨٦٠ اي بعد ان خربت في حوادث تلك السنة . فلطائفة الروم الارثوذكس ثلاث كنائس اكبرها المريمية وهي اعظمها ومن أقدم كنائس هذه الديار وفيها مقام البطريرك الانطاكي خربت في أدوار كثيرة وآخر خرابها في وقعة تيمورلنك يبلغ طولها نحو ٧٠ ذراعاً وعرضها نحو اربعين . والثانية كنيسة مار يوحنا الدمشقي أُنشئت بعد سنة ١٨٦٠ وفي جوارها مدرسة الروم . والثالثة كنيسة الميدان في محلة القرشي تم بناؤها سنة ١٨٦٢ . ولطائفة الروم الكاثوليك ثلاث كنائس ايضاً كانت الكبرى كنيساً لليهود القرائين فاشتراها الكاثوليك وأُسست ايام الحكومة المصرية تم بناؤها سنة ١٨٤٠ على اسم السيدة وهي في حارة زيتون قرب سور البلد القديم وحرقت في حادثة سنة ١٨٦٠ ايضاً وهي متينة راسخة البنيان وفيها مقام البطريرك الانطاكي لتلك الطائفة . والكنيسة الثانية في باب المصلى على اسم القديس جاورجيوس . والثالثة في القرشي على اسم سيدة النياح . وللسريان الكاثوليك كنيسة على اسم مار موسى الحبشي في حي المسيحيين على الطريق العامة وفيها دار البطريركية ولها مدرسة متصلة بها حرقت في سنة ١٨٦٠ ايضاً ثم جددت . وللارمن القديم كنيسة قرب السور وهي قديمة احترقت في حوادث سنة ١٨٦٠ واسمها مار سركيس ولها مدرسة جدد بناؤها بعد الحوادث . وللسريان اليعاقبة كنيسة بالقرب من الباب الشرقي في محلة حنانيا جددت سنة ١٨٦٠ باسم القديس جاورجيوس . وللارمن الكاثوليك كنيسة امام دير اللعازاريين أُنشئت بعد سنة ١٨٦٠ على اسم القديس غريغوريوس . وللبرتستانت كنيستان بنت احداهما مس موط الانكليزية سنة ١٨٦٨ والثانية ١٨٦٤ بناها القس يوحنا كرفورد الاميركاني .

وقد أُنشئت عدة كنائس واديار في دمشق اهمها دير اللعازاريين كان شرع ببنائه قبل حوادث (١٨٦٠) ثم أُحرق وجدد بعد ذلك وفيه مدرستان احداهما للذكور والثانية للاناث . ولليسوعيين مدرسة للبنات وفيها كنيسة صغيرة . وهناك

دير الفرنسيسكان بالقرب من دير اللعازارية قيل انه أُنشيءَ من نحو ٣٥٠ سنة وجدد عقيب حوادث (١٨٦٠) وفيه مدرسة للصبيان · ولطائفة الموارنة دير على اسم مار انطونيوس البادواني حرق (١٨٦٠) وفيه دار البطريركية · وفي سفح الصالحية كنيسة صغرى للسريان الكاثوليك · وأُنشئت في العهد الاخير كنيسة في المدرسة الايطالية بطريق الصالحية وأُخرى وراء المستشفى العسكري لراهبات الفرنسيسكان وغيرها من الكنائس الصغرى ·

☆ ☆ ☆

كنائس حلب

وليس في الشهباء[1] كنائس قديمة وأَقدمها لا يرد عهده الى قبل منتصف القرن الماضي فمنها كنيسة الاربعين للارمن الغريغوريين في الصليبة وهي من الكنائس القديمة جددت (١٨٦٩) وكنيسة السيدة للارمن الغريغوريين (١٨٥٠) وكنيسة مار انطونيوس البادوي للآباء الفرنسيسيين أُنشئت (١٦٦٠) ثم جددت وكنيسة انتقال السيدة للسريان الكاثوليك في حارة الصليبة جددت (١٨٥٠) بعد حريق وقع لها · وكنيسة ام المعونات للارمن الكاثوليك تم بناؤها (١٨٤٠) ومنها كنيسة بشارة الانجيل للبرتستانت في محلة جقور القسطل جعلت كنيسة (١٨٦٧) · وكنيسة مار فرنسيس للآباء الفرنسيسيين في حي جلوم تم بناؤها (١٨٧٨)· وكنيسة السيدة للروم الارثوذكس في الصليبة جدد بناؤها (١٨٥١) · وسيدة الانتقال للروم الكاثوليك جددت بعد حريقها (١٨٥١) · ومار جرجس للروم الكاثوليك في ترعسوس تم بناؤها (١٨٥٠) وكنيسة قلب يسوع للآباء اليسوعيين في حي تراب الغربا تمت سنة ١٨٨١ وكنيسة مار بطرس للكلدان في العزيزية (١٨٨٢) وكنيسة مار جرجس للسريان الارثوذكس في جقور قسطل وهي من الكنائس القديمة اختص بها السريان بعد ان كانت مشتركة بينهم وبين الارمن في سنة ١٨٩٣ وكنيسة القديس بوناونتورا للآباء الفرنسيسيين تم بناؤها في

(١) نشكر لحضرة الشيخ راغب الطباخ من أُدباء حلب على اعطائنا المعلومات اللازمة عن كنائس بلده ·

حي الرام سنة ١٩٠٧ وكنيسة للموارنة باسم مارالياس الحي في الصليبة تمت سنة ١٨٩١ وكنيسة الانفس المطهرة في الحميدية تم بناؤها سنة ١٩١٠ ·

* * *

الكنائس والبيع في القدس

وفي القدس اديار وكنائس كثيرة بحيث يصح ان تدعى بلد الكنائس ولطائفة كاثوليك الرومانيين كنيسة اسمها كنيسة البطريركية ودير المخلص للفرنسيسكان وله كنيسة وميتم وصيدلية ومطبعة وكنيسة القديسة حنة وكنيسة الاكس هومو (اي صورة المسيح المكللة بالشوك) وكنيسة الدورميسيون وكاتدرائية سان ايتيان وكنيسة الاغوني واديار سان سيولكر ودي لافلاجلاسيون والدومنيكيين واخوان البعثة الافريقية واللعازاريين والآباء الپاسيونيست والبندكتيين · ودير البنيدكتيين واديار الكرمليين وسيدات صهيون واخوات القديس يوسف واخوات روزير والكلاريس واخوات ربياراتريس والبندكتيين · ولهم كنائس في المدارس · منها في المدرسة الاكليريكية البطريركية وميتم الاطفال في دير المخلص والمدرسة الصناعية في الدير نفسه ومدرسة الذكور للفرنسيسكان والمدرسة الصناعية للذكور لرهبان سيدة صهيون ومدرسة الذكور لاخوان المدارس المسيحية ومدرسة وميتم بنات اخوات القديس يوسف وميتم البنات لاخوات الفرنسيسكانيات ومدرسة للبنات لاخوات روزير ومدرسة وميتم لبنات سيدات صهيون ومدرسة البنين والبنات لجمعية الارض المقدسة الالمانية · ومن المستشفيات مستشفى سان لويس الفرنساوي تعاون فيه راهبات القديس يوسف وملجأ اللقطاء والعجزة والمرضى لاخوات الاحسان · وملاجئ الحجاج مثل كازانوفا للفرنسيسكان · والملجأ الكبير الفرنساوي لسيدة فرنسا وملجأ الاغسطينيين والملجأ الكاثوليكي الالماني والملجأ النمساوي الروم المجتمعون او الروم الكاثوليك لهم كنيسة في البطريركية وبيعة في سانت فيرونيك ومدرسة اكليريكية كبرى لرهبان القديسة حنة لاخوان البعثة الافريقية (الآباء البيض) وميتم للبندكتيين وواحد للسور بين المتحدين وله مدرسة اكليريكية يديرها الآباء البنديكتيون وقليل من الارمن المتحدين مع كنيسة سيدة السپاسم وبيعة وملجأ ومدرسة متصلة بالكنيسة اللاتينية ·

وللطوائف البرتستانتية الالمانية كنيسة المخلص الالمانية وملاجئ فرسان القديس يوحنا ومستشفى الديا كونيس قيصر ورت ودار للبرص للاخوان الموارفيين وميتم للفتيات وميتم سوري للاولاد أسسه شنيلر وله ملجأ للعميان ومدرسة لاولاد العرب في القدس . وللطائفة البرتستانتية الانكليزية مدرسة وكنيسة أسقفية وجمعية التبشير الكنائسي لدعوة ابناء العرب من المسلمين واليهود للمذهب ولها كنيسة القديس بولس وميتم للذكور اسسه أسقف كوبا ومدرسة للذكور والبنات ومدرسة عالية وكنيسة يسوع لجمعية يهود لندرا وهذه الارسالية تقوم بنفقة مستشفى كبير وصيدليتين ومدارس للذكور والاناث ومدرسة صناعية ومطبعة . ولرهبنة فرسان القديس يوحنا الانكليزية مستوصف للرمد وبعض الاديار والمدارس تنفق عليها جمعية تبرعات فلسطين وجمعية مبرات ارسالية الشرق الانكليزية . ولطائفة الروم الارثوذكس عدة اديار وكنائس منها دير هيلانة وقسطنطين ودير ابراهيم ودير جيتسماني والقديس باسيليوس والقديس تيودوروس والقديس جورج والقديس ميشل والقديسة كاترينا واوتيم وسيدة النجا واسبيريدون وكارالومبوس وديمتريوس ونيقولاوس وروح القدس ومدرسة للبنات وأخرى الذكور ومستشفى وغير ذلك . وللبعثة الروسية مدرسة كبرى في حي يافا والبنايات على جبل الزيتون . وكان للجمعية الروسية الفلسطينية ملجأ كبير للحجاج بالقرب من المعهد الروسي وملجأ الراهبات بالقرب من البيمارستان .

وللارمن دير بالقرب من باب صهيون ولهم مدرسة اكليريكية ومدرستان للذكور وللاناث وكنيسة القديس يعقوب ودير للنساء اسمه دير الزيتوني ودير وبيعة جبل صهيون ولهم ملجأ . وللاقباط دير يقيم فيه اسقفهم ودير آخر يقال له دير القديس جورج . وللسريان اليعقوبيين كنيسة صغرى يقيم فيها اسقفهم . وللحبش دير وكنيسة في الشمال الغربي من المدينة وللاسرائيليين زهاء ٧٠ كنيساً . وكثير من معاهد الخير والاحسان وملاجيء الزوار ومعاهد للفقراء اسس معظمها مونتفيور وروتشيلد وجمعية الاتحاد الاسرائيلي وغيرهم ولهم اربعة مستشفيات ودار للمتوهين ومدرسة للعميان وملجأ للشيوخ ومدرسة ابتدائية وصناعية تقيم عليها جمعية الاتحاد الاسرائيلي ومدرسة انكليزية للبنات ومدرسة المانيـة للبنين وملاجيء منهـا الالماني

والاسباني وفي القدس مدرسة البنات لاسوج . وللمزار الامبراطور غليوم الثاني ملك المانيا مدينة القدس امر بانشاء اربع كنائس وكلها واقعة في اهم بقعة في المدينة ثلاث منها مشرفة عليها من الخارج والرابعة داخل المدينة اي السور .

وقبل الحرب العامة كان في القدس ٨ اديار للذكور و ٩ اديار للاناث من اللاتين وكنيستان للروم الكاثوليك وواحدة للارمن الكاثوليك و١٤ ديراً للروم الذكور و ٤ اديرة للاناث من الروم و ٤ اديار للروس و ٥ للارمن و ٣ للاقباط و ٣ للحبش و ٢ للسريان و ٢ للبرتستانت الاسقفيين و ١ للانجيليين و ١ للهيكليين من الطوائف البرتستانتية و ٤٠ كنيساً للاسرائيليين وربما زادت بعض الطوائف اماكن اخرى للعبادة . وكنائس القدس واديارها وبيعها على غاية من الفخامة لانها من انشاء دول كبرى ومكانة القدس في هذا الباب لا تنازعها فيه غير رومية العظمى واهم تلك الكنائس في القدس كنيسة القيامة وهي ليست بالكبرى كثيراً بالنسبة لكنائس الغرب المهمة بل هي متوسطة الحجم استأثر اهل كل مذهب من مذاهب النصرانية ببقعة صغيرة منها لا يتعدونها يكنسونها ويوقدون سرجها ويتعهدونها بما يصلحها . والسدانة للمسلمين حتى لا يقع بين اهل تلك المذاهب شيء من التحاسد الذي ادى في الازمان السالفة الى فتن وحوادث ، ولكل قطعة من قطع كنيسة القيامة وجدار من جدرانها وعمود من عمدها حادثة تاريخية يذكرونها في تاريخهم الديني .

ولو كان عُنيَ بعمران كل بلد على مثل ما عُنيَ بانشاء الاديار والكنائس في القدس وما اليها من الارض المقدسة لكانت الشام اعمر اقطار العالم بكنائسها واديارها فقد قدّر بعضهم ما انفق على هذه المعاهد الدينية الكبرى بخمسة عشر مليون جنيه قبل ان تصبح فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وقبل ان ينشئوا فيها كنائسهم ومعابدهم ويشترك يهود العالم في اتمام مشاريع العمران في فلسطين . ولا يدخل في هذا التقدير ما في معابد القدس من العاديات والآثار والتحف والطرف فان ذلك لا يقوَّم بثمن . كل هذا بسائق المنافسة السياسية والدينية بين الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وبين المسيحيين من جهة والموسويين من اخرى .

ولو جئنا نستقصي كنائس فلسطين لطال بنا المجال فمن كنائسها كنيسة

روسية في يافا مطلة على سهل سارون و كنائس صغيرة تابعة لاخوان المدارس المسيحية واخوات القديس يوسف و كنيس لليهود · ولهم مدرسة مهمة في تل ابيب واهم الاديار فيها دير اللاتين وفيها كنيسة للبرتستانت الالمان من طائفة الهيكليين واسمها احباب القدس وقد كثرت الكنائس في المدن والقرى والغالب ان كنائس القرى سبقت بانشائها كنائس المدن لان النصرانية انتشرت اولاً في القرى وعصى اهل المدن على التدين بها لغلبة التعصب عليهم ·

وفي نابلس دير للاتين و كنيسة للروم وكنيس وكتاب للسامرة ومدرسة للانكليز ومدرسة للراهبات ولها بيع صغيرة وفي اريحا كنيسة للروم واخرى اللاتين و كنيسة بيت لحم من اقدم الكاتدرائيات الباقية لم تخرب في جملة ماخرب الحاكم ، وقد رممت في اوقات مختلفة وزينت ولا سيما في عهد الصليبيين ، وفي بيت لحم عدة ديار و كنائس منها دير للفرنسيسكان مع دار ضيافة ومدرسة للذكور وصيدلية و كنيسة جميلة ولاخوات القديس يوسف دير وميتم ومدرسة للبنات ودير للكرمليين عمر على مثال قصر سانت آنج في رومية وله كنيسة ومدرسة اكليركية ومجمع الاب بيلوني وفيه مدرستان احداهما صناعية و كنيسة · ولراهبات المحبة مستشفى ولاخوان المدارس المسيحية مدرسة عظمى وللروم دير الولادة و كنيستان احداهما باسم القديسة هيلانة والثانية باسم القديس جورج ومدرسة للذكور واخرى للاناث · وللارمن دير عظيم وهو ودير الفرنسيسكان ودير الروم اشبه بقلاع · وللبرتستانت الالمان مدرستان وميتم ، وللانكليز مدرسة للفتيات يضاف اليها دار للمعلمات وكلها تحوي كنائس وبيعاً · وفي الناصرة اربع عشرة بيعة و كنيسة ومعظمها من ضخامة البناء ما يذكر بقصور الملوك ، ودير الفرنسيسكان يزار لبعض الآثار التاريخية فيه وهو اثر من آثار القرون الوسطى · وفي صفد كنيسة ومدرسة للروم الكاثوليك وخمس كنائس للاسرائيليين وخمس مدارس ابتدائية دينية ومدرسة عالية للاتحاد الاسرائيلي و كنيسة ومستشفى للبرتستانت · وفي طبريا كنيسة للروم واخرى للكاثوليك وخمس كنائس لليهود · وللكاثوليك كنائس في حيفا والبصة وشفاعمرو وترشيحه والمقار · وفي الطور اديار كبرى و كنائس ·

وفي الرملة دير للآباء الفرنسيسكانيين أُسس سنة ١٤٠٠ على يد الامير فيليب الاسباني ثم خرب سنة ١٧٠٠ ثم أُعيد بناؤه · وخرب صلاح الدين كنيسة لدّ التي أنشئت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر · كما خرب كثيراً من الكنائس في عهده وخرب بعضها في الحروب وخرب الآخر قصداً لاسباب سياسية وحربية حافزة · وفي جينين دير ومدرسة للذكور والروم كنيسة وللبروتستانت وللكاثوليك ولكل كنيسة مدرسة تابعة لها · وبالجملة فكل بلد من بلاد فلسطين لايخلو من دير او كنيسة او كنيس مهما بلغ من قلة ساكنيه من المسيحيين والاسرائيليين ·

والفضل في إنشاء هذه الكنائس لجماعة الرهبان والمبشرين فهم الذين استوكفوا اكف المحسنين في الغرب وصرفوا عقولهم واوقاتهم في إقامة تلك المعاهد المهمة وقد جاء منهم نوابغ في كل قرن خلدوا اسمهم بقدر ما بذلوا من العناية بنشر دينهم واقامة شعائره ومعابده فاستفاد العمران من عملهم فوائد لا ينكرها منصف · كتب ايليا بطريرك بيت المقدس الى انسطاس ملك الروم : قد بعثتُ اليك بجماعة عبيد الله ورؤساء رهبان بريتنا وفيهم سابا الفاضل الذي قد صير بريتنا مدائن واعمرها وهو نجم فلسطين ·

وفي عبر الأُردن كنائس مهمة واهمها كنيسة مادبا او ميدبا وقد تقدم الكلام عليها في المصانع ونزيد الآن ان ميدبا (عن مجلة المسرة) فاقت أخواتها بكنائسها الفخمة العشر وان سرجيوس مشيد الكنائس شيد كنيسة على اسم الرسل القديسين · ومن الكنائس التي بقي ذكرها الى اليوم كنيسة البتول التي يرجع عهدها الى ايام القيصر يوستنيانوس · ولما فاضت جيوش الأعاجم على هذه البلاد حرقت الكنائس والديرة وذبحت الالوف من الرهبان والنصارى ثم وطئتها أقدام الفاتحين من المسلمين فدثرت تلك الاسقفية وعادت أخربة ينعق فيها البوم عصوراً طويلة ·

وكان في اكثر أُمهات قرى حوران كنائس مهمة في الاسلام خربت بطول الزمن حتى قيل انه كان في إقليم حوران فقط اربع وثلاثون أُسقفية وناهيك بما يقتضي لها من الكنائس · واشتهرت اليوم كنائس تبنة وبصير وخبب · وفي جبل عجلون عدة كنائس منها ثلاث في الحصن اكبرها كنيسة اللاتين · وفي عجلون عدة

كنائس صغرى جعل بجانبها مدارس · وفي الكرك ثلاث كنائس للروم والكاثوليك والبرتستانت · وقد بلغ الغرام برجال المذاهب المسيحية ان اهل كل مذهب اذا وجدوا خمس عيال في قرية من رعاياهم انشأوا لهم كنيسة فالكنائس الصغيرة كثيرة جداً في كل المدن · وكل قرية أنشأ فيها اللاتين كنيسة أنشأ فيها البرتستانت ايضاً والعكس بالعكس ·

اما كنائس لبنان فكثيرة جداً لا تكاد تخلو كل قرية من كنيسة او كنيستين وربما اكثر لكنها ليست كلها على جانب عظيم من العظمة ولا يرد عهدها الى زمن قديم فان معظم ما كان منها في كسروان وما اليه الى جنوبي الجبل ليس له من العمر اكثر من مئتي سنة ذلك لان الموارنة لم يمتدوا الى كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد · وكان عشهم في شمالي لبنان قبل ذلك · ولقد ترى في بعض المدن اللبنانية كزحلة وهي اكثر البلاد سكاناً في الجبل القديم كثيراً من الكنائس التي لم تقم على ما يظهر الا بسائق المنافسة ففيها ١٢ كنيسة للكاثوليك وكنيستان للارثوذكس وكنيستان للموارنة وكنيسة ودير لليسوعيين وكنيسة للسريان الكاثوليك وكنيسة للاميركان وفي زحلة ايضاً دير القديس الياس الطوق للرهبنة الباسيلية وفيها كنيسة في المدرسة الشرقية وغير ذلك من الكنائس الملحقة بالمدارس ولا تقل عن ست وعشرين كنيسة · وفي مدينة بيروت وطرابلس واللاذقية وصور وصيدا كنائس كثيرة لكل طائفة ولكل جمعية تبشيرية واهمها ما كان في بيروت فللروم الارثوذكس وللروم الكاثوليك وللبرتستانت الاميركان ولغيرهم من الطوائف كنائس وبيع مهمة جداً واهمها ما كان لليسوعيين اوالمرسلين الاميركان ·

وفي الهدنة التي عقدت بين الملك المنصور قلاوون وولده الملك الصالح وبين حكام الفرنج بعكا سنة ٦٨٢ ان تكون كنيسة الناصرة واربع بيوت من اقرب البيوت اليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب كبيرهم وصغيرهم على اختلاف اجناسهم وانفارهم من عكا والبلاد الساحلية ويصلي بالكنيسة الاقساء والرهبان وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة واذا نقبت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى براً ولا يحط حجر منها على حجر لاجل بنايته ولا يتعرض الى الاقساء والرهبان وذلك على وجه الهبة لاجل زوار دين الصليب ·

ومن كنائس لبنان وما اليه كنيسة معاد وكنيسة رشكيدا وكنيسة حدثين وكنائس اهدن وعبدله وبحديدات وصربا وكفر شليمان وقنوبين وبكفيا وادّه وبشرّي وبكركي والديمان وزحلة ودير القمر والشرفة وبرمانا وغزير وبيت خشبو وبزمار وبعبدات والقريّة وحريصا واميون وجزين وجبيل وافقة والكورة والزاوية وبجانس ودير مار الياس والشوير وبسكنتا وكفتين ودير مار يعقوب المقطع ودير سيدة الراس ودير حماطورة ودير مار جرجس ودير مار الياس النهر ودير ناطور ودير سيدة النورية عند وجه الحجر ودير كفتون وديرجبرائيل وديرميخائيل المعظمة في برج صافيتا وديرمارجرجس الحميرا وديرالاحمر . ودير مار شربين ودير مارتوما قرب صيدنايا . وكان الصليبيون انشأوا عدة كنائس في ارواد وطرطوس وصيدا وبيروت وغيرها من بلاد الساحل فهدمت في الحرب ثم بنيت مساجد ولان بعضها كان بمثابة حصون في ايدي الرهبنات المتجندة مثل الهيكليين والاسبتار بين والتوتونيين . وفي امهات المدن الصغيرة كنائس مهمة مثل بعلبك وعكار والحصن وحمص وحماة ويبرود والقبيات والاسكندرونة وانطاكية . وفي هذه فقط تسع كنائس وفيها أُنشئت اول كنيسة في الشام وكانت في جميع أدوارها موضع إعجاب المؤرخين والسائحين ومنها ما هو في القرى مثل صدد ومعلولا وصيدنايا وهذه اليق بان تذكر في باب الاديار لانها بعيدة عن المدن والدير في الحقيقة كنيسة وزيادة . ولليهود في حلب ودمشق عدة كنائس ولكنها ليست من المكانة على شيء ولهم في تادف وجوبر وغيرهما كنائس قديمة ينتابونها للعبادة ومن عادة الاسرائيليين ان يكون في دار كل غني كنيس وهو عبارة عن غرفة كبيرة تجعل للعبادة واشهرها في دمشق كنيس سوق الجمعة وفي حلب كنائس مهمة لهم وكذلك في بيروت .

☆ ☆ ☆

عمل الرهبان والراهبات العظيم — يتصور القاريء مبلغ عناية الرهبان والراهبات بدينهم من القاء نظرة على الفصل التالي : للراهبات الالمانيات مدرسة ودار للايتام في القدس ومستشفى في حيفا ومستشفى ومدرسة ليلية ونهارية للاناث في بيروت ومعهد في دمشق وآخر في حلب وقد جئن القدس سنة

١٨٨٧ · وجاء راهبات السجود القدس سنة ١٨٨٨ واسسن فيها ديراً كبيراً ثم جئن بيروت وانشأن داراً للعبادة · وللعازر بين محال مهمة وهم يقسمون قسمين قسم الرهبان اللعازريين الالمان جاؤا سورية عام ١٨٩٠ وانشأوا في القدس مدرسة والقسم الثاني رهبان فرنسويون جاؤا سورية منذ نحو قرنين واخذوا الاديار التي كانت لليسوعيين ولهم مدرسة في بيروت واخرى في عينطورة واهدن في لبنان ورابعة في دمشق وخامسة في ريفون ·

وجاء الآباء الساليزيون القدس سنة ١٨٩١ ولهم دار للايتام في بيت لحم ودار للايتام زراعية في بيت جمال وثالثة في الناصرة ومدرسة ابتدائية في بيت لحم · وجاء الراهبات الساليزيات القدس سنة ١٨٩١ وهن يشتغلن مع الرهبان الساليزيين · واتى راهبات صهيون القدس عام ١٨٥٦ وانشأن معهداً في كنيستهن المسماة اكس هومو · وقدم الآباء البيض القدس عام ١٨٧٨ وانشأوا كنيستين فيها · ونزل آباء القلب المقدس القدس عام ١٨٧٩ وانشأوا مدرسة في بيت لحم · وللراهبات الورديات عمل ديني مثل بنات جنسهن · وجاء القدس آباء سيدة صهيون عام ١٨٨٤ · والدومنيكان او رهبان مار عبد الاحد وردوا على القدس عام ١٨٨٢ واسس الرهبان الصعوديون مأواهم في القدس عام ١٨٨٧ واسس الآباء الترابيون ديراً في العترون وهم معروفون بفن الالبان والزراعة · وجاء راهبات البنديكتيون القدس عام ١٨٩٦ وراهبات هورتوس كونكلوز وهن اميركانيات جئن القدس عام ١٩٠١ ·

ولراهبات الناصرة مدرسة في حيفا وأُخرى في شفا عمرو وثالثة في عكا ودير الناصرة في بيروت وقد جئن سورية سنة ١٨٥٥ · وقدم الراهبات الكرمليات بلاد الشام سنة ١٨٧٣ وأنشأن ديرهن المعروف في جبل الزيتون في القدس ولهن دير في بيت لحم وآخر في سفح جبل الكرمل قرب حيفا · وجاء رهبان الفرير الشام سنة ١٨٧٨ ولهم مدرسة في القدس وأُخرى في حيفا وثالثة في الناصرة ورابعة في بيت لحم وخامسة في بيروت وسادسة في طرابلس وسابعة في اسكندرونة وثامنة في دمشق · وجاء رهبان مار يوحنا الالهي القدس عام ١٨٧٩ فأسسوا مستشفى في طنطور على طريق بيت لحم ولهم مستشفى ومستوصف في الناصرة ·

وجاء راهبات سانت كلير الشام عام ١٨٨٤ وأنشأن ديراً على طريق بيت لحم ولهن دير في الناصرة . ووردت راهبات الفرنسيسكان القدس عام ١٨٨٥ وانشأن ميتماً ولهن ميتم في يافا وانشأن مدرسة في دمشق . وجاء راهبات المحبة القدس عام ١٨٨٦ ولهن مستشفي ودار للايتام في بيت لحم ومستشفى ومدرسة في حيفا ومستشفى في الناصرة ولهن في بيروت مستشفي عظيم ودارللايتام ودار للصناعة للذكور والاناث وثلاث مدارس صغرى في بيروت ومكتب للصنائع في طرابلس ودور نقاهة في اهدن و بجنس من لبنان ومدرسة في برج البراجنة وفي كل معهد منها دار للعبادة يختلف اليها اهل المذهب الذي يبشرون به .

ولقد قالوا ان عدد الجمعيات الاجنبية التي تسعى لتنوير افكار المسيحيين في سورية تبلغ ثمانين جمعية ، وأهمها جمعية اليسوعيين وردوا الشام قبل قرنين او ثلاثة فأسسوا الاديار التي ينزلها اللعازريون اليوم ثم غادروا البلاد فلم يعودوا اليها الا عام ١٨٣١ فأنشأوا مدرستهم فيغزير من لبنان وفي عام ١٨٧٦ افتتحوا كليتهم العظمى في بيروت ولهم الآن عدة أديار ومدارس في بكفيا والمعلقة وزحلة وغزير ودمشق وحلب وتعنايل وجزين وقد أنشأوا بعد الحرب العالمية مدارس صغرى كثيرة في ربوع جمهورية لبنان و يوشكون ان يتوسعوا في الداخلية كثيراً بمدارسهم و كنائسهم . اما الفرنسيسكان فلم يزالوا في الشام منذ الحروب الصليبية وزادوا عام ١٨٤٨ عدد أديارهم وأنشأوا ملاجئ للزوار في القدس ولهم فيها ستة ملاجئ ولهم أديار وملاجئ في بيت لحم وعين كريم وطبريا وجبل الطور والناصرة وقانا وعكا وصور وصيدا وبيروت وحريشة وطرابلس الشام واللاذقية ودمشق وحلب واسكندرونة ولهم مدرسة في حلب .

وكان الكرمليون تركوا الشام مع القافلة الاخيرة من الصليبيين ثم عادوا الى جبل الكرمل عام ١٦٣٦ وبنوا ديراً ومحلاً للضيافة في الجبل ولهم أديار في حيفا وطرابلس والقبيات من بلاد عكار ومدرسة في بشري . وديرهم في الكرمل من أجمل أديار الشام وأجمل المناظر ترى منه . وجاء راهبات القديس يوسف او الراهبات اليوسفيات من مرسيليا الى القدس عام ١٨٤٨ ولهن في فلسطين ١٣ معهداً و ٣

مستشفيات احدها في القدس والآخر في يافا والثالث في الناصرة . ولهن في هذه المدن ثلاث دور للايتام ومدرستان نهاريتان وخمس مدارس دينية ومدرسة في بيروت ودير في صيدنايا ومدرسة فيها ودير ومدرسة في دير القمر وديران ومدرستان ليليتان ومستشفى في حلب ودير ومدرسة في اسكندرونة .

* * *

الاديار في الشام

« دير اسحاق » كان بين حمص وسلمية في موضع حسن نزه على نهر جارٍ وحوله كروم ومزارع الى جانب ضيعة صغيرة يقال لها جَدَر ، وهي التي ذكرها الاخطل في قوله :

كأنني شارب يوم استبد بهم   من قرقف عنقتها حمص او جَدَر

وقال فيه ابو عبد الرحمن الهاشمي السلماني من اهل سَلَمية :

واذا مررت بدير اسحاق فقل   جادتك غيث سحائب وبروق

دير يُشبِّه ماؤه بهوائه   وهواؤه بلطافة المعشوق

وليس لهذا الدير من اثر اليوم .

« دير الباعقي » كان قبلي بصرى من ارض حوران وهو دير بحيرا الراهب كما زعموا ولا يعرف الآن .

« دير باعنتل » من جوسية على اقل من ميل وجوسية من اعمال حمص على مرحلة منها من طريق دمشق وهو على يسار القاصد الى دمشق — قال هذا ياقوت وذكر ما كان فيه من العجائب والبدائع مما نقلناه في فصل المصانع والقصور ولا يعرف اليوم هذا الدير .

« دير البتراء » كان في وادي موسى دير للراهبات وذكر البولونديون ديراً للرهبان في البتراء كان يرأسه القديس موسى اسقف البدو الرحالة يقال ان بانيه اثينوجينوس اوائل القرن السابع للميلاد . وذكر الرحالة تيتمار انه طاف تلك الفيافي سنة ١٢١٧ وعثر بين اخربة البتراء على كنيسة ودير لم يزل يسكنه بعض الرهبان . وهناك الكنيسة الكاتدرائية المثلثة السواعد وقد كانت اماً لسائر الكنائس الملكية الكاثوليكية في هذه البلاد الشرقية (عن مجلة المسرة) .

« دير البخت » كان على فرسخين من دمشق ويسمى دير ميخائيل وكان عبد الملك ابن مروان قد ارتبط عنده بختاً وهي جمال الترك فغلب عليها وكان لعلي بن عبد الله ابن العباس قربه جنينة يتنزه فيها · وقرية دير البخت معروفة الى اليوم في الجيدور · ووجه التسمية في هذا الدير بعيد لانه عرف بهذا الاسم قبل الاسلام على ما ظهر من رواية ابن عساكر في بعض وقائع عمر بن الخطاب في الجاهلية ومروره بدير البخت واجتماعه براهب اكرمه وتفرس فيه الخير فيما قال ·

« دير بصرى » قيل هو الذي كان فيه بحيرا الراهب في حوران · وقضية بحيرا ومسألة هذا الدير مجهولتان ·

« دير بلاض » من اعمال حلب مشرف على العمق فيه رهبان لهم مزارع وهو دير قديم مشهور لم يبلغنا انه موجود ·

« دير البلمند » من اديار الروم الارثوذكس المشهورة على نشزعال قرب مدينة طرابلس في اقصى حدود جبل لبنان يقال انه من اديار الصليبيين وان اسمه جاء من تركيب بل مونت اي الجبل الجميل وهو اليوم عامر ·

« دير بلودان » مر به ابن فضل الله العمري فقال فيه ان بناءه قديم بديع الحسن وافر الغلة كثير الكروم والفواكه والماء الجاري ، بقربه قرية بلودان وهي محاذية لكفر عامر تطل من مشترفها على جبة الزبداني ببلاد دمشق وبه رهبان نظاف مر عليه ونزل اليه ونظم فيه ابياتاً ومنها :

حبذا الدير من بلودان دارا اي دير به واي نصارى
فيهم كل احور الطرف احوى فائق الحسن في حسان العذارى

وفي رواية ان بلودان بالذال المعجمة قال محاسن الشوا الحلبي :

حيبا ساكني بلوذان عني ورجالاً بدير قانون زهرا

ولا يعرف متى زال هذا الدير ·

« دير بولس » كان بنواحي الرملة نزله الفضل بن اسماعيل بن صالح بن علي بن عبد الله بن علي بن العباس وقال فيه شعراً لم يسمه في اوله :

عليك سلام الله يا دير من فتى بمهجته شوق اليك طويل

ولازال من جو السما كين وابل   عليك لكي تروى ثراك هطول

روى البكري قال : ودير بولس آخر و « دير بطرس » (او نطرس) وهما معروفان بظهر دمشق في نواحي بني حنيفة في ناحية الغوطة واياهما عنى جرير بقوله :

لما تذكرت بالديرين ارقني   صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

فقلت للركب اذ جدّ الرحيل بنا   يابعد يبرين من باب الفراديس

ولا نعرف شيئاً عن هذا الدير ·

« دير البنات » وهو دير ابيض البناء مشرف على ارض طرابلس كان للرواهب قال فيه الطيبي :

دير البنات الزهر انت المنى   وانت من دون الاماني المرام

لم أنس يوماً فيك اذهبته   تالله بلى ذهبته بالمدام

ونحن في غرة ايامنا   والعيش مثل الطيف حلو الْمام

والدوح ما جفت له زهرةٌ   والروض طفل ماجفاه الغمام

وبيننا خُود كشمس الضحى   واغيد قد فاق بدر التمام

لولا بنات الشعر في خده   لم تدراي الأغيدين الغلام

ولا نعرف اليوم اي اديار البنات هذا ·

« دير يَوَنّا » اي يوحنا وروي بالباء بدل الياء كان بجانب الغوطة بدمشق ليس بكبير ولا رهبانه بكثير ولكنه في رياض مشرقة وانهار متدفقة و يقال بانه من اقدم دِيَرة النصارى · اجتاز به الوليد بن يزيد فأقام فيه اياماً وقال فيه :

حبذا يومنا بدير يَوَنّا   حيث نسقى براحه ونُغَنّى

واستهنا بالناس فيما يقولو   ن اذا خُبروا بما قد فعلنا

قال ابن فضل الله وهذا الدير اليوم لا وجود له ·

« دير حمطورا » هو في شرقي طرابلس في جانب الوادي الذي اسفل من طرز به والحدث · وهو بناء في سفح الجبل من ذلك الجانب قبالة الطريق السالك الى طرابلس وهو حصين جداً لا يسلك اليه الا من طريق واحد وظهر الجبل الذي له ممتنع — قاله ابن فضل الله العمري ·

« دير الحنابلة » في تاريخ الصالحية صالحية دمشق لم يكن في الجبل اي قاسيون الا بناية يسيرة من الناحية الغربية دير ابي العباس الكهفي ودار بيت الضيا وغيرها من الناحية الشرقية دير يقال له دير الحنابلة وكان اولاً لناس من الرهبان فاتفق انهم احدثوا شيئاً فأُخرجوا منه ثم بنى الشيخ ابو عمر المدرسة ·

« دير حنيناء » دير بالشام وهناك مات معاوية بن هشام بن عبد الملك فقال الكميت يرثيه :

فاي فتى دنياه ودين تُلمست بدير حنيناء المنايا فدلَّت
تعطلت الدنيا به بعد موته وكانت له حيناً به قد تحلّت

وقيل ان الذي رثي بهذا الشعر البطال احدقوادالأُموية وفرسانهم مات بدير حنيناء قافلاً مع معاوية بن هشام من غزوة فأَمر معاوية الشعراءَ برثائه · والرواية في شعر ابي تمام حبيناء بالباء المعجمة ولا يعلم عنه شيءٌ في عصرنا ·

« دير الخمان » كان هذا الدير ببلاد اذرعات بني بالحجارة السود على نشز من الارض يشرف على بركة الفوار وهو من البناء الرومي القديم — مسالك الابصار · ولا يعرف اليوم عنه شيءٌ ·

« دير خالد » وهو دير صليبا بدمشق كان مقابل باب الفراديس نسب الى خالد ابن الوليد لنزوله فيه عند حصاره دمشق قال ابن الكلبي وهو على ميل من الباب الشرقي ولا يعرف عنه شيءٌ آخر وفي هذا الدير يقول ابوالفتح محمد بن علي المعروف بابي البقاء :

جنة لقبت بدير صليبا مبدعاً حسنه كمالاً وطيبا
جئته للمقام يوماً فظلنا فيه شهراً وكان امراً عجيبا
شجر محدق به ومياه جاريات والروض يبدو ضروبا
من بديع الالوان يضحي به الثا كلُ مما يرى لديه طروبا
كم رأينا بدراً به فوق غصن مائس قد علا بشكل كثيبا
وشربنا به الحياة مداماً تطلع الشمس في الكؤوس غروبا
فكأَن الظلام فيها نهار لسناها تسرُّ منا القلوبا

لست انسى ما مر فيه ولا اجـ ـعل مدحي الا لدير صليبا

« دير خُناصرة » ورد ذكره في شعر بني مازن في قول حاجب بن ذبيان المازني مازن بني تميم من عمرو بن تميم لعبد الملك بن مروان في جدب اصاب العرب قال :

وما انا يوم دير خُناصرات بمرتد الهموم ولا ُمليم
ولكني ألمت بحالـ قومي كما أَلم الجريح من الكلوم

وخناصرة بلد في قبلي حلب وليس للدير ذكر الآن ·

« دير الدواكيس » شرقي القدس حسن البناء له سمعة وذكر وكان له وقف يعود منه على الرهبان السكان جليل فائدة ونفع ولابن فضل الله فيه وقد مر به غير مرة ابيات منها :

ديرالدواكيس ام ريش الطواويس ام الشموس سنَا تلك الشماميسِ
مأوى المياسير لكن بعد اوبتهم منه يُعدّون في حزب المفاليس
فانزل به وأَقم فيما تريد وقل إملا كؤوسي وفرّغ عندها كيسي
واقدح زناد سرور من مدامته فهذه النار من تلك المقابيس

« دير رُمانين » جمع رمان بلفظ جمع السلامة يعرف ايضاً بدير السابان وهو بين حلب وانطاكية مطل على بقعة تعرف بسَرْمن وهو دير حسن كبير خرب قبل القرن السابع وآثاره باقية كما قال ياقوت وفيه يقول الشاعر :

أَلف المقام بدير رُمانينا للروض الفا والمدام خدينا
والكاس والابريق يعمل دهره وتراه يجني الآس والنّسرينا

قال ياقوت ودير السابان وهو دير رُمّانين وتفسيره بالسريانية دير الشيخ ·

« دير سابر » كان من نواحي دمشق وهو من اقليم خولان سكنه عمر بن محمد ابن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان الاموي · وخولان كانت بقرب دمشق خربت بها قبر ابي مسلم الخولاني وبها آثار باقية — ياقوت · وبيت سابر اليوم قرية في سفح جبل الشيخ من عمل وادي العجم ·

« دير سعد » كان من ديرة الشام نزله عقيل بن علقمة المري وكان يصهر اليه خلفاء بني امية وهذا كل ماعرف عنه قديمًا ·

« دير سليمان » دير بجسر منبج وهو في جبل عال من جبال دلوك مطل على مرج العين وهو غاية في النزاهة قال ابو الفرج اخبرني جعفر بن قدامة قال ولي ابراهيم ابن المدبر عقيب نكبته وزوالها عنه الثغور الجزرية وكان اكثر مقامه بمنبج فخرج في بعض ولايته الى نواحي دلوك برعبان وخلف بمنبج جارية كان يتحظاها يقال لها غادر فنزل بدلوك على جبل من جبالها بدير يعرف بدير سليمان من احسن بلاد الله وانزهها ودعا بطعام خفيف فأكل وشرب ثم دعا بدواة وقرطاس فكتب :

ايا ساقيينا وسط دير سليمان ادير الكؤوس فانهلاني وعلاني
وخصا بصافيها ابا جعفر اخي فذا ثقتي دون الانام وخلصاني
وميلا بها نحو ابن سلاّم الذي أود ، وعودا بعد ذاك لنعمان
وعُمّا بها النعمان والصحب انني تنكر عيشي بعد صحبي واخواني
ولا تتركا نفسي تمت بسقامها لذكرى حبيب قد سقاني وغناني
ترحلت عنه عن صدود وهجرة فأقبل نحوي وهو باك فابكاني
وفارقته والله يجمع شملنا بلوعة محزون وغلة حرّان
وليلة عين المرج زار خياله فهيج لي شوقاً وجدد احزاني
فأشرفت اعلى الدير انظر طامحاً بألمح آماق وانظر انسان
لعلي اري ابيات منبج رؤية تُسكن من وجدي وتكشف اشجاني
فقصّر طرفي واستهل بعبرة وفَدّيت من لو كان يدري لفدّاني
ومثله شوقي اليه مقابلي وناجاه عني بالضمير وناجاني

« دير سمعان » بنواحي انطاكية على البحر قال ابن بطلان وبظاهر انطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون وله من الارتفاع كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة وقيل ان دخله في السنة اربعمائة الف دينار ومنه يصعد الى جبل اللكام — قال هذا في القرن الخامس للهجرة . وفي رواية ان دير سمعان بنواحي حلب بين جبل بني عُليم والجبل الاعلى . ودير سمعان ايضاً في قرية تعرف بالبقرة من قبلي معرة النعمان و به قبر عمر بن عبد العزيز مشهور لا ينكر ذكره السيد الرضي في رثائه بقوله :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ ن فتى من امية لبكيتكْ
انت نزهتنا عن السب والشتـ م فلو يمكن الجزا لجزيتكْ
قبر سمعان لا عدتك العوادي خير ميت من آل مروان ميتكْ

وقال ابو فراس بن ابي الفرج البزاعي وقد مر به فرآه خراباً فغمه :

يا دير سمعان قل لي اين سمعان واين بانوك خبرني متى بانوا
واين سكانك اليوم الأُلى سلفوا قد اصبحوا وهم في الترب سكان
اصبحت قفراً خراباً مثل ما خربوا بالموت ثم انقضى عمر وعمران
وقفتُ اسأله جهلاً ليخبرني هيهات من صامت بالنطق تبيان
اجابني بلسان الحال انهم كانوا ويكفيك قولي انهم بانوا

« دير السيق » كان معروفاً قديماً ويقع قبلي البيت المقدس على نشز عظيم عال مشرف على الغور غور اريحا يطل على تلك البسائط الخضر ومجرى الشريعة وبه رهبان ظراف اكياس لا يأتيهم الا قاصد لهم او مارّ في مزارع الغور · تحتهم وفوقهم الطريق الآخذة الى الكثيب الاحمر · وقبر موسى عليه السلام في القبة التي بناها عليه الملك الظاهر بيبرس وفي هذا الدير ومشترفه واطلال قلاليه وغرفه قال ابن فضل الله العمري :

ارى حسن دير السيق يزداد كلما نظرت اليه والفضاء به نضرُ
بنوه على نجد من الغور مشرف كتخت مليك تحته بُسُط خضرُ
واشرق في سود الغمام كأنما تشقق ليلاً عن جلابيبه الفجرُ
وقاء على طود عليّ كأنما مصابيحه تحت الدجى الانجمُ الزهرُ
وزفت اليه الشمس من جنب خدرها وناغاه جنح الليل في افقه البدرُ
والقت اليه الريح فضل عنانها واحنى عليها لا تُبلّ له عذرُ
ولو كان كالنَّسرَين هان ارتقاؤه ولكنه قد حط من دونه النسر
علا نهر ريحا والمجرّةُ فوقه فمن فوقه نهر ومن تحته نهر

« دير شق معلولا » وهو بباطن جبة عسال وهو بناء رومي بالحجر الابيض مُعَلَّق بسقيف وبها صدع فيها ماء ينقط نحو الذي بصيدنايا ، ويأخذه النصارى للتبرك

معتقدين فيه نحو اعتقادهم في الآخر وانما الاسم للذي بصيدنايا — قاله في مسالك الابصار والغالب انه دير الروم الارثوذكس الباقي الى اليوم ٠

« ديرصليبا » و يعرف بدير السائمة (السائحة؟) وهو بدمشق مطل على الغوطة و يليه من ابوابها باب الفراديس نزل دونه خالد بن الوليد ايام محاصرة دمشق وهو في موضع نزه كثير البساتين وبناؤه حسن عجيب والى جانبه دير للنساء فيه رهبان ورواهب واياه اراد جرير بقوله :

اذا تذكرت بالديرين ارقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس
فقلت للركب اذ جد النجاء بهم يابعد يبرين من باب الفراديس

وقد مر بنا هذان البيتان في دير بولس برواية اخرى ٠ وقال الآخر :

يادير باب الفراديس المهيج لي بلابلاً بقلاليه واشجاره
لو عشت تسعين عاماً فيك مصطبحاً لما قضى منك قلبي بعض اوطاره

قال ابن فضل الله وهذا اليوم اي في الثامن لاعين له ولا اثر وانما صار دوراً وابنية ومساجد ومدافن وهي بناحية محلة حمام النحاس اه ٠ والدير اثر بعد عين ٠

« دير صيدنايا » يؤخذ مما قاله صاحب مسالك الابصار انهما اثنان احدهما يقصده النصارى بالزيارة وهو في دمنة القرية والآخر على بعد منها مشرف على الجبل شماليها بشرق وهو دير مار شربين ويقصد للتنزه من بناء الروم بالحجر الجليل الابيض وهو دير كبير وفي ظاهره عين ماء سارحة وفيها ما يطل على بواطن ما وراء ثنية العقاب ويمتد النظر من طاقاته الشمالية الى ما اخذ شمالاً عن بعلبك ٠ واما الذي في القرية فمن بناء الروم بالحجر الابيض ايضاً ويعرف بدير السيدة وله بستان و به ماء جارٍ في بركة عملت به وعليه اوقاف كثيرة وله مغلات واسعة وتأتيه نذور وافرة وطوائف النصارى من الفرنج تقصد هذا الدير وتأتيه للزيارة ٠ وكنت اراهم يسألون السلطان في ان يمكنهم من زيارته واذا كتب لهم زيارة قمامة ولم يكتب معها صيدنايا يعاودون السؤال في كتابتها لهم ولهم فيها معتقد ٠ قال وجاءت مرة كتب ريدفرنس (ملك فرنسا) وكتب الاذفونش (ملك اسبانيا) على ايدي رسلهم ومما

سألو فيها تمكين رسلهم من التوجه الى صيدنايا للتبرك بها فاجاب السلطان سؤالهم وحمل الرسل على خيل البريد اليها · وهذا الدير لم يزل عامراً الى اليوم يزوره الناس وفيه راهبات ارثوذكسيات وفي عيد الصليب من كل سنة تجري في قربه اجتماعات وافراح و يأتيه الناس من البلاد المجاورة وغيرها ·

« دير الطور » الطور في الاصل الجبل المشرف ، والطور ها هنا جبل مستدير واسع الاسفل مستدير الرأس لا يتعلق به شيء من الجبال وليس له الا طريق واحد وهو مابين طبرية واللَّجون مشرف على الغور ومرج اللَّجون وفيه عين تنبع بماء غزير كثير والدير في نفس القلة مبني بالحجر وحوله كروم يعتصرونها ويعرف عندهم بدير التجلي والناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به و يشربون فيه وموضعه حسن يشرف على طبرية والبحيرة وما والاها وعلى اللجون · ومازال هذا الدير عامراً وقد جدد في ادوار مختلفة وفيه يقول مهلهل بن يوسف المُزَرَّع :

نهضت الى الطور في فتية سراع النهوض الى ما احب
كرام الجدود حسان الوجوه كهول العقول شباب اللعب
فاي زمان بهم لم يُسَرّ واي مكان بهم لم يطب
انخت الركاب على ديره وقضيت من حقه ما يجب
وانزلتهم وسط اعتابه واسقيتهم من عصير العنب
واحضرتهم قمراً مشرقاً تميل الغصون به في الكُثُب
نحث الكؤوس باهزاجه ومرسوم ارماله بالعجب
وما بين ذاك حديث يروق وخوض لهم في فنون الادب
فياطيب ذا العيش لولم يزُل و ياحسن ذا السعد لولم يَغِب

« دير عَمان » قال ياقوت : بنواحي حلب وتفسيره بالسريانية دير الجماعة قال فيه حمدان بن عبد الرحيم الحلبي :

دير عمان ودير سابان هجن غرامي وزدن اشجاني
اذا تذكرت منهما زمناً قضيته في عُرام ريعاني

ومرَّ به ابو فراس بن ابي الفرج البُزاعي فقال ارتجالا :

قد مررنا بالدير دير عمانا ووجدناه داثراً فشجانا
ورأينا منازلاً وطلولا دارسات ولم نرَ السكانا
وارتنا الآثار من كان فيها قبل تفنيهم الخطوب عيانا
فبكينا فيه وكان علينا لا عليه لما بكينا بكانا
لست انسى يا دير وقفتنا فيـ ـك وان اورثتني النسيانا
من اناس حلوك دهراً فخلو ك وامسوا اقد عطلوك الآنا
فرّقتهم يد الخطوب فاصبحـ ـت خراباً من بعدهم اسيانا
وكذا شيمة الليالي تميت الـ ـحيّ منا وتهدم البنيانا
حرباً ما الذي لقينا من الدهـ ـر وماذا من خطبه قد دهانا
نحن في غفلة بها وغرور وورانا من الردى ما ورانا

ولا نعرف عنه شيئاً الآن .

« دير فاخور » وهو الموضع الذي تعمد فيه المسيح من يوحنا المعمداني كما في كتب الجغرافية .

« دير فيق » هو في ظهر عقبة فيق — عقبة تنحدر الى الغور من ارض الأردن ومن اعلاها طبرية وبحيرتها — وهذا الدير فيما بين العقبة وبين البحيرة في لحف جبل يتصل بالعقبة منقور في الحجر وكان عامراً بمن فيه من الرهبان ومن يطرقه من السيّار والنصارى يعظمونه . واجتاز به ابونواس فقال غلام نصراني فيه قصيدة منها :

بحجك قاصداً ماسرجسان فدير النوبهان فدير فيق
وبالمطران اذ تتلو زبوراً يعظمه ويبكي بالشهيق

وهذا الدير غير عامر الآن .

« دير القاروس » قال ابن فضل الله انه على جانب اللاذقية من شمالها وهو في ارض مستوية وبناؤه مربع وهو حسن البقعة . وفيه يقول ابو علي حسن بن علي الغزي :

لم أنس في القاروس يوماً ابيضاً مثل الجبين يزينه فرع الدجى
في ظل هيكله المشيد وقد بدا للعين معقود السكينة أبلجا
واللاذقية دونه في شاطئ بلوره قد زيّن الفيروزجا

ولديَّ من رهبانه متنمس — اضحى لفرط جماله متبرجا
احوى اغنُّ اذا تردد صوته — في مَسمع ردا احتجاج ذوي الحجى
لا شيءَ الطف من شمائله اذا — حث الشَّمول ولفظه قد لجلجا
فله ولليوم الذي قضيته — معه بكائي لا لربع قد شجا

« دير القديس سابا » الى الجنوب الشرقي من اورشليم على بعد ثلاث ساعات ونصف عنها على الراجل وعلى انخفاض ٥٦٠ متراً عنها عند الطريق المؤدي منها الى بحر الميت على مقربة من وادي الراهب (النار) وعلى عدوة وادي قدرون الى شمال بيت ساحور الشرقي · وهو اشبه بقلعة منيعة غريبة الابنية ومن الدير الى هضم الوادي ٢٧٥ ذراعاً فيصعد من الوادي الى الدير بسلالم بعضها منقور بالصخر والآخر مبني على شكل أدراج ولا يدخل اليه الا باذن البطريرك الاورشليمي · ورهبانه ستون راهباً يعيشون عيشة تقشف منقطعين الى الصلاة والصوم والعبادة وفي كل جمعة يبعث لهم دير القبر المقدس في اورشليم طعامهم مرة واحدة ولا يسمح للنساء ان يدخلنه وتلك عادة منذ تشييده الى اليوم لم تدخله امرأة ، وقربه برج مار سمعان وهو دير خرب فيه بيت كبير يشرف على دير القديس سابا على بعد خمس دقائق فيسمح للنساء ان ينظرن الدير الكبير من بيت هذا البرج وقربه دير على قمة جبل تاودوسيوس وهو عامر الآن وفيه رهبان ويسميه العرب دير عبيد (من مجلة النعمة) ·

« دير قِنَّسْري » على شاطيء الفرات من الجانب الشرقي من نواحي الجزيرة وديار مضر مقابل جرابلس (في الاصل جرباس) وجرابلس شامية وبين هذا الدير ومنبج اربعة فراسخ وبينه وبين سروج سبعة فراسخ فهو دير كبير كان فيه ايام عمارته ثلاثمائة وسبعون راهباً ووجد في هيكله مكتوباً :

ايا دير قنّسري كفى بك نزهةً — لمن كان بالدنيا يَلَذُّ ويَطْرَبُ
فلا زلتَ معموراً ولازلتَ آهلا — ولا زلت مخضراً تُزار وتَعجِب

« دير كعب » كان من اديار الشام وهو الذي جاء فيه المثل اطول من فراسخ دير كعب قال الشاعر :

ذهبت تمادياً وذهبت عرضاً — كأنك من فراسخ دير كعب

« دير كفتون » ولعله المعروف اليوم بدير كفتين قال فيه ابن فضل الله انه ببلاد طرابلس مبني على جبل وهو دير كبير وبناؤه بالحجر والكلس في نهاية الجودة وبه ماء جارٍ وله حوض كبير مملوء من شجر النارنج يحمل نارنجه الى طرابلس يباع فيها و يرتفق بثمنه الرهبان وله مستشرف مطل على البلاد والمزارع ومنه مكان يشرف عن بعد على البحر، ولهذا الدير صيت جائل وسمعة مذكورة و به رهبان كثيرو العدد والنصارى تقصده وتحمل اليه النذورة ويقصده كثير من اهل البطالة واللهو للتفرج به والتنزه فيه وفيه يقول الطيبي :

أدير كفتون تُكفى كل نائبةٍ   من الهموم وتلقى كل سراء
من كل خضراء في الاشجار مائسةٍ   وكل صهباء في الكاسات حمراء
حللت في دير كفتونٍ فلا عجب   اذ متُّ سكراً بحمراءٍ وخضراء

« دير مارون » قال المسعودي في التنبيه و لاشراف وفي ايام موريق من ملوك الروم ظهر رجل من اهل حماة من اعمال حمص يعرف بمارون اليه تنسب المارونية من النصارى . وامرهم مشهور بالشام وغيرها اكثرهم بجبل لبنان وسنير وحمص واعمالها لحماة وشيزر ومعرة النعمان وكان له دير عظيم يعرف به شرقي حماة وشيزر ذو بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها الرهبان وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيءٌ عظيم فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الاعراب وحيف السلطان وهو بقرب نهر الأُرنط (العاصي) نهر حمص وأنطاكية . وقال ابن بطريق وكان في عصر موريق ملك الروم راهب يقال له مارون وكان يقول ان سيدنا المسيح طبيعتان ومشيئة واحدة وفعل واحد واقنوم واحد واكثر من تبعه على مقالته تلاميذه القائلون به اهل مدينة حماة وقنسرين والعواصم وجماعة من ارض الروم فسموا الموارنة ولما مات مارون بنى اهل حماة ديراً بحماة وسموه دير مارون . قلنا ولعله دير آخر غير الدير الذي نشأ فيه مارون شرقي حماة وشيزر . وقد خرب دير مار مارون سنة ٧٥ للهجرة لما غزا موريق وموريقان بلاد الشام وحملا على هذا الدير وقتلا منه خمسمائة راهب وهدما بنيانه ثم تحولا من هناك الى قنسرين والعواصم فقتلا الاهلين ونهبا وخربا المساكن ولم يعفيا عن احد من اتباع مار مارون .

قال الدويهي كان قرب دمشق فوق نهر يزيد دير على اسم القديس مارون . قال ولقد استدللنا برسومه واطلالة الماثلة الى اليوم على عظمه وشرفه ذكره ابن الحريري المؤرخ فيما كتبه عن الحاكم بامر الله سنة ٣٨٦ . ولا اثر اليوم لدير حماة ولا لدير دمشق .

« دير مار مروثا » وهو دير صغير بظاهر حلب في سفح جبل جَوْشن على نهر العُرجان (العوجان ?) . وكان سيف الدولة محسناً الى اهله وقلما مرَّ به الا نزله ووهب لاهله هبة كبيرة وكان يقول رأيت ابي في النوم يوصيني به — وفي رواية والدته — . وله بساتين قليلة ومباقل وفيه نرجس وبنفسج وزعفران و يعرف بالبيعتين لان فيه مسكنين للرجال والنساء . قال الخالدي واياه عني الصنوبري بقوله :

ما بال اعلى قُوَيْقَ ينشر من | وشي الربيع الجديد ما أدرج
كأنما اختيرت الفصوص له | بين عقيق وبين فيروزَج
اما ترى البيعتين أُفردتا | بفرد الأقحوان والمُزْوَج
اثوابه المزن كيف ما اتصلت | وناره البرق كيف ما أجَّج

هذا ما رواه ابن فضل الله في هذا الدير وفي رواية ياقوت ان هذا الدير ذهب ولا اثر له الآن وقد استجد في موضعه الآن مشهد زعم الحلبيون انهم رأوا الحسين بن علي رضي الله عنه يصلي فيه فجمع له المتشيعون بينهم مالاً وعمروه احسن عمارة واحكمها وفيه ايضاً يقول بعض الشاميين :

بدير مارت مروثا | الشريف ذي البيعتين
والراهب المتحلي | والقس ذي الطمرين
الا رثيتَ لصبٍّ | مشارف للحين
قد شفه منك هجر | من بعد لوعة بين

قال وفيه يقول الحسين بن علي التميمي :

يادير مارت مروثا | سقيت غيثاً مغيثا
فانت جنة حسن | قدحزت روضاً اثيثا

« دير مارت مريم » قال الخالدي و بالشام دير يقال له مارت مريم وهو من قديم الديرة ونزله الرشيد وفيه يقول بعض شعراء الشام :

بدير مارت مريم ظبي مليح المبسم

وفيه يقول الشاعر ايضاً :

نعم المحل لمن يسعى للذته دير لمريم فوق الظهر معمور
ظل ظليل وماء غير ذي أسن وقاصرات كامثال المها حُور

« دير الماطرون » يروى ليزيد بن معاوية فيه :

ولها بالماطرون اذا اكل النمل الذي جمعا
حرقة حتى اذا ربعت ذكرت من جلق بيعا
في قباب حول دسكرة بينها الزيتون قد ينعا

قال ابو محمد حمزة بن القاسم قرأت على حائط من بستان الماطرون هذه الابيات :

أرقت بدير الماطرون كأنني لساري النجوم آخر الليل حارسُ
وأعرضت الشعرى العبور كأنها معلق قنديل عليها الكنائس
ولاح سهيل عن يميني كأنه شهاب نجاة وجهه الريح قابس

ولم يبق في الوجود من هذا الدير غير اسمه ·

« دير المصلَّبة » وهو بظاهر مدينة القدس الشريف في شامها بغرب وهو دير رومي قديم البناء بالحجر والكلس محكم الصنعة مونق البقعة في بحيرة من اشجار الزيتون والكروم وشجر التين بازاء قرية تجري على الدير برسوم السلطان · قال في مسالك الابصار بعدما تقدم : وهذا الدير دخلت اليه ورأيته وفيه صور يونانية في غاية من محاسن التصوير وتناسب المقادير وصعدت الى سطحه فرأيت له حسن مُشْتَرَف وسعة فضاء ورهبانه من الكرج · قال وكان أُخذ وجعل مسجداً للمسلمين ثم أُعيد ديراً للنصارى وتُوُصل الى هذا بكتاب أُحضر من ملك الكرج وأُعان عليه قوم آخرون · قال وحدثه رهبانه بان على ديرهم وقوفاً في بلادهم منها خيول سائمة تُحمل اثمان نتاجها اليهم وانه يجيء منها في كل سنة قدر جليل وانها تنفق في مصالح الدير وابن السبيل · وفيه يقول ابو علي حسن الغزي :

يا حسن ايام قطعت هنيئةً ... بالدير حيث التين والزيتونُ
دير المصلبة الرفيع بناؤه ... نفديه عبير ترابه دارينُ
في ظل هيكله واسراب الدمى ... مجلوّة والمرمرُ المسنونُ
ومزنرين اذا تلوا انجيلهم ... وتعطفوا فحمائم وغصونُ
غزلانُ وجرةَ هم وبين جفونهم ... لاسود بيشة ان عرضْن عرين
نزعوا القلانس والمسوح فزحزحت ... منهن عن غرر الشموس دجون
وسعوا بكاسات المدام وما دروا ... ان للكؤوس الدائرات جنونُ
فقضيت بينهم زماناً لم يزل ... عندي اليه تشوق وحنينُ
تلك المنازل قد سفحن مدامعي ... لا مصرُ قاطبةً ولا جيرُونُ

ولا يزال هذا الدير عامراً وهو للروم الارثوذكس ·

« دير مرقس » الغالب انه كان من نواحي حلب ورد في شعر حمدان بن عبد الرحيم في قوله :

أسكان عرشين القصور عليكم ... سلامي ما هبت صبا وقبول
الا هل الى حث المطيّ اليكم ... وشم خزامى حر بنوش سبيل
وهل غفلات العيش في دير مرقس ... تعود وظل اللهو فيه ظليل
اذا ذكرت لذاتها النفس عندكم ... تلاقى عليها زفرة وعويل
بلاد بها امسى الهوى غير انني ... اميل مع الاقدار حيث تميل

« دير مُرّان » هذا اسم لديرين في الشام كان احدهما على الجبل المشرف على كفرْ طاب قرب المعرة يزعمون ان فيه قبر عمر بن عبد العزيز (رض) وهو مشهور بذلك كان يزار في عصر ياقوت · والثاني بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة وبناؤه بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملون وهو دير كبير وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله سورة عجيبة دقيقة المعاني والاشجار محيطة به · روى ذلك الخالدي اما محل الدير فمحل خلاف منذ القديم قال ابن فضل الله : والناس في اختلاف اين كان دير مران فمن قائل انه كان بمشارق السفح نواحي برزة والاكثر على انه كان بمغار به وان مكانه الآن (القرن الثامن) المدرسة المعظمية واما الذي

كان بمشارق السفح فهو دير السائمة المسمى دير صليبا . وروى صاحب قضاة دمشق قال لما وافى المأمون دمشق سنة خمس عشرة ومائتين نزل بدير مران ومكانه المعروف بالسهم الى قرب النيرب خارج دمشق في سفح قاسيون فعمر المأمون هذا الدير وبنى القبة التي فوق الجبل وهي المعروفة الآن بقبة النصر ولم يعثر على اثر لهذا الدير العظيم . وكان هذا الدير لقربه من دمشق ولجمال موقعه مقصد الملوك والراغبين في النزهة والشراب . قال ابن بطريق : ان كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلونها و يسكنون فيها . وقد نزل يزيد بن معاوية دير مران ومات فيه الوليد واجتاز به الرشيد والمأمون وقد اكثر الشعراء من ذكره حتى نسب ليزيد قوله وقد اصاب المسلمين سباء بأرض الروم :

وما أُبالي بما لاقت جموعهم بالغذقدونة من حمى ومن مُوم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقاً بدير مران عندي أُم كلثوم[1]

ومن جملة ما قيل في هذا الدير قول ابي بكر الصنوبري وهو :

امرُّ بدير مران فأَحيا واجعل بيت لهوي بيت لِهيا
و يبرد غلتي بردى فسقيا لايام على بردى ورعيا

(١) الموم البرسام وام كلثوم هي زوجة يزيد بنت عبد الله بن كريز والغذقدونة و يروى الخذقدونة وهو الثغر الذي فيه المصيصة وطرسوس واذنة وعين زربة .

وروى البكري هذه الابيات في دير سمعان باختلاف قليل قائلاً ان معاوية كان وجه ابنه يزيد لغزو الروم فأقام يزيد بدير سمعان ووجه الجيوش وتلك غزوة الطوانة فأصابهم الوباء فقال يزيد بن معاوية :

اهون عليَّ بما لاقت جموعهم يوم الطوانة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الانماط مرتفقاً بدير سمعان عندي ام كلثوم

فبلغ شعره معاوية فكتب اليه : اقسم بالله لتلحقنَّ بهم حتى يصيبك ما اصابهم فألحقه بهم . والاختلاف في رواية هذين البيتين وانشادهما مع تبدل يسير تارةً في دير سمعان واخرى في دير مران يوقع الشك في نسبتهما ليزيد وحامل على ان القصة مفتعلة .

ولي في باب جيرون ظباءٌ أُعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
ونعم الدار داريا ففيها حلا لي العيش حتى صار أُريا
سقت دنيا دمشق ليصطفيها وليس يريد غير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها خلال حدائق يُنبتن وشيا
مظللة فواكهها بابهى المناظر في نواظرها وأهيا
فمن تفاحة لم تعدُ خداً ومن رمانة لم تُخط ثديا

وله فيه :

متى الارحل محطوطة وعير الشوق مربوطة
باعلى دير مران فداريا الى الغوطة
فشطي بردى في جنب بسط الروض مبسوطة
رباع تهبط الانهار منها خير مهبوطة
وروض احسنت تكتيبه المزن وتنقيطه

وقال فيه الحسين بن الضحاك :

يا دير مرّان لا عُرّيت من سكنٍ قد هجت لي حزَناً يا دير مرانا
حثّ المدام فان الكأس مترعة مما يهيج دواعي الشوق أحيانا

وقال الببغا ابو الفرج عبد الواحد :

ويوم كأنّ الدهر سامحني به فصار اسمه ما بيننا هبة الدهرِ
جرت فيه افراس الصبا بارتياضنا الى دير مران المعظم والعمر
بحيث هواء الغوطتين معطر النسيم بانفاس الرياحين والزهر
فمن روضة بالحسن ترفد روضة ومن نهر بالغيض يجري الى نهر
وفي الهيكل المعمور منه انتزعتها وصحبي حلالاً بعد توفية المهر
ونزهت عن غير الدنانير قدرها فما زلت منها اشرب التبر بالتبر

وقال عون الدين الحلبي الكاتب المتوفى سنة ٦٥٦ وهو مما يستأنس به من ان هذا الدير كان عامراً الى اواسط القرن السابع وفيه ذكر ديرين آخرين وهما دير متى ودير حنينا والاول ليس له ذكر في ديرة الشام بل هو من اديار الموصل ولما كانت

القصيدة في التشوف الى الشام استلزم ذلك ان يكون دير متى من جملة اديارها التي ضاع اسمها ورسمها قال :

يا سائقاً يقطع البيداء معتسفاً بضامر لم يكن في سيره واني
ان جزت بالشام شم تلك البروق ولا تعدل بلغت المنى عن دير مرّان
واقصد علالي فلاليه تلاق بها ماتشتهي النفس من حور وولدان
من كل بيضاء هيفاء القوام اذا ماست فيا خجلة المران والبان
وكل اسمر قد دان الجمال له وكمل الحسن فيه فرط احسان
ورب صدغ بدا في الخد مُرْسَله في فترة فتنت من سحر أجفان
فليت ريقته وردي ووجنته وردي ومن صدغه انسي وريحاني
وعج على دير متى ثم حيِّ به الرهبان بالطرس فالرهبان رباني
فهمت منه اشارات فهمت بها وصنت منشورها في طي كتمان
واعبر بدير حنينا وانتهز فرص اللذات ما بين قسيس ومطران
واستجل راحاتها تحيي النفوس اذا دارت براح شماميس ورهبان

« دير الرُّغان » بحمص في خربة بني السمط تحت تلهم وهو دير عظيم الشأن عندهم كبير القدر فيه رهبان كثيرة وترابه يختم عليه للعقارب ويهدى الى البلاد قاطبة ويتنافس النصارى في موضع مقبرته (ياقوت) .

« دير ميماس » نقلت من ياقوت : بين دمشق وحمص على نهر يقال له ميماس واليه نسب وهو في موضع نزه وبه شاهد على عزمهم من حواري عيسى عليه السلام زعم رهبانه انه يشفي المرضى وكان البطين الشاعر قد مرض فجاؤا به اليه يستشفي فيه فقيل ان اهله غفلوا عنه فبال قدام قبر الشاهد واتفق ان مات عقيب ذلك فشاع بين اهل حمص ان الشاهد قتله فقصدوا الدير ليهدموه وقالوا نصراني يقتل مسلماً لا نرضى او تسلموا لنا عظام الشاهد حتى نحرقها فرشا النصارى امير حمص حتى رفع عنهم العامة فقال شاعر يذكر ذلك :

يارحمتا لبُطَيْن الشعر ان لعبت به شياطينه في دير ميماس
وافاه وهو عليل يرتجي فرجا فَرَدَّه ذاك في ظلمات ارماس

وقيل شاهد هذا الدير اتلفه حقًّا مقالة وَسواس وخناس
أأعظُم باليات ذات مقدرة على مضرة ذي بطش وذي باس
لكنهم اهل حمص لا عقول لهم بهائم غير معدودين في الناس

وحكي ان ابا نوَاس لما دخل حمص ماراً بها دعاه فتىً من ادبائها الى دير ميماس ودعا معه اشجع السُلمي فجلسوا ليشربون وابو نواس ينشدهم له ولغيره فقال اشجع :

صبحت وجه الصباح بالكاس ولم تعُقني مقالة الناس
ونحن عند المدام اربعةٌ اكرمُ صحب وخير جلاس
ندير حمصيةً معتقةً على نسيم النسرين والآس
ولم يزل مطرباً ومنشدنا ابو نواس في دير ميماس

« دير نجران » بارض دمشق من نواحي حوران ببصرى واليه ورد النبي (ص) وهو دير عظيم عجيب العمارة ولهذا الدير يُنادى في البلاد من نذر نذراً لنجران المبارك والمنادي راكب فرس يطوف عامة نهاره في كل مدينة مناد وللسلطان على الدير قطيعة يأخذها من النذور التي تهدى اليه — قاله ياقوت ·

« دير النَّقيرَة » في جبل قرب المعرة وبهذا الموضع قبر الشيخ ابي زكريا يحيى المغربي وكان من الصالحين ولا نعرف عنه شيئاً ·

« دير هِزْقِل » قال الخالدي هو بالشام وذكره دعبل بن علي حين هجا ابا عباد كاتب المأمون فقال :

فكأنه من دير هِزْقِل مُفْلَتٌ حَنِق يجر سلاسل الاقياد

قال ابن فضل الله ولا ادري في قرب اي مدينة هو ·

« دير يونس » ربما كان في جهات الرملة في فلسطين وقد قيلت فيه قصائد كثيرة وما ندري ان كان اختلط بدير في جهات الموصل على جانب دجلة الشرقي وموضعه يعرف بنينوى ونينوى هي مدينة يونس ·

هذا ما امكن تلقفه عن الاديار في الاسلام وكان قبل الاسلام اديار مهمة ضاعت اخبارها ولا يستغرب ما قيل في هذه الاديار من الاشعار في سالف الاعصار · فقد كان المسلمون يختلفون الى الديرة يجعلونها محال النزهة لانها في اماكن

نزهة على الغالب تخيَّر بانوها مواقعها ، و بالنظر لتحريج الحكومات الاسلامية في الخمور واباحة شربها وبيعها لاهل الذمة كان المولعون بالشراب من اهل الشأن وخلعاء الشعراء والادباء يغشون الاديار فيجدون صدوراً رحبة فيشربون و يطربون ولذلك خصوا الشعراء تلك الاديرة باشعار لطيفة وقصائد ربما كان فيها شيء من المبالغة ومنها ما نبا عن طور الادب اليوم ولكنه كان من المألوف اذ ذاك ٠

وفي ديار الشام اليوم ولا سيما في لبنان وبعض انحاء فلسطين اديار عظيمة منها ما ورد ذكره في الجريدة التي كتبناها هنا ومنها ما هو من البناء الجديد وفيها المهم بنيانه وهندسته اشبه بقلاع منه بطرابيل وصوامع للمنقطعين للعبادة والتبتل والله اعلم ٠

المساجد والجوامع

في اول الفتح { المسجِد (بكسر الجيم) البيت الذي يسجد فيه وكل موضع يتعبد فيه فهو مسجد . ويقال مسجد الجامع والمسجد الجامع اي مسجد اليوم جامع . فالمسجد قد يكون صغير المساحة والحجم والجامع مسجد عظيم يجمع المصلين ايام الجمع والاعياد . واول المساجد التي بنيت في الشام على ما يظهر كانت في البلدان التي سبق فتحها غيرها من أمهات المدن مثل مؤتة والجرباء وأذرح وفِحل وأجنادين وبُصرى .

ولما كانت السذاجة في كل شيء قد غلبت على العرب لاول عهدهم بالاسلام كانت مصانعهم بحسب الحاجة ، واذ كان من الواجب اذا اجتمع بضعة أفراد منهم ان يقيموا الصلاة جماعة لم تلبث المساجد ان كثرت في الشام في المدن والقرى . وكان الفاتحون يصالحون اهل البلاد اما على النصف من كنائسهم او على بعضها او يكتفون بواحدة او بنصف واحدة كما اكتفوا بكنيسة مار يوحنا من اصل خمس عشرة كنيسة في دمشق وضاحيتها . واعطى ابوعبيدة اهل بعلبك واهل الرستن الامان على كنائسهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد في الرستن . وصالح الفاتح اهل حمص على ربع كنيستهم للمسجد وظلت كذلك الى القرن الرابع وبعض بيعتها المسجد الجامع وشطرها للنصارى وبيعتهم من أعظم بيع الشام .

بقيت الحال على سذاجة في المساجد او حالة ابتدائية حتى تولى معاوية امر الشام ، وكان بعيد النظر في العمران ، فسمت به همته الى ان يخرج المساجد من دور التأسيس

ويدخلها في مظهر مدني فيه الجلال والجمال · ولم يزل بعثمان حتى أذن له ان يبني المساجد ويكبر ما كان ابتني منها قبل خلافته · وهكذا بدأ التوسع في المساجد والجوامع عقيب استقرار الفتح ورسوخ أقدام بني أمية · ولقد ترك الفاتح مثلاً لاهل اللاذقية كنيستهم وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بامر عبادة ثم انه وسع بعد على ما في كتب الفتوح ·

واختط سليمان بن عبد الملك لما ولي جند فلسطين مدينة الرملة واختط للمسجد خطته وبناه فولي الخلافة قبل استتمامه ثم بنى فيه بعدُ في خلافته ثم أتمه عمر بن عبدالعزيز ونقص من الخطة وقال : اهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتصرت بهم عليه · ومعنى هذا ان جوامع القوم ومساجدهم كانت بحسب حاجة من ينزل في كل صقع من المسلمين والتوسع لم يبدُ الا مع معاوية بن ابي سفيان واخلافه ·

عرضنا في فصل المصانع لوصف المسجدين الجامعين في هذه الديار المسجد الاقصى وجامع دمشق · ونحن الآن نعرض لغيرهما من المساجد نذكر المهم منها في الحواضر على الاكثر ، ونقابل بين قديمها وحديثها ، وبديهي ان المساجد لقيت من المصائب السماوية والارضية ما لقي غيرها من المصانع والعاديات · فان الزلازل قد نسفت في الاسلام مدناً برمتها فقد تقطع الجبل الاقرع فمات اهل اللاذقية سنة ٢٤٢ ه وخربت طرابلس منه وفي هذا الزلزال خرب معظم الساحل وزلزلة سنة ٤٦٠ خربت فلسطين وزلزال سنة ٥٥٢ خربت به اللاذقية وطرابلس وانطاكية وعرقة وحصن الاكراد وأفامية والمعرة وكفرطاب وشيزر وحماة وحمص وهكذا يقال في معظم الزلازل التي وقعت بعد الى القرن الماضي ومن أهمها زلزال سنة ١١٧٣ حتى ان من المدن ما لم يبق فيه جدار قائم ولا انسان سائر · ومساجد الساحل أُصيبت في الحروب الصليبية بما نسفها او غير معالمها فأصبحت كنائس ثم لما عادت البلاد لسلطان المسلمين أُعيدت بعض البيع ايضاً مساجد ·

ومن المتعذر لضعف المادة التاريخية ان نعرف ما قام في كل عصر وكل مصر في الشام من المساجد والجوامع · ومن القرى اليوم ما كان فيه بالامس عشرة مساجد والعمران يتنقل بحسب حاجة الناس · والغالب ان العناية ببناء المسجد كان لغرض

شريف للغاية بادي بدء يراد به وجه المولى وثواب الآخرة وخدمة الاسلام والمسلمين فلما اوغل الناس في مضمار الحضارة كان من البانين من يجمعون بين الدين والدنيا اذا سمت بهم الهمم ان ينشئوا لهم جوامع يقصدون بها تخليد ذكرهم ونيل الثواب والأجر . ثم اتت قرون وبعض الناس فراراً من المصادرات ، ولا سيما الحكام الذين ما خلا كل عصر منهم من رجال يسلخون اللحم و يعرقون العظم ، يعمرون المساجد و يقفون عليها حتى يحتفظوا ببعض ثرواتهم لذراريهم ، وفي هذه العصور الاخيرة وقع التخليط وكثرت المنافسة في إقامة المساجد والجوامع ، حتى في الاماكن التي لا يحتاج فيها الناس الى مساجد كثيرة اما لكثرتها او لقلة المصلين في جوارها . واشبهت دمشق القاهرة في عهد المماليك وبعدهم فكانوا يعمرون الجامع قرب اخيه على اشبار قليلة منه . وما حدثت البانين انفسهم ان يشترك في اقامة مسجد جامع بضعة من اهل الخير او عشرات منهم لان المقصد الاول استحال في الآخر الى احراز شهرة واذا عمر انسان جامعاً بالاشتراك مع غيره يضيع اسمه ، وغايته ان يقال بنى فلان مسجداً ، وهذا مسجد فلان ، او ان ينتفع هو اواولاده بغل وقف الجامع .

وكان للملوك والامراء في كثرة المساجد وقلتها يد طولى ومنها ان الملك او الامير او غيره من طبقات الحكام والولاة اذا آنس منه قومه رغبة في الاستكثار من المساجد والقربات جاروه على افكاره وتقربوا اليه بمثل هذه الاعمال الصالحة وربما تقاضاهم هو ذلك سراً حتى يستخرج بذلك اموالهم وتوزع في الرعية فلا تجمد الثروة في يد واحدة . قال ابن تغري بردي في حوادث سنة ٨٤٤ وقد جددت في القاهرة وظواهرها عدة جوامع : الناس على دين ملوكهم وهو انه لما كانت الملوك السالفة تهوى النزه والطرب عمرت في ايامهم بولاق و بركة الرطلي وغيرها من الاماكن وقدم الي القاهرة كل استاذ صاحب آلة من المطربين وامثالهم من المغاني والملاهي الى ان تسلطن الملك الظاهر جقمق ، وسار في سلطنته على قدم هائل من العبادة ، والعفة عن المنكرات والفروج ، واخذ في مقت من يتعاطى مسكرات من امرائه وارباب دولته ، فعند ذلك تاب اكثرهم وتصولح وتزهد ، وصار كل واحد يتقرب الى خاطره بنوع من انواع المعروف ، فمنهم من صار يكثر من الحج ، ومنهم من تاب واقلع

عما كان فيه ، ومنهم من بنى المساجد ، ولم يبق في دولته ممن استمر على ما كان عليه الا جماعة يسيرة ·

* * *

مساجد حلب } في حلب اليوم ١٦٩ جامعاً و ١٨٢ مسجداً ومنها الجيد بنيانه واعظمها المسجد الجامع مسجد زكريا في غربي القلعة · صالح المسلمون اهل حلب على موضع المسجد الجامع يوم الفتح ، وكان محله حديقة كنيسة الروم القديمة التي بنتها هيلانة ام قسطنطين · قالوا انه كان يضاهي جامع دمشق بالزخرفة والرخام والفسيفساء ، وان سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله اخوه الوليد في جامع دمشق · وقيل ان بانيه الوليد نفسه ، وان بني العباس نقضوا ما كان فيه من الرخام والآلات ونقلوه الى جامع الانبار في جملة ما نقضوا من آثار بني امية بالشام · ولما جاء الروم حلب سنة ٣٥١ احرقوا الجامع والبلد فرمّ بعضه سيف الدولة ثم ابنه سعد الدولة ، واحرقته الاسماعيلية سنة ٥٦٤ مع الاسواق التي حوله فعمره نور الدين زنكي وقطع الاعمدة الصفر من بُعادين ونقل اليه عمد مسجد قنسرين واحرقه الارمن سنة ٦٧٩ ايام كانوا محالفين للتتر · وعمره قراسنقر سنة ٦٨٤ وبنى فيه غيره بعض جهات منه مثل الامير الطون بغا الصالحي نائب حلب والامير يشبك اليوسفي ·

ويقول العارفون بالآثار ان بناء الجامع الحالي قد قام على الصورة التي عملت عليه زمن سابق بن محمود من بني مرداس (٤٦٨ — ٤٧٢) على يد القاضي ابن الخشاب وان في اسفل المنارة كتابة تاريخها سنة ٤٨٣ ذكر فيها اسم ملكشاه وابن الخشاب وفي جهة أُخرى ذكر اسم تتش اخو ملك شاه ويستدل من مجموع البناء ، وليس في جدرانه من كتابة مزبورة ، ان هذا الطراز قديم صبر على الدهر · ومحرابه من عهد قلاوون والمنبر من عهد الناصر محمد ويرد عهد الباب الاوسط للحرم الى اوائل زمن المماليك وان كانت فيه كتابات احدث من عهد السلطان مراد الثالث ٩٩٦ · واسس المنارة المربعة ذات الخمس طبقات القاضي ابن الخشاب سنة ٤٨٢ وهي منقوشة ابدع نقش وهي بما كتب عليها من الكتابات الكوفية والنسخية المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية · قال ابو الفدا وكان بحلب بيت نار قديم ثم صار اتون حمام

فاخذ ابن الخشاب حجارته وعمر منارة جامع حلب ٠

وصف ابن جبير في القرن السادس جامع حلب بقوله : وهذا الجامع من احسن الجوامع واجملها وقد اطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتح كله ابواباً قصرية الحسن الى الصحن عددها ينيف عن الخمسين باباً ، فيستوقف الابصار حسن منظرها ، وفي صحنه بئران معينتان ، والبلاط القبلي لامقصورة فيه ، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح ٠ وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره ، فما اري في بلد من البلاد منبراً على شكله ، وغرابة صنعته ، واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسناً على تلك الصنعة الغريبة ، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب ، وعلا حتى اتصل بسمك السقف ، وقد قوّس اعلاه وشرف بالشُرف الخشبية القرنصية ، وهو مرصع كله بالعاج والآبنوس ، واتصال الترصيع من المنبر الى المحراب مع مايليهما من جدار القبلة ، دون ان يتبين بينهما انفصال ، فتجتلي العيون منه ابدع منظر يكون في الدنيا ، وحسن هذا الجامع المكرم اكثر من ان يوصف ٠

هذا وصف المسجد الجامع وما كان فيه وليس هو بالعظيم كمسجد دمشق او المسجد الاقصى وقد رمم في اوقات مختلفة وفي حلب جامع الصالحين جنوبي المدينة أُنشئَ سنة ٤٧٩ انشأه احمد بن ملكشاه ومحرابه مهم في بابه ٠ واول جامع بني بحلب فيما قالوا بعد الجامع الكبير جامع الطون بغا الصالحي تم سنة ٧٢٣ وفيه يقول ابن حبيب :

رحب الذرى يبدو لمن أمّه   لطف المعاني حسنه الواضح
مرتفع الرايات يروي الظما   من مائه الشارب السارح
يهدي المصلي في ظلام الدجى   من نوره اللامع واللايح
من حوله روض يرى للورى   زهره بالفائق الفايح
لله بانيه الذي خصه   بالروح للغادي والرائح

وعدّ ابن الشحنة من احسن الجوامع التي بنيت على اجمل الوجوه جامع منكلي بغا الشمسي نائب حلب عمر (٧٧٨) ٠ وعد ابن شداد في باطن حلب مائتي مسجد وسبعة عشر مسجداً داخل سور البلد منها ما نسبه لمنشئه ومنها ما عرفه بالخطة التي هو فيها ٠ وذكر المساجد التي بارباض حلب وذكر منها ما هو بالحاضر السليماني مائة مسجد

وعشرة مساجد وذكر مساجد الرابية وجورة جغال فعدها مائة وثمانية وستين مسجداً واتى على ذكر المساجد التي بالظاهرية فعدها تسعة وتسعين مسجداً وعد بالرمادة اربعة وثلاثين مسجداً ٠ وعد ببانقوسا ثلاثة عشر مسجداً و بالفرافرة اثني عشر مسجداً و بالمضيق ستة عشر مسجداً و بالقلعة عشرة مساجد ٠ قال ابن الشحنة وعنه لخصنا احصاء ابن شداد لمساجد حلب : فجملة هذه المساجد التي داخل حلب وخارجها الى حين تأليف ابن شداد كتابه سبعمائة وخمسة وعشرون مسجداً ٠ وقد بنى بعض الولاة الأُول في الدولة العثمانية جوامع في حلب منهم جامع خسرو باشا (٩٣٨) وجامع عادلي محمد باشا (٩٥٧) وجامع بهرام باشا (٩٨٨) وابشير مصطفى باشا (١٠٦١) وجامع عثمان باشا (١١٥٠) ٠ ومن جوامع حلب التي بقيت عليها بعض الكتابات الحثية جامع القيقان ومن جوامعها جامع الاطروش واشتهر بكتاباته ونقوشه جامع البيادة في شمالي غربي القلعة ٠

* * *

جوامع عمالة حلب — قامت في انحاء حلب مساجد كثيرة ومنها مساجد قنسرين وهو البلد القديم الذي كان في الاسلام بمثابة حلب نخربه سيف الدولة سنة ٣٥١ او ٣٥٥ واحرق مساجده ، لما نزل الروم حلب وقتلوا جميع من كان بربضها وذلك خوفاً من سقوطها في ايدي اعدائه ٠ وأُنشئت في انطاكية عدة جوامع بقيت منها بقايا على ما انتابها من الزلازل واهمها اليوم جامع حبيب النجار والجامع الكبير والشيخ علي والذخرية ٠ وفي انطاكية لعهدنا ١٣ جامعاً و٢٧ مسجداً ومجموع مافي عملها ١٣٥ مسجداً وجامعاً وزاويةً وتكية ٠ وأُنشئت منذ الفتح جوامع مهمة في مدينة المعرة وصف ناصر خسرو في اواخر منتصف القرن الخامس جامعها الاعظم فقال انه مبني على اكمة قامت وسط المدينة ومن اي جهة اتجهت الى هذا الجامع كان عليك ان ترتقي سلماً ذات ثلاث عشرة درجة ٠ وقد خربت المعرة بدخول الصليبيين ، ثم عادت اليها بعض حياتها وفيها اليوم ٢٣ جامعاً ومسجداً اهمها الجامع العمري الكبير تقام فيه الجمعة دون غيره من المساجد ومجموع مافي عمل المعرة ٤١ مسجداً وجامعاً ٠ وفي عمل جبل سمعان اليوم ١٨٣ جامعاً ومسجداً وفي بيلان ٥ مساجد

وجوامع . وفي قضاء ادلب ٣٧ مسجداً وجامعاً وجامعها في القصبة من عهد الفتح يسمونه العمري . وفي معرة مصرين وعملها ١١ جامعاً ومسجداً وفي حارم جامع ومسجد وفي عملها عدة جوامع ومساجد وكذلك في اعزاز وفي قضاء الباب ١٥ جامعاً ومسجداً وفي بزاعة وجسر الشغر ومعرة مصرين وسرمين وجبرين وسلقين وخناصرة والفوعة وارمناز ودير كوش والجبول والاثارب ودانيث وكاز وغيرها من البلدان القديمة مساجد وجوامع . ولا تكاد تخلو في يومنا هذا كل قرية من مسجد الا اذا كانت مزرعة حقيرة لاحد ارباب الاملاك . وفي الشغر اليوم ثلاثة جوامع وخمسة مساجد ولا تخلو اليوم البلاد التي كانت عامرة جداً ثم خربت عن آخرها مثل بالس (مسكنة) ومنبج مثلاً من مساجد لا بأس بها .

ولقد تقلبت الايام بهذه المساجد والجوامع فكثرت في الاماكن التي اشتدت اليها الحاجة وقلت حيث قل العمران وابذعر السكان . فقد كانت سرمين مثلاً على طرف جبل السماق من المدن ولها مساجد كثيرة روى ابن شداد ان عددها كان ينيف على ثلاثمائة مسجد قال وليس بها الآن اي في عهده مسجد يصلى فيه غير الجامع واكثر اهلها اسماعيلية ولهم بها دار دعوة . وسواء كان هذا العدد مبالغاً فيه او غير مبالغ فالمحقق ان الجوامع والمساجد كثرت في الاعصر السالفة في هذه الارجاء بكثرة السكان وتوفر خيرات الارض ثم لما خربت المدن دع القرى تراجع عمران بيوت العبادة .

ومن الجوامع القديمة في هذا الصقع جامع اعزاز عُرف بالجامع الكبير قال العلامة الغزي وهو صحن واسع فسيح في شماليه رواق وفيه مأذنة ضخمة وفي وسطه حوض يهبط اليه بدركات تجري فيه قناة جرها اليه اسماعيل بن عبد الله العزازي المتوفى سنة ٧٤٨ وفي جنوبي صحن الجامع قبلية يبلغ طولها نحو ٥٠ في عرض ١٥ ذراعاً سقفها قباب محمولة على اعمدة ضخمة وقد كتب على باب الجامع المتجه الى الغرب بسم الله الرحمن الرحيم في سنة ٦٤٤ امر بعمله مولانا السلطان العالم العادل الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن ايوب ناصر امير المؤمنين خلد الله ملكه .

مساجد الساحل وجوامعه } لما كانت مدن الساحل الشامي معرضة لهجمات الاعداء في كل حين ، وكانت الزلازل قد توالت عليها كثيراً وكانت مرسحاً للجيوش الصليبية مدة قرنين أصاب الجوامع والمساجد فيها ما أصاب غيرها من العمائر ، فليس في الاسكندرونة اليوم سوى جامعين وفي عمالتها بعض المساجد الحقيرة ، وكذلك الحال في السويدية واللاذقية والمرقب وطرطوس وجبلة وبانياس وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا ويافا وغزة ، خربت جوامعها ومساجدها وعمرت غير مرة في الاسلام . ففي اللاذقية اليوم عدة مساجد وفيها جامع جميل مطل عليها من الهضبة المطلة على الثغر ولها منارة جميلة . واهم جوامع اللاذقية جامع المغربي ومن اهم جوامعها جامع الجديد والكبير المنصوري وأرسلان باشا والصليبة وصوفان والشيخ ضاهر وجامع الاسكلة والشواف والصغير وفي اللاذقية اثنا عشر مسجداً غير هذه الجوامع . وفي جبلة جامعان مهمان وهما جامع السيد ابراهيم والمنصوري ومن مساجدها القنطاري وبني علي اديب والغزالي والاكراد وجامع واحد في بانياس وفي طرطوس جامع كان على عهد الصليبيين كنيسة كاتدرائية وفي صافيتا جامع وثلاثة مساجد في جوارها .

وفي طرابلس [1] عدة جوامع ومساجد ومعظمها من آثار دولة المماليك البحرية والجراكسة وما تجدد بعدهم فقليل جداً بالنسبة لآثارهم في هذه المدينة ، واكثرها لم يذكر عليه اسم بانيه . ولا ريب ان البواعث كانت دينية محضة ورغبة في ثواب الله بدار الآخرة فكان عدم ذكر الباني على البناء أبعد عن السمعة والرياء ، وكان الامير او المتمول منهم اذا شيد مسجداً للصلاة جعل في احد أطرافه مشهداً ليدفن فيه عند موته ولم يزل الى الآن كثير من قبور المماليك الرخام ، محفوظاً في المساجد التي أقاموها على الطراز المخصوص بهم كأن يجعلوا في كل زاوية من زوايا القبر قاعدة بارتفاع ثلاثين سانتياً واعلاها كروي . وللمماليك من نوع هذه القبور في دمشق صنوف . وان ما بقي الى اليوم من الفسيفساء في محاريب تلك المساجد وجدرانها آية في الابداع وحسن الصناعة .

(١) كتب وصف جوامع طرابلس السيد محمد كامل بابا من أدباء تلك المدينة .

ومن اعظم جوامع هذا الثغر الجامع الكبير بناه السلطان صلاح الدين خليل الاشرفي ابن السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي على ما يرى في الكتابة المحفورة فوق باب الجامع الشمالي وذلك في سنة ٦٩٣ ﻫ وكان متولي العمارة سالم الصهيوني ابن ناصر الدين العجمي وفي سنة ٧١٥ وعلى عهد ولاية السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة بنيت بامره الأروقة المحيطة بصحن المسجد ايام نيابة المقر السيفي كستاي الناصري وكان متولي العمارة احمد بن حسن الحرابعلبلي وتسميه اهالي طرابلس الجامع المنصوري وهو غلط بين لان الملك المنصور قلاوون هو ابو الاشرفي باني الجامع المذكور ٠

ومنها جامع طينال وتسميه العامة طيلان بناه سيف الدين طينال مملوك السلطان محمد الناصر وحاجبه وكان قد تولى ولاية طرابلس مرتين وبنى الجامع المذكور للمرة الثانية سنة ٧٣٦ ٠ وفي منارته هندسة لطيفة ولها من داخلها سلمان احدهما سقف للآخر فاذا أراد المؤذن الصعود للاذان من داره الملاصقة للمسجد دخل من باب المنارة صاعداً أعلاها واذا أراد النزول للصلاة دخل من باب آخر يصل منه الى داخل المسجد وعلى هذه الصورة فباب المنارة السفلي الخارجي ادنى من ارض المسجد بقدر قامة الانسان ٠

ومن جوامعها جامع أرغون شاه وتسميه العامة الفنشا على الطريق الشرقية الآخذة لجبانة باب الرمل ولا يعلم تاريخ بنائه وفوق بابه كتابة حفرت ايام السلطان قايتباي من المماليك الجراكسة سنة ٨٨٠ يأمر فيها بحماية زراع أراضي الوقف للجامع المذكور وتسليمها الى الحسيب النسيب السيد نور الدين محمود الأدهمي الحسيني وقد بني هذا الجامع حديثاً بعد سقوطه ووضعت له القساطل الحديدية لجر المياه ٠

ومن جوامعها جامع التوبة وهو ملاصق للجسر الجديد على نهر ابي علي ومن الثابت انه بني ايام دولة المماليك وطرز هندسته يشبه الجامع الكبير من وجوه كثيرة وقد جدد بناءه بعدما تهدم من الفيضان الكبير الذي وقع في طرابلس سادس عشر ذي القعدة سنة ١٠٢٠ احمد بن محمد الشربداري الانصاري كتخداي حسين باشا ابن يوسف باشا السيفي ، وتم بناؤه في شهر ربيع الآخر سنة ١٠٢١ والكتابات

الاثرية التي عليه يرجع تاريخها الى سنة ٨١٧ ايام دولة المؤيد ابي النصر شيخ المحمودي من سلاطين المماليك الجراكسة ·

ومن جوامعها جامع المعلق بناه محمود بن لطفي الزعيم سنة ٩٦٧ ايام دولة السلطان سليمان القانوني وهو في محلة بوابة الحدادين · وجامع العطار وسط البلد بقرب محلة الملاحة والمشهور عند اهالي طرابلس انه كان كنيسة في زمن الصليبيين ثم تحول الى جامع بعد الفتح الاسلامي وكان قد تداعي بناؤه فأُقيم ، وفي أعلى بابه الشرقي مكتوب هذا التاريخ « البسملة · هذا الباب المبارك والمنبر من عمل المعلم محمد بن ابراهيم المهندس في سنة احدى وخمسين وسبعمائة » · وجامع البرطاسي في جانب الجسر العتيق على نهر ابي علي وفي الكتابة التي فوق بابه يقول بنى هذه المدرسة عيسى بن عمر البرطاسي ووقفها على المشتغلين بطلب العلم على مذهب الامام الشافعي ولم يعلم الزمان الذي تحولت فيه الى جامع وقد ذهب من اصل الكتابة التاريخية القسم الذي يذكر به زمن البناء غير ان أُسلوب تلك الكتابة وطرز بنائه الفخم ودقة الفسيفساء التي على محرابه وفي ارضه تدل على ان بانيه من أصحاب الأموال لواسعة في ايام دولة المماليك البحرية · وجامع الاويسية بني ايام دولة المماليك غيرانه لم يكن عليه كتابات تاريخية الا ما كان في اعلى منارته وفيها ذكر انه جدد بناءها ايام السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤١ رجل اسمه حيدرة وفي وقفية الجامع المذكور ان اسم بانيه محيي الدين الاويسي ·

وجامع عبد الواحد وراء سوق الصاغة بناه عبد الواحد المغربي المكناسي ايام دولة السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة سنة ٧٠٥ وعليه زبرت كتابة تشعر بذلك · وجامع التفاحي ويسمى اليوم بالحميدي لم يبق من بنائه الاصلي أثر وتجدد بناؤه حوالى سنة ١٣١٠ من اهل الخير وإعانة السلطان عبد الحميد خان الثاني فنسب اليه · وجامع محمود بك السنجق وهذا بناه في طرف البلد تقريباً للجهة الشرقية بالمحلة المعروفة بباب التبانة سنة ١٠٢٠ ايام دولة السلطان احمد بن السلطان محمد من ملوك بني عثمان ووقف عليه اوقافاً كثيرة لم تزل قائمة الى الآن وتوفي المذكور ودفن بقرب المدرسة · وجامع الطحام داخل البلد ولم يعلم اسم بانيه ولاتاريخ بنائه وشكله وطرز منارته يدل على انه بني زمن دولة المماليك ·

هذه جوامع طرابلس وقد وصف ناصر خسرو المسجد الاعظم فيها اواخر النصف الاول من القرن الخامس بقوله : والمسجد الاعظم قائم في وسط المدينة وهو جميل للغاية ، مزدان باحسن زينة ، ومبني على غاية القوة والمتانة ، وفي صحنه قبة عظيمة تعلو حوضاً من المرمر في وسطه فوارة يخرج ماؤها من منقار نحاس اصفر اه · والغالب ان هذا الجامع خرب بخراب تلك المدينة بعد ·

وفي جبيل جامع قديم هو مما اتخذ جامعاً بعد الحروب الصليبية اما مدينة بيروت فكانت فيها جوامع صغيرة بعد الفتح ولم تكن بيروت بالثغر العظيم اذ ذاك ولم يكن للمسلمين جامع فيها ايام استيلاء الصليبيين عليها ، فلما انتزعت منهم اخذوا كنيستهم وجعلوها جامعاً ، وهي تعرف بكنيسة مار يوحنا الصايغ ويقال لها جامع النبي يحيى او الجامع الكبير اليوم · وبنى فيها الامير منصور عساف الجامع المعروف اليوم بجامع السراية · وكان جامع الخضر كنيسة للموارنة باسم مار جرجس الى سنة ١٦٦١ فاخذه احد باشاوات الترك وجعله جامعاً · ومنها جامع المجيدية وغيره ومجموع ما في بيروت اليوم من المساجد والجوامع ثلاثون جامعاً ومسجداً ·

وفي صيدا سبعة جوامع ومساجد اهمها الجامع الكبير جامع يحيى وكان كنيسة على الغالب باسم مار يوحنا وفي صور مسجد جامع · وفي عكا بضعة جوامع اهمها جامع الجزار وفي حيفا وعملها عدة جوامع ومساجد وفي يافا وعملها كذلك وجوامع يافا قديمة في الجملة وفي غزة اليوم عدة جوامع ومساجد · وقد اعجب الظاهري في القرن التاسع بجوامع غزة ومسجدها الجامع على الغالب كان من الكنائس المهمة في القرن الثاني عشر للميلاد على اسم القديس يوحنا المعمدان وكان كاندرائية لأسقف الروم وفيها جامع هاشم وجامع باب الداروم وغيره من الجوامع التي فيها نقوش بديعة وانقاض تدل على مجد قديم ·

* * *

جوامع المدن الداخلية

وفي الخليل خليل الرحمن او حبرون جامع فيه مقام الخليل ابراهيم في مغارة تحت الارض · قال شيخ الربوة ومن المباني القديمة مقام الخليل عليه السلام طوله ثمانون ذراعاً وعرضه خمسون ذراعاً في الطول

منه عشرون حجراً مدماكاً واحداً وداخل المقام نصب على الضريح كل واحد حجر واحد ، الطول اربعة اذرع والعرض ذراعان ونصف والسمك مثلها وازيد . و يحتوي اليوم سور الخليل على اساس يبلغ علوه ١٢ متراً وحجارته ملساء عليها مسحة الامبراطور هيرودوس . وقد بني هذا الجامع الصليبيون من سنة ١١٦٧ الى ١١٨٧ وربما كان إنشاؤه مكان كنيسة يوستنيانوس وجدده المسلمون بعد ذلك . واقدم مافي الجامع من الترميا : ماقام به قلاوون من سلاطين المماليك .

وفي القدس عدا المسجد الاقصى ثمانية جوامع وهي جامع عمر بن الخطاب امام كنيسة القيامة وجامع عكاشة وجامع سوق البيزار وجامع سلمان الفارسي وجامع الشيخ جراح وجامع سويقة علوان وجامع الخانقاه بالصلاحية قرب الكنيسة وجامع باب خان الزيت . والجوامع الخربة ايضاً تسعة وهي جامع بحارة الحدادين وآخر قرب دير اللاتين وثالث قرب بطريركية دير اللاتين ورابع اسمه الحيات وخامس جامع اليعقوبي قرب القلعة وجامع قرب دير الارمن ومثله على مقربة من دير السريان وغيره في حارة اليهود وجامع الازرق . وهناك ثلاثة جوامع معمورة ايضاً وهي جامع السبيل وجامع لؤلوء وجامع ابي قصبة . وبعض هذه الجوامع لا شأن له من حيث النظافة والاتقان شأن المصليات البسيطة .

وفي الرملة عدة جوامع ومساجد قال ناصرخسرو في مسجدها الجامع ان في وسطه صهاريج واسعة وان مساحته ثلاثمائة قدم في مائتين . وقال الظاهري ان من جملة مزاراتها الجامع الابيض عجيب من العجائب . وكان فيها منارة من عجائب الدنيا بناها قلاوون . وفي لدّ عدة جوامع ومساجد وكان بها في القرن الرابع جامع يجمع به خلق كثير من اهل القصبة وما حولها من القرى وجامعها الكبير اليوم من عهد الصليبيين كان كنيسة . وفي نابلس تسعة جوامع ومساجد اهمها الجامع الكبير ومسجد اولاد يعقوب وجامع النصر والخضراء والجامع الكبير بناه يوستنيانوس . وعلى قيد غلوة من أرسوف بقايا حرم سيدنا علي بن عليل او عليم . وفي قاقون بنى الملك الظاهر بيبرس جامعاً . والظاهر هذا جدّد وبنى عدة مساجد وجوامع في

الشام ومثله قلاوون وتنكز من المماليك . وفي طول كرم وجينين عدة مساجد وجوامع اكثرها محدث .

ومن الجوامع التي رممها ديوان الاوقاف في فلسطين في العهد الاخير جامع المنشية والعجمي والبحر وارشيد والطابية في يافا وجامع العصا في الرملة وجامع لد . ومقام النبي يحيى في قرية المزيرعة ومقام النبي روبين وجامع سويقة علوان وجامع باب خان الزيت والزاوية النقشبندية وجامع سعد وسعيد وجامع بيت لحم ومقام النبي شمويل في القدس واراضيها . ورمت الاوقاف في نابلس جامع النصر والجامع الكبير الصلاحي وجامع العين وجامع التينة . وجامع قرية رفيديا وقرية عقربة وقرية عصيرة الشمالية وقرية صيدا وجامع البئر في قرية نزواتا وجامع سبسطية وجامع قرية برقة . واجريت عدة اصلاحات في جامع الجزار في عكا وانشئ في حيفا جامع الاستقلال . واصلحت الاوقاف الجامع الكبير في غزة اصابه خراب كبير بسبب معارك الحرب العامة « وهو من المساجد العظمى في فلسطين فخم البناء كبير القيمة الاثرية جميل الشكل والهندسة يحتوي على عدة سلاسل من العقود الحجرية » وأصلح جامع سيدنا هاشم وجامع ابن عثمان وجامع المجدل وحرم سيدنا زكريا في الخليل وشرع أهالي الخليل ينشئون مسجداً فساعدهم المجلس الاسلامي الاعلى .

وكانت المدن القديمة غاصة بالجوامع مثل قيسارية وأرسوف فذهبت بذهاب عمرانها . وفي طبرية اليوم جامعان قديمان الجامع الفوقاني من بناء عرب الزيادنة عام ١١٥٦ والثاني جدد بناؤه عام ١٢٨٠ . وفي صفد عدة جوامع ومساجد . وفي قلعة الشقيف بنى الظاهر بيبرس جامعاً وكانوا يقيمون الصلوات في القلاع ايضاً كما بنوا جوامع لهم في قلعة دمشق وفي قلعة حلب . وفي صرخد عمر الظاهر بيبرس جامعاً وكذلك فعل في بصرى وعجلون والصلت وفي هذه البلدان اليوم مساجد صغيرة فقد قضت الايام على المساجد المهمة . وفي عَمان جامع ومسجد وكان فيه في القرن السابع « جامع ظريف في طرف السوق مسقف الصحن شبه مكة » .

وللدروز في الشوف من لبنان ووادي التيم الأعلى والأسفل ومرجعيون وصفد

وضواحي دمشق وبيروت والجبل الاعلى وفي بعض قرى عكا خلوات أشبه بالمساجد لا منابر لها ولا مآذن يجتمع فيها خاصتهم ليلة الجمعة ويسمونها مجالس كما ان للنصيرية الذين يدعون اليوم بالعلويين في جبال اللاذقية وما اليها خلوات صغيرة ذات قباب تكون على الغالب في أطراف قراهم وكذلك لا تخلو اكثر قرى المتاولة (الشيعة) في بلاد بشارة او جبل عامل من مساجد صغيرة لهم لا مآذن لها ولا منابر ومنها ما يسمونه «حسينية» نسبة للحسين بن علي رضي الله عنهما يقيمون فيها المآتم عليه في اوقات لهم مخصوصة . وفي بعلبك عدة جوامع ومساجدها بقي بعضها من عهد عزها ايام غلبة مذهب اهل السنة والجماعة على سكانها اكثر من التشيع . وللاسماعيلية مجالس ايضاً كما للنصيرية .

ولقد زيّن بعض عمال السلطنة العثمانية للسلطان عبدالحميد الثاني ان يبني جوامع ومساجد في جبال النصيرية وجبل الدروز عسى ان يثوب اهلها الى مذهب اهل السنة والجماعة فأقرهم السلطان على ذلك ، وبنيت عدة جوامع في هاتين المقاطعتين منها اربعون جامعاً في جبال العلويين على امل ان يعود النصيرية والدروز الى حظيرة الاسلام فأصبح بعضهم يصلون شبه مكرهين فلما آنسوا ضعف الحكومة بعد مدة قليلة اتى جهلاء النصيريين والدروز على ما بني من المساجد الجديدة ودمروها عن آخرها ودنسوا كرامتها بما لا يليق .

ومن الكتابات الأثرية في بعلبك ما زبر فوق باب قبة الأمجد على رابية الشيخ عبد الله « انما يعمر مساجدَ اللهِ مَن آمن بالله واليوم الآخر . امر بعمارة هذا المسجد المبارك الامير الاسفسهلار الكبير صارم الدين ابو سعيد خطلخ بن عبد الله المعري الملكي الامجدي ، ضاعف الله له الثواب وغفر له يوم الحساب ، في سنة ست وتسعين وخمسمائة » .

وكتب في جامع الحنابلة ببعلبك هذا : « بسم الله الرحمن الرحيم . جُدّد هذا المكان المبارك في ايام مولانا السلطان الاعظم ، شاهنشاه المعظم مالك رقاب الامم ، سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم ، الملك المنصور سلطان الاسلام والمسلمين ، قامع الكفرة والمشركين ، محيي العدل في العالمين ، ملك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، ابي المعالي قلاوون قسيم امير المؤمنين ، خلد الله سلطانه ، وشد أزره

ببقاء ولده وولي عهده ، مولانا السلطان الملك الصالح علاء الدين ، وأدام نصرهما ، وجعل البسيطة ملكهما ، بتولي الامير نجم الدين حسن نائب قلعة بعلبك المحروسة ومدينتها ، ونظر القاضي بهاء الدين بن خلكان وذلك في العشر الآخر من جمادى الاولى سنة ثنتين وثمانين وستمائة والحمد لله وحده » .

والمساجد في لبنان قليلة جداً أنشئ بعضها حديثاً كجامع عالية ، وأهم الجوامع في هذا الجبل جامع دير القمر للامير فخرالدين عثمان المعني وعهدي به والمسيحيون من اهل جواره يحافظون عليه اذ ليس هناك من يصلي فيه من اهل الاسلام . وقد كتبت على واجهته كتابتان هكذا بالخط العربي النسخي ، الاولى : « بسم الله الرحمن الرحيم . في بيوتٍ أَذِنَ اللهُ ان تُرفَعَ ويُذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال رجال لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرالله وإقامِ الصلوةِ وإيتاء الزكوةِ يخافون يوماً تتقلّبُ فيه القلوب والأبصار ليجزيَهم الله أحسن ماعملوا ويزيدَهم من فضله والله يرزق من يشاء بغيرحساب » . والثانية : « بسم الله الرحمن الرحيم . في بيوتٍ أَذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة[1]) يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار . عمر هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه الله العظيم ورجاء لثوابه العميم العبد الفقير الى عفو ربه القدير المقرّ الفخري الامير فخرالدين عثمان بن الحاج يونس ابن معن غفر الله له .

وكتب في ٥ من شهر الله المحرم الحرام من شهور سنة تسع وتسعين وثمان مائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام » .

وكانت الجوامع في حمص مهمة للغاية اوائل الاسلام وقد صالح المسلمون اهلها على ربع كنيستهم وكانت « على اربعة اركان وذلك من عجائب بنيان العالم » ومسجدها اليوم وسط السوق وليس بالكبير وفيه عقود وعمد ومحراب مزين بالفسيفساء المذهبة القديمة . وفي جهة اخرى محراب قديم معمول بالفسيفساء ايضاً . واكد الاثريون ان بناء هذا الجامع هو من بناء الكنيسة ، والغالب انه جدد في ادوار

(١) تتمة الآية الكريمة الموضوعة بين هلالين ليست مزبورة على الحجر .

مختلفة من عهد نور الدين زنكي الى عهد قريب . ولا تزال في حمص منارة مأذنة من بناء بكجور الذي استولى على المدينة سنة ٣٦٧ وعليها كتابة مفيدة في باب الهندسة العربية . ومن جوامع حمص المهمة جامع سيدنا خالد خارج البلد جدد بناؤه منذ نحو ثلاثين سنة وأنشئت له مأذنة على الطرز الرومي . ولم يثبت كون المدفون في هذا الجامع هو خالد بن الوليد الفاتح ، لان هذا على اغلب الروايات مات في مدينة الرسول . والغالب ان هذا القبر هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية على ما أكد ياقوت قال وهو الذي بنى القصر بحمص وآثار هذا القصر في غربي الطريق باقية . وذكر المؤرخون انه كان في جامع حمص عمود يقال انه من الكحل الاصفهاني .

وفي حماة اليوم ٣٤ جامعاً و ١١ مسجداً ومن اهمها جامع النوري بناه نور الدين زنكي سنة ٥٥٩ . ومنها جامع ابي الفداء الشهير بجامع الدهشة او الحيات . وقد وصف الاثري هرزفلد المسجد الجامع في حماة اليوم وهو الجامع الكبير فقال ان اصل حرمه كان كاتدرائية للنصارى غريبة الشكل وله ثلاثة افنية مختلفة السعة ، وثماني دعائم ، وخمس أقباب ، ومن كل ناحية خمسة عقود او اقبية في الزاوية . ويظهر ان الحائط الغربي كان حائط رواق الكنيسة ، والحائط الجنوبي من العهد السابق للنصرانية ، كما هو الحال في جامع دمشق كان معبداً ثم بيعة ثم جامعاً . والى جهة الشرق قامت منارة قديمة منفردة وهي مربعة الزوايا زبرت عليها كتابة كوفية ربما كانت من القرن الخامس ، وتحيط بصحن الجامع الجميل اروقة معقودة ، وهناك سدة بمحرابين امام الحرم وسدة اخرى لها حوض ماء ، ومحراب منفرد في الرواق الشمالي ، وخزنة قائمة على ثمانية اعمدة قديمة ، وفي الرواق الشرقي تربة ومصلى ولها نوافذ صلبة معمولة من النحاس من عهد المماليك ، ومن الرواق الغربي يصل الانسان الى قبة الملك المظفر محمود الثالث (٦٨٣ — ٦٩٨) وله تابوت معمول بالخشب الجميل المنقوش وهناك منارة ثانية قامت في الخارج وسط الرواق الشمالي ويستدل من كتابته وشكله انه من زمن المماليك ، وفي جامع حماة تجلت خاصية من هندستها تجلياً عظيماً ، وذلك ان ظاهر الحيطان مزين بنقوش رسمت بالوان تشبه الفسيفساء لمراوحتهم في صنعها بين الحجر البركاني الاسود والحجر الكلسي الابيض .

وفي الجامع النوري على الشاطئ الايسر من العاصي في ارض منحدرة وعلى بناء تحتي عال بني هذا الجامع على عهد نور الدين ، وعلى مادخله من الترميات الكثيرة تشاهد فيه الى اليوم اجزاء مهمة من البناء القديم ، ولا سيما على طول الحرم ، والعقود فيه حديثة العهد بالنسبة لمجموع الجامع ، وكذلك ثلاث قباب من الرواق الشمالي مختلفة الأشكال والابنية التحتانية (Substructions) من الجهتين الشرقية والشمالية والحائط الخارجي الشمالي من الجامع ربما كان الجزء الأسفل من المنارة بما فيه من الحجارة المنحوتة البيضاء والسوداء قديم العهد ايضاً . وفي هذا الجامع بقايا منبر جميل عمل من الخشب و يرد الى زمن نور الدين ثم محراب مزين أجمل زينة له سوار من الرخام المجزع من زمن الملك المظفر تقي الدين (٦٢٦ — ٦٤٢) وفي مكان آخر من الشرق محراب ذو سوار من المرمر زُبر في تيجانها اسم ابي الفداء .

والجامع الاول هو الذي قام على أنقاض الكنيسة او حوّل منها في زمن الفاتح وهو جامع السوق الاعلى وجدّد في خلافة المهدي من خراج حمص على ما نقش على رخامة فيه ثم جاء المظفر عمر فزاد فيه وبنى مدرسة بجواره ثم اتى ابراهيم الهاشمي فأنشأ منارته الشمالية سنة ٨٢٥ كما زُبر ذلك على رخامة فوق بابها ومن بنائه الحرم الصغير في جانب المسجد من جهة الشرق ورواق الجامع ايضاً بناه سنة ٨٣٢ وجامع الحيات او جامع الدهشة الذي بناه الملك المؤيد وبنى لحرمه من جهة الشرق شباكين كبيرين بينهما عمود كبير من الرخام على صورة أفاعي ملتفة ولهذا يسمى جامع الحيات . وقد نقش حرمه بالذهب والفسيفساء والرخام الملون في جدرانه وارضه وعمل له من الغرب شباكين كما في جهة الشرق غير انهما هدما وأُدخلا في البستان المجاور له . ولم يبق غير الشباكين . وذهبت خزانة الكتب الموقوفة وكان فيها سبعة آلاف مجلد . ويرى الداخل الى حرمه حتى اليوم زناراً على سار يتين محفوراً من الرخام وصورته :

« امر بعمل هذا الجامع المبارك السلطان الملك المؤيد عماد الدنيا والدين اسماعيل بن الملك الافضل نور الدين علي بن الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب في شهور سنة سبع وعشرين وسبعمائة » .

ومن الجوامع المهمة في حماة جامع السلطان في محلة الدباغة وهو متسع بناه السلطان بدر الدين حسن شقيق ابي الفداء على هيأة جامع الدهشة وفي كل منهما رخام محفور بالآيات القرآنية كتبتها يد واحدة وله رواق كبير وفي محرابه كتبت آيات بالخط الكوفي · وفيها جامع العزة بناه محمد بن حمزة العزي سنة ٧٢٣ وهو مهجور · وفيها جوامع بناها بعض آل الكيلاني الذين سكنوا حماة منذ القرن السابع ولها أوقاف عظيمة دارة الى اليوم · ومن الجوامع الحديثة جامع الحميدية الخ ·

* * *

جوامع العاصمة وضواحيها اذا صرفنا النظر عن الكلام على الجامع الأموي مفخرة دمشق على توالي الايام وهو يعد في المصانع العظيمة وعمدنا الى وصف بعض جوامع العاصمة ومساجدها نجد عدد المساجد في العهد الاخير بحسب إحصاء ديوان الاوقاف ثمانية وخمسين مسجداً وجامعاً منها جامع الباشورة في الشاغور ومسجد الجديد في مسجد الأقصاب وجامع الاتابكية في الجركسية بالصالحية وجامع حسان في القماحين بباب الجابية ودرويش باشا في الدرويشية (٩٨٢) واسمه القديم الاخصاصية وسعه درويش باشا وجامع الدقاق في الميدان الفوقاني والركنية في الصالحية ومسجد رستم في العقيبة وزيد بن ثابت في باب السريجة وجامع السقيفة في العمارة وجامع سيدي بشارة في باب المصلى وجامع سيدي صهيب في الميدان التحتاني وجامع السنجقدار وشادي بك في القنوات والطاغوسية في البحصة والعداس في القنوات ومسجد العداس الصغير في العمارة وجامع سيدنا عبد الغني النابلسي في الصالحية وجامع برسباي المعروف بجامع الورد في سوق ساروجا (٨٥٢) وجامع كافل سيباي في الدرويشية ·

وفي هذا الاحصاء نظر لان جوامع دمشق ومساجدها اكثر من ذلك ولعل من مصلحة الاوقاف ان تقلل من عددها لكي يتسع لها المجال اكثر مما اتسع لاستصفاء وقوفها فقدفاتها في هذه الجريدة ذكر جامع السنانية عمره يوسف عبد الله سنان باشا سنة ٩٩٩ في محل مسجد البصل وجامع يلبغا أنشيءَ سنة ٨٤٧ وجامع التوبة في العقيبة وجامع الجراح في باب الصغير عمره الملك الأشرف موسى ٦٣١ وله منبر جميل مهم ·

وجامع الجديد وهو جامع المعلق بين الحواصل أجمل بناء في دمشق جدده نائب الشام سنة ١٠٥٨ و يظن ان اصله من القرن السابع او السادس · وجامع الحنابلة في الجبل و يقال جامع المظفري أنشأه ابو عمر محمد بن احمد بن قدامة المقدسي ٥٩٨ وأتمه الملك المظفر كوكبوري صاحب إربل وهو جامع مهم ·

ومن الجوامع المهمة جامع المرادية في السويقة له منبر ومحراب بديعان · ومنها جامع منجك في الميدان انشأه الامير ابراهيم بن سيف الدين منجك (٨٠٠) · جامع النحاس شرقي الركنية في الصالحيه في بستان النحاس عماد الدين بن عبد الله بن الحسين بن النحاس (٦٥٤) · ومن الجوامع التاريخية التي لم تشتهر كثيراً جامع الحشر في الجانب الغربي من القلعة لارغون شاه جدده سنان جاووش يكيچري (١٠٠٨) · الحيواطية للامير علي بن حيوط (٨٨٥) العسالي لاحمد باشا كوچك (١٠٥٤) انشأه للشيخ احمد بن علي العسالي شيخ الخلوتية · جامع المزاز (٨١٣) لعزران شاه السيد تقي الدين الزينبي الجنوبي خرب في فتنة تيمور فجدده الطوش مرحاب · جامع الجوزة في العمارة وسعه القاضي ناظرالجيش (٨٣٠) جامع خليخان خارج باب كيسان من الجنوب انشأه نجم الدين بن خليخان (٧٣٦) جامع الكريمي (٧٢٤) بالقبيبات انشأه عبد الكريم بن هبة الله المصري · جامع باب المصلى انشأه (٦٠٦) الملك العادل ابو بكر بن ايوب · وكان هذا السلطان مولعاً بالعمران انشئت في عهده مساجد كثيرة في مملكته · جامع الحاجب في سوق ساروجا (٨٨٠) جامع السقيفة دفن فيه عثمان السقيفي من الصحابة فيما يقال انشأه خليل الطوغاني (٨١٤) وكان محله يعرف بالسبعة · وهناك مساجد دثرت لانها ليس في جوارها من يتعهدها مثل جامع الاحمر في حي اليهود والبهائية في باب توما ·

هذا غاية مايقال في مساجد دمشق اليوم · وقد عدد ابن عبد الهادي القسم الاعظم من مساجدها في القرن العاشر مع انه لم يستقص اسماء كثير من الجوامع في الضاحية بما يناهز خمسمائة قال : فناهيك ببلدة يحتوي واديها فقط على زهاء الف وخمسمائة مسجد ، واما ما هو محيط بعاملتها مما وراء جبالها فهو كثير للغاية اه · وقال كاتب چلبي في القرن الحادي عشر ان عدد جوامع دمشق بين كبير وصغير يبلغ مئة

وخمسين جامعاً وان الدولة العثمانية انشأت فيها عدة جوامع على طرز جوامع ديار الروم فبنت جامع السلطان سليمان بين الشرفين الاعلى والادنى وانشأت جامع درويش باشا مير ميران ولاية الشام وانشأت جامع سنان باشا خارج باب الجابية وانشأت جامع قره مراد باشا مير ميران ولاية الشام خارج السور فوق طريق الشام على سمت طريق باب المصلي اهـ ٠

واذا توغلنا في التاريخ الى القرن السادس نجد ابن عساكر قد عد من المساجد التي بنيت بدمشق ٢٠١ مسجداً وجامعاً في داخلها و١٨٤ في ظاهرها مماليس في قرية مسكونة او معمورة ٠ قال ابن شاكر وقد أحدثت بعد الحافظ ابن عساكر مساجد كثيرة داخلاً وخارجاً هذا مع ما اختصت به دمشق من كثرة المدارس والاوقاف ٠ ومن المساجد التي عدها الحافظ منسوبة الى احد الصحابة مسجد ايمن بن خُرَيْم (١) بن فاتك الاسدي الصحابي، ومسجد مروان بن الحكم ومسجد واثلة بن الاسقع ، و فضالة بن عبيد الصحابي الانصاري قاضي دمشق ٠ ولتغير المعالم بها لاتعرف اسماء الاحياء التي ذكر انها كانت فيها ٠ قال ابن شاكر واما المساجد الخارجة عن البلد فمنها مسجد ببين حجيرا وراوية على قبر مدرك بن زياد ومسجد في راوية على ام كلثوم من اهل البيت ٠ ومسجد كنان قبلي فذايا ٠ قرية كانت فخربت قبلي مقابر اليهود ، ومسجد في مقبرة باب توما عند النهر المجدول بقرب الصفوانية يعرف بخالد بن الوليد لانه صلى به وقت الحصار ، ومسجد يعرف بمسجد النبي في ارض المصيصة له منارة ٠ والمصيصة قرية كانت عامرة فخربت شرقي بيت لهيا ، ومسجد عند بيت ابيات يعرف بمسجد آدم ، ومسجد معاوية من ارض قُيْنِيَة على طريق المزة ودار يا ، ومسجد الحجر و يعرف بمسجد النارنج قرب المصلى ، ومسجد القدم عند القطائع بقرب عالية وعويلية قديم له منارة ٠

ولقد كانت مساجد الغوطة عامرة كلها الى دخول العثمانيين ثم اخذت تخرب

(١) لا يؤيد التاريخ الصحيح بعض قبور الصحابة والمساجد المنسوبة اليهم ٠ وعن الحافظ عبد الغني قال : لم يتفق المسلمون على معرفة قبر نبي و صحابي غير قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبري صاحبيه ابي بكر وعمر رضي الله عنهما ٠

بخراب العمران في عهدهم فقد كان في كل قرية من قرى دمشق مسجد او مساجد جامعة بحسب ضخامة القرية وعشرات من هذه القرى خربت برمتها في القرون الاخيرة فذهبت معها الجوامع بالطبيعة . ومن القرى التي مرت بنا وذهب اسمها ورسمها راوية وفذايا والمصيصة وبيت لهيا وبيت ابيات و قَيْنِيَّة وعالية وعوبلية والنيرب والربوة . ولقد كان في الربوة ربوة دمشق عدة مساجد ومدارس . وفي تاريخ الصالحية ان المقاصف كانت تعمر عمائرها للنزهة من غير طين ، والعمائر المكلفة كانت للمدارس والجوامع وان قاعة المسجد الديلمي الذي جدده نور الدين في الربوة قد بناها على شعب الجبل سقفها نهر يزيد وأساسها نهر ثورا من المقامات التي لا تدرك . قال وبقي بعد الالف من هذا المسجد المأذنة واثر العمار ثم دثر .

وكان بالنيرب تسعة مساجد عدها ابن عبد الهادي والآن ليس فيها اثر لمسجد . وكان في القابون الفوقاني ثلاثة مساجد و بالقابون التحتاني ثلاثة وليس فيهما الآن سوى مسجد واحد حقير . وهكذا مساجد قرى الغوطة والمرج وقلمون فانها كلها ليست ذات شأن ومن أجملها اليوم جامع التل وعربيل ودومة وداريا . ومما دثر مسجد خاتون في منتصف الطريق بين دمشق والمزة . كما دثرت مساجد المزة وكانت بضعة مساجد وجوامع . والجوامع والمساجد اليوم صورة من عمراننا ، وعمراننا كان متراجعاً الى عهد قريب وهو اليوم آخذ بالتقدم فلا يبعد ان تقوم المساجد بعد الآن على قانون من العقل مقبول ، وحسن ذوق في البناء يعيد الصورة القديمة مضمومة الى التحسين الحديث .

المدارس

نشأة المدارس

اتخذ المسلمون في هذه الديار مساجدهم للصلاة والعبادة وتلقي القرآن وعلومه والحديث وفنونه وعلوم اللسان ، وما يتعلق بذلك من المطالب التي فيها قيام امرهم ، وخدمة دينهم اولاً ولغتهم ثانياً ، وظلوا على ذلك في الشام الى أواخر النصف الاول من القرن الخامس ايام أنشأ بدمشق رشأ بن نظيف بن ما شاء الله ابو الحسن الدمشقي سنة ٤٤٤ مدرسته المعروفة بالرشائية اتخذها دارقرآن . وكان الحسن بن عمار قاضي طرابلس للفاطميين والمتغلب عليها أقام في طرابلس دار حكمة اوشبه مدرسة جامعة على نحو دارالحكمة التي أنشأها الحاكم بامر الله في مصر سنة اربعمائة . ولما أراد المعتضد بالله العباسي بناء قصره ببغداد استزاد في الذرع بعد ان فرغ من تقدير ماأراد فسئل عن ذلك فذكر انه يريده ليبني فيه دوراً ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ويجري عليهم الارزاق السنية ليقصد كل من اختار علماً او صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه . واول من حفظ عنه انه بنى مدرسة في الاسلام اهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية ثم مدرسة الامير نصر بن سبكتكين وتبعه غيره . وعني السلاجقة بانشاء المدارس في بلاد الشرق ، وكان آلب أرسلان اذا رأى في بلد رجلاً متميزاً متبحراً في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفاً وقرر فيها للفقهاء معاليم وجعل فيها دار كتب ، ونظام الملك احد وزراء السلاجقة الذي أنشأ المدرسة النظامية في بغداد في القرن الخامس ايضاً .

أصبحت طرابلس في النصف الأخير من القرن الخامس بدار الحكمة التي أنشئت فيها كعبة علم ، كما كانت حلب في القرن الذي قبله على عهد سيف الدولة بن حمدان كعبة أدب . و يقال انه كان في طرابلس اذ ذاك عدة مدارس وخزائن كتب لم يبلغنا خبرها . وعلى هذا فالمدارس في الاسلام نشأت في أواخر القرن الرابع وعرفت جيداً في الخامس والسادس . ونقصد بالمدارس تلك الدور المنظمة التي يأوي اليها طلاب العلم ، وتدر عليهم المعاليم والأرزاق ، و يتولى تدريسهم وتثقيفهم فئة صالحة من المدرسين والعلماء ، وهم موسع عليهم في الرزق ، يختارون بحسب شروط الواقف ممن يحسنون القيام بالغرض الذي ندبوا للدعوة اليه ، و يجازون بما تعلموا من ضروب المعارف الالهية والبشرية .

ولقد كان من نور الدين محمود بن زنكي لما استولى على الشام ، وبعبارة أصح على مدنه الداخلية همة توازي همة ابن عمار في انشاء المدارس لاهل السنة والجماعة كما أنشأ القائد جوهر الأزهر في القاهرة ، والقاضي ابن عمار دار الحكمة في طرابلس لبث التشيع ، أنشأ نور الدين عدة مدارس واخذ يستدعي فحول العلماء من الاقطار ، و يزيل معالم التشيع و يقيم بدلها معالم التسنن ، حتى قالوا ان الشام أصبح على عهده مقر العلماء والفقهاء والصوفية . وبنى سنة ٥٤٥ في حلب المدرسة العصرونية واستدعى لها من سنجار شرف الدين بن ابي عصرون من اعيان فقهاء عصره وبنى له مدرسة بمنبج وأخرى بحماة وثالثة في حمص ورابعة ببعلبك وخامسة بدمشق ، وفوض اليه ان يولي التدريس فيها من يشاء . وبنى لقطب الدين النيسابوري الحكيم الرياضي المفسر الاصولي المدرسة العادلية بدمشق ولم يتمها . واول مدرسة بنيت في حلب انشأها بدر الدولة ابو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب سنة عشر وخمسمائة وسميت المدرسة الزجاجية . واول ماعرف من المدارس في القدس مابناه صلاح الدين يوسف بن ايوب ونسب في الاكثر هو وجميع ماشيده في بلاد الشام الى جماعته وغيرهم ولم ينسب اليه الا القليل .

وقد ذكر الرحالة ابن جبير الذي زار دمشق في سنة ثمانين وخمسمائة انه كان فيها نحو عشرين مدرسة تقوم بالانفاق على من يدخل فيها للتعلم والاستفادة . وقال

ان هذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام والمدارس كذلك وان الرباطات قصور مزخرفة . وقال في كلامه على مشاهد دمشق ولكل مشهد من هذه المشاهد اوقاف معينة من بساتين وارض بيضاء ورباع حتى ان البلدة تكاد الاوقاف تستغرق جميع ما فيها وكل مسجد يستحدث بناؤه او مدرسة او خانقة يعين لها السلطان اوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها . وهذه ايضاً من المفاخر المخلدة . ومن النساء الخواتين ذوات الاقدار من تأمر ببناء مسجد او رباط اومدرسة وتنفق فيها الاموال الواسعة وتعين لها من مالها الاوقاف ، ومن الامراء من يفعل مثل ذلك ، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل اه .

ومعظم المدن مدارس مدينة دمشق ، كثرت في الدولتين النورية والصلاحية وقام بانشاء بعضها العتقاء والخصيان والاماء والبنات ، ومنها ما بني بالمال الحلال من اموال الغنائم ، ومنها ما بناه بعض اهل الخير من بنات الملوك والملكات ، ومن القواد والسادة ، ومنها ما انشأه اهل اليسار من التجار وغيرهم . واكثر من بنوا المدارس في هذه الحاضرة هم غرباء عنها الا قليلا ، ولولا بضع مدارس أُنشئت في القرن الثاني عشر في حلب ودمشق لقلنا ان تاريخ المدارس فيهما ختم بانقراض ملوك الطوائف ودخول الدولة العثمانية بلاد الشام . ومن رأى كثرة المدارس في القرن السادس والسابع والثامن والتاسع وهو دور تأسيسها وقلة ما شيد منها في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، يستنتج معنا ان الامة اذ ذاك كانت على جانب من التدين والغنى وحب الخير اكثر من القرون التالية ، وان بعض من جمعوا ثروات كانوا يحبون ان يتصدقوا من مالهم بشيء يعتقدون انه قربى لهم يوم الجزاء ، وقد فسد الناس في القرون الاخيرة وتوفروا على التهام تلك المدارس واوقافها . وهي على الاكثر تقسم الى اقسام ، فمنها مدارس للشافعية يقرأ فيها فقه الامام احمد بن ادريس الشافعي ، واخرى للحنفية يتلى فيها فقه الامام الاعظم ابي حنيفة ، وغيرها للحنابلة لفقه الامام احمد بن حنبل ، وبعضها للمالكية اي فقه الامام مالك بن أنس ، ومنها مدارس او دور للقرآن يتلقون فيها القراآت على الاصول وما يتعلق بذلك ، ومنها دور للحديث يأخذون فيها فنون الحديث ويروونه . وكان في دمشق خاصة مدارس لتعليم الطب والصيدلة والكحالة

ومدرسة للهندسة يتخرج فيها مهندسون وبناؤون ، ولم يتصل بنا انه أنشيء في عواصم ذاك العهد : عاصمة الوسط دمشق ، وعاصمة الشمال حلب ، وعاصمة الجنوب القدس ، مدارس لتعليم الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية ، ولعل بعض العلوم وخصوصاً الفلك والجغرافيا والتاريخ كانت تدرس في تلك المدارس كما كانت تدرس في الجوامع في بعض الادوار ، وكان ابو شامة في القرن السادس يقريء التاريخ درساً عاماً في الجامع الاموي بدمشق ، وقد وصف ابو الفضل بن منقذ الكناني هذه المدارس بقوله :

ومدارس لم تأتها في مشكل … الا وجدت فتى يحل المشكلا
ما أمّها مرء يكابد حيرة … وخصاصة الا اهتدى وتمولا
وبها وقوف لايزال مغلها … يستنقذ الاسرى ويغني العيّلا
وائمة تلقي الدروس وسادة … تشفي النفوس وداؤها قد اعضلا
ومعاشر تخذوا الصنائع مكسباً … وافاضل حفظوا العلوم تجملا

وقال السابق ابو اليمن المعري في وصف مدارس حلب ومنه استدللنا انها كانت تدرس العلوم المختلفة :

فلديها كل الفنون فيها … ماشتهاه الشرعي والفلسفي

لاجرم انه كان لالقاء العلوم في تلك المدارس نُظُم ومناهج ، ويقرأ الطلبة اشهراً مخصوصة ويفحصون فيما تعلموه ، ولا ينال الاجازة بالتدريس والخطابة والامامة الا من ثبتت لمشايخه كفايته ، وكان على استعداد لان يزداد علماً بعد انجاز الطلب واجازة الطلاب بمسموعات مشايخهم ومروياتهم ·

* * *

دور القرآن بدمشق } في مدينة الرسول بنيت اول دار للقرآن في الاسلام · وذكر الواقدي ان عبد الله بن ام كلثوم قدم مهاجراً الى المدينة مع مصعب بن عمير رضي الله عنهما وقيل قدم بعد بدر بيسير فنزل دار القرآن · وكان في دمشق سبع دور للقرآن على ما في الدارس وهي :

(١) « الخيضرية » كانت شمالي دار الحديث السكرية بالقصاعين وهي اليوم في محلة الخيضرية تنسب اليها ، انشأها قاضي القضاة قطب الدين الخيضري محمد بن محمد

ابن عبد الله بن خيضر الدمشقي سنة ٨٧٨ ووقف عليها وعلى مسجد آخر اوقافاً جمة ، وقد بقي اليوم جزء صغير منها استحال زاوية للشاذلية ٠

(٢) « الدلامية » بالقرب من الماردانية على الجسر الابيض بالجانب الشرقي من الشارع الآخذ اليه بالصالحية فوق نهر ثورة على طريق الجركسية ، أنشأها احمد بن المجلس الخواجكي زين الدين دلامة بن عز الدين نصر الله البغدادي البصري وكان من أجل أعيان الخواجكية بالشام ووقفها سنة ٨٤٧ وهي الآن عبارة عن مصلي ومنزلين بالقرب من جامع كمكم ٠ وفي كتاب وقفها أن صاحبها رتب بها اماماً وله من المعلوم مائة درهم ، رقيّاً وله مثل الامام ، وستة انفار من الفقراء الغرباء المهاجرين لقراءة القرآن ، ولكل منهم ثلاثون درهماً في كل شهر ، ومن شرط الامام الراتب ان ان يتصدى لاقراء القرآن للمذكورين وله على ذلك زيادة على معلوم الامامة عشرون درهماً ، وستة ايتام بالمكتب الذي على بابها ولكل منهم عشرة دراهم في كل شهر ايضاً وقرر لهم شيخاً وله من المعلوم ستون درهماً في كل شهر ولقراءة البخاري في الشهور الثلاثة وللقارئ من المعلوم مائة درهم وعاملاً وله من المعلوم كل سنة ستمائة درهم ، ورتب المرتب في كل عام مثلها ، وللسبع ولقراءة البخاري والتواريخ مائة درهم ، ولارباب الوظائف خمسة عشر رطل من الحلواء ورأسي غنم أضحية ، ولكل من الايتام جبة قطنية وقميص ٠٠٠٠

(٣) « الجزرية » قيل انها كانت بدرب الحجر نُسب ايقافها لمحمد بن محمد الجزري المقري المحدث ٠ واعل درب الحجر هو طريق الجركسية قرب الدلامية فتكون دار الشيخ محمد في حارة الشرباتي ٠

(٤) « الرشائية » شمالي الخانقاه السميساطية الملاصقة للجامع الأُموي من شماليه أنشأها في حدود سنة اربع واربعين واربعمائة رشأ بن نظيف بن ماشاء الله ابو الحسن الدمشقي المقري ٠ وقد درست الآن وبنيت المدرسة الاخنائية مكانها كما في الكواكب السائرة ٠ وقيل كانت بباب الناطفانيين او بالمصرونية ٠ قال الليثي هي التي جوار الخانقاه السميساطية من الشمال ٠ قال ابن قاضي شهبة وقد زالت عينها وأُدخلت في غيرها ٠

(٥) « السنجارية » كانت تجاه باب الجامع الأموي الشمالي أنشأها علي بن اسماعيل ابن محمود السنجاري احد التجار الاخيار سنة ٧٣٩ وهي امام الاخنائية استحالت داراً ولم يبق غير بابها وعليه وقفها[١] ٠

(٦) « الصابونية » خارج باب الجابية قبالة تربة الباب الصغير لشهاب الدين احمد ابن علم الدين سليمان بن محمد البكري المعروف بالصابوني تم انشاؤها سنة ٨٦٨ وبنى ايضاً تجاهها بشرق مكتباً لايتام عشرة بشيخ لهم يقرئهم القرآن العظيم بمعاليم شرطها لهم معلومة تصرف عليهم من جهات عديدة منها عدة قرى غربي مدينة بيروت تحت يد امير الغرب تعرف بالصابونية ٠ ولا تزال هذه الدار باقية الى اليوم وهي مدفن السادة بني البكري ٠

(٧) « الوجيهية » قبلي المدرسة العصرونية والمسرورية وغربي الصمصامية التي شمالي الخاتونية انشأها وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا الرئيس شيخ الحنابلة الدمشقي التنوخي سنة ٦٩٠ درست واصبحت مخازن ودوراً ٠

وفي ترجمة تنكز انه عمل داراً للقرآن الى جانب داره دار الذهب بدمشق وعلى ذلك فتكون دور القرآن ثمانية ٠ وما اجمل ماقال علي بن منصور السروجي في دمشق :

في كل قطر بها للعلم مدرسة ... وجامع جامع للدين معمور
كأن حيطانها زهر الربيع فما ... يملّه الطرف فهو الدهر منظور
يتلى القران به في كل ناحية ... والعلم يذكر فيه والتفاسير

* * *

دور الحديث بدمشق } عُني المسلمون اى عناية برواية الحديث الشريف لفهم السنة والكتاب وللتبرك والتفقه ٠ واول من بنى دار حديث في الشام وربما في عامة بلاد الاسلام نور الدين محمود بن زنكي وكثرت دوره بعد ذلك ٠ وكان في دمشق على ماذكر في الدارس ثماني عشرة داراً للحديث وهي :

(١) أشكر لصديقي الاستاذ الشيخ عبد المحسن الاسطواني من علماء دمشق لتفضله باطلاعي على مفكراته في مدارس هذه المدينة ومطالعاته الخاصة فيها ٠

(٨) « الاشرفية » جوار باب القلعة الشرقي غربي العصرونية ، وشمالي القايمازية الحنفية ، وفي رواية ان القايمازية هي مدرسة ، وكانت دار الامير قايماز بن عبد الله النخمي وله بها حمام فاشتراها الملك الأشرف موسى بن العادل وبناها دار حديث ونجز بناؤها سنة ٦٣٠ درس بها جلّة من العلماء مثل ابن الصلاح وابن الحرستاني وابي شامة والنواوي والشريشي والفارقي وابن الوكيل وابن الزملكاني والحافظ المزي والسبكي وابن كثير وغيرهم ، وكانت يد التعدي تسطو على هذه المدرسة في أواخر القرن الماضي كما سطت على غيرها من المدارس فقام الفقيه الشيخ يوسف البيباني المغربي واستخلصها وأعادها مدرسة وسكنها من بعده نجله المحدث الكبير الشيخ بدر الدين الحسني جعلها مقره تقرأ فيها دروسه وقد حرقت في حريق سنة ١٣٣٠ هـ الذي دمر اربعة شوارع من شوارع المدينة ودمر ما فيها من الحوانيت والدور والمعاهد ثم رممت ترميماً خفيفاً وعاد بعض الطلبة والغرباء فسكنوها ٠

(٩) « الأشرفية البرانية » بسفح جبل قاسيون على ضفة نهر يزيد تجاه تربة الوزير تقي الدين التكريتي وشرقي المرشدية الحنفية وغربي الأتابكية الشافعية ، بناها الملك الاشرف المظفر موسى بن العادل باني دار الحديث المتقدمة قبل سنة ٦٤٣ ، ودرس فيها جلة من العلماء اخذها المجمع العلمي العربي من الأوقاف ليجعل فيها بعد ان يرمها خزانة كتب يختلف اليها اهل تلك المحلة ٠

(١٠) « البهائية » داخل باب توما كانت دار بهاء الدين ابي القاسم بن بدر الدين ابي غالب المظفر المتوفى سنة ٧٨٣ وليس لها اليوم أثر ٠

(١١) « الحمصية » كانت معروفة بحلقة حمص في الجامع الأُموي فقدت وجهل مكانها ، وفي مفكرات طارق ان الحمصية في سوق ساروجا امام جامع الشامية بدئ باختلاسها منذ سنة ٩٠٠ ٠

(١٢) « الدوادارية » دار حديث ومدرسة ورباط داخل باب الفرج وهو باب المناخلية اليوم ، لعلم الدين سنجر الدوادار المحدث الحافظ المتوفى سنة ٦٩٩ من نجباء الترك وعلمائهم وهي غير معروفة لعهدنا ولعلها الدار الكائنة امام بحرة الدفاقة فظاهرها يدل على ذلك ٠

(١٣) « السامرية » وبها خانقاه بالقرب من محلة مأذنة الشحم في زقاق الشيخ الدسوقي أنشأها الصدر الكبير سيف الدين ابو العباس احمد بن محمد البغدادي السامري وهو مدفون بها . والسامري نسبة الى سرّ من رأى بلد على دجلة . قال الصلاحي الكتبي ان سيف الدين السامري كان يسكن داره المليحة التي وقف عليها خانقاهاً ووقف عليها باقي املاكه وكان السلطان صادرها (٦٩٦) . وهي موجودة اليوم ولكن لم يبق منها غير المدفن ويقال للحي زقاق السلمي .

ومن دور الحديث الداثرة (١٤) « السكرية » بالقصاعين وهو اول سوق الخلق (القميلة) وكان امس سوق القطن داخل باب الجابية ، وهي ما يظهر داخل الدخلة التي شرقي جامع شركس ، درست وكان درّس بها ابن تيمية ووالده والحافظ الذهبي .

(١٥) « الشقشقية » بدرب البانياسي في ظاهر المدينة أنشأها نجيب الدين ابو الفتح نصر الله الشيباني الصفّار المعروف بابن الشقيشقة وهي من الدوارس ايضاً .

ومن الدوارس (١٦) « العروية » بمشهد عروة من الصحن الشرقي من الجامع الأموي قبالة الحلبية المعروفة قديماً بمشهد علي أنشأها شرف الدين محمد بن عروة الموصلي ووقف عليها مكتبة عظيمة توفي سنة ٦٢٠ ومحلها معروف وهي مستودع للجامع .

(١٧) « الفاضلية » بالكلاسة منسوبة للقاضي الفاضل البيساني من رجال صلاح الدين والمدرسة جوار تربة هذا السلطان وهي الآن مساكن .

(١٨) « القلانسية » غربي مدرسة ابي عمر بالصالحية بها رباط ومنارة يمر في وسطها نهر يزيد ، إنشاء الصاحب عز الدين ابي يعلى حمزة التميمي المعروف بابن القلانسي من كبراء دمشق المتوفى سنة ٧٢٩ وكان في رباطه هذا مأذنة ، ودارحديث وبر وصدقة ، وقد جعلت هذه المدرسة مسجداً صغيراً بمعاونة رجل اسمه الشيخ اسماعيل التكريتي .

(١٩) « القوصية » بالقرب من الرحبة قال بعضهم : انها في الجامع الأموي بجوار الشافعية وهي احدى حلقات الجامع قديماً .

(٢٠) « الكرّوسية » غربي مأذنة الشحم لمحمد بن عقيل بن كرّوس السلمي

محتسب دمشق أنشئت سنة ٦٤١ كان فيها ثلاثة قبور وجعلت دوراً وهي شمالي السامرية ٠

(٢١) « النورية » هي من دور الحديث الباقية واول دار أنشئت لهذا الغرض أنشأها نور الدين محمود بن زنكي ، وهي الآن مسجد جامع وبها قبره يزار ويتبرك به ، تولى مشيختها في عصره الحافظ ابو القاسم بن عساكر وهو الذي ذكر ان جملة شيوخه الف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة ٠ هذه هي النورية الكبرى ٠

اما (٢٢) « النورية الصغرى » فهي في العصرونية بين دار الحديث الاشرفية ومدرسة العصرونية امام العادلية الصغرى وقد حرقت في الحريق الاخير ٠ وفي النورية الكبرى فيما نظن يقول العرقلة الدمشقي :

ومدرسة سيدرس كل شيءٍ وتبقى في حمى علم ونسك
تضوّع ذكرها شرقاً وغرباً بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكٍ وهذي في المدارس بيت ملكي

(٢٣) « النفيسية » قبلي البيمارستان الدقاقي (كذا) و باب الزيادة اي القوافين اليوم على يمنة الخارج منه شمالي غربي المدرسة الأمينية انشاء النفيس اسماعيل بن محمد بن عبد الواحد الحرّاني ناظر الايتام سنة ٦٩٦ حدثنا الثقة انه رأى حجر بابها باقياً بحاله وقد طمس بالطين حتى لا يظهر أثرها وأصبحت دوراً ٠

(٢٤) « الناصرية » كان بها رباط قبلي جامع الافرم بسفح قاسيون وهي الناصرية البرانية انشاء الملك صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز سنة (٦٥٤) امست حديقة الآن وكانت انقاضها ظاهرة الى عهد قريب وادخلت احجارها في ترصيف ضفة يزيد وفيها جسر معقود جميل ربما كان الموصل الى دمشق ويتجاوز عرضه ثلاثين متراً ٠

(٢٥) « التنكزية » دار قرآن وحديث شرقي حمام نور الدين الشهيد وراء سوق البزورية انشأها نائب السلطنة تنكز سنة ٧٣٠ وهي الآن مدرسة للصبيان سميت الهاشمية وكان هندسها المعمار ايدمر المغني ٠

(٢٦) « الصبابية » دار قرآن وحديث قبلي العادلية الكبرى وشمالي الطبرية انشأها شمس الدين بن الصباب . قال في مختصر الدارس انها احترقت في الفتنة اي فتنة تيمورلنك ولم يبق لها اثر سوى سبيل الماء .

(٢٧) « المعبدية » دار حديث وقرآن والمشهور انها دار قرآن انشاء الامير علاء الدين علي بن معبد البعلبكي ليست معروفة .

٭ ٭ ٭

مدارس الشافعية بدمشق

في الدارس انه كان في دمشق سبع وخمسون مدرسة للشافعية وهي :

(٢٨) « الاتابكية » بالصالحية غربي المرشدية ودارالحديث الاشرفية المقدسية، انشأتها اخت نور الدين ارسلان بن اتابك صاحب الموصل المتوفاة سنة ٧٤٠ وبها قبرها وقد جعلت لعهدنا مصلى درس بها زمرة من مشاهير علماء الشافعية .

(٢٩) « الإسعردية » بالجسر الابيض بالصالحية دثرت وهي في وسط البساتين، انشأها ابراهيم بن مبارك شاه الاسعردي من ارباب الثراء والسخاء توفي سنة ٨٢٦ ودفن بتربة مدرسته . قال ابن قاضي شهبة : كان الاسعردي هذا والشمس ابن المزلق اكبر تجار دمشق وله المتاجر السائرة في البلدان قد اعطاه الله المال والبنين ، وكان عنده كرم واحسان الى الفقراء ، وكان صاحب هذه المدرسة الاسعردية يقول عجائب الدنيا اربعة واحسنها غوطة دمشق واحسن الغوطة الصالحية واحسن الصالحية الجسر الابيض !

(٣٠) « الاسدية » بالشرف القبلي ظاهر دمشق مطلة على الميدان الاخضر وهي على الفريقين الشافعية والحنفية ، انشاء اسد الدين شيركوه من قواد نور الدين وهي في حديقة الشرف وانقاضها ماثلة للعيان .

(٣١) « الاصفهانية » كانت بمحلة الغرباء بالقرب من درب الشعارين لتاجر من اصفهان وفي رواية انها خلف المدرسة القاچازية وغرباً محلتها ومكانها غير معروف على التحقيق ، و يذهب بعضهم الى انها كانت موضع تكية احمد باشا وقد ادخلت فيها .

(٣٢) « الإقبالية » داخل باب الفرج و باب الفراديس وبينهما شمالي الجامع

الاموي والظاهرية الجوانية وشرقي الجاروخية وغربي التقوية لشمال ، انشأها جمال الدولة اقبال خادم نور الدين وعتيق ست الشام ، وقد استحالت داراً ثم استخلصت على يد الحاكم وأُلحقت باملاك المعارف ولم يبق منها الا الحجر الذي كان على بابها وفيه اوقافها وهي شمالي حمام العقيقي .

(٣٣) « الاكزية » قبالة الشبلية الحنفية انشاء اكز حاجب نور الدين محمود وهي غربي الطيبة والتنكزية وشرقي ام الصالح ، غُيرت معالمها وبابها موجود ، وقد استحالت داراً .

(٣٤) « الامجدية » بالشرف الاعلى الشمالي مطلة على المرجة قرب مستودع البارود ، انشاء الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه بن عبد العزيز فروخشاه بن شاهنشاه بن ايوب بن شادي صاحب بعلبك وهي دار فروخشاه وكان الملك الامجد اشعر بني ايوب ودفن فيها ، قال ابن الشحنة دفن الامجد بمدرسة والده التي على الشرف بدمشق ، وكانت هذه المدرسة عامرة الى القرن الثاني عشر بدليل ان السيد ابراهيم ابن حمزة درس بها ، وهي اليوم حظيرة دواب رأيت القبر الذي فيها غير مرة محاطاً بالسرقين . ولكثرة مافي جوار هذه الدار من المدارس سمي اليوم الزقاق الموصل اليها وهو الذي يبتدئ من امام جامع الطاووسية ومستودع الترامواي الكهربائي وينتهي بمستودع البارود بزقاق المدارس .

(٣٥) « الامينية » قبلي باب الزيادة المعروف اليوم بباب القوافين من ابواب الجامع الاموي ، وهي شرقي المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح وكان به بابها وتعرف هذه المحلة قديماً بباب القباب ، وهناك دار مسلمة بن عبدالملك ، قيل انها اول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية بناها اتابك العساكر الملقب بامين الدولة ربيع الاسلام امين الدين كمشتكين ابن عبد الله السفنكي المتوفى سنة ٥٤١ وقد بنيت المدرسة سنة ٥١٤ وفي تاريخ دمشق ان الحسن بن محمد النهربيتي المقري الفقيه سمع الحديث بدمشق في المدرسة الامينية واول من درس بها جمال الاسلام ابو الحسين علي بن المسلم الدمشقي سنة ٥١٤ وهي الآن في سوق الحرير جعلت كتاب صبيان واختلس الجيران بعضها .

(٣٦) « الباذرائية » جاء في الدارس انها داخل باب الفراديس والسلامة شمالي جيرون وشرقي الناصرية الجوانية ، وفي المختصر انها على باب الجامع الأموي الشرقي المؤدي الى العمارة ، وكانت قبل ذلك داراً تعرف بأسامة وهو أسامة الجبلي احد كبار الامراء المتوفى سنة ٦٠٩ أنشأها نجم الدين ابو عبدالله محمد الباذرائي البغدادي المتوفى سنة ٦٥٥ قال الذهبي الباذرائي قاضي القضاة سفير الخلافة نجم الدين عبدالله ابن الحسن الباذري الشافعي صاحب المدرسة التي بخط جيرون . ولا تزال أسوارها باقية ولكنها سائرة نحو الخراب وان لم يكن بعينه الآن وقد اقتطع جانب منها جعل دوراً .

(٣٧) « البهنسية » بسفح قاسيون أنشأها نجم الدين المعروف بابي الأشبال وزير الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب المتوفى سنة ٦٢٨ وهي على طريق المهاجرين بطرف السكة بجوارها كورة العدس .

(٣٨) « التقوية » داخل باب الفراديس المعروف اليوم بباب العمارة شمالي الجامع شرقي الظاهرية والاقبالية كانت من اجل مدارس دمشق ، بناها سنة ٥٧٤ الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ودرس بها جلة العلماء وفي عرف البشام ان المدرسة القصاعية والمدرسة التقوية كانتا عامرتين في القرن العاشر وهي اليوم بيد بني التغلبي تقام بها الأذكار باسم خانقاه ولها مخصصات شهرية من الحكومة .

(٣٩) « الجاروخية » داخل باب الفرج والفراديس وفي حي السبعة طوالع اليوم بالقرب من الاقبالية الحنفية شمالي الجامع الأموي والظاهرية الجوانية المعروفة بناها جاروخ التركماني برسم ابي القاسم محمود بن المبارك المعروف بالمجير الواسطي البغدادي سنة ٥٩٠ درس بها كثير من العلماء ومنهم زمرة من الفقهاء بني جهبل . خربت وهي دار بني الكيلاني اليوم .

(٤٠) « الحمصية » تجاه الشامية البرانية قال ابن كثير : في سنة ٧٢٦ فتحت المدرسة الحمصية ودرس بها محيي الدين الطرابلسي الملقب بابي رباح . وقال في مختصر الدارس انها خربت بعد قليل من تشييدها ، والغالب انها درست وجعلت دوراً ولم يبق منها الا قطعة خربة .

(٤١) « الحلبية » بمحلة السبعة طوالع وهي خلف دار الكتب الظاهرية او المدرسة الظاهرية مجهول حالها ومنشئها من القديم · قال في الدارس ان شهاب الدين ابن عبد الخالق المتوفى سنة ٨١٥ وقف الى جانب المدرسة الحلبية مسجداً واضافه الى المدرسة ووقف عليها ، وممن وقف عليها الامير سيف الدين من مماليك برقوق ·

(٤٢) « الحبيصية » قبلي الزنجاري ، وخان الزنجاري هو جامع التوبة الآن ، تولى مشيختها ابن قاضي اذرعات وقد استحالت دوراً ·

(٤٣) « الخليلية » بانيها سيف الدين بكتمر الخليلي المتوفى (٧٤٦) ولا يعرف عنها شيء ·

(٤٤) « الدماغية » كانت داخل باب الفرج وغربي الباب الثاني الذي قبلي باب الطاحون وهي قبلي وشرقي الطريق الآخذ الى باب القلعة الشرقي وهذا الطريق بينها وبين الخندق وهي ايضاً شمالي العمادية بين الشافعية والحنفية ، أنشأتها عائشة جدة فارس الدين بن الدماغ زوجة شجاع الدين بن الدماغ (٦٣٨) درس بها جلة من العظماء وهي الآن قاعة النشا التي في المناخلية · وفي الصالحية مدرسة أخرى اسمها الدماغية أنشأها او درس بها افتخار الكاشغري ·

(٤٥) « الدولعية » بجيرون قبلي المدرسة الباذرائية لجمال الدين محمد الثعلبي الدولعي خطيب دمشق ، وقد كانت الدولعية والشبلية عامرتين في القرن الحادي عشر درس بهما اسماعيل الحائك والدولعية في الدخلة المشهورة اليوم بدخلة الداغستاني في نصف الطريق الآخذ من دار بني منجك الى زقاق الباذرائية اختلست وجعلت دوراً وفي احدى الدور قبر مدفون فيه واقف المدرسة محمد بن ابي الفضل بن زيد الخطيب الثعلبي الارقمي الدولعي ثم الدمشقي (٦٣٥) قاله الصفدي ودفن في الصفة الغربية من المدرسة وهاك نسخة التوقيع الذي كتب للفخر المصري المتوفى (٧٥١) بتدريس الدولعية ونظرها : رسم بالامر العالي لا زال يرتفع به العلم الشريف الى فخره ، و يعيده الى حين خير تقتبس الفوائد من نوره وتغترف من بحره ، و يحمد الزمان بولاية من هو علم عصره وفخر مصره ، ان يعاد المجلس العالي الفخري الى كذا وكذا وضعاً للشيء في محله ، ورفعاً للوابل على طله ، ودفعاً لسيف النظر الى يد هي

مألف هزته وسله ، ومنعاً لشعب مكة ان ينزله غير اهله ، اذ هو لاصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه حجة ، ولبحر مذهبه الذاخر لجة ، ولاهل فضله الذين يقطعون مفاوزه بالسرى صبح بالمسير محجة ، طالما ناظر الاقران فعدلهم ، وجادل الخصوم في حومة البحث نخذلهم وجندلهم ، كم قطع الشبهات بحجج لا يعرفها السيف ، واتى بوجه مارأى الرؤياني احلي منه في احلام الطيف ، ودخل باب علم فتحه القفال لطالب نهاية المطلب التبري ، وارتوى من معين ورد عين حياته الخضري ، وتمسك بفروع صح سبكها فقال ابن الحداد هذا هو المذهب المصري ، واوضح المقال بما نسف به جبال النسفي ، وروى اقوال اصحاب المذاهب بحافظة يتمناها الحافظ السِّلفي ، كم جاور بين زمزم والمقام ، والقى عصى سفره لما رحل عنها الحجيج واقام ، وكم طاب له القرار بطيبة ، وعطر بالازهر (بالاذخر ؟) والجليل رداءه وجيبه ، وكم استروح بظل نخلها والثمرات ، وتملى بمشاهدة الحجرة الشريفة وغيره يسفح على قرب تربها العبرات ، وكم كتب بالوصال له وصولا ، وبث شكواه فلم يجعل بينه وبين الرسول رسولا ، لا جرم انه عاد وقد زاد وقاراً ، وآب بعد ماغاب ليلاً فتوضح سبيله نهاراً ، فليباشر ما فوض اليه جرياً على ما عُهد من افادته ، وألف من رياسته ، لهذه العصابة وزيادته ، وعرف من زيادة يومه على امسه ، فكان كنيل بلاده ولا يتعجب في زيادته ، حتى يحيي بدرسه مادرس ، ويثمر عود الفروع فهو الذي انبته بهذه المدرسة وغرس ، مجتهداً في نظر وقفها ، معتمداً على تتبع ورقات حسابها وصحفها ، عاملاً بشروط الواقف فيما شرط ، قابضاً ماقبضه وباسطاً ما بسط ، ويقوي الله تعالى حبه ليرفع فيها خاطره ، ويسرح في رياضها الناضرة ناظره ؛ ومثله لا ينبه عليها ، ولا يومى له بالاشارة اليها ، فلا ينزع مالبسه من حلاها ، ولا يسير في مهمه مهم الا بسناها ، والله يديم بفوائده لاهل العلم الظل الوريف ، ويجدد له سعداً يشكر التالد منه والطريف ، والظرف والخط الكريم اعلاه ، حجة بمقتضاه » .

(٤٦) « الركنية الجوانية » شمالي الاقباليتين شرقي العزية الجوانية والفلكية غربي المقدمية واقفها ركن الدين منكورش عتيق فلك الدين سليمان درس بها جلة من العظماء منهم ابن خلكان وابو شامة وبنو حمزة وهي اليوم في زقاق بني مفلح امام

المقدمية وبينهما الطريق ويعرف الآن بدخلة بني عبد الهادي في العمارة وهي منضمة الى دار بني العمري ولم يبق لها اثر ٠

(٤٧) « الرواحية » شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الاموي ولصيقة جيرون وغربي الدولعية وقبلي السيفيـة الحنبليـة بانيها زكي الدين بن رواحة الحموي التاجر الغني المعدّل المتوفى سنة ٦٢٢ درس بها ابن الصلاح والسهروردي وابن البازري وابن الزملكاني وابنـاء السبكي وغيرهم ، وقد أُنشئت هذه المدرسة نحو سنة ٦٠٠ ٠ قال المؤرخون ان زكي الدين بن رواحة بنى بحلب مدرسة للشافعية وبدمشق مثلهـا داخل باب الفراديس ووقف عليهما اوقافاً حسنة وقنع بعد ذلك باليسير وكان يسكن في بيت المدرسة الدمشقية وهو الذي في ايوانها من الشرق ويقابله من الغرب خزانة الكتب التي وقفها وهي كتب جليلة كان من ارباب الثروة ٠ واصبحت المدرسة الرواحية الآن داراً ٠

(٤٨) « الزاوية الخضراء » بمقصورة الخضراء غربي الجامع الاموي وهي مكان داخل الجامع اشبه بالحلقات ٠

(٤٩) « الشامية البرانية » بمحلة العقيبة انشاء ست الشام بنت نجم الدين ايوب ابن شادي والدة الملك اسمعيل المتوفاة سنة ٦١٦ وتعرف هذه المدرسة بالحسامية لان ابنها حسام الدين دفن فيها كما انها هي ايضاً دفنت فيها ٠ وهي اليوم مدرسة ابتدائية للايتام تقوم بها جمعية الاسعاف الخيري وكان درّس بها من المشاهير تقي الدين ابن الصلاح ، وعبد العزيز بن ابي عصرون ، ومحيي الدين بن الزكي والفارقي والشريشي وابن الوكيل وابن قاضي شهبة وغيرهم ٠

(٥٠) « الشامية الجوانية » قبلي البيمارستان النوري انشاء ست الشام ايضاً درّس بها من عظماء الشافعية ابن الصلاح قال ابن خلكان في ترجمته ان الملك الاشرف بن الملك العادل بن ايوب لما بنى دار الحديث بدمشق فوض تدريسها اليـه ثم تولى تدريس مدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت ايوب وهي شقيقة شمس الدولة توران شـاه بن ايوب التي هي داخل البلد قبلي البيمارستان النوري وهي بَنَتْ المدرسة الأخرى ظاهر دمشق و بها قبرها وقبر اخيها المذكور وزوجهـا ناصر الدين بن اسد

الدين شير كوه صاحب حمص فكان يقوم بوظائف الجهات الثلاث . قلنا وكثير من هؤلاء الفقهاء والمحدثين كانوا يدرسون في المدرستين والثلاث وربما اكثر . ومن مدرسيها سالم بن ابي الدر امين الدين ابو الغنائم (٧٢٦) وزين الدين الفارقي شيخ دار الحديث الاشرفية . وقد خربت هذه المدرسة ولم يبق فيها سوى بابها وواجهتها الحجرية واتخذت داراً . ومن اوقافها المزرعة المعروفة بجرمانا .

(٥١) « الشاهينية » بالقرب من جامع التوبة بحارة العقيبة انشاء الدوادار[1] شاهين الشجاعي أُحرقت (٨١٦) فأعاد عمارتها هو ايضاً .

(٥٢) « الشومانية » إنشاء خاتون بنت ظهير الدين شومان وهي المسماة بالطيبة، والطيبة كما في الدارس قبلي النورية الكبرى ليست معروفة .

(٥٣) « الشريفية » كانت عند حيّ الغرباء بدرب الشعارين عند باب السلام وفي تاريخ مبرات الشام انها قبلي الجامع الاموي بالصاغة لم يعرف واقفها . درست وأصبحت حوانيت .

(٥٤) « الصالحية » غربي الطيبة والجوهرية الحنفية وقبلي الشامية الجوانية بشرق وتعرف بتربة أُم الصالح اسماعيل بن الملك العادل سيف الدين صارت مساكن ولم يعرف لها اثر وكان من جملة مدرسيها الذهبي وابن كثير .

(٥٥) « الصارمية » داخل بابي النصر والجابية قبلي العذراوية بشرق إنشاء صارم الدين ازبك مملوك قايماز النجمي (٦٢٢) أصبحت دوراً وكان درس بها طبقة عالية من المدرسين .

(٥٦) « الصلاحية » بالقرب من البيمارستان النوري وهي من إنشاء نور الدين محمود بن زنكي واليه نسبها ابن قاضي شهبة ومنسوبة للسلطان صلاح الدين . لم يبق لها أثر .

(٥٧) « النقطائية » داخل باب الصغير في الشاغور بنحو مائة ذراع الى شرق شمال

---

(١) الدوادار هو مبلغ الرسائل عن السلطان ومقدم القصص اليه وله المشارفة على من يحضر الي الباب الشريف وتقديم البريد و يأخذ الخط على عامة المناشير والتواقيع والكتب .

غربي بيت الخواجا الناصري قبلي منارة الشحم عمر بعضها ومجهول بانيها وليس لها أثر الآن ٠

(٥٨) « الطبرية » بجوار باب البريد انشأها نور الدين الشهيد درّس بها الشرف ابن هبة الله ٠ لا يعرف عنها شيء وليس لها من اثر ٠

(٥٩) « الطيبة » قبلي النورية الحنفية وشرقي تربة زوجة تنكز بقرب الخواصين وهي المسماة بالشومانية وانما غير اسمها تيمنًا درّس بها جلة من الفقهاء وهي الآن دار ابني العظمة وبني كيوان ٠

(٦٠) « الظبيانية » قبلي المدرسة الشامية الجوانية التي هي قبلي البيمارستان النوري وغربي المدرسة الصالحية التي غربي مدرسة الطيبة خربت ٠

(٦١) « الظاهرية البرانية » خارج باب النصر شرقي الخاتونية الحنفية وغربي الخانقاه الحسامية بين نهري بانياس وقنوات بالشرف القبلي بناها الملك الظاهر بن الملك الناصر صلاح الدين درّس بها كثير من المشاهير منهم امام الدين وجلال الدين القزويني وابن صصري وابن جملة ٠ ولم يبق لها اثر الآن ٠

(٦٢) « الظاهرية الجوانية » وهي للحنفية والشافعية داخل باب الفرج والفراديس جوار الجامع شمالي باب البريد وقبلي الاقباليتين والجاروخية وشرقي العادلية الكبرى انشأها مدرسة ودار حديث الملك الظاهر بيبرس وهي التي دفن بها هو وابنه الملك السعيد سنة ٦٧٦ كتب على واجهة بنائها جريدة وقفها بحروف غليظة وزُبر اسم مهندسها في الزاوية الشمالية من المدخل « عمل ابراهيم بن غنائم المهندس » وممن درّس بها نائب السلطة ايدمر الظاهري والاذرعي والاخنائي والسويدي والاسدي والرعيني والواسطي ٠ وهي اليوم بيد المجمع العلمي العربي جعلت مخطوطاتها في القبة الظاهرية المعمولة حيطانها بالفسيفساء البديعة وقد أنشئت خزانة كتب منذ اواخر القرن الماضي ٠

(٦٣) « العادلية الكبرى » شمالي الجامع بغرب وشرقي خانقاه الشهابية وقبلي الجاروخية تجاه باب الظاهرية يفصل بينهما الطريق المؤدي الى باب البريد ، بدأ بأنشائها نور الدين محمود بن زنكي ولم تتم ، ثم عمل فيها الملك العادل سيف الدين ولم

تم، ثم ولده الملك المعظم، ووقف عليها الاوقاف ونسبها لوالده الذي دفن فيها . انشأها نور الدين للامام قطب الدين النيسابوري فعاجل الاجل الباني والمبني له قبل اتمامها. قال صاحب الروضتين : وقد رأيت انا ما كان بناه نور الدين ومن بعده منها وهو موضع المسجد والمحراب الآن ، ثم لما بناها الملك العادل ازال تلك العمارة وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس ، وهي المأوى وبها المثوى ، وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب (الروضتين) فلا اقفر ذلك المنزل ولا اقوى اه . وقال ايضاً وفي سنة ٦١٢ شرع في عمارة المدرسة العادلية المقابلة لدار العقيقي من الغرب وحضر السلطان لترتيب وضعها بين الصلاتين يوم السبت ثم احرقت بالنار في رمضان المبارك سنة اربع عشرة.

وقال ابن ابي شامة في ذيل الروضتين ايضاً في حوادث سنة ٦١٩ وفيها نقل تابوت العادل بن ايوب من قلعة دمشق الى تربته المقابلة لدار العقيقي ، اخرجوا جنازته من القلعة والتابوت مغشى بمرقعة ، وارباب الدولة حوله ، الى ان قال : ولم تكن المدرسة كملت عمارتها والقى فيها الدرس في هذه السنة القاضي جمال الدين المصري وحضر درسه اعيان الشيوخ والقضاة والفقهاء وحضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل وتكلم في الدرس مع الجماعة . وكان الاجتماع بايوان المدرسة وجلس عن يمين السلطان الى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيري ويليه شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين بن عساكر ثم القاضي شمس الدين الشيرازي ثم القاضي محيي الدين يحيى بن الزكي وجلس عن يسار السلطان الى جانبه مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري والى جانبه شيخنا سيف الدين الآمدي ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر ودارت حلقة صغيرة والناس وراءهم مصلون ملأ الايوان . وكان في دور تلك الحلقة اعيان المدرسين والفقهاء . وقبالة السلطان فيها شيخنا تقي الدين بن الصلاح وغيره وكان مجلساً جليلاً لم يقع مثله الا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة اه . قال ابن كثير وفي سنة اربع وسبعمائة جلس قاضي القضاة نجم الدين ابن المصري بالمدرسة العادلية الكبرى وعملت التخوت بعدما جددت عمارة المدرسة ولم يكن احد يحكم بها بعد وقعة غازان بسبب خرابها . وهذه المدرسة من اعظم مدارس الشافعية بدمشق وكان يحكم بها

قاضي القضاة و يجلس نواب القاضي بالمدرسة الظاهرية المناوحة لها ·

درس بها وسكنها جلة من العلماء منهم ابن خلكان والجلال القزويني والعلاء القونوي وابناء السبكي والفيلسوف الفقيه كمال الدين التفليسي وابن مالك النحوي وابن جماعة وممن درس بها وسكنها الشهاب احمد المنيني صاحب التآليف المشهور من اهل المئة الثانية عشرة وسكنها ودرس بها اولاده من بعده · وقداخذها المجمع العلمي العربي لما أسس في سنة ١٩١٩م وجعلها مقره ورمّها بما يقربها من الهندسة الاصلية وجعل قسماً منها متحفاً للعاديات والآثار الاسلامية وغيرها · وقد حرقت هذه المدرسة مرتين الاولى في فتنة غازان التتري سنة ٦٩٩ مع ما حرق من مدارس المدينة ، والثانية في سنة ٧٧٨ ولعلها احرقت في فتنة تيمور ايضاً (٨٠٣) هذا عدا ما تناوبها من الزلازل · ومع هذا لم يزل حائطها القبلي وحائطها الشرقي قائمين احسن قيام ، اما الجداران الآخران الغربي والشمالي فقد خربا وما بني بجانبهما جديد · ومن الاسف انا لم نعثر فيها على كتابة ولو ضئيلة تدل على شيء من تاريخها ووقفها وانشائها حتى ولا على قبر الملك العادل الذي نبش على ما يظهر في القرن الاخير لاخذ الذخائر التي كانت تدفن مع الملوك والعظماء · وكانت فيها خزانة كتب مهمة ·

والعادلية اليوم العضو الاثري المهم من تلك المدارس التي كانت في القرون الوسطى مفخر الشام والاسلام · قلت في التقرير الرابع للمجمع العلمي عن سنة ١٩٢٥—١٩٢٦—١٩٢٧ وفي العادلية وضع المقدسي تاريخ الروضتين في اخبار الدولتين ، وفي العادلية عمل ابن خلكان تاريخه المشهور ، وعلى باب العادلية كان يقف ابن مالك النحوي ويدعو الناس لحضور درسه ، ينادي هل من متعلم هل من مستفيد ، والتاريخ يعيد نفسه ، وفي العادلية نزل ابن خلدون فيلسوف العرب اوائل المئة التاسعة · وكأن المولى تعلقت ارادته فقضى ان لا يخلي العادلية والظاهرية من علم ينشر ، وادب يذكر ، فاختارهما مباءة للمجمع العلمي يقيم فيهما سوق العلم والادب بعد الكساد على النحو الذي كانتا عليه منذ وضع اساسها نور الدين زنكي والظاهر بيبرس ·

(٦٤) « العادلية الصغرى » داخل باب الفرج شرقي باب القلعة الشرقي قبلي

الدماغية والعادية أنشأتهـا زهرة خاتون بنت الملك العادل ابي بكر بن ايوب وقد حرقت مؤخراً وبقيت جدرانها قائمة ٠

(٦٥) « العذراوية » بحارة الغرباء داخل باب النصر الذي كان يسمى بباب دار السعادة كما في الدارس وفي مختصره انها في جوار دارالعدل التي سميت في القرن الماضي دار المشيرية حيث يقيم مشير العساكر في الدولة العثمانية وهي اليوم مقر البعثة الافرنسية ، انشاء عذراء بنت السلطان صلاح الدين يوسف في رواية ٠ وهي للفريقين الشافعية والحنفية درّس بها الفخر بن عساكر وعزالدين بن ابي عصرون ومحيي الدين بن الزكي والشمس بن خلكان وابن قاضي شهبة وغيرهم وهي باقية اتخذت داراً يجتمع فيها النساء لسماع الوعظ ٠ وكان فخر الدين بن عساكر اول من درس بالمدرسة العذراوية ودرس بالنورية والجاروخيـة وهذه الثلاث مدارس بدمشق والمدرسة الصلاحيـة بالقدس يقيم بالقدس اشهراً وبدمشق اشهراً ٠

(٦٦) « العزيزية » شرقي التربة الصالحية وغربي التربة الاشرفية وشمالي دار الحديث الفاضلية اول من أسسها الملك الافضل وأتمها الملك العزيز ، وممن درس بها سيف الدين الآمدي وغيره من المشهورين هدمها ضيا باشا والي سورية وجعلها حديقة ضمت الى مدفن صلاح الدين أواخر القرن الماضي ٠ وفي بعض التواريخ ان القاضي محيي الدين بن الزكي امر بان تبنى دارالامير أسامة مدرسة للتربة ٠ وهي المدرسة المعروفة بالعزيزية ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجة ٠ وذكر ابن خلكان ان السلطان صلاح الدين بقي مدفوناً بقلعة دمشق الى ان بنيت له قبة في شمالي الكلاسة التي في شمالي جامع دمشق ولها بابان احدهما الى الكلاسة والآخر في زقاق غير نافذ وهو مجاور المدرسة العزيزية ثم نقل صلاح الدين من مدفنـه بالقلعة الى هذه القبة ثم ان ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان لما اخذ دمشق من اخيـه الملك الأفضل بني الى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية ووقف عليها وقفاً جيداً ٠ وللقبة المذكورة شباك الى هذه المدرسة وهي من أعيان مدارس دمشق اهـ ٠

(٦٧) « العصرونيـة » داخل بابي الفرج والنصر شرقي القلعة وغربي الجامع لقاضي القضـاة شرف الدين ابي سعيد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن ابي

عصرون بن ابي اليسر التميمي الجوني ثم الموصلي الدمشقي المتوفى (٥٨٥) وكان بها قبره درس بها جماعة منهم المشايخ من بني عصرون وغيرهم • حرقت في الحريق الكبير سنة ١٣٢٨ ه ولم تعد إلى ما كانت وبقي اسم السوق منسوباً اليها ورُمَّ قبر من اسسها بعض الشيء •

(٦٨) « العمادية » داخل باب الفرج والفراديس قرب الدماغية من قبلة بناء عماد الدين والواقف عليها السلطان صلاح الدين درس بها عماد الدين الكاتب وغيره وهي الآن كتاب للصبيان في زقاق الخندق •

(٦٩) « الغزالية » في الزاوية الشمالية الغربية شمالي مشهد عثمان بالجامع الاموي وتعرف بالشيخ نصر المقدسي وهو اول من درس بها • وممن درس بها من المشهورين جمال الدين الدولعي وعز الدين بن عبد السلام والقطب النيسابوري والشرف بن ابي عصرون وحجة الاسلام ابو حامد الغزالي وهي الآن مشهد من مشاهد الجامع •

(٧٠) « الفارسية » غربي الجوزية الحنبلية تجاه الخارج من باب الزيارة بالبزورية وقفها سيف الدين فارس الدوادار التميمي (٨٠٨) وفي المدرسة الآن قبران وهناك أبياتاً من نظم بانيها امر ان تكتب على تربته بعد وفاته وأظنها لغيره من المتقدمين وقد رأيتها مكتوبة على مدفن بني الشحنة مؤرخي حلب في باب المقام بحلب والابيات هي :

هذه دارنا التي نحن فيها دار حق وما سواها يزولُ
فاعتمر للممات داراً اليها عن قريب يفضي بك التحويلُ
واعتمل صالحاً يؤانسك فيها مثلما يؤنس الخليلَ الخليلُ

(٧١) « الفتحية » انشاء الملك فتح الدين صاحب بارين وبها قبره وكانتا مدرستين احداهما للشافعية وثانيتهما للحنفية نسيتا ونسي مكانهما •

(٧٢) «الفخرية» بين السورين انشاء فخر الدين تم بناؤها سنة ٨٢١ وهي على اهل المذاهب الاربعة فيما يظهر وبها درس جماعة منهم عزالدين الاربلي والشيخ المراغي •

(٧٣) « الفلكية » غربي الركنية الجوانية بالعمارة انشاء اخي الملك العادل فلك الدين سليمان دفن فيها سنة ٥٩٩ وفي بعض المظان ان المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس تنسب الى ابي منصور سليمان بن شروه بن جلدك •

(٧٤) «القليجية» داخل باب شرقي و باب توما شرقي المسمارية انشأه مجاهد الدين ابن قليج محمد بن شمس الدين محمود . قال البوريني : ان احمد بن سليمان الدمشقي الصوفي عزل التراب الذي في المدرسة القليجية الذي كان من بقايا الخراب في فتنة اللنك (اي تيمورلنك) وقطن بها وأسكن في حجراتها عدة من الفقراء ، والمدرسة المذكورة كانت تعرف في القرن الحادي عشر بمزار سيدي سيف الدين ، وسيف الدين هذا هو الامير سيف الدين الاسفسهلار الامير الكبير المجاهد المرابط كان من الامراء النورية وكان له فضيلة زائدة و يطل على تربته شبا كان على رأس كل واحد منها حجر فيه أسطر منقوشة فاما الاول فعليه من الكتابة هكذا : قال الامير الكبير المجاهد المرابط الاسفسهلار سيف الدين علي بن قليج رحمه الله هذه الابيات وامر ان تكتب على قبره . وعلى الحجر الثاني الابيات وذكر الابيات الثلاثة . الواردة في الكلام على المدرسة الفارسية وبذلك رأينا ان هذه الابيات ادعاها كثيرون وأحبها غير واحد من العظماء .

(٧٥) « القواسية » بالعقيبة الصغرى قرب مسجد الزيتونة انشأه الامير عز الدين ابراهيم بن عبد الرحمن بن القواس درس بها جماعة .

(٧٦) « القوصية » هي حلقة بالجامع الأموي قرب مشهد يحيى كانت محلاً للتدريس أنشأها رجل يقال له جمال الاسلام في رواية ووقف عليها اوقافاً جمة درس بها بعض المشاهير .

(٧٧) « القيمرية الجوانية » بحارة القيمرية انشأها الامير ناصر الدين القيمر احد امراء الجند درس بها جلة من فقهاء الشافعية ولا تزال معروفة .

(٧٨) « القيمرية البرانية » ويقال لها القيمرية الصغرى في القباقبية العتيقة غربي المقدمية وشمالي الحنبلية خربت وانقاضها الى اليوم ظاهرة . و يقول طارق ان بانيها الامير علي بن يوسف بن يوسك القيمري سنة ٦٥٣ .

(٧٩) «النجيبية » قال ابن كثير في سنة ٦٩ درس الخطيب عز الدين الفارقي بالمدرسة النجيبية عوضاً عن كمال الدين بن خلكان ولم يذكر في الدارس لها وقفاً ولا وقت بنائها ومحلها .

(٨٠) « الكَرَوَّسية » بجانب السامُريَّة الشافعية وقفها سنة ٦٤١ محمد بن كَرَوَّس محتسب دمشق ، وممن درس بها كمال الدين بن الزملكاني والشريشي ٠

(٨١) « الكلاسية » متصلة بالجامع الاموي من شماله ولها باب اليه انشأها سنة ٥٥٥ نور الدين الشهيد سميت بذلك لانها كانت موضع عمل الكلس ايام بناء الجامع ثم امر بتجديدها السلطان صلاح الدين درس بها جلة من الفقهاء وهي اطلال ٠

(٨٢) « المجاهدية الجوانية » بجوار تربة نور الدين الشهيد وفي الدارس قرب باب الخواصين واقفها مجاهد الدين ابو الفوارس الكردي احد امراء الدولة النورية ٠ وفي الروضتين انه الامير مجاهد الدين بزان بن مامين احد مقدمي الاكراد المتوفى سنة ٥٥٥ له اوقاف على ابواب البر بدمشق منها المدرستان المنسوبتان اليه احداهما التي دفن فيها وهي لصيق باب الفراديس المجدد والاخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك ٠ وقد درس بها قطب الدين النيسابوري وكثير غيره من الاعلام ٠

(٨٣) « المجاهدية البرانية » ايضاً بباب الفراديس كما في الدارس واليوم في زقاق حمام أُسامة غربي الباذرائية لواقفها المشار اليه وفي مختصر الدارس انها بجوار سوق البطيخ وبها قبر واقفها درس بها غير واحد من المشهورين وهي جامع السادات ٠

(٨٤) « المسرورية » بباب البريد انشاءُ مسرور الخصي الطواشي صاحب خان مسرور بالقاهرة وقيل مسرور الملك الناصر العادلي وقفها عليه شبل الدولة الحسامي واقف الشبلية ٠ درس بها جماعة من نبهاء الفقهاء ٠

(٨٥) « المنكلائية » لا يعلم عنها الا كونها قرب المدرسة القيمرية الجوانية كما في مختصر الدارس والى اليوم لا يزال في تلك البقعة مقام للشيخ عبد الله المنكلائي ٠

(٨٦) « الناصرية الجوانية » داخل باب الفراديس بشمال الجامع والرواحية بشرق وغربي الباذرائية بشمال وشرقي القيمرية الصغرى والمقدمية الجوانية من آثار الملك الناصر صلاح الدين وهي اليوم دار درس فيها بعض المشهورين من العلماء ٠

(٨٧) « المقدمية الجوانية » انشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف ولعلها هي التي كانت عامرة في القرن العاشر كما يؤخذ من ترجمة الشمس البهنسي من ان

المقدمية والقصاعية والسيبائية كانت عامرة في عصره وقد خربت المقدمية اوائل هذا القرن واستحالت دوراً .

(٨٨) « المجنونية » شرقي الشامية البرانية بالعقيبة انشاءُ شرف الدين بن شرف الرازي المعروف بالسبعة مجانين وهي معروفة بالسبعة المجاهدين ايضاً وذلك بعد الثلاثين والستمائة .

(٨٩) « النجيبية » ملاصقة للمدرسة النورية وضريح نور الدين الشهيد من جهة الشمال انشأها النجيبي جمال الدين اقوش الصالحي استاذ الملك الصالح .

☆ ☆ ☆

مدارس الحنفية بدمشق } كان بدمشق اوائل القرن العاشر احدى وخمسون مدرسة للحنفية كما في الدارس وهي :

(٩٠) « الاسدية » تقدم محلها وهي في المرجة الخضراء في الشرف القبلي .

(٩١) « الاقبالية » تقدم محلها وهي على الاحناف والشوافعة وقد زالت ولا يعرف غير اطلالها وحجر بابها .

(٩٢) « الآمدية » بالصالحية جوار الميطورية من الغرب جاء في الدارس انه مجهول حالها من القديم وهي على مافهم في بستان الميطور قرب حي الاكراد .

(٩٣) « البدرية » قبالة الشبلية بالجبل عند جسر كحيل ويعرف بجسر الشبلية وهي في بستان السنبوسكي بطريق عين الكرش لم يبق منها الا قبة تهدم اعلاها بجانب نهر ثورا انشاءُ الامير بدر الدين المعروف بلالا ابن الداية من امراء نور الدين سنة ٦٣٨ .

(٩٤) « البلخية » داخل الصادرية وبابها من حمام باب البريد انشأها الامير ككز الدقاق للشيخ ابراهيم البلخي بعد سنة ٥٢٥ درست واتخذت مع الصادرية دوراً في عهدنا .

(٩٥) « التاجية » بزاوية الجامع الاموي الشرقية غربي دار الحديث العروية وكانت زاوية للدراويش عرفت قديماً بابن سنان وبالسلارية جددت في سنة ٦٢٤ وهي غير موجودة .

(٩٦) « الناشية » انشاء الملك الناشي الدقاقي سنة نيف وخمسين وخمسمائة وهي مجهولة اليوم ·

(٩٧) « الجلالية » لقاضي القضاة جلال الدين ابي المفاخر احمد بن قاضي القضاة حسام الدين الرازي كانت ملاصقة للبيمارستان النوري وهي الآن خراب ·

(٩٨) « الجمالية » كانت بسفح قاسيون للامير جمال الدين يوسف وكان يسكنها في القرن العاشر ايام الصيف عبد الصمد العكاري درست مع الدوارس واخذت انقاضها للدور ·

(٩٩) « الجقمقية » هي شمالي الجامع الاموي اسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فانتزعها الملك الناصر حسن سنة ٧٦١ وامر بعمارتها فبنيت بالحجر الابلق وجاءت في غاية الحسن واحترقت في فتنة تيمور فجدد بنيانها سيف الدين جاقماق وخص الخانقاه بالصوفية واضاف اليها مدرسة للايتام وتربة ودرس بها جماعة وجعلت في القرن الماضي مدرسة المذكور وهي اليوم في حالة خراب او ما يقرب منه ·

(١٠٠) « الجركسية » و يقال لها الجهاركسية ، ومعنى جهاركس اربعة انفس ، وهي مشتركة بين الحنفية والشافعية وقيل هي للحنفية فقط واقفها چركس فخر الدين الصلاحي وكان نائبًا عن الملك العادل ببانياس وبلاد الشقيف وتبنين وهونين وهو من ارباب الهمم العالية مشهور بصداقته وصدقاته وهو باني القيسارية الكبرى في القاهرة · وهذه المدرسة فوق نهر يزيد بالصالحية بالقرب من الجامع الجديد معروفة يأوي اليها المهاجرون والدراويش وتنسب اليها المحلة كلها اندرست ولم يبق منها سوى قبتين عظيمتين اعلاهما متهدم وجدرانها حجر نحيت ·

(١٠١) « الجوهرية » شرقي تربة ام الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة المعروف اليوم بزقاق المحكمة انشاء الصدر نجم الدين بن عباس التميمي الجوهري سنة ٦٧٦ كان بعضهم اواخر القرن الماضي قسمها ثلاث دور وجعل عليها مرصداً وقام ولداه بعده فاخذا ما انفق والدهما عليها واعاداها الى الوقف فجعلت مدرسة للصبيان وحصل الانتفاع بها ·

(١٠٢) « الحاجبية » والخانقاه بها قبلي المدرسة العمرية بالصالحية على مقربة من

مرقد الشيخ عبد الغني النابلسي انشاء الامير ناصر الدين محمد بن مبارك الاينالي داودار سودون النوروزي سنة ٨٦٥ وقد تداعت فاخذت انقاضها منذ نحو خمسين سنة لتبليط الطريق وهي امام جامع الحاجب بالجركسية اصبحت الآن عرصة محاطة بجدار وحوض مائها لا يزال مرجوداً ومأذنتها كانت جميلة ٠

(١٠٣) « الخاتونية البرانية » مسجد خاتون على الشرف القبلي في مكان كان يسمى صنعاء دمشق مطل على وادي الشقراء وقفتها زمرد خاتون اخت الملك دقاق صاحب دمشق وهي ام شمس الملوك اسمعيل ومحمود زوجة تاج الملوك بوري توفيت سنة ٥٥٧ وكانت حافظة للقرآن سمعت الحديث من ابي الحسن بن قبيس واستنسخت الكتب وقد خربت هذه المدرسة في اواخر حكم المماليك فنقلت انقاضها لتعمر بها مدرسة غيرها في باب الجابية وكان من مدرسيها علي البلخي وشرف الدين عبد الوهاب الحوراني وصدر الدين البصروي وصدر الدين الادمي ٠

(١٠٤) « الخاتونية الجوانية » كانت بمحلة حجر الذهب محلة البيمارستان النوري انشاء خاتون ابنة سعيد الدين اتسسز وزوجة نور الدين الشهيد وقفها اخوه سعد الدين عليها وممن درس بها حجة الاسلام ابن شداد ومجد الدين بن ابي جرادة ٠

(١٠٥) « الدماغية » تقدم محلها عند جسر ثورة قرب معمل الغزل القديم وانها على الفريقين الحنفية والشافعية درس بها الافتخار الكاشغري والسنجاري وابن سحنون خطيب النيرب وغيرهم اصبحت اليوم حدائق ٠

(١٠٦) « الركنية » و يقال لها الركنية البرانية تمييزاً لها عن الركنية الجوانية المار ذكرها وهي من انشاء الامير ركن الدين منكورش عتيق فلك الدين سنة خمس وعشرين وستمائة درس بها جلة من الفقهاء وهي اليوم في حي الاكراد بالسفح اختلست منها قطعة وجعلت دوراً ولا تزال تقرأ في حائطها كتابات كوفية ٠

(١٠٧) « الريحانية » جوار النورية انشاء ريحان الطواشي من اكبر خدام نور الدين الشهيد سنة ٥٦٥ وهي اليوم كتاب للذكور ٠ ولا يزال على بابها حجر زبر عليه بخط جميل الاوقاف المرصدة لها ٠

(١٠٨) « الزنجارية » خارج باب توما و باب السلامة ويقال لها الزنجيلية كانت

تجاه دار الاطعمة من احسن المدارس . وفي مختصر الدارس انها هي التي على بابها هذا الرخام من عجائب الدنيا وهذه الصناعة التي كانت كأنها بين ايديهم كالعجين . انشأها نائب عدن فخر الدين الزنجيلي صاحب اليمن ايام الملك العادل أُنشئت سنة ٦٢٦ وفي رواية انه الامير عز الدين عثمان بن الزنجيلي صاحب عدن درس بها اجلة الفقهاء ولا يعرف محل هذه المدرسة اليوم ولعلها كانت شرقي السقيفة وهي اليوم حدائق .

(١٠٩) « السيفية » بجوار الجامع الاموي ومن القديم لا يعرف عنها غير هذا .

(١١٠) « السبائية » خارج باب الجابية وشمالي بئر الصارم والتربة والزاوية بها واليوم في آخر شارع الدرويشية انشاء نائب الشام سيباي امير السلاح بمصر سنة ٩٢١ جعلها جامعاً ومدرسة وزاوية وتربة . قال في المختصر عمرها بالحجر الابلق ولم يدع بدمشق مسجداً مهجوراً ولا مدفناً معموراً الا واخذ منه من الاحجار والآلات والرخام والاعمدة ما احب حتى سماها علماء دمشق « جمع الجوامع » وهي اليوم مكتب ابتدائي للذكور وتقام فيها الصلوات والاذكار .

(١١١) « الشبلية البرانية الحسامية » بسفح قاسيون بالقرب من جسر ثورة إنشاء شبل الدولة كافور الحسامي الرومي طواشي حسام الدين بن لاجين ولد ست الشام سنة ٦٢٦ وقد دفن بها وهي فوق جسر ثورة من طريق عين الكرش لم يبق منها الا قطعة يسيرة قاومت صروف الزمان درس بها وأعاد بها عظماء من الفقهاء منهم الصفي السنجاري والشمس ابن الجوزي وابن قاضي آمد وابن الغويرة والبصروي والاذرعي والكاشغري والطوسي والكفيري والتركماني والعماد الجيلي وابن بشارة . قال ابن خلكان ان ست الشام بنت ايوب أنشأت مدرسة بظاهر دمشق وقد دفن فيها الملك المعظم وهي ايضاً وولده حسام الدين عمر بن لاجين وزوجها ناصر الدين ابي عبد الله محمد بن اسد الدين شيركوه صاحب حمص وحسام الدين هو سيد شبل الدولة كافور بن عبد الله الحسامي الخادم صاحب المدرسة والخانقاه الشبلية اللتين في ظاهر دمشق على طريق قاسيون ولها شهرة في مكانها واوقاف كثيرة اهـ . والى اليوم لا تزال القبور ظاهرة للعيان وهناك حوض ماء وايوان .

(١١٢) « الشبلية الجوانية » قبالة الاكزية داخل باب الجابية إنشاء شبل الدولة

كافور المعظمي صاحب المدرسة قبلها وهي اليوم امام محكمة الباب الشرعية وقد أصبحت دوراً ·

(١١٣) « الصادرية » داخل باب البريد على باب الجامع الاموي الغربي إنشاء شجاع الدين والدولة صادر بن عبدالله قال صاحب الدارس وهي اول مدرسة أُنشئت في دمشق (٤٩١) درس بها ابن زنكي الكاشاني والبلخي وابو العيش واوحد الدين الدمشقي والغزنوي رشيدالدين وابن مسعود والكعكي والرضي الملتاني الهندي والبرهان الغزنوي المعروف بابي الهول وابن الشجاع وابن اسدالدين الدمشقي ·وهي دورمساكن منذ استصفاها المستصفون من عهد قريب ·

(١١٤) « الطرخانية » قبلي الباذرائية إنشاء ناصر الدولة طرخان احد كبار امراء دمشق وهي الآن منازل ومساكن ·

(١١٥) « الطومانية » تجاه دار الحديث الاشرفية غربي الشريفية والفقاعية بسوق العصرونية ولعل واقفها طومان النوري · وقد جعلت في اواخر القرن الماضي حانة تباع فيها الخمور ثم صارت حوانيت وداراً ·

(١١٦) « العذراوية » مر محلها وانها على الحنفية والشافعية · درس بها العز السنجاري والسمرقندي والرازي ·

(١١٧) « العزيزية » أُنشئت (٦٣٥) جوار المدرسة المعظمية انشاء الملك العزيز عثمان بن العادل شقيق الملك المعظم وفي العزيزية دفن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب ولا يزال قبره معروفاً يزار ويقصده العالم من الاقطار ·

(١١٨) « العزيزية البرانية » بالشرف الأعلى شمالي ميدان القصر خارج دمشق وهي الآن البستان الذي أصبح معملاً للكهرباء وقد زال اثرها · أنشأها الاميرعزالدين استاد[1] دار المعظمي المعروف بصاحب صرخد (٦٢٦) درس بها عظماء منهم محمد الكريمي المتوفى سنة ١٠٦٨ اي انها كانت عامرة الى القرن الحادي عشر ·

---

(١) هو من يتكلم في اقطاع الامير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم · وبعضهم يرسمها استاد الدار ·

(١١٩) « العزية الجوانية » المعروفة بالكوشك اي القصر انشاء المقدم ذكره وهي غير معروفة ·

(١٢٠) « العزية » بجامع دمشق منسوبة له ايضاً قال في الدارس وشرط واقفها انه بنى مدرسة بالقدس الشريف على انه متى كان القدس بيد المسلمين يكون الوقف على المكان المذكور وان تعطل اي تعطل القدس كان مدرسة بالجامع الاموي المعمور جوار مشهد علي درس بها حين تعطل القدس القاضي مجد الدين قاضي الطور وهي غير موجودة ·

(١٢١) « العَلَمية » شرقي جبل الصالحية وغربي الميطورية انشاء الامير علم الدين سنجر المعظمي سنة ٦٢٨ لم يبق لها اثر ·

(١٢٢) « الفتحية » نسي مكانها منذ قرون قال ابن شداد : وهي برحيبة خالد وهي مجهولة ايضاً ومنشئها الملك فتح الدين صاحب بارين نسيب صاحب حماة ·

(١٢٣) « الفرّخشاهية » تعرف بمعز الدين فرخشاه وواقفتها حظ الخير خاتون ابنة ابراهيم بن عبد الله والدة عز الدين فرخشاه وهي زوجة شاهنشاه بن اخي صلاح الدين سنة ٥٧٨ وهي مقابلة التكية السليمانية بالشرف الاعلى شمالي حديقة الامة دثرت ·

(١٢٤) « القجماسية » داخل باب النصر ودار السعادة انشاء نائب الشام قجماس الاسحاقي الجركسي المتوفى سنة ٨٩٢ واول من درس بها شمس الدين ابو تراب محمد الامامي وهي اليوم عامرة في الجملة ·

(١٢٥) « القصاعية » بحارة القصاعين انشاء خطلشاه خاتون بن ككجا سنة ٥٩٣ كانت عامرة في القرن العاشر ودرس بها محب الدين العلواني وهو آخر من درس بها من الفقهاء وهي في جهة الخضيرية جعلت دوراً

(١٢٦) « القاهرية » بالصالحية على طريق الترام في الزقاق الذي وراء سوق الجمعة على ضفة نهر يزيد لصيق دار الحديث القلانسية المشهورة بالخانقاه وغربي العمرية يفصل بينهما الطريق وهي مساكن ولم يبرح اسمها الى اليوم معروفاً بالقاهرية وهي أسرة اسمها بني القاهرية وهي الآن دار بني الحشاش ·

(١٢٧) « الظاهرية الجوانية » تقدم محلها في مدارس الشافعية وانها للحنفية

ايضاً اول من درس بها الصدر سليمان وابن النحاس وابنه شهاب الدين والسمرقندي والجوبري وابن العز وعفيف الدين الآمدي وقوام لطف الله الحنفي ·

(١٢٨) « القليجية » واقفها سيف الدين بن قليج النوري بين الخضراء والصدرية السالفتين بالبزورية سنة ٦٢٠ وجدد بناءها قاضي الشام محمد چلبي سنة ٩٢٣ درس بها الشمس علي بن قاضي العسكر وفخر الدين بن خليفة البصروي وتقي الدين احمد بن قاضي القضاة صدر الدين سليمان وعلاء الدين علي القونوي وغيرهم وهي اليوم في سوق التبن اتخذت بيتاً ملاصقاً لدار بني العظم ولعلها هي التي كانت مجمع الفضلاء والعقلاء للاستشارة اذا دهم اهل دمشق امر مهم لا القليجية التي كانت داخل باب توما كما روى بعض المؤرخين ·

(١٢٩) « القايمازية » داخل بابي الفرج والنصر انشاء صارم الدين قايماز النجمي المتوفى سنة ٥٩٦ كان خيراً عاقلاً يتولى اعمال السلطان صلاح الدين يتولى اسبابه في مخيمه وبيتوتته ويعمل عمل استاذ الدار وكلما فتح السلطان بلدة سلمها اليه ليروضها · وهي بالمناخلية درست عندما جرى توسيع الطريق ·

(١٣٠) « المرشدية » على نهر يزيد بالصالحية جوار دار الحديث الاشرفية انشاء خديجة خاتون بنت الملك المعظم بن العادل اخت الناصر داوود سنة ٦٥٦ وهي من المدارس التي بقيت الا ان داخلها متهدم ومجموعها مختلس ·

(١٣١) « المعظمية » بالصالحية بسفح قاسيون الغربي جوار المدرسة العزيزية أنشئت (٦٢١) نسبة الى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل صاحب دمشق وهي الآن مدفن ·

(١٣٢) « المعينية » بالطريق الآخذ الى باب المدرسة العصرونية إنشاء معين الدين انسز اتابك مجير الدين ابق صاحب دمشق في شهور سنة ٥٥٥ وهي دارسة ·

(١٣٣) « الماردانية » على ضفة نهر ثورة لصيق الجسر الابيض معروفة أنشأتها عزيزة الدين اخشا خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين زوجة الملك المعظم (٦١٠) درس بها جلة من الفقهاء وهي جامع عامر بالصلوات وفيه مدفن بني المؤيد ·

(١٣٤) « المقدمية الجوانية » داخل باب العمارة انشاء الامير شمس الدين محمد

ابن المقدم في الايام الصلاحية أنشئت سنة ٥٧٥ وهي اليوم في حكم المفقود استصفي قسم منها وجعل دوراً وداخلها غرف تؤجر وحرمها مخزن ·

(١٣٥) «المقدمية البرانية» تجاه الركنية بسفح قاسيون شرقي الصالحية انشاء فخر الدين ابراهيم بن المقدم غير موجودة · ولعلها دار الشربباتي وحوض مائها لم يزل كما كان امام حمام المقدم ·

(١٣٦) «المنجكية» بجوار خانقاه الصوفية بالجاقماقية وفي الدارس انها بالخلخال · وكان الخلخال حديقة اخذت للثكنة الحميدية غربي المدينة · وهي قبلي الصوفية وغربيها انشاء الامير سيف الدين منجك اليوسفي الناصري من مماليك الناصر محمد بن قلاوون أسست سنة ٧٧٦ وهي اليوم حدائق ولا اثر لها ·

(١٣٧) «الميطورية» شرقي جبل الصالحية في حي الأكراد وقفتها فاطمة خاتون بنت السلار سنة ٦٢٩ خربت ·

(١٣٨) «المقصورة الحنفية» وهي محل التدريس في حرم الجامع الاموي وقف عليها كاتب الممالك القاضي فخر الدين ارقافاً ·

(١٣٩) «النورية الكبرى» انشاء نور الدين الشهيد سنة ٥٦٣ والصحيح انها انشاء ولده الصالح اسمعيل وهي بعض دار هشام بن عبد الملك الاموي وفي الدارس انها كانت قديماً دار معاوية بن ابي سفيان وكانت لمعاوية دار اخرى بباب الفراديس تحت السقيفة يقال انها الدار التي كانت معروفة بدار ابن المقدم · ولا تزال المدرسة عامرة الى يومنا لا ان بعض جيرانها اختلسوا بعضها من الشمال ·

(١٤٠) (النورية الصغرى) كان في القلعة جامع تقام فيه الجمعة الى القرن العاشر وبه مدرسة حنفية تسمى النورية الصغرى قال ابن شداد هي مدرسة بجامع القلعة وكان مدرس القلعة اوائل القرن التاسع القاضي شمس الدين الزرعي وهو الذي الزم ببناء مأذنة الجامع بالقلعة سنة ٨٢٤ التي كانت احدثت سنة ٧٦٢ ·

(١٤١) «اليغمورية» بالصالحية انشاء الامير جمال الدين بن يغمور الباروقي اختلست ·

* * *

مدارس المالكية بدمشق } كان بدمشق اربع مدارس للمالكية وهي :

(١٤٢) « الزاوية المالكيــة » وقف السلطان صلاح الدين ملاصقة المقصورة الحنفية من غربي الجامع الاموي درس بهـا بعض فقهاء المالكية ٠

(١٤٣) « الشرابيشية » في القنوات وفي الدارس انها بدرب الشعار بن اصيقة حمام صالح شمالي الميطور بين داخل باب الجابية وكانت قبل ان تصبح مدرسة للايتام محكمة شرعية واختلس الجيران بعضهـا ٠ وهي انشاء شهاب الدين بن نور الدولة بن محاسن الشرابيشي التاجر السفّار ولا يعلم عنها غير هذا ٠

(١٤٤) « الصمصامية » شرقي دار القرآن الوجيهية وقرب المسرورية وقف عليها الصاحب شمس الدين غبريال الاسلمي وذكر المؤرخون ان سنان القرماني والد القرماني صاحب التاريخ خرب مدرسة المالكية بالقرب من البيمارستان النوري وتعرف بالصمصامية وحصل به الضرر بمدرسة النورية ببعلبك وولي نظارة البيمارستان ونظارة الجامع الاموي وانتقد عليه انه باع بسط الجامع وحصره فقتل بسبب ذلك هو وناظر السليمية حسين سنة ٩٦٦ خنقا معًا بدار السعادة بشاشيهما وعمامتاهما على رأسيهما ٠ ولو نفذ حكم الشرع في المختلسين والغاصبين لما ذهبت كل هذه المدارس مع امس الدابر ٠

(١٤٥) « الصلاحية » انشاء السلطان صلاح الدين بالقرب من البيمارستان النوري غير معروفة ايضًا ٠

وكان في زقاق حمام القاضي مدرسة للمالكية على ما في مفكرات طارق ٠

✲ ✲ ✲

مدارس الحنابلة بدمشق } كان بدمشق عشر مدارس للحنابلة وهي :

(١٤٦) « الجوزية » في البزورية كانت في عهدنا محكمة شرعية ثم جعلتها جمعية الاسعاف الخيري مدرسة للايتام ثم حرقت في الثورة ٠ انشاء محيي الدين بن جمال الدين بن الجوزي ٠

(١٤٧) (الجاموسية) غربي العقيبة خارج دمشق ابتلعهـا واوقافهـا كما ابتلع غيرها المتولون عليها ٠

(١٤٨) (الشريفية) عند القباقبية العتيقة قديماً وهي عند دار بني الغزي في العمارة امام الفرن بالجانب الشرقي وهي الآن دار · من انشاء شرف الاسلام عبد الوهاب ابي الفرج الحنبلي شيخ الحنابلة بدمشق المتوفى سنة ٥٣٦ وظلت يتعاقب عليها اولاده واحفاده حيناً من الدهر ·

(١٤٩) (الصاحبة) بسفح قاسيون من شرق الصالحية انشاء ربيعة خاتون بنت نجم الدين ايوب اخت صلاح الدين وست الشام دفنت في فنائها سنة ٦٥٣ وجعلت اليوم مكتبياً ابتدائياً للذكور ·

(١٥٠) (الصدرية) انشاء صدر الدين ابي الفتح اسعد المنجا التنوخي العدل سنة ٦٣٠ وكانت بجوار الجامع في زقاق الريحان والعامة تزعم ان قبر معاوية بن ابي سفيان بها وليس بصحيح ·

(١٥١) (الضيائية المحمدية) شرقي جامع المظفرية بجبل قاسيون انشاء ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي سنة ٦٢٠ كان علامة عصره درس بها بانيها اولاً ولا يعرف عنها شيء ·

(١٥٢) (الضيائية المحاسنية) بسفح قاسيون شرقي جامع المظفرية وامام جامع الحنابلة بقي منها اربع نوافذ وجدار انشأها ضياء الدين محاسن ووقفها على من يكون امير الحنابلة ·

(١٥٣) « العمرية الشيخية » وسط دير الحنابلة بسفح الجبل انشاء ابي عمر الكبير الحنبلي الزاهد المعروف بابن قدامة سنة ٥٥٠ وهو الذي نسبت الصالحية اليه لنزوله بمسجد ابي صالح بظاهر باب شرقي وهي الآن خراب اكل النظار عليها اوقافها واستباحوا اخذ خزانة كتبها المهمة · وفي تاريخ الصالحية انها اكبر المدارس بدمشق والصالحية لانها مشتملة على ثلاثمائة وستين خلوة على ماقيل والعامر منها الآن (عصر مؤلف تاريخ الصالحية) اقل من ذلك اه · وقال في تاريخ الصالحية ايضاً ان ابا عمر بنى المدرسة ووالده الشيخ احمد بنى المصنع ثم كثر البناء المتسع بالصالحية حول المدرسة حتى بلغ من القبلة حد المدينة ومن الشرق برزة الى الميطور — و بستان الميطور الآن

معروف بالقرب من جسر النحاس قرب حي الاكراد · اما الآن فهي خراب بباب وقد درس بها ائمة أعلام فيما سلف ·

(١٥٤) (العالمة) مدرسة للحنابلة ودار للحديث شرقي الرباط الناصري تحت جامع الافرم غربي سفح قاسيون وقفتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي سنة ٦٣٠ وهي خراب بلقع ·

(١٥٥) (المسارية) قبلي القيمرية الكبرى داخل دمشق قبلي الفتحية قرب مأذنة فيروز واقفها التاجر الحسن بن مسار الهلالي الحوراني المغربي في سنة ٥٢٠ (٥٤٦) ؟ جعلت الآن مخفراً للشرطة ·

(١٥٦) (المنجائية) زاوية بالجامع الاموي تعرف بابن منجا ·

وكان في سوق القمح بدمشق ·

(١٥٧) (المدرسة الحنبلية) تولى عمارتها سعد الدين بن عبد العزيز امام الملك الاشرف موسى بن الملك العادل ·

* * *

المدارس الحديثة { هذا ما ذكره صاحب الدارس من دور القرآن ودور الحديث ومدارس الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة وقد أنشئت بعد عهده في دمشق عدة مدارس في القرن الثاني عشر وهي :

(١٥٨) « المرادية » جنوب الظاهرية الجوانية وتفصل بينهما الآن سكة ضيقة لصاحبها الشيخ مراد المرادي (مراد بن علي بن داود بن كمال الدين بن صالح البخاري النقشبندي سنة ١١٣٢) وكانت قبل ذلك خاناً يسكنه اهل الفسق والفجور وقد خربت زمن الحرب العامة وهي الآن خراب ·

(١٥٩) « النقشبندية البرانية » هي في سوق ساروجا بناها الشيخ مراد المرادي وكانت داره وبنى الى جنبها مسجداً وهي الآن تكية ومنزل لأحفاده ·

(١٦٠) « السليمانية » مدرسة سليمان باشا العظم أسست في باب البريد (١١٥٠) جعلت زمناً مكتباً للاناث وقد رمت بعد خرابها وسكنها دراويش ·

(١٦١) « العبدلية » مدرسة عبد الله باشا العظم أسست في سوق السلاح سنة ١١٩٣ ولا تزال موجودة ٠

(١٦٢) « الاسماعيلية » مدرسة اسماعيل باشا العظم في سوق الخياطين أسست سنة ١١٤١ والطابق السفلي منها من بناء اسماعيل باشا العظم والعلوي من بناء اسعد باشا العظم ولكل منهما وقف خاص به وكانت المدرستان الاخيرتان من المدارس العامرة الى عهد قريب فأصبحتا مأوى الفقراء وذهبت اوقافهما او كادتا ٠

وهناك مدارس حدثت بعد عهد صاحب الدارس يعثر على اسمائها مبعثرة في كتب التاريخ والمدونات الحديثة ولا اثر لها لعدم مكانتها او لطاريء طرأ عليها ٠ والطواريء على مثل هذه المدارس قد تحدث في كل عقد اوعقدين من السنين مثل:

(١٦٣) « المدرسة الحجازية » التي نزل بها احمد بن شمس الدين الصفوري ولا نعرفها الآن ٠

(١٦٤) « المدرسة الجوزية » انقطع اليها ابراهيم السقا سنة ١٠٥٨ ودرس بها ابراهيم بن حمزة سنة ١١١٩ ٠

(١٦٥) « المدرسة الحافظية » بصالحية دمشق درس بها حمزة بن محمد نقيب الشام المتوفى سنة ١٠٦٧ ٠

(١٦٦) « مدرسة احمد شمسي باشا » في سوق الاروام ٠

(١٦٧) ومن المدارس التي لم يذكرها صاحب الدارس مدرسة السلطان المؤيد التي بناها سنة ٨١٧ الملك المؤيد في دمشق وسماها « المؤيدية » وأنشأ سوقاً نسب اليه ولا نعلم عنها غير هذا ٠

ومنها (١٦٨) « القارية » مدرسة ابن القاري قال ابن طولون : لم يكن في الصف الشمالي مسجد غير مسجد البيع من باب الجابية الى باب شرقي يوجه الى القبلة قيل ان الصحابة بايعوا فيه وهو الآن مدرسة بناها الخواجا محمد بن يوسف القاري سنة ٨٨٧ وبنى الى جانبها داراً عظيمة بالغ في اتقانها وقد أصبحت هذه الدار والمدرسة دوراً صغيرة وحواصل للخشب ٠

ومنها (١٦٩) « المدرسة المزلقية » (يراجع الدارس) بطريق مقابر باب الصغير

الآخذ الى الصابونية أنشأها تاجر الخاص الشريف شمس الدين ابو عبد الله محمد بن علي بن ابي بكر المعروف بابن المزلق ميلاده سنة ٧٥٤ كان ابوه لباناً حكى عن نفسه ان اول سفرة سافرها في البحر كسب فيها مائة الف دينار وثمانمائة الف درهم وانفتحت عليه الدنيا وعمر أملاكاً كثيرة وأنشأ على درب الشام الى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة وجسر بنات يعقوب والمنية وعيون التجار أنفق على عمارها ما يزيد على مائة الف دينار وكل هذه الخانات فيها الماء وجاءت في غاية الحسن ولم يسبقه احد من الملوك والخلفاء الى مثل ذلك وهو صاحب المآثر الحسنة بدرب الحجاز ووقف على سكان الحرمين الشريفين الاوقاف الكثيرة ٠

ومن المدارس الحديثة بناء مدرسة الحقوق والعلوم الادبية العالية على شاطئ بردى في المرجة وهي من بناء الترك في آخر ايامهم وهي من أجزاء الجامعة السورية ومدارس الدولة الى اليوم تقوم على انقاض البيوت القديمة او الحديثة او بقايا الجوامع والمدارس ٠ وهمم الافراد فاترة لسد هذه الثلمة ٠ ومدارس الطوائف والتبشير تجمل في الكنائس والبيع على الأغلب ٠ ومن اهم مدارس الحكومة مدرسة التجهيز والمعلمين وهي دار خاصة في شرقي المدينة كانت لغني اسرائيلي اسمه عنبر فوقعت في ملك الحكومة العثمانية لدين كان لها على صاحبها وجعلت مدرسة اعدادية في سنة ١٣٠٤ شرقية ٠ وفيها من ضروب الصناعات في البناء شيء كثير ٠ اما سائر المدارس الحديثة فيستحيي المرء من ذكرها اذ لا شأن لها وليس للامة ولا للحكومة يد في انشائها ٠

* * *

مدارس الطب بدمشق } كان بدمشق اربع مدارس للطب وهي :

(١٧٠) « الدخوارية » بالصاغة العتيقة قرب الخضراء قبلي الجامع وفي رواية شرقي سوق المناخليين انشاء مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار وفي رواية عبد المنعم بن علي المعروف بالدخوار سنة ٦٢١ جعلها مدرسة يدرس فيها من بعده صناعة الطب ووقف لها ضياعاً وعدة اماكن يستغل منها ما ينصرف في مصالحها وفي راتب المدرس والمشتغلين بها ٠ ووصى ان يكون المدرس بها شرف الدين علي بن الرحبي ٠ قال ابن ابي أصيبعة في ترجمة شرف الدين بن

الرحبي من كبار أطباء دمشق المتوفى سنة ٦٦٧ ان مهذب الدين عبد الرحيم بن علي وقف على الدار الشمالية وجعلها مدرسة للطب وربما هي الدخوارية بعينها . وفي رواية انها و بستان الدخوار عند اراضي الجامع الأموي من قصر اللباد شماليها نهر ثورة درس بها واقفها وبدر الدين محمد بن قاضي بعلبك وعماد الدين الدنيسري وشرف الدين بن حيدرة الرحبي وكمال الدين الطبيب والجمال احمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي وامين الدين سليمان بن داود وجمال الدين محمد شهاب الدين احمد الكحال وعز الدين السويدي . وهي اليوم دور ولا يعلم زمن دمارها .

(١٧١) « الدنيسرية » غربي باب البيمارستان النوري والصالحية و بآخر الطريق من قبلة لصاحبها عماد الدين محمد الدنيسري ولم يعرف عنها غير هذا .

(١٧٢) « الربعية » لم يذكرها في الدارس وقال في مختصره انها غربي البيمارستان النوري والمدرسة الصلاحية بآخر الطريق قبلة يقال انها هي المسجد الذي أنشأه قاضي القضاة محمد بك وكان بها ايضاً صيدلية منظمة انشاء عماد الدين محمد بن عباس الربعي المتوفى سنة ٦٨٦ وجاء في الدارس وفي سنة ٧٤٩ أقامها جديدة عبدالله بعد ان صارت تل تراب وجعلها برسم تأديب الأطفال قاضي القضاة محمد بك الرومي الحنفي من مماليك السلطان بايزيد بن عثمان ثم جعلت دار بني البكري ونسفت في الثورة الاخيرة بالديناميت .

(١٧٣) « اللبودية » خارج البلد ملاصقة بستان الفلك وحمام الفلك انشاء نجم الدين يحيى بن اللبودي (٦٦٤) درس بها جمال الدين الزواوي . قال في الوافي : نجم الدين اللبودي هو يحيى بن محمد الوزير الصدر نجم الدين بن اللبودي الدمشقي الطبيب ترقى بالطب عند صاحب حمص ابراهيم ووزر له ثم اتصل بالناصر صاحب الشام فجعله ناظر الدواوين توفي سنة سبعين وستمائة ودفن في تربته التي بالقرب من بركة الحمر بين وجعل تربتـه دار طب وهندسة وقرر لها شيخاً وقراء . وقال فيه انه الف في الرد على الموفق عبد اللطيف البغدادي كتاباً وهو في الثالثة عشرة وهو صاحب دار الطب والهندسة . ومدرسته اليوم متهدمة واسم البستان بستان اللبودي شرقي بستان الشموليات من اراضي باب السريجة . هذه هي المدارس الطبية بدمشق وقد دثرت ودثرت اسماؤها .

ومن عرف ان القدماء كانوا يعنون بالطب اكثر مما نتصور لا يستكثر على دمشق اربع مدارس في الطب في الدهر الغابر . فقد ذكر المؤرخون انه كان لكل من ابي المجد بن الحكم ومهذب الدين النقاش ورفيع الدين الجيلي مجالس عامة للمشتغلين عليهم بالطب في دمشق . قال السبكي في معيد النعم : ومن حقهم — اي السلاطين — إقامة فقيه في كل قرية لا فقيه فيها يعلم اهلها امر دينهم ، ومن العجب ان اولياء الامور يستخدمون في كل حصن طبيباً ويستصحبون اطباء في أسفارهم بمعلوم من بيت المال ولا يتخذون فقيهاً يعلمهم الدين وما ذاك الا ان امر أبدانهم أهم عليهم من امر أديانهم نعوذ بالله من الخذلان اه .

وفي المحرم من عام ١٣٢١ صدرت ارادة السلطان عبد الحميد الثاني بانشاء مدرسة طبية ملكية بدمشق وان يخصص لبنائها عشرة آلاف ليرة ومثلها لنفقتها السنوية ولوازمها وذلك لان بيروت اخذت تخرج أبناء البلاد في مدرستيها الاجنبيتين وهما الاميركانية واليسوعية . فشرع في خريف تلك السنة بالتدريس في دار استؤجرت موقتاً في طريق الصالحية ريثما تبنى المدرسة الجديدة . وفي اوائل دخول الجيش العربي والانكليزي آخر ايام الحرب العامة أُنشئت (١٧٤) « مدرسة طبية » على أنقاض مدرسة الأتراك جعلت في مستشفى الغرباء التي كانت في مقابر الصوفية او مقبرة البرامكة .

* * *

مدارس حلب(١) نشأت المدارس في حلب في العهد الذي أُنشئت فيه بدمشق ولكن على صورة مصغرة ، وقد بنيت اول مدرسة فيها سنة ٥١٧ وهي :

(١٧٥) « المدرسة الزجاجية » بناها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب ، ولما أراد بناءها لم يمكنه الحلبيون من ذلك اذ كان الغالب عليهم التشيع ، فكان جماعته يبنون في النهار والشيعة تنقض ما بنوه في الليل . وقال بعض المؤرخين

(١) تفضل صديقي العلامة الشيخ مسعود الكواكبي فألقى نظره على هذا الفصل في مدارس بلده وعلى الفصل الآتي في الزوايا والربط .

انها من بناء عبد الرحمن ابن العجمي لاصحاب الشافعي ، وقد خربت وأصبحت دوراً للسكنى ، ويغلب ان يكون مكانها في محل خان الطاف من محلة الجلوم (اعلام النبلاء) .

(١٧٦) « النورية » أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٤٤ وتعرف بالنفرية ايضاً وهي تجاه المدرسة الصاحبية .

(١٧٧) « العصرونيـة » كانت داراً لابي الحسن علي بن ابي الثريا وزير بني مرداس فصيرها الملك العادل نور الدين سنة ٥٥٠ مدرسة وجعل فيها مساكن للمرتبين بها من الفقهاء ، وقد كانوا سنة ٨٧٤ فوق المئة ، واستدعى لها من سنجار شرف الدين بن ابي عصرون من أعيان الفقهاء فولاه تدريسها والنظر فيها ، وهو اول من درس بهـا فعرفت به ، وبنى له نور الدين مدارس بمنبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق ، وقد كان لها بقية الى سنة ١٣٤٣ اذ شرعت إدارة الاوقاف بخربها وإقامة دور للسكنى مكانها يضاف ريعها للاوقاف .

(١٧٨) « الصاحبية » أنشأها القاضي بهاء الدين يوسف المعروف بابن شداد ، قال ابن خلكان : ان حلب كانت قبل ان يتصل ابن شداد بخدمة الملك الظاهر قليلة المدارس وليس بها من العلماء الا نفر يسير ، فاعتنى بترتيب امورها ، وجمع الفقهاء بها ، وعمرت في ايامه المدارس الكثيرة ، وكان الملك الظاهر قد قرر له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة ، فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبـالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي للشافعية ، وذلك في سنة احدى وستمائة ، ثم عمر في جوارها داراً للحديث وجعل بين المكانين تربة يدفن فيها ، ولما صارت حلب على هـذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصلت بها الاستفادة والاشتغال وكثر الجمع بها . موقع هذه المدرسة في الزاوية الغربية من الجنينة المعروفة الآن بجنينة الفريق شرقي محلة السفاحية ولم يبق منهـا ولا من دار الحديث سوى حجر مكتوب وقد كانتا عامرتين في القرن العاشر كما في اعلام النبلاء .

(١٧٩) « الظاهرية » وتعرف ايضاً بالسلطانيـة وهي للشافعية والحنفية أسسها الملك الظاهر (٦١٣) وتوفي ولم تتم واكملها شهاب الدين طغرل اتابك وعلى بابها انها

أنشئت سنة ٦٢٠ وهي اليوم خراب الا بضع حجر جددت يسكنها بعض الفقراء والمحراب الذي هو من بدائع الصنعة .

(١٨٠) « الأسدية » أنشأها الامير أسد الدين شيركوه المتوفى سنة ٥٦٤ وهو عم صلاح الدين . وهي في محلة باب قنسرين باقٍ منها قبلية وقبة وقد جدد فيها سنة ١٣١٦ ثماني حجرات .

(١٨١) « الشعيبية » كانت فيما قالوا مسجداً اول مااختطه المسلمون عند فتح حلب يعرف بالغضايري نسبة لعلي بن عبد الحميد الغضايري . فلما ملك نور الدين حلب وصل الشيخ شعيب بن ابي الحسن الفقيه الاندلسي فصيرت له مدرسة فعرفت به ، وعلى جدارها تاريخ بناء نور الدين سنة ٥٤٥ وهي في القرب من باب انطاكية مسجد تقام فيه الصلوات في إدارة الاوقاف (اعلام النبلاء) .

(١٨٢) « الشرفية » أنشأها شرف الدين عبد الرحمن بن العجمي ، وأنفق عليها ما يربو على اربعمائة الف درهم ، ووقف عليها أوقافاً جليلة ، وكان فيها غرف وايوان وقاعة للدرس ، وفي بنائها وأبوابها من بدائع الصنعة ما يفتخر به الصناع ، وعلى بئرها قنطرة من الحديد مكتوب عليها بالقلم المجوز انها صنعت سنة اربعين وستمائة وهي من بدائع الرسم . اما الآن ففي سنة ١٣٤٣ شرع في تعميرها واتخذ من الجهة الشرقية منها بهو كبير باربعة أعمدة يصلح للمحاضرات وأماكن أخرى .

(١٨٣) « الرواحية » أنشأها ركن الدين هبة الله محمد بن عبد الواحد الحموي وقال في الوافي : زكي الدين بن رواحة الحموي الشاعر المعدل كان كثير الأموال محتشماً أنشأ مدرسة بدمشق وأخرى بحلب وشرط على الفقهاء والمدرسين شروطاً صعبة ، وان لا يدخل مدرسته يهودي ولا نصراني ولا حنبلي حشوي توفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وقد اندثرت في وقعة تيمور ثم أصلحت في زمن قصروه كافل حلب . اما الآن فقد صارت دوراً ولم يبق منها سوى باب ذي أحجار ثلاثة سود ، وباب مسدود يعلوه حجرة عظيمة ، وهي واقعة في اول الزقاق المعروف اليوم بزقاق الزهراوي شمالي المدرسة الشرفية الآنفة الذكر .

(١٨٤) « البدرية » أنشأها بدر الدين عتيق عماد الدين شادي في صدر

درب الباز يار ويعرف الآن بزقاق الزهراوي وهي داثرة ·

(١٨٥) « السيفية » أنشأها الامير سيف الدين علي بن علم الدين سليمان بن جندر (٦١٧) مشتركة بين الشافعية والحنفية وقد دثرت هي وسميتهـا التي جعلت لتدريس مذهبي مالك واحمد بن حنبل كما يأتي ، لكن يتعين موقع احداهما في قبلي تربة الكليباتي بجانب محلة الكلاسة ، بما هو موجود الآن من تربة الباني التي لم يذكر التاريخ انها في جوار مدرسته وهي اليوم قبة قديمة سقفها خرب فيها قبره ·

(١٨٦) « الزيدية » وتعرف بالألواحية لنزول الألواحي فيهـا ، هي داخل باب انطاكيـة بالقرب من المدرسة الشعيبية أنشأها ابراهيم بن ابراهيم المعروف باخي زيد الكيال انتهت سنة ٦٥٥ درس فيها احمد بن محيي الدين العجمي ·

(١٨٧) « القوامية » داخل باب الاربعين بالقرب من حارة الفرافرة تجاه قسطل الملك العادل غياث الدين وداخلها ربط للقلندرية ·

(١٨٨) « الشادبختية » أنشأها الامير جمال الدين شـادبخت نائب نور الدين محمود بحلب (٥٨٩) ، وممن ولي تدريسها احمد بن كمال الدين بن العديم المتوفى (٦٣٨) وكانت حلب يومئذ أعمر ما كانت بالعلماء والمشـايخ والفضـلاء الرواسخ · وقد تولى تدريسها بعده كثيرون من الفضلاء من بني الشحنة ·

(١٨٩) « الظاهرية ايضاً » أنشـأها الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب (٦١٦) للشافعية وأنشأ الى جانبها تربة ليدفن فيهـا من يموت من الملوك والامراء ، وهي قبلي حلب مما يلي باب المقـام لم يبق منهـا سوى المحراب وعمودين وحوض مثمـن بديع ·

(١٩٠) « الهروية » أنشـأها الملك الظاهر غازي لاجل الشيخ الذي كانت له عنده منزلة رفيعـة وهو علي الهروي السائح قبلي حلب ، خربت في فتنة التتر ولم يبق منها سوى قبره في قبة داخل كرم فستق وكانت وفاته سنة احدى عشرة وستمائة ·

(١٩١) « الفردوس » انشأتها الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين ابي بكر محمد بن ايوب وهي جليلة ، وجعلتها تربة ومدرسة وربطاً ورتبت فيها خلقاً من القراء والفقهاء والصوفية ، ولا تزالـــ أسوارها باقية وجامعها عامراً ، لكنها جعلت مدفناً

للفلاحين النازلين في جوارها وتحتاج الى ترميم ، وهي مثال جميل من أمثلة الهندسة العربية ، كتب على حائط فنائها بعد البسملة وآيات من سورة الزخرف : «هذا ما امرت بانشائه ذات الستر الرفيع ، والجناب المنيع ، الملكة الرحيمة ، عصمة الدنيا والدين ، ضيفة خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين ابي بكر بن ايوب تغمدهم الله برحمته ، وذلك في ايام مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور صلاح الدنيا والدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن يوسف بن ايوب ناصر امير المؤمنين عز نصره ، بتولي العبد الفقير عبد المحسن العزيزي الناصري رحمه الله في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة» . وقد كتب على محرابها البديع (عمل حسان بن عفان) .

(١٩٢) « البلدقية » أنشأها الامير حسام الدين بلدق عتيق الملك الظاهر سنة (٦٣٥) خربت سنة ١٠٢٤ وهي ظاهر حلب ونقلت حجارتها لبناء دار السعادة المنشأة في تلك السنة .

(١٩٣) « القيمرية » انشأها الامير حسام الدين القيمري سنة ٦٤٦ وهي خراب منذ قرون .

وهناك اربع مدارس ذكرها ابن الشحنة :

(١٩٤) الاولى بالجبيل لشمس الدين احمد بن العجمي وقد دفن بها ابو ذر المؤرخ سبط ابن العجمي وهي مشتركة بين الشافعية والمالكية أنشئت سنة ٥٩٥ وتسمى الآن جامع ابي ذر فيها قبلية ومنبر .

(١٩٥) الثانية انشأها الامير شمس الدين لولو .

(١٩٦) الثالثة بالمقام انشأها بهاء الدين المعروف بابن ابي سبال .

(١٩٧) الرابعة انشأها عز الدين مظفر الحموي (٦٣٢) .

هذه هي مدارس الشافعية في داخل المدينة وخارجها . اما مدارس الحنفية في المدينة فهي :

(١٩٨) « البلدقية ايضاً » وهي بجانب سميتها المتقدمة الذكر بنيت كذلك سنة ٦٣٥ .

(١٩٩) « الحلاوية » كانت كنيسة من بناء هيلانة ام قسطنطين ولما بعثر

الفرنج قبور المسلمين وأحرقوهم (٥١٨) انتقم المسلمون بان أحالوا هذه الكنيسة مع ثلاث أخرى مدرسة ، وفيها الى الآن عمد الرخام في تيجانها نقوش تمثل أنواعاً من النبات تشبه نقوش قلعة سمعان ، وكانت تعرف قديماً بمسجد السراجين جعلها نور الدين مدرسة ، وجدد بها مساكن يأوي اليها الفقراء (٥٤٣) وهي من أعظم المدارس ، ومن أكثرها طلبة وأغزرها رواتب وجرايات ، درس بها جملة من العلماء . وهي منفصلة عن الجامع الكبير بزقاق ضيق في السوق قبالته من الغرب . وقد ذكرها احد علماء الآثار فقال ان الجزء الجنوبي منها يحتوي على بقايا بناء دبني من عهد النصرانية الاولى ، وقد أثبت ذلك التقليد القائل بان هيلانة بنت في حلب كنيسة وان تقعر البناء على صورة قاعة ذات مقاعد قائمة على عمد مستندة الى الغرب على خلاء تغشاه القبة الاصلية ، ونقوشه تشبه نقوش الكنائس ذات السطح المتوسط في ديار بكر والرصافة . ان كل هذا ليدل بالنظر لصورة تيجان الكنيسة ان أصلها من بناء قام في آخر القرن السادس . ويقول هرزفيلد الأثري ان عهد الفراغ الذي قامت فيه القبة يرد الى تاريخ تلك القاعة . وكذلك الرواقان المتلاصقان من الجنوب والشمال ، وان الناظر في مجموع هذا البناء يرى الجزء الغربي منه بيعة تغشاها قبتان او ثلاث كان محراباً متصلاً بالزقاق الآخذ اليوم الى المدرسة والجامع الاعظم . وذكر القزويني ان في مدرسة الحلاوي بحلب حجراً على طرف بركتها كأنه سرير ووسطه منقور قليلاً يعتقد الفرنج فيه اعتقاداً عظيماً وبذلوا فيه أموالاً فلم يجابوا اليه . ومحراب هذه المدرسة العامرة اليوم بالطلبة من أجمل المحاريب عمل بخشب الآبنوس على صورة بديعة ، وكان على قبتها طائر من نحاس يدور مع الشمس فذهب .

(٢٠٠) « الاتابكية » انشأها شهاب الدين طغرل بك عتيق الملك الظاهر غياث الدين غازي نائب السلطنة سنة ٦١٨ وخربت في فتنة التتر ثم رممت وما زالت عامرة الى القرن العاشر ثم خربت ، والآن لا يعرف الا مكانها الذي اصبح عرصة خالية شرقي جامع العادلية وقبلي خان الفرايين يفصلها عنهما الطريق الآخذ الى السفاحية والطريق الآخذ الى الخسروية .

(٢٠١) « الحدادية » انشأها حسام الدين محمد بن عمر بن لاچين ابن اخت

صلاح الدين وهي من الكنائس الاربع التي صيرها ابن الخشاب مساجد فهدمها وبناها بناءً وثيقاً نولاها كثير من المدرسين وكانت عامرة في اواخر القرن العاشر . وهي في محلة السفاحية لم يبق من آثارها سوى عضادتي باب كبير مكتوب على طرفه الايمن (الحمد لله) .

(٢٠٢) « الجردكية » وهي ملاصقة للصاحبية انشأها الامير جرديك النوري بسوق البلاط كملت سنة ٦٠١ كانت عامرة الى آخر القرن الثامن . وفي اواخر القرن الثالث عشر كانت قهوة ثم تحولت مكتباً ثم صارت دكاناً ثم عمرتها دائرة المعارف مخزناً واسعاً للتجارة وهو الآن كذلك .

(٢٠٣) « المقدمية » انشأها عز الدين عبد الملك بن المقدم من امراء صلاح الدين سنة ٥٦٤ وكانت احدى الكنائس الاربع التي صيرها ابن الخشاب مساجد فجعلها مدرسة واضاف اليها داراً كانت الى جانبها . وهي في محلة الجلوم في زقاق يسمى خان التتن باق منها قبليتها وبابها الذي فيه صنعة حسنة . وهي اخت المقدمية في دمشق التي بناها ابن المقدم ايضاً والاوقاف التي في دمشق مشتركة بين الاثنتين .

(٢٠٤) « الجاولية » انشأها عفيف الدين عبد الرحمن الجاولي النوري وهي في محلة سويقة حاتم وقد كان الباقي منها قبليتها . اما الآن فقد هدمتها دائرة الاوقاف وعمرت في مكانها عقارات للاستغلال .

(٢٠٥) « الطمانية » انشأها الامير حسام الدين طمان النوري وخربت في القرن الثامن او قبله ، وكانت في درب الاسفريس الذي هو بجانب جامع منكلي بغا المعروف الآن بجامع الرومي من باب قنسرين .

(٢٠٦) « الحسامية » انشأها الامير حسام الدين محمود بن ختلو غربي قلعة حلب سنة ٦١٥ وامام بابها القديم باب حادث كتب عليه انه عمر سنة ١٢٨١ والباقي منها قبليتها وثلاث حجرات صغار . وهي خربة في ادارة الاوقاف مسدودة الباب ، اول من درس بها بدر الدين يعقوب النحاس ثم ولده محمد ثم العلماء بنو الشحنة .

(٢٠٧) « الاسدية » ثم الخسروية تجاه القلعة المعروفة حينئذٍ بالطواشية انشأها

بدر الدين الخادم عتيق اسدالدين شيركوه كانت داراً يسكنها فوقفها بعد موته ، وكان مكتوباً على بابها جددت سنة ٦٣٢ قال ابن الشحنة : ان هذه المدرسة خربها المنلا محمد ناظر الاوقاف بحلب سنة خمس وثلاثين وتسعمائة ولم يبق لها عين ولا اثر ودخلت في عمارة المدرسة التي انشأها الوزير خسرو باشا المشتملة على مسجد وجامع ومدرسة وخانقاه معدة للضيوف ، وهي اول عمارة أنشئت بحلب منذ دخول الترك . وفي در الحبب ان خسرو باشا كافل حلب لما تولى الوزارة امر بانشاء جامع وتكية في حلب بمشارفة معمار رومي بدأه بارخب كما خرب غيره وادخل عدة اوقاف فيها منها الدار التي عمرها ووقفها ابو الفضل ابن الشحنة والمدرسة الاسدية الملاصقة لها ومسجد ابن عنتر الملاصق لها وكانت هذه الدار احد دور حلب العظام مشتملة على حديقة وبحرة وسبع قاعات وفرن وآبار لخزن الغلال ودهليز يصل الى حمامه المشهور بحمام القاضي . واتفق في هذه المدرسة ان جعلت ميضآت للتكية المذكورة . وفي اعمدة التكية المذكورة عمودان كانا للمدرسة القديمة بزقاق سالار بحلب فاخذهما ، ومتوليها اذ ذاك محمد چلبي ابن المرعشي ولم ينتطح فيها عنزان اه . قلنا وهذا مثال صريح من العمران التركي فهو والخراب اسمان لمسمى واحد . وهذه المدرسة تسمى اليوم بالخسروية وهي عامرة بطلبة العلم بفضل النهضة الاخيرة ومحرابها ومنبرها وقبتها من اجمل آثار الصناعة الحلبية في القرن العاشر بقيت بحالها لم تمسسها ايدي المتولين والمتلاعبين وفيها القيشاني من صنع حلب .

(٢٠٨) « القليجية » انشأها الامير مجاهد الدين محمد بن شمس الدين محمود بن قليج النوري سنة ٦٥٠ ملاصقة لدار العدل ثم تجدد من جوانبها الثلاثة دور مضافة الى دار العدل ، خربت في القرن العاشر .

(٢٠٩) « الفطيسية » انشأها سعد الدين مسعود بن الامير عز الدين ايبك المعروف بفطيس عتيق عز الدين فرخ شاه بن شاهنشاه بن ايوب صاحب بعلبك كانت داراً يسكنها فوقفها توفي سنة ٦٤٩ . واول من درس بها احمد القراولي المارداني المعروف بالفصيح وعليه انقضت الدولة الناصرية ، وهي مما دخل في دار العدل وحكم القاضي شمس الدين بن امين الدولة بانتقال وقفها الى القليجية اقرب

مدرسة اليها ، قال ابن الشحنة : انها درست في الفتنة التيمورية ولم يبق لها عين ولا اثر ولا يعلم اين كانت · وكذا صار في مدارس عديدة فانني مازلت اسمع انه كان بحلب اربعون مدرسة للحنفية خاصة ولم يدع ابن شداد ذلك ·

(٢١٠) « المجدية » الجوانية منسوبة الى مجد الدين بن الداية في محلة بزة بالقرب من ضريح النبي بلوقيا خربت في سنة ٩٣٦ ·

(٢١١) « المجدية » البرانية منسوبة اليه ايضاً دثرت بالكلية ·

(٢١٢) « الكلتاوية » بناها الامير طقتمر الكلتاوي المتوفى سنة ٧٨٧ داخل بانقوسا في محلة تسمى بالكلتاوية وهي للحنفية لم يبق منها سوى قسم من قبليتها وكان فيها قبر الواقف لكنه دارس · وهي في ادارة الاوقاف ·

(٢١٣) « الالجائية » لصيق جامع الطواشي نسبة الى الجاي امين السلاح زمن اشقتمر أنشئت سنة ٧٤٤ ·

(٢١٤) « الكينوشية » او الكهنبوشية داخل باب النيرب و يقال بل هي زاوية ·

(٢١٥) « الشهابية » تجاه الناصرية للحنفية · ولا اثر لها الآن ولعلها دخلت في بناء خان الوزير ·

(٢١٦) « الكاملية » بالقرب من الناصرية بناها ابن كامل · ولا اثر لها الآن ولعلها دخلت في بناء خان الوزير ايضاً ·

(٢١٧) « الصاحبية » شمالي الجردكية انشأها شهاب الدين احمد بن الصاحب سنة ٧٦٥ وهي باقية الى الآن الا انها متوهنة وفيها نقوش وآثار تعد من النفائس ·

(٢١٨) « المدرسة التي في شرقي الجامع العمري » في بحسيتا فيها قبر الشيخ حسن الفول ·

(٢١٩) « اليشبكية » بناها الامير يشبك المؤيدي نائب حلب على انها مكتب ايتام وبنى له فيها مدفناً دفن فيه سنة ٨٢٣ ووقف عليها سوقه الذي بناه بالقرب منها ولا اثر لها الآن اما المسجد الذي بني معها فهو باق في سوق تسمى الآن سوق العبي ·

(٢٢٠) « تغري الدرمشية » تحت القلعة بناها الامير تغري درمش نائب حلب ·

(٢٢١) « السفاحية » بناها القاضي شهاب الدين سبط بني السفاح ووقفها على

الشافعية وشرط ان لا يكون لحنفي فيها حظ الا في الصلاة ·

(٢٢٢) « مدرسة اقجا » انشأها اقجا خازن يشبك اليوسفي وهي قبلي السفاحية بالخط المذكور ولا اثر لها اليوم ·

(٢٢٣) « الدلغادرية » بناها الامير ناصر الدين باك محمد بن دلغادر ظاهر البلد من شماليه على كتف الخندق ووقفها على الحنفية وقرر بها الشيخ الامام شهاب الدين احمد بن موسى المرعشي ·

(٢٢٤) « الاشودية » انشأها الامير عز الدين اشود التركماني دثرت في القرن العاشر ·

(٢٢٥) « النقيب » انشأها السيد الشريف المرتضي النقيب عز الدين ابوالفتوح احمد بن محمد الاسحاقي المؤتمني الحسيني المتوفى سنة ٦٥٣ على جبل جوشن وكانت عمارتها من البدائع يقال لها تاج حلب ·

(٢٢٦) « الدقاقية » انشأها مهذب الدين ابو الحسن علي بن الدقاق سنة ٦٣٠ خربت بعد القرن التاسع على الغالب كانت شمالي الفيض ·

(٢٢٧) « الجمالية » انشأها جمال الدولة اقبال الظاهري عتيق ضيفة خاتون وهي قبلي الفردوس ·

(٢٢٨) « العلائية » انشأها علاء الدين علي بن ابي الرجا شاد[1] ديوان الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل · وهذه اما ان تكون ليست مدرسة بل مسجداً وهو موجود الآن في محلة الكلاسة مكتوب عليه اسم الباني هذا سنة ٦٣٣ وهو مدفون في حجرة شرقي القبلية ، او تكون المدرسة غيره وقد زال اثرها ·

(٢٢٩) « الكمالية العديمية » انشأها الصاحب كمال الدين عمر بن العديم شرقي

---

(١) رتبة جليلة في قصر الملك كان يكون صاحبها مرافقاً للوزير والشد على اجناس ، منها شد المهمات وشد الدواوين وشد الاوقاف وشد الزكاة وشد العشر وشد دار الطعم ·

حلب خارج باب النيرب وبني الى جوارها تربة وجوسقاً و بستاناً ابتدأ بعمارتها سنة ٦٣٩ وتمت في سنة ٦٤٩ ٠

(٢٣٠) « الاتابكية » ايضاً انشأها الاتابك شهاب الدين طغرل عتيق الملك الظاهر سنة ٦٢٠ اول من درس بها الصفي عمر الحموي ثم نظام الدين محمد بن محمد بن عثمان البلخي والفخر عبد الرحمن بن ادريس وهي في محلة الجبيلة في صدرها قبلية في طرفها الايمن ايوان في وسطه ضريح الواقف وقد اتخذتها دائرة المعارف مدرسة ابتدائية وهي تسمى الآن مدرسة النجاة مكتوب على بابها اسم بانيها ابي سعيد طغرل ابن عبد الله الملكي الظاهري وانها على المدرس والحنفية ٠

(٢٣١) « الصهيبية » وراء باب انطاكية مباشرة تجد بقايا بناء عرفه قدماء السياح بانه قوس قديمة ثم نقشت عليه بعد كتابة كوفية ويسمى جامع التوتي ٠ وهي المدرسة الصهيبية التي قامت على انقاض جامع في حلب بناه ابو عبيدة ٠ قال سبرنهايم الاثري ان النقوش الكثيرة والهندسة القديمة والكتابات الكوفية الموجودة في هذا البناء تجعله في الدرجة الاولى من المكانة ، ومنه يدرس التحول التام المجهول سره حتى الآن والذي تم على عهد نور الدين في اسلوب الهندسة من حيث صور الكتابة والطرز السياسي في الكتابات ٠

(٢٣٢) « السيفية » ايضاً انشأها الامير سيف الدين علي بن سليمان بن جندر تحت القلعة لتدريس مذهبي مالك واحمد بن حنبل ٠ هذا ماورد في الدر المنتخب في الكلام على مدارس المالكية والحنابلة ٠

(٢٣٣) « الناصرية » كانت قديماً كنيسة لليهود تعرف بكنيسة مثقال ثم في سنة ٧٢٧ ثبت انها محدثة في دار الاسلام فقلبت مدرسة وعمل بها منارة وهي معروفة الآن بجامع الحيات لرسوم حيات من الحجر في فنطرة بابها وقد عراها الوهن (عن اعلام النبلاء) ٠

(٢٣٤) « الشادبختية » ايضاً وهذه هي الجوانية انشأها الامير جمال الدين شادبخت الخادم الهندي الاتابكي نائب نور الدين بحلب اول من درس فيها موفق الدين محمود بن النحاس ثم ابن العديم ثم بنو الشحنة وهي في سوق الضرب ويقال الآن

الزرب تحريفاً مكتوباً على بابها انها موقوفة على الحنفية سنة ٥٨٩ وتعرف اليوم بجامع الشيخ معروف، محراب قبليتها بديع كتب عليه انه عمل ابي الرجا وعبد الله بن يحيى .

(٢٣٥) « الطرنطائية » منسوبة الى مجددها طرنطاي بن عبد الله الامير سيف الدين نائب دمشق المتوفى سنة ٧٩٢ وهي في آخر محلة باب النيرب ، جسيمة مكتوب على بابها كتابة حديثة بالاستناد الى بعض الكتب : وقف هذين الجامع والمدرسة عفيف بن محمد شمس الدين سنة ٧٨٥ وفيها رواقان وحجر وفوق الرواقين رواقان صغيران ووراء كل منهما خمس حجر وشمالي باب المدرسة باب قديم داخله دار يظهر انها خانقاه تابع للمدرسة .

وكان في حلب داران للحديث انشأهما الملك العادل وخمس دور تعدمن مدارس المالكية والحنابلة .

(٢٣٦) الاولى انشأها القاضي ابن شداد .

(٢٣٧) والثانية انشأها مجد الدين بن الداية .

(٢٣٨) والثالثة انشأها بدرالدين الاسدي .

(٢٣٩) والرابعة انشأتها ام الملك الصالح اسمعيل بن نورالدين محمود .

(٢٤٠) والخامسة انشأها الصاحب مؤيد الدين ابرهيم بن يوسف القفطي كانت تعرف بالفردوس .

هذا مارواه ابن الشحنة عن ابن شداد وغيره في مدارس حلب الشهباء . وانت ترى انها من هذا القبيل تعد ثانية دمشق . وان مدارسها على الاكثر نشأت في الدولتين النورية والصلاحية او عمرت بايدي الامراء والاميرات ولم يكتب لها البقاء كلها لانها عمل افراد كما قلنا . ولولا ذلك لكانت اقرب الى مقاومة الحوادث . وهذا من جملة آفات هذا الشرق التعس . واكثر هذه المدارس مما بدأ فيه الخراب في ايام العثمانيين كما هو الحال في مدارس دمشق ، وقد جاء في تقويم سنة ١٣٣٢ ان في الشهباء (٣٢) مدرسة وما نظن العامر منها يتجاوز العشر وقد انشئت فيها على عهد العثمانيين .

(٢٤١) « العثمانية » انشأها احد ولاة حلب في القرن العاشر وما زالت عامرة يسكنها الطلبة .

(٢٤٢) « الشعبانية »

(٢٤٣) (القرناصية »

(٢٤٤) « السيافية »

(٢٤٥) « الاسماعيلية »

(٢٤٦) « المنصورية »

(٢٤٧) « البهائية »

(٢٤٨) « الخسروية » التي مرت

(٢٤٩) « الكواكبية » انشأها سنة ١١٦٧ السيد احمد بن السيد ابي السعود ابن السيد احمد الكواكبي في محلة الجلوم الصغرى واودعها كتباً قيمة تفرقت ايدي سبا ·

(٢٥٠) « الاحمدية » انشأها سنة ١١٦٦ على صلحاء اكراد ما وراء الموصل وفيها نحو ثلاثة آلاف كتاب ، القاضي احمد بن طه زاده المشتهر بالچلبي ·

(٢٥١) « الهاشمية » في محلة الفرافرة انشأها هاشم الدلال باشي من اصحاب الأملاك بحلب سنة عشر وثلاثمائة والف ·

(٢٥٢) « الدليوانية » كانت مسجداً فرممه محمد اسعد باشا الجابري سنة ١٣٢٣ وجعل فيها ست حجر للطلبة وحجرة للمدرس يدرس فيها الفقه الشافعي وشرط ان يكون الطلبة غرباء ·

(٢٥٣) « البلاطية » هي زاوية مشروط فيها اقامة عشرة من الطلبة الحنفية ولها امام ومؤذن ومدرس ولهم طعام ، وقفها الامير زين الدين الحاج بلاط الدوادار وهي خارج باب المقام ، بقي من آثارها ايوان كبير وست حجر يسكنها الفقراء عمرت في منتصف القرن التاسع ·

(٢٥٤) « التجهيز » انشئت في صفر سنة عشر وثلاثمائة والف باسم المكتب السلطاني وهي في غربي حلب في محلة اسمها السليمية او الجميلية وهي دار التجهيز والمعلمين

(٢٥٥) « الصنائع » أسست هذه المدرسة سنة ١٣١٩ في دار الصابوني من محلة باب قنسرين ثم اتخذ لها بناء خاص في محلة السليمية ·

(٢٥٦) «الاميري» هو جامع لكن فيه حجر للدرس ومدرس للحديث والفقه والنحو·

هذا عدا المدارس الابتدائية والمدارس التي لغير المسلمين وهي عديدة ·

وليس في تاريخ حلب مايدل على انه كان فيها كما كان في دمشق دور للقرآن بل كان فيها دار القرآن الحبشية المنسوبة الى ابي العشائر المطل شباكها على الجامع الكبير درس بها ابو الوفاء العرضي سنة ١٠٧١ ·

وذكر ابن جبير في المئة السادسة انه كان يتصل من الجانب الغربي من جامع حلب مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً واتقان صنعة فهما في الحسن روضة تجاور اخرى قال وهذه المدرسة من احفل ماشاهدناه من المدارس بناءً وغرابة صنعة ومن اظرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً امامها فيمد الساكن فيها يده و يجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة · وللبلدة سوى هذه المدارس نحو اربع مدارس او خمس · قلنا ولعله يقصد بكلامه المدرسة الحلاوية العامرة الى اليوم ·

وقد درّس في هذه المدارس اجلة علماء الشهباء والوافدين عليها من الأئمة وكانت كمدارس دمشق والقدس تقرئ الطالب ماينفعه في دينه ودنياه · ويقول منش ان المدارس تكاثرت في حلب على عهد اولاد صلاح الدين وازدهرت معارفها وآدابها حتى بلغت اربعاً واربعين مدرسة او تزيد ، ثلاث منها لعلوم الطب · على انه لم يتعرض من كتبوا على مدارس حلب لوصف مدارس الطب ·

(٢٥٧) (القرموطية) انشاء عبد القادر بن قرموط سنة ٨٨٢ جددها عبد الرحمن بن قرموط سنة ٩٧٨ وهي الآن مكتب ·

(٢٥٨) (الشاذلية) وقيل هي دار حديث قرب مسجد النحويين في سويقة الحجارين كانت ضيقة فتجددت قبليتها و بابها واستخرج منها دكانان ·

(٢٥٩) (البولادية) في محلة باب المقام في الصف الشرقي من الجادة ، خربة يسكنها الفقراء ·

(٢٦٠) مدرسة للشافعية هي تربة العلمي في محلة الدحديلة ·

(٢٦١) (القلقاسية) قبلي القلعة مندثرة ·

(٢٦٢) (الصروي) ملحقة في جامع الصروي في محلة البياضة انشئت سنة ٩٢٠

(٢٦٣) (الرحيمية) انشأتها رحمة بنت عبد القادر بن احمد بك في محلة مستدميك سنة ١١٥٦ ·

(٢٦٤) (مدرسة تجاه زاوية الكيال) لا يعرف اسم بانيها هي اليوم مسكن للفقراء ·

(٢٦٥) مدرسة من مشتملات جامع السكاكيني في محلة الاعجام ·

(٢٦٦) (الدفتردار) منسوبة لبيت العقاد بجانب سبيل البيك داخل محلة باب المقام ·

(٢٦٧) مدرسة داخل بوابة النبي لا اثر لها ·

(٢٦٨) مدرسة خارج بوابة النبي لا اثر لها ·

(٢٦٩) مدرسة بجانب الاجابية السالفة الذكر تعرف بالصاحبية انشأها بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد لا اثر لها ·

(٢٧٠) مدرسة تجاه سابقتها لنور الدين زنكي لا اثر لها ·

(٢٧١) (تربة الطونبغا) وتعرف الآن بالمدرسة بلا اسم ·

(٢٧٢) (نصر الله) في محلة بحسيتا تجاه كنيس اليهود بزقاق المدرسة معطلة موهنة ·

* * *

مدارس القدس(١) مدارس بيت المقدس كمدارس دمشق وحلب من حيث البناء والترتيب والوقوف عليها ، ومعظمها مما أقامه الملوك والامراء والاغنياء والعلماء ، ولم يكتب لها البقاء كثيراً لانها كلها من عمل الأفراد ، وعمل الأفراد مهدد بالوهن في كل قرن ، ضربها الدهر ضرباته ، وعبث بجمالها وقطع أوصالها ، ولو كانت من عمل الجماعات كمدارس الغرب في بيت المقدس نفسه ، لكتب لها البقاء اكثر ، ولكانت أحكم وأعظم ·

وأقدم مدارس بيت المقدس ما بني على عهد صلاح الدين يوسف بن ايوب عقيب

---

(١) أشكر للاستاذ السيد عمر الصالح البرغوثي في القدس لالقاء نظره على ما كتبت في المدارس القدسية ·

استخلاصه هذه المدينة من أيدي الصليبيين ، ثم توفر اهل الخير من الامراء والاغنياء ، ومنهم النساء والاماء ، فأنشأوا منها ما أنشأوا عنوان الغيرة على العلم وبث الفضائل . وقد عدد مجير الدين الحنبلي في الانس الجليل ما كان على عهده منها في القدس والخليل فقال انه كان في بيت المقدس من المدارس :

(٢٧٣) (المدرسة الفارسية) بجوار المسجد الاقصى بالقرب من بئر الورقة منسوبة لوقف المدرسة الفارسية التي شرقي المسجد وقفها الامير فارس البكي وهي الى اليوم عامرة فيها دار كتب المسجد الاقصى .

(٢٧٤) (النحوية) على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة الى الغرب بانيها الملك المعظم عيسى سنة اربع وستمائة كان يُدرس فيها الكتاب لسيبويه .

(٢٧٥) (النصرية) كانت على برج باب الرحمة مدرسة تعرف بالنصرية للشيخ نصر المقدسي ، ثم عرفت بالغزالية نسبة لابي حامد الغزالي وقد اعتكف فيها وأتم تأليف كتابه احياء العلوم فيما قيل . ثم أنشأها الملك المعظم عيسى وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو ووقف عليها كتباً وتاريخ وقفها سنة ٦١٠ ويقول مجير الدين انها دثرت في عصره وهي الآن غرفتان عامرتان معدتان للزيارة .

(٢٧٦) (التنكزية) واقفها الامير تنكز الناصري نائب الشام ، وهي مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها عمرت سنة ٧٢٩ وهي بجانب باب الحرم بجوار باب السلسلة مجاورة للسور من جهة الغرب ولا تزال عامرة وهي الآن مقر المحكمة الشرعية وفي النية تحويل المتحف الاسلامي اليها .

(٢٧٧) (البلدية) بجانب باب الحرم جوار باب السلسلة واقفها الامير منكلي بغا الاحمدي نائب حلب ودفن فيها سنة ٧٨٢ وما برحت عامرة الى اليوم واوقافها غير معلومة وهي دار للسكنى .

(٢٧٨) (الأشرفية) داخل المسجد الاقصى بالقرب من باب السلسلة عمرها الملك الأشرف قايتباي لما جاء القدس وبديء بحفر أساسها (٨٨٥) ، وكانت قبتها ثالث القباب المهمة في القدس . والاولى قبة الصخرة والثانية قبة الاقصى . وقد تكاملت هذه المدرسة (٨٨٧) وكانت طبقتين سفلية وعلوية ، ولعلها آخر المدارس

الاسلامية الفخمة التي أنشئت من هذا الطراز في بيت المقدس ، وهي اليوم خراب على كثرة ما وقف عليها من الاوقاف لم يبق منها الا سطحها و بابها وعليه كتابه من عهد الأشرف .

(٢٧٩) (العثمانية) بباب المتوضإ بجوار الحرم واقفتها امرأة من اكابر الروم اسمها اصفهان شاه خاتون وتدعى خانم ، وعليها اوقاف ببلاد الروم وغيرها ، وعلى بابها تاريخها في سنة اربعين وثمانمائة وهي لا تزال عامرة وتسكنها أسرة .

(٢٨٠) (الخاتونية) بباب الحديد جوار الحرم واقفتها اغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية ، ثم اكملت عمارتها ووقفت عليها اصفهان شاه بنت الامير قازانشاه (٧٨٢) ولم تبرح عامرة وما حُبس عليها من المغل غير معلوم وهي الآن دار سكن فيها قبر السيدة خاتون القازانية البغدادية .

(٢٨١) (الارغونية) بباب الحديد جوار الحرم واقفها ارغون الكاملي نائب الشام وهو الذي استجد باب الحديد احد أبواب المسجد ، اكملت عمارتها سنة ٧٥٩ ولم تبرح عامرة ولكنها دار للسكنى وقد ضاعت أوقافها وأحباسها وفيها قبر ارغون شاه .

(٢٨٢) (المزهرية) بباب الحديد جوار الحرم وقفها المقر الزيني ابو بكر بن مزهر الانصاري صاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية ، وبعضها راكب على ظهر الارغونية ، ولها مجمع على أروقة المسجد وكان الفراغ من بنائها في سنة ٨٨٥ وقدغدت داراً للسكنى وقسم منها خراب .

(٢٨٣) (الجوهرية) بباب الحديد جوار الحرم الشريف وبعضها على رباط كرد واقفها الصفوي جوهر زمام الادر الشريفة في سنة ٨٤٤ وهي الآن دار للسكني .

(١٨٤) (المنجكية) بباب الناظر جوار الحرم وقفها الامير منجك نائب الشام وكان رسم له بالاقامة بالقدس فدخلها في شهر صفر سنة احدى واربعين وسبعمائة ونقل مجير الدين ان الامير كان وصل الى القدس الشريف ليبني المدرسة للسلطان الملك الناصر حسن فكان قصده بناءها له فلما قتل السلطان في سنة اثنتين وستين وسبعمائة بناها لنفسه ونسبت اليه ، ووقف عليها ورتب لها فقهاء وأرباب وظائف ثم تلاشت ثم

عمرت ولا تزال معمورة الى هذا العصر ، وقد رممت في العهد الاخير وعمرت واتقنت وفيها مقر المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى .

(٢٨٥) (الجاولية) في الجهة الشمالية واقفها الامير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة وكان من اهل العلم توفي (٧٤٥) ضاعت أوقافها وهي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية .

(٢٨٦) (النصيبية) في الجهة الشمالية واقفها الامير علاء الدين علي بن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين ولي نيابة القدس وعمر بها المدرسة وتوفي بدمشق سنة ٨٠٩ ونقل الى هذه المدرسة وما برحت عامرة وقد أكلت أحباسها ، وهي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية .

(٢٨٧) (الإسعردية) جوار الحرم الى الشمال واقفها الخواجه مجد الدين عبد الغني بن سيف الدين ابي بكر بن يوسف الإسعردي وتاريخ وقفها (٧٧٠) لا تزال عامرة وريعها مجهول . وقد شرع في ترميمها منذ عهد غير بعيد لنقل دار كتب المسجد الاقصى اليها وإقامة قاعة للمحاضرات فيها .

(٢٨٨) (المالكية) الى شمالي الحرم عمرها الحاج ملك الجوكندار وكان بناؤها في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون في مستهل المحرم سنة احدى واربعين وسبعمائة . لا تزال عامرة وهي تابعة للإسعردية .

(٢٨٩) (الفارسية) الى شمالي الحرم واقفها الامير فارس البكي ابن الامير قطلوملك بن عبدالله نائب السلطنة بالاعمال الساحلية والجبلية ونائب غزة وهو الذي نسبت اليه الفارسية بداخل المسجد الاقصى وهذه الآن دار سكن وكان يدرس فيها الخالدية .

(٢٩٠) « الامينية » بباب شرف الانبياء المعروف بباب الدويدارية بجوار المسجد واقفها الصاحب امين الدين عبد الله في سنة ثلاثين وسبعمائة وهي دار سكن .

(٢٩١) « الدويدارية » بباب شرف الانبياء جوار الجامع واقفها الاميرعلم الدين ابو موسى سنجر بن عبد الله الدويدار الصالحي النجمي وتاريخ وقفها سنة ٦٩٦ وهي عامرة وفيها اليوم مدرسة البنات الاسلامية .

(٢٩٢) « الباسطية » بباب شرف الانبياء بعضها على المدرسة الدويدارية واقفها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي ناظر الجيوش المنصورة وعزيز المملكة وقفها سنة ٨٣٤ لا تزال موجودة تابعة للدويدارية وفيها مدرسة البنات الاسلامية .

(٢٩٣) « الكريمية » بباب حطة جوار الحرم واقفها الصاحب كريم الدين بن المعلم هبة الله بن مكانس ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية سنة ٧١٨ وهي لآن دار سكن .

(٢٩٤) « الدلغادرية » بباب حطة جوار الحرم واقفها الامير ناصر الدين محمد ابن دلغادر بعد ان عمرتها زوجته مصر خاتون وقفها سنة ٨٩٧ وهي خراب ودارسة .

(٢٩٥) « الطولونية » داخل المسجد على الرواق الشمالي كان يصعد اليها من السلم الموصل منه الى منارة باب الاسباط انشأها شهاب الدين احمد بن الناصري محمد الطولوني الظاهر زمن الملك الظاهر برقوق على يد مملوكه اقبغا سنة ٨٢٧ وهي من المدارس الداثرة اليوم .

(٢٩٦) « الفترية » مقابل الطولونية من جهة الشرق كان يصعد اليها من السلم المتصل منها الى منارة باب الاسباط ايضاً وهي من انشاء شهاب الدين الطولوني عمرها مع مدرسته لمقدم ذكرها وجعلها للملك الظاهر برقوق فلما توفي الظاهر وآل الامر لولده الملك الناصر فرج رتب لها قرى واقام نظامها وجعل لها معاليم تصرف عليها ثم لما توفي الناصر فرج لم يكن لها كتاب وقف فاشتراها بعد وفاته رجل من الترك يقال له محمد شاه بن السفاري الرومي ووقفها ونسبت اليه وقد درست واصبحت مساكن .

(٢٩٧) « الحسنية » على باب الاسباط وقف شاهين الحسني الطواشي من دولة الملك الناصر حسن المتوفى سنة ٧٦٢ هي الآن دارسة .

(٢٩٨) « الصلاحية » بالقرب من السور من جهة الشمال بباب الاسباط وقف السلطان صلاح الدين على الشافعية . ذكر المؤرخون ان صلاح الدين كان نازلاً في كنيسة صهيون ففاوض جلساءه من العلماء الاكابر في ان يبني مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطاً للصلحاء الصوفية ، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب اسباط وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة القيامة للرباط ووقف عليها وقوفاً وارتاد ايضاً

مدارس للطوائف ليضيفها الى ما اولاه من العوارف وقيل كان موضع هذه المدرسة ديراً للراهبات أقيم في مكان بيت القديسين يواكيم وحنة فهدمه الملك واقام المدرسة مكانه . وتاريخ وقفها (٥٨٨) ووظيفة مشيختها من الوظائف السنية بمملكة الاسلام. وكان الاتراك نزلوا عن هذه المدرسة للآباء البيض في القرن الماضي فجعلوها مدرسة اكليركية ، وفي الحرب العامة اخذها الترك وجعلوها مدرسة للعلوم الدينية فلما سقطت القدس في ايدي الحلفاء رجعت الى المسيحيين كنيسة .

(٢٩٩) « الكاملية » بخط باب حطة بجوار الكريمية من جهة الشمال واقفها الحاج كامل من اهالي طرابلس كتب محضر بوقفها سنة ٨١٠ تعد في الدوارس .

(٣٠٠) « المعظمية » وقف الملك المعظم عيسى مقابل باب شرف الانبياء المعروف بباب الدويدارية تاريخ وقفها سنة ستين وستمائة وهي معمورة وكان يدرس فيها الخالدية خصوصاً الكافية والهداية .

(٣٠١) « السلامية » بباب شرف الانبياء تجاه المعظمية وهي بجوار المدرسة الدويدارية من جهة الشمال واقفها الخواجا مجد الدين ابو الفدا اسماعيل السلامي والظاهر انها وقفت بعد السبعمائة وهي دار قرآن ولا تزال موجودة دار سكن .

(٣٠٢) « الوجيهية » بخط درج المولة وقف وجيه الدين محمد بن عثمان بن اسعد بن المنجا الحنبلي المتوفى في سنة ٧٤٥ هي الآن دار للسكن .

(٣٠٣) « المحدثية » بالقرب من الوجيهية عند قبو باب الفواغة بجوار الحرم واقفها عز الدين ابو محمد عبد العزيز العجمي الاردبيلي سنة ٧٦٢ وهي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية .

(٣٠٤) « الحسنية » بباب الناظر على رباط علاء الدين البصير واقفها الامير حسن الكشكيلي (الشكبلي ؟) ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس وكان بناؤها في سنة ٨٣٧ وهي لعهدنا دار سكن .

(٣٠٥) « التشتمرية » بباب الناظر بالقرب من الحسنية واقفها الامير تشتمر السيفي الملك الناصري حسن بن محمد قلاوون تاريخ وقفها ٧٥٩ وهي دار سكن .

(٣٠٦) « البارودية » بباب الناظر بالقرب من التشتمرية واقفتها الست الحاجة

سفري خاتون ابنة شرف الدين ابي بكر بن محمود المعروف والدها بالبارودي تاريخ وقفها سنة ٧٦٨ هي اليوم دار سكن ٠

(٣٠٧) (الجهاركسية) بجوار اليونسية من جهة الشمال كانت كنيسة من بناء الروم قسمت نصفين ، جعل الاول المدرسة الجهاركسية والثاني الزاوية اليونسية ٠ والجهاركسية نسبة لواقفها الاميرجركس الخليلي اميرآخور الملك الظاهر برقوق المتوفى سنة ٧٩١ ، لا تزال معمورة ٠

(٣٠٨) (الحنبلية) بباب الحديد واقفها الامير بيدمر نائب الشام وكان متوليًا نيابة دمشق في سلطنة الأشرف شعبان بن حسين (٧٧٧) فرغ من بنائها (٧٨١) وهي دار سكن ٠

(٣٠٩) (دار الحديث) بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب نسبة لركن الدين الكبير العجمي المعروف بالجالق وكان من جملة الامراء بالشام في دولة الملك المنصور قلاوون ٠ واقفها الامير شرف الدين عيسى بن بدر الدين ابي القاسم الهكاري (٦٦٦) ٠

(٣١٠) (دار القرآن السلامية) تجاه دار الحديث واقفها سراج الدين عمر بن ابي بكر ابي القاسم السلامي (٧٦١) لم تبرح معروفة ٠

(٣١١) (الطازية) بخط داود بالقرب من باب السلسلة وقف الامير طاز المتوفى (٧٦٣) موجودة الى الآن دار سكن ٠

(٣١٢) (الأفضلية) وتعرف قديمًا بالقبة بحارة المغاربة وقف الملك الأفضل نور الدين ابي الحسن علي بن الملك صلاح الدين على فقهاء المالكية بالقدس ووقف ايضًا حارة المغاربة على طائفة المغاربة على اختلاف أجناسهم ذكورهم وأناثهم ، وهي دار سكن الآن ٠

(٣١٣) (اللؤلؤية) بخط مرزبان بجوار حمام علاء الدين البصير من جهة الشمال او بباب العامود واقفها الامير لؤلوء غازي عتيق الملك الأشرف شعبان بن حسن لا تزال موجودة وقسم منها زاوية ٠

(٣١٤) (البدرية) قرب اللؤلؤية بخط مرزبان وقفها بدر الدين محمد بن ابي القاسم الهكاري وهي دار سكن ·

(٣١٥) (الميمونية) عند باب الساهرة وكانت كنيسة من بناء الروم واقفها الامير فارس الدين ابو سعيد ميمون القصري خازندار الملك صلاح الدين (٥٩٣) حولت الى مدرسة في عهد العثمانيين وهي الآن مدرسة البنات التابعة للمعارف وجعل اسمها « المأمونية » ·

(٣١٦) (الاباصيرية) مدرسة تنسب للامير علاء الدين الأباصيري كانت بجوار باب الناظر وهي معمورة يسكنها فقراء السودان وكانت في عهد الأتراك قسماً من السجن ·

(٣١٧) (الموصلية) بباب شرف الانبياء بجوار المسجد الاقصى ونسبت للخواجه فخر الدين الموصلي وهي عامرة ·

هذه خمس واربعون مدرسة عمرت كلها قبل عهد العثمانيين وما ندري ان كانت أنشئت في زمنهم الطويل مدرسة للفقه او دار للحديث او القرآن ، واكثر هذه المدارس من البناء الحجري الجيد وفيها يتجلى جمال الهندسة العربية وبعضها لم يقو على عوادي الايام فتداعي في عصر واقفه وبعضه مما سطا عليه أكلة الاوقاف فاضمحل بالطبيعة ، لم تشفع فيه متانة بنائه وإحكام بنيانه ، واكثره مما صبر على الايام وبقي الى الآن مثالاً ناطقاً بفضل البانين والواقفين لكنه تعطل عما كان وقف عليه من التدريس والملازمة · وكيف دارت الحال فعدد الباقي من مدارس بيت المقدس بالنسبة لما بقي من نوعه في دمشق وحلب اكثر ولا يعلل ذلك الا ان ارباب العدوان على الوقوف والأحباس لم يتيسر لهم ان يتسلطوا عليها وكان لهم من عناية غير المسلمين بمدارسهم ودياراتهم في القدس عبرة وعظة ·

وكان في قرية الطور (٣١٨) « المدرسة المنصورية » وهي خراب ·

وبمحلة الواد (٣١٩) « المدرسة العثمانية » ·

وبباب السلسلة (٣٢٠) المدرسة الكيلانية ·

(٣٢١) « الدقرية » ·

(٣٢٢) « المرمرية » ٠

(٣٢٣) « والبرقوقية » ٠

(٣٢٤) « الرشيدية » ٠

وبباب المناظر (٣٢٥) « الفرهادية » ٠

وبباب حطة (٣٢٦) « الصلاحية » ٠

وفي القدس اليوم مدارس مهمة لطوائف النصارى ولجماعة الصهيونيين تحتاج الى درس خاص ففيها من حيث العمران ما هو ذو شأن وان كان حديثاً على طراز غربي في البناء لا صلة بينه وبين هندسة هذه الديار لذلك ليس له في النفس تلك الروعة التي يجدها المرء لمدارسنا القديمة المتقنة الأوضاع ٠

***

بقية مدارس القطر } ذكر من زاروا حماة في القرنين السابع والثامن انه كان فيها ثلاث مدارس وبيمارستاناً وان فيها زوايا وربطاً ٠

وليس لهذه المدارس من اثر اليوم ٠ ومن جملة مدارسها :

(٣٢٧) « المدرسة الخاتونية » لمؤسستها مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر صاحب حماة انشأتها ونسبت اليها فسميت الخاتونية ووقفت عليها وقفاً جليلاً وكتباً وهي الآن بستان في مبدإ طريق محلة الجراجمة على يسار المنحدر الى باب النهر ٠

ومنها (٤٢) « المدرسة الطواشية » في محلة المدينة وقفها الطواشي مرشد في دولة الملك المنصور تجاه باب الجامع الكبير الشمالي في جانب حمام الذهب الشرقي خربت بعد الالف وهي الآن دارسة وكانت عظيمة جداً ولها أوقاف مهمة ولم يبق منها الا آثار الجدران في البستان ٠

ومنها (٣٢٨) « المدرسة البازرية » وهي للشافعية وقد خربت ايضاً ٠

(٣٢٩) « المدرسة العصرونية » في باب حمص على ضفة العاصي قرب بستان الجبل ، كانت دارقرآن وكان لها جامع وداران متصلان بها وفي جدارها كتابة حجرية الى اليوم مقروءة وخلاصتها ان الامير نجم الدين التوتان بن ياروق أنشأها سنة ٥٨٤

وعمر مسجدها وكتب عليها : امر بعمل هذه الدار المباركة السيد الفقير الى الله تعالى محمد بن محمد بن ابي بكر الشافعي خلا قبلها وما استثني جعلها دار قرآن ووقف عليها اوقافاً كثيرة لتسكن في هذه الديار من فقراء المسلمين الغرباء مقيمين بها ليلاً ونهاراً يتلون كتاب الله و يتذاكرونه بينهم و يدعون للواقف ولوالديه وللمسلمين . وقرر بها شيخين يعلمونهم القرآن الكريم و يكون مقام الفقير فيها مدة خمس سنين فان ختم القرآن او مضت المدة المعينة فيكسى ثوباً او جبة ، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم في شوال سنة خمس عشرة وسبعمائة .

ومن مدارس حماة (٣٣٠) « المدرسة العزية » كانت في محلة باب الجسر بناها محمد بن حمزة العزي بجوار جامع العزي في شهور سنة ٧٢٧ وهي خراب .

ومنها (٣٣١) « المدرسة النورية » كانت قريبة من جامع نور الدين وبعد ان عفت آثارها جددها سيف الدين الكيلاني وجعلت تكية .

(٣٣٢) « المدرسة الحنفية » هي القطعة الشرقية من حرم جامع نور الدين بناها الملك المؤيد صاحب حماة . وهذه احدى المدارس التي أشار اليها ابن جبير التي كانت حذاء المارستان والثانية النورية والثالثة لا يعرف مكانها .

ومنها (٣٣٣) « المدرسة الشيخية » وهي الزاوية السفاحية في الموقف بناها قاضي القضاة نجم الدين عبد الظاهر بن السفاح الحلبي وكانت تسمى مدرسة الشيخة وقد وقف لها حولها اوقافاً كثيرة .

ومنها (٣٣٤) « المدرسة المظفرية » كانت في جانب الجامع الكبير الى الغرب في محلة المدينة بناها الملك المظفر تقي الدين عمر .

وكان لجميع هذه المدارس اوقاف دارة على الطلبة والمدرسين ومعاليم لهم وقد كتب على باب جامع النوري في الحجر ما يستفاد منه ان احد الملوك وقف على طلبة العلم فيه خمسة عشر الف درهم في كل سنة استجلاباً لادعيتهم واعانة لهم على طلب العلم . و يقال على الجملة ان مدارس حماة حسنة من حسنات بيت ايوب فان بضعة منهم تولوا مملكتها فعمروها بعلمهم وعدلهم ونشطوا العلماء وأفضلوا على المعوزين .

وليس في حمص مدارس قديمة وقد ذكر ابن جبير في المئة السادسة ان بها مدرسة واحدة وليس بها مستشفى على رسم مدن هذه الجهات . وقال ياقوت في القرن السابع انه كان بها مدارس على عهده . وقال الظاهري في القرن التاسع ان بها مدارس . وهذه المدارس لا أثر لها .

ومن أهم مدارس طرابلس (٣٣٥) « المدرسة القرطائية » أفخم مدارس طرابلس كلها وهي ملاصقة للجامع الكبير من الجهة الشرقية وقد ذهب اسم بانيها بالتحقيق وزمن بنائها مع الكتابة التي طمست لا خفاء اوقافها التي كانت محفورة على ظهر جدارها القبلي والمظنون ان بانيها هو قرطاي[1] بن عبدالله الناصري الذي أقام المنبر بالجامع الكبير الأشرفي وذكر اسمه هناك ، وكان تاريخ بنائه في شهر ذي القعدة (٧٢٦) وهذه المدرسة تشبه من وجوه كثيرة جامع البرطاي وتقام فيها الصلوات وهي ملحقة بالجامع الكبير .

(٣٣٦) « مدرسة تغري برمش » بباب الحديد على الطريق الآخذة الى المولوية والمشهور عند اهل طرابلس ان بانيها الملك الظاهر بيبرس ، وليس الامر كذلك وهذه صورة الكتابة التاريخية التي فوق بابها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا ، قوله الحق وله الملك . عمر هذا المكان المبارك المقر السيفي تغري برمش الظاهري أعز الله أنصاره مسجداً لله تعالى وتربة لدفن ولديه الاخوين الشقيقين السعيدين سيدي الامير قانتمر وسيدي الامير تغري بردي الطفلين المنغصين على الدنيا المتجاورين في دار الآخرة تغمدهما الله برحمته واسكنهما فسيح جنته ، وجمع بينهما في دار كرامته . وذلك في ثالث شهر الله المحرم سنة تسع وتسعين وسبعمائة ورحم الله من يترحم عليهما » . وهذه المدرسة متداعية للسقوط .

(٣٣٧) « المدرسة الزريقية » هي في محلة السويقة داخل طرابلس وهي اليوم

---

(١) المعروف ان الامير سيف الدين ارقطاي من مماليك المنصور قلاوون أنشأ مدرسة في طرابلس ودفن فيها .

متسعة ولا تقام فيها الصلوات وهذه صورة الكتابة التاريخية التي عليها : « امر بانشاء هذه الزاوية المباركة العبد الفقير الى الله تعالى سيف الدين كرناي السيفي وذلك بتاريخ شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة » ·

(٣٣٨) « المدرسة السقرقية » هذه المدرسة واقعة في طرف المدينة للجهة الغربية على الطريق الآخذة الى جبانة باب الرمل بناها اقطرق الحاجب مسجداً لله تعالى وتربة للدفن وعلى حائطها لجهة الجنوب الشرقي كتب الوقفية باحرف غليظة ظاهرة فيها اسم بانيها وتعداد العقارات الموقوفة على المسجد وشروط الواقف لصرف ريعها وفيها ان كتاب الوقف مؤرخ بمنتصف ذي القعدة الحرام سنة ٧٥٧ ·

(٣٣٩) « الخاتونية » هذه المدرسة واقعة امام المدرسة السقرقية بنتها ارغون خاتون بالاشتراك مع زوجها ومعتقها عز الدين ايدمر الاشرفي والي طرابلس وكان الفراغ من بنائها في سنة ٧٧٥ كما هو مذكور في كتاب الوقف المحفور عند مدخل المدرسة المذكورة وفيها اسماء العقارات الموقوفة عليها وشروط الواقفة لصرف ريعها وتقام فيها الصلوات ·

(٣٤٠) « مدرسة دُبَّها » بناها الشيخ عبد الله الدبها الحلبي من اصحاب الطريقة النقشبندية قريباً من سوق الصاغة سنة ١٢٣٤ على ما زبر ذلك على بابها ووقف عليها اوقافًا حسنة ودفن فيها وتقام فيها الصلوات · وفي طرابلس مدارس وزوايا وخوانق اخرى لا يعلم اسم بانيها ولا زمن بنائها وبعضها مهجور مقفر وآخر متداع ·

ومن مدارس الشام (٣٤١) « مدرسة حصن الاكراد » انشأها والي هذه البليدة بكتمر بن عبد الله الحر الاشرفي زاوية ومدرسة وبيمارستاناً باموال جسيمة على الصادي والغادي من ابناء السبيل وذلك في سنة ٧١٩ ·

ومنها (٣٤٢) « رباط خليل الرحمن » انشأه قلاوون سنة ٦٧٩ صاحب الآثار في دمشق والقدس والخليل وغيرها ·

ومنها (٣٤٣) « مدرسة غزة » انشأها للشافعية الامير الكبير علم الدين الجاولي الذي سمع مسند الشافعي بالكرك على دانيال وعمل نيابة السلطنة في غزة وبنى بها مدرسة وجامعًا حسنًا وله عمائر كثيرة وخانات توفي سنة ٧٤٥ ·

ومنها (٣٤٤) « خانقاه النجمية » في بعلبك عمره نجم الدين ايوب والد السلطان صلاح الدين يوسف ايام ولايته عليها وخصه بالصوفية ·

ومنها (٣٤٥) « السيفية » بمدينة الصلت لمنشئها الامير سيف بكتمر والي الولاية سنة ٧٢٤ ·

ومنها (٣٤٦) « الزبدانية » لواقفها محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن حيدرة (٦٥٦) درس فيها في سنة ٦٩٨ ابن العدل محيي الدين يحيي بن محمد بن عبد الصمد وهي مدرسة جده ·

ومنها (٣٤٧) « الامينية » بمدينة بصرى وكانت عامرة في القرن السادس ولم نعلم اسم بانيها ·

وكان في المعرة (٣٤٨) « مدرسة المعرة » قديمة للشافعية بنيت على ما يفهم مما كتب على رتاجها الجميل زمن الملك المنصور محمد احد ملوك الايوبيين في حماة سنة ٥٩٥ وعمر فيها ابن الوردي مدرسة في النصف الاول من المئة الثامنة ·

ومنها (٣٤٩) « مدرسة عزاز » انشأها اسماعيل بن عبد الرحمن العزازي وساق اليهـا القناة الحلوة وانتفع الجـامع وكثير من المساجد بهذه القناة وله آثار حسنة غيرها توفي سنة ٧٤٨ ·

قال ابن طولون كان في ربوة دمشق مدرسة يقال لهـا المضيجية (٣٥٠) وفي الاصل (المنيجية) موقوفة على مدرس حنفي وطلبته ·

وكان في منبج مدرسة بناها نور الدين محمود بن زنكي لابن عصرون في جملة ما بنى له من المدارس في البلاد وفي آثار البلاد انه كان فيها مدارس وربط · وفي جباع وميس وعيناثا وجزين ومشغره والشقراء من بلاد جبل عامل مدارس دينية تخرج فيها جلة فقهاء الشيعة وادبائهم وقد خربت تلك المدارس واضطر اهل عامل الى ارسال بعض الطلبة الى النجف الاشرف يدرسون في مدارسها التي هي للشيعة بمثابة الازهر في القاهرة والزيتونة في تونس لاهل السنة · ولا نعلم في سائر مدن الشام ساحلها وداخلها شيئاً من تاريخ المدارس وخططها فان كانت فهي ضئيلة لان قوة المسلمين في هذه الديار كانت في العواصم الكبرى حيث ينزل الملوك والامراء

والاغنياء ، وسائر المدن ضعيفة الشأن في هذا المعنى . ومن الصعب ان تقوم المدارس للطلبة في القرى . وكانت الكرك وصفد وبصرى والزبداني ومنبج والرملة وغزة واكثرها اليوم اشبه بالقرى منها بالمدن اكثر من بيروت وصيدا وصور ويافا وحيفا وعكا واللاذقية وجبلة والسويدية والاسكندرونة عمراناً فقد ذكر الظاهري في القرن التاسع انه كان في كل من غزة والرملة وصفد وبعلبك مدارس بصيغة الجمع ، ومنها ما كان مركزاً من مراكز العلم مثل صفد . وما نخال بعض المدن التي اصبحت قرى كانت خالية ايضاً من مدارس مثل كفرطاب بين المعرة وشيزر ولكن اخبارها ضاعت .

ومن مدارس القطر مدرسة قايتباي في غزة درست ويظن انها قرب المسجد وفيها مدرسة هاشم حديثة العهد وفيها طلاب متعممون ومدرسة ابي نبوت في يافا ومدرسة الجزار في عكا ومدرسة في الجامع الكبير المارستانية في نابلس ومدرسة جامع الحنابلة ومدرسة البيك والصلاحية في نابلس ايضاً وبجوارها الشيخ بدران شيخ المدرسة كانت محكمة شرعية والآن تحولت مقهى .

الخوانق والربط والزوايا

خوانق دمشق { الخانقاه كلمة فارسية قيل اصلها خونكاه اي الموضع الذي يأكل فيه الملك . وهي زوايا الصوفية لم تعهد على هذا النمط المعروف اليوم الا في القرن السادس ، واول من بناها من الملوك بمصر كما قال السيوطي السلطان صلاح الدين يوسف ورتب للفقراء الواردين ارزاقاً معلومة . وقال المقريزي ان الخوانك حدثت في الاسلام في حدود الاربعمائة من سني الهجرة وجعلت ليتخلّي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى ، وان اول من اتخذ بيتاً للعبادة زيد ابن صوحان بن صبرة ، وذلك انه عمد الى رجال من اهل البصرة قد تفرغوا للعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى دوراً وأسكنهم فيها وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

وقيل ان اول خانقاه بنيت في الاسلام للصوفية زاوية برملة بيت المقدس بناها امير النصارى حين استولى الفرنج على الديار القدسية ، وسبب ذلك انه رأى طائفة من الصوفية وألفتهم في طريقتهم ، فسأل عنهم ما هذه الألفة والصحبة والأخوة الخاصة بينكم فقالوا له : الألفة والصحبة لله طريقتنا . فقال لهم : ابني لكم مكاناً لطيفاً تتآلفون فيه وتتعبدون فبنى لهم تلك الزاوية . وفي التاج ان معاوية كان يكتب الى أطرافه وعماله والى زياد بالعراق باطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة وله في كل يوم اربعون مائدة يتقسمها وجوه جند الشام .

ولقد كان بدمشق من هذه الخوانق اوالخانقاهات ست وعشرون خانقاهاً على ما في الدارس وهي :

(٣٥١) « الأسدية » داخل باب الجابية في المحل المعروف بدرب الهاشمية قديماً انشاء اسد الدين شيركوه ولي مشيختها نجم الدين بن القرشية العباسي وغيره وهي غير معروفة الآن .

(٣٥٢) « الاسكافية » كانت على نهر يزيد بسفح قاسيون انشاء شرف الدين بن الاسكافي مجهول محلها .

(٣٥٣) « الاندلسية » شرقي العزيزية والأشرفية قرب الكلاسة ملاصقة للجقمقية غربي الشميصانية وهي المعروفة بابي عبد الله الاندلسي ومن صوفيتها[١] شهاب الدين احمد القباني . وهذه الخانقاه الآن عمد قائمة ليس الا .

(٣٥٤) « الباسطية » كانت بالجسر الابيض غربي الإسعردية وشمالي العزية إنشاء زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش بعد الثمانمائة ولي مشيختها قاضي القضاة الباعوني وهي الآن في البساتين خراب .

(٣٥٥) « الحسامية الشبلية » شمالي الشبلية البرانية عند جسر كحيل منسوبة لام حسام الدين عمر بن لاجين وهي بنت ست الشام أخت الملك الناصر ولي مشيختها شرف الدين نعمان وهي غير معروفة اليوم .

(٣٥٦) « الخاتونية » ظاهر باب النصر المعروف بدار السعادة اول الشرف القبلي على نهر بانياس شرقي جامع تنكز وملاصقة له منسوبة الى خاتون بنت معين الدين زوجة نور الدين الشهيد وهي الآن عمائر وبنايات لا اثر لها .

(١) الصوفية هم نساك هذه الامة وزهادها نشأت طريقتهم بعد عصر الصحابة والتابعين لما اخذ الناس يتكالبون على الدنيا و ينصرفون الى زخرفها وزينتها . والراجح انهم نزعوا ثياب الخز والديباج واكتسوا الصوف فسموا بالصوفية . واول من تسمى بالصوفي منهم ابو هاشم الصوفي المتوفى في منتصف القرن الثاني ، ولبسهم الصوف أشبه بلبس نساك النصارى المسوح .

(٣٥٧) « الدويرية » كانت بدرب السلسلة بباب البريد منسوبة لمحمد بن عبد الله الدمشقي المقري العدل[1] .

(٣٥٨) « الروزنهارية » بالباب الشرقي من الجامع الأموي خارج باب الفراديس في المحل الذي كان يعرف ببرج المسجد لابي الحسن الروزنهاري ليست معروفة .

(٣٥٩) « السميساطية » للشمال الشرقي من الجامع الأموي أسسها ابو القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمي المعروف بالحبيش السميساطي المتوفى سنة ٤٥٣ وهو المشهور بعلمي الهيأة والهندسة وكان من اكابر الرؤساء بدمشق . قالوا انه دفن بداره بباب الناطفانيين المعروف الآن بباب العمارة وكان قد وقفها على فقراء المؤمنين والصوفية ووقف علوها على الجامع وحبس اكثر نعمته على وجوه البر . والسميساطي نسبة الى سميساط كانت مدينة غربي الفرات . وكانت هذه الدار دار عبد العزيز ابن الوليد بن عبدالملك بن مروان وهو الأصبغ الاموي وابن أخت عمر بن عبدالعزيز وقد سكنها عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة وتولاها أناس من اكابر العلماء . وجددها تنكز في سنة ٧٢٨ بناءً جميلاً ، وتنكز هذا جدد عمائر المساجد والمدارس ووسع الطرقات في دمشق واعتنى بامرها وله في سائر الشام أملاك وعمائر وآثار . وقد نقضت منذ بضع سنين من أساسها وجدد بناؤها على ان تجعل مدرسة راقية للعلوم الدينيـة فلم يتم لها هذا ورجعت حجرها مأوى البطالين . ذكر القلقشندي من الوظائف الدينية بدمشق في القرن التاسع وظيفة شيخ الشيوخ وموضعها التحدث على جميع الخوانق والفقراء بدمشق واعمالها والعادة ان يكون متوليها شيخ الخانقاه السميصاتية بدمشق .

(٣٦٠) « الشومانية » أنشأها شومان ظهير الدين احد مماليك بني ايوب . ولم يذكر في الدارس غير هذا .

(٣٦١) « الشهابية » داخل باب الفرج غربي العادليـة الكبرى وشمالي المعينية

---

(١) كان القضاة يفوضون امور التعديل والتزكية لرجل يسمي قاضي التزكية وهو المعدل .

انشاء الامير ايدكين بن عبد الله مملوك الامير الطواشي شهاب الدين رشيد النجمي سنة ٦٥٠ خربت في وقعة تيمور (٨٠٣) ولم تجدد بعد وهي الآن دور وأنقاضها ظاهرة باحجارها النحيتة ٠

(٣٦٢) « الشبلية » انشاء شبل الدولة كافور المعظمي بازاء الشبلية البرانية المتقدمة على نهر ثورة بسفح قاسيون بالصالحية وليها نجم الدين بن بركات بن القرشية البعلي وغيره ولا يعرف عنها غير هذا ٠

(٣٦٣) « الشنباشية » بحارة البلاطة تعرف بابي عبد الله الشنباشي كانت مدرسة للاناث ٠

(٣٦٤) « الشريفية » تجاه العروية شرقي دار الحديث الأشرفية ملاصقة للطومانية شرقي باب القلعة وغربي العادلية الصغرى انشاء شهاب الدين احمد بن شمس الدين الفقاعي درس بها رشيد الدين الفارقي وهي الآن حوانيت ٠

(٣٦٥) « خانقاه الطاحون » خارج البلد منسوبة لنور الدين الشهيد تولاها الشيخ سعيد الغثاني وهي الآن داثرة ٠

(٣٦٦) « الطواويسية » منسوبة للملك دقاق او لابنه وهي المشهورة بجانب الكوجانية والطريق الآخذ الى المرجة والصالحية وهي اليوم جامع واقتطعت الاوقاف من غربيها قطعة جعلتها للمستغلات ٠

(٣٦٧) « العزية » بالجسر الابيض على نهر ثورة بالصالحية قبلي الباسطية وغربي الماردانية ومدرسة ابراهيم الإسعردي إنشاء عز الدين آيدمير الظاهري (٦٩٠) وهي محطة الترامواي الآن ٠

(٣٦٨) « خانقاه القصر » مطلة على الميدان الأخضر إنشاء شمس الملوك ذهبت مع ما ذهب ٠

(٣٦٩) « القصاعية » كانت بالقصاعين او سوق مدحت باشا اليوم إنشاء فاطمة خانون خطليجي خربت ولم يبق لها عين ولا اثر ٠

(٣٧٠) « الكججانية » بالشرف الاعلى بين الطواويسية والعزية وأمام شركة الكهرباء والترامواي ، انشاء ابراهيم الكججاني لم تبرح قبتها ظاهرة ٠

(٣٧١) « المجاهدية » إنشاء مجاهد الدين ابراهيم اخي زين الدين احمد امير خازندار الملك الصالح نجم الدين بن الكامل على الشرف القبلي سنة ٦٥٦ ولم يعلم منها ولا مكانها .

(٣٧٢) « النهرية » المشهورة بخانقاه عمرشاه باول شارع القنوات شرقي سيدي خمار وهي الآن دار .

(٣٧٣) « النجيبية » جاء في مختصر الدارس انها بناحية باب البريد إنشاء نجم الدين ايوب والد صلاح الدين وسيف الدين وشمس الدولة وشرف الاسلام وشاهنشاه وتاج الملوك وست الشام وربيعة واخو الملك اسد الدين ولا يعرف لها اثر .

(٣٧٤) « الناصرية » انشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازي بن ايوب بجبل قاسيون على نهر يزيد تقدم ذكرها في دور الحديث صارت اليوم حاكورة صبار .

(٣٧٥) « الناصرية » منسوبة للناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب ابن شادي كانت بدرب خلف القيسارية وهي غير معلومة .

(٣٧٦) « اليونسية » في اول الشرف الاعلى الشمالي شرقي الخانقاه الطواويسية انشاء الامير الشرفي يونس داودار الظاهر برقوق سنة ٧٨٤ هدمت وجعلت طريقاً في ايامنا .

ومن الخوانق الحديثة (٣٧٧) « خانقاه احمد باشا » الشهير بين امراء الاروام اي العثمانيين بشمسي احمد باشا تولى دمشق فطالت مدته وبنى فيها خانقاهاً قبالة قلعة دمشق من جانبها القبلي ملاصقة لخندقها وجعل فيها حجرات للصوفية وهي من محاسن دمشق . هذه رواية الحسن البوريني وما زال هذه الخانقاه عامرة ولكن لا على الصورة التي ارادها الواقف .

ومن خوانق دمشق القديمة (٣٧٨) « خانقاه النحاسية » انشأها الخواجة الكبير شمس الدين بن النحاس الدمشقي سنة ٦٢٢ .

* * *

رباطات دمشق } الرباط ويقال له التكية بالتركية قال الاميري والخانقاه بالكاف يعني لخانكاه وهي بالعجمية دار الصوفية ولم يتعرضوا للفرق بينها وبين الزاوية والرباط وهو المكان المسبل للافعال الصالحة والعبادة . واول من اتخذ دار الضيافة للواردين الوليد بن عبد الملك الأُموي واتخذ بعده عمر بن عبد العزيز داراً لطعام المساكين والفقراء وابن السبيل . وكان لنور الدين محمود بن زنكي يد طولى في الاستكثار من الربط والخوانق بنى منها في جميع البلاد للصوفية ووقف عليها الوقوف الكثيرة وادر عليها الادرارات الصالحة ، وكان يكرم الصوفية والفقهاء والعلماء . وقد جدد الظاهر دور الضيافة للرسل والواردين . ويؤخذ مما قاله المقريزي ان الرباط دار يسكنها اهل طريق الله ، والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو ثم صار لزوم الثغر رباطاً ، والرباط المواظبة على الامر ، وقيل لكل ثغر يدفع اهله عمن وراءهم رباط ، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد ، والرباط قطع المعاملة مع الخلق وفتح المعاملة مع الحق ، فالرباط بيت الصوفية ومنزلهم ولكل قوم دار والرباط دارهم . وقد شابهوا اهل الصفة في ذلك فالقوم في رباطهم مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد واحوال متناسبة ووضع الرباط لهذا المعنى . قال ولاتخاذ الربط والزوايا اصل من السنة وهو ان رسول الله (ص) اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون الى اهل ولا مال مكاناً من مسجده كانوا يقيمون فيه ، عرفوا بأهل الصفة .

وكان بدمشق ثلاثة وعشرون رباطاً وهي :

(٣٧٩) « رباط البياني » داخل باب شرقي بحارة درب الحجر او البيمارستان الآن . والبياني نسبة لابي البيان محمد بن محفوظ القرشي ويعرف بابن الحوراني لا يعرف عنه شيء أنشئ سنة ٥٠١ .

(٣٨٠) « رباط التكريتي » بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون إنشاء وجيه الدين محمد بن علي بن سويد التكريتي التاجر المثري الكبير سنة ٦٧٠ غير معروف .

(٣٨١) « رباط الشيخ محيي الدين » بالصالحية بناه على قبر محيي الدين بن عربي

السلطان سليم خان وجعله جامعاً وتكية لطعام الفقراء في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة قاله القرماني . وهو موجود الى اليوم .

(٣٨٢) « رباط صفية القلعية » بالقرب من المدرسة الظاهرية لا يعرف عنه شيء غير هذا .

(٣٨٣) « رباط زهرة » كان قرب حمام جاروخ وامام فرن خليفة بجيرة دار الامير مسعود ابن الست عذراء صاحبة المدرسة وهو غير معروف .

(٣٨٤) « رباط طومان » انشاء طومان احد امراء السلجوقيين تحت القلعة ولا يعرف عنه شيء اليوم .

(٣٨٥) « رباط جاروخ التركماني » لا يعرف عنه الآن الا انه كان بباب الجابية .

(٣٨٦) « رباط غرس الدين خليل » من ولاة دمشق كان معروفاً بباب الجابية وهو مجهول اليوم .

(٣٨٧) « رباط المهراني » و (٣٨٨) « رباط البخاري » كانا عند باب الجابية ولا يعلم عنهما غير ذلك .

(٣٨٩) « رباط البافلاطوني » (٣٩٠) « رباط الفلكي » (٣٩١) « رباط بنت السلار » داخل باب السلامة ولا يعلم عنه شيء .

(٣٩٢) « رباط عذرا خاتون » كان داخل باب النصر غير معروف الآن .

(٣٩٣) (رباط بدر الدين عمر) .

(٣٩٤) (رباط الحبشية) بمحلة المعينية غير معروف .

(٣٩٥) (رباط اسد الدين شيركوه) بدرب زرعة لا يعرف ولا يعرف درب زرعة .

(٤٩٦) (رباط القصاعين) و (٣٩٧) (رباط بنت الدفين) كانا داخل المدرسة الفلكية .

(٣٩٨) (رباط بنت عز الدين مسعود صاحب الموصل) . (٣٩٩) (رباط الداوداري) داخل باب الفرج ولي مشيخته نور الدين بن قوام وهما غير معروفين الآن .

(٤٠٠) ورباط الفقاعي) من رباطات السفح سفح قاسيون .

(٤٠١) (رباط الوزار) بمحلة سويقة ساروجا .

وبعض هذه الرباطات قد ذكرت اولاً باسم مدارس وبنيت في محلها والغالب ان الرباطات كانت تستحيل في الاحايين جوامع او مساجد اومدارس كما شوهد ذلك في زماننا . ومما اغفله صاحب الدارس من الرباطات (٤٠٢) (رباط نجم الدين ايوب) والد صلاح الدين وقفه وكان داخل الدرب بزقاق العونية بباب البريد .

* * *

زوايا دمشق } الزوايا كالخانقاهات والرباطات الا انها تقام فيها الاذكار وقد كثرت بكثرة الطرق والمشايخ المعتقدين وذلك بعد القرن السادس . وكان بدمشق على عهد صاحب الدارس ست وعشرون زاوية :

(٤٠٣) (الارموية) بسفح قاسيون انشاء عبد الله بن يونس الأرموي المتوفى سنة ٦٣١ وهي خراب .

(٤٠٤) (الأرموية الشرفية) بالسفح ايضاً انشاء الشيخ شرف الدين بن عثمان ابن علي الرملي غير معلومة .

(٤٠٥) (الحريرية) ظاهر دمشق بالشرف القبلي انشاء علي الحريري ابي محمد ابن ابي الحسن بن مسعود سنة ٦٣٠ لم نحققها .

(٤٠٦) (الحريرية الاعففية) لاحمد الاعفف الحريري .

(٤٠٧) (الدهستانية) لابراهيم الدهستاني كانت عند سوق الخيل العتيق .

(٤٠٨) (الحصنية) انشاء تقي الدين الحصني بالشاغور وهي موجودة . وفي ظهر نسخة من كتاب العنوان في ضبط مواليد ووفيات اهل الزمان للنعيمي ما نصه : « الحمد لله : كان ابتداء عمارة الزاوية أعلى خان السبيل المعروف بخان الحصني قدس سره نهار الاثنين من شعبان سنة ١٠٩٢ اثنتين وتسعين والف في مدة قليلة ومطلعها من مسجده المعروف بالحصنية المجاورة للخان المذكور وقد أنشأ العبد الفقير فيه أيضاً عمارات كثيرة وكذلك عمارة ميضأته التي اختلسها بنو العجمي الغادرون وانتزعت منهم وأعيدت أحسن ما كانت بامداد الله تعالى ومعونته ورفقه والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وكتبه العبد الفقير تقي الدين الحسيني الحصني الشافعي لطف الله تعالى به والمسلمين » .

(٤٠٩) (الدينورية) بالسفح انشاء عمر بن عبدالملك الدينوري المتوفى سنة٦٢٩

(٤١٠) (الدينورية الشيخية) بالسفح ايضاً انشاء ابي بكر الدينوري باني الزاوية بالصالحية ·

(٤١١) (السيوفية) بالسفح على نهر يزيد غربي دار الحديث الناصرية والعالمة انشاء الشيخ السيوفي نجم الدين بن عيسى بن شاه ارمن الرومي ·

(٤١٢) (الداودية) بالسفح ايضاً تحت كهف جبرائيل انشاء زين الدين عبد الرحمن بن ابي بكر بن داود القادري ·

(٤١٣) (السراجية) بالصاغة العتيقة منسوبة لابن سراج ·

(٤١٤) (الشريفيةالتعارانية) شرقي الناصرية الجوانية انشاء محمد الحسيني التعاراني ·

(٤١٥) (الطالبية الرفاعية) بقصر حجاج انشاء طالب الرومي ·

(٤١٦) (الوطية) شمالي جامع جراح للمغاربة وتعرف بزاوية المغاربة انشاء الرئيس علاء الدين علي الشهير بابن وطية الموقت سنة ٨٠٢ ·

(٤١٧) (الطيبة) شمالي القيمرية الكبرى داخل مدرسة القطاط انشاء طه المصري شرقي حمام أسامة سنة ٦٣١ ·

(٤١٨) (العمادية المقدسية) عند كهف جبرائيل بالسفح انشاء احمد بن عماد الدين ابن العماد المقدسي المتوفى سنة ٦٨٨ ·

(٤١٩) » الغسولية » بالسفح ايضاً إنشاء ابي عبد الله محمد ابن ابي الزهر الغسولي ·

(٤٢٠) (الفقاعية) بالسفح ايضاً انشاء الشيخ يوسف الفقاعي ·

(٤٢١) (الغويثية) بالسفح لصاحبها الشيخ علي الغويثي ·

(٤٢٢) (اللوثنية) بالسفح ايضاً إنشاء علي اللوثني ·

(٤٢٣) (القوامية البالسية) غربي جبل قاسيون والزاوية السيوفية ودار الحديث الناصرية على حافة نهر يزيد لصاحبها ابي بكر بن قوام البالسي ·

(٤٢٤) (القلندرية الدركزينية) بمقبرة باب الصغير لمحمد بن يونس الساوجي من مشايخ القلندرية وجلس في المشيخة بعده جلال الدين الدركزيني ومحمد البلخي · وقلندر لفظة فارسية معناها الدرويش الذي نفض يده من الدنيا وزهدت نفسه في زخارفها ·

(٤٢٥) (القلندرية الحيدرية) كانت بمحلة العونية ٠

(٤٢٦) (اليونسية) بالشرف الشمالي غربي الوراقية والعزية البرانية للشيخ يونس ابن يوسف الفتي أنشئت سنة ٦١٩ ٠

(٤٢٧) (زاوية ابن اللقيمية) إنشاء ناصر الدين بميدان الحصا وهو من ذرية صلاح الدين ايوب غير معلومة ٠

(٤٢٨) (زاوية عبد القادر الموصلي) ٠

هذه اسماء الزوايا وبعضها لم يزل باقياً لم يُصب بما أُصيبت به المدارس على اختلاف أنواعها ٠

ومن الزوايا التي كانت في المزة (٤٢٩) (زاوية خضر العدوي) على باب دمشق وكان هذا مشهوراً بشيخ الملك الظاهر بيبرس وكان يعتقده بنى له كما قال ابن طولون عدة زوايا في مصر والشام منها زاوية المزة ، وبدمشق زاوية وبظاهر بعلبك زاوية وبحماة زاوية ٠

ومن الزوايا الحديثة (٤٣٠) (تكية السلطان سليم) التي بناها ايام بني القبة على قبر الشيخ محيي الدين بن عربي بالصالحية (٩٢٣) ووقف عليها اوقافاً دارة ولا يزال بعضها الى الآن وقد بقي الرسم من هذه التكية وأُضيفت الى معاهد الجامعة السورية لترمها وتسكنها الطلبة ٠

(٤٣١) (التكية السليمانية) بجانبها منسوبة للسلطان سليمان القانوني جاء في كتاب الجوامع والمدارس ان فيها من الاحجار والآلات والرخام الصافي والملون والصنائع والقباب والترصيص ما يحير الناظر و يسر الخاطر ٠ ثم مدح بحرتها ومأذنتها فقال : انه يحصل للمسافر أُنس بهما لان غالب المهندسين متشرفون بدين الاسلام ٠ ثم قال : تجددت مدرسة الى جانب التكية السليمانية من الشرف برسم المدرس في سنة ٩٧٤ وهي من زوائد التكية وجاء مدرسها من الباب العالي اه ٠ وقد رمت هذه التكية في الحرب العامة على آخر ايام الترك وأُزيل ما كان علق بقبتها ومسجدها وحجرها من الكلس والجبس وأُعيدت الى حالتها الاولى فظهرت حسن هندستها وطرز بنائها الرومي ومنارتاها شاهدتان بانها من طرز بناء الجوامع في فروق ، وكانت تتداعى منارتها

الشرقية فنقضت وأعيدت كما كانت واستولت إدارة الجامعة السورية على جزء منها في العهد الأخير جعلته مخابر لمدرسة الطب ولها ارقاف قيل انها تبلغ نحو مئة الف ليرة مسانهة . وهذه التكية من أجمل آثار العثمانيين هندسها معمار سنان أشهر مهندس في دولة الترك المتوفى (٩٦٦) ولم يحصل الانتفاع بها مع انها في الغاية بناءً وهندسةً واوقافاً .

ومن التكايا التي عمرت اواخر القرن العاشر (٤٣٢) «تكيه مولو يخانة» تكية الدراويش بالقرب من جامع تنكز وهي في غاية الحسن عمرت سنة ٩٩٣ والمولوية هي طريقة الدراويش المنسوبين لجلال الدين الرومي ومقرها في قونية وطريقتهم تمتاز بالرقص والتواجد والانشاد .

ومن الزوايا التي عمرت بعد صاحب الدارس على ما يظهر (٤٣٣) «الزاوية الغزالية» بالجامع الاموي شمالي مشهد عثمان كان مدرسها سنة ١٠٨٣ مصطفى المحاسني .

ومنها (٤٣٤) «المزلقية» بطريق مقابر باب الصغير الآخذ الى الصابونية لشمس الدين بن المزلق مولده سنة ٧٥٤ وكان من الاغنياء عمر على درب الشام الى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة وجسر بنات يعقوب وعيون التجار وغيرها وانفق على عمارتها ما يزيد على مائة الف دينار ولم يسبقه احد الى مثل ذلك وهو صاحب المآثر بدرب الحجاز وقف جميع املاكه من القرى وغيرها وجعل النظر في ذلك لمن كان حاجب الحجاب ولمن كان خطيباً بالجامع الاموي ولم يمض قرن وبعض الثاني حتى لم يبق جارياً من مبراته سنة ١٠٨٣ المعينة في كتاب الوقف سوى شيء قليل . قاله المحاسني . والغالب ان اسم واقف هذه المدرسة محمد بن علي بن المزلق المتوفى سنة ٨٤٨ وهي عند مسجد الذبان .

ومن الزوايا الحديثة (٤٣٥) «زاوية الصمادية» في الشاغور انشئت سنة ١٠٥٣ انشأها زاوية ومسجداً محمد بن خليل الصمادي .

(٤٣٦) (الزاوية الشاذلية) أنشئت (١٢٩٠) في القنوات لاهل الطريقة الشاذلية وما زال يقام فيها الذكر .

(٤٣٧) (الغواصية) زاوية أنشئت في الميدان لاصحاب الطريقة الرفاعية حرقت في الثورة الاخيرة وكانت عمرت في أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني .

(٤٣٨) (زاوية السعدية) في زقاق الخمارات وهي لاهل طريقة سعد الدين الجباوي . ويؤخذ من مجموع الاحصاء الرسمي ان بدمشق الآن احدي عشرة تكية ولعل الزوايا داخلة في هذا المجموع . وفي القنيطرة تكية أنشأها لالا مصطفى باشا الذي تولى دمشق سنة ٩٧١ .

* * *

خوانق حلب وربطها وزاياها

(٤٣٩) « خانقاه البلاط » هذه اول خانقاه بنيت في حلب ، سميت بذلك لانها في سوق البلاط (التي تسمى الآن سوق الصابون) انشأها شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتيق الملك رضوان ابن تاج الدولة تتش سنة تسع وخمسمائة ، كان لها بابان احدهما من السوق المذكورة ثم سد وجعل صغيراً ، والآخر من شارع شرقيها ، قيل هي موقوفة على الفقراء المتجردين دون المتأهلين بحلب ، ثم هجرت واتخذت بيتاً ، الى ان احياها الشيخ علاء الدين الجبرتي بنفقة الامير تغري بردي ، ثم ان الحكومة التركية قبل نحو ثمانين سنة اتخذت منها مخفراً ثم من نحو خمس عشرة سنة آجرت دائرة الاوقاف محل هذا المخفر مدة طويلة فعمر مخزناً للتجارة ونقل باب الخانقاه القديم الى شمالي باب المخزن وعمل له دهليز يدخل منه الى الصحن والقبلية ووقع في هذين ترميمات بسعي اهل الخير ومعاونة مديرية الاوقاف فعاد للمحل بعض الحياة .

(٤٤٠) « خانقاه القديم » انشأها نور الدين محمود بن زنكي سنة خمسمائة وثلاث واربعين ، كانت تحت القلعة الى جانب الخندق ملاصقة لدار العدل ثم عرفت بالمقشاتية ثم خربت ودخلت في عمارة المستشفى الوطني .

(٤٤١) « خانقاه القصر » من انشاء نور الدين ايضاً سنة خمسمائة وثلاث وخمسين ، موقعها تحت القلعة كذلك سميت بالقصر الذي كان هنالك من بناء شجاع الدين فاتك .

(٤٤٢) « خانقاه الست » انشأتها زوجة نور الدين ام الملك الصالح اسمعيل بن العادل نور الدين سنة خمسمائة وثمان وسبعين ، وبنت الى جانبها تربة دفنت بها ولدها الملك الصالح . ثم كثرت الخوانق والربط من ذاك العهد وعد ابن الشحنة منها عدا ما تقدم خمسة وعشرين رباطاً انشئت في الدولتين النورية والصلاحية ثم في دولة

المماليك وكلها قامت بايدي أهل الخير من الملوك والامراء والاميرات وبعض ارباب الدولة ·

(٤٤٣) « خانقاه الملك المعظم مظفرالدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل » في المحلة التي كانت تعرف بالسهيلة ثم عرفت بسويقة حاتم · هكذا في الدر المنتخب وهي تعرف بالزينية واقعة من هذه المحلة بزقاق يقال له زقاق الفرن في داخل بوابة طويلة ، مكتوب على بابها انها جددت في دولة الملك الظاهر ابي المظفر ابن الملك الناصر يوسف بن ايوب وان واقفها الامير زين الدين علي ابن بكتكين سنة ٦٣٠ · والآن فيها قبلية وست حجر ·

(٤٤٤) « خانقاه بعرصة الفراتي » انشأها مجد الدين ابو بكر محمد بن محمد الداية ابن نوشتكين المتوفى سنة خمسمائة وخمس وستين ، اخو نور الدين من الرضاع ·

(٤٤٥) « خانقاه بمقام ابرهيم » انشأها مجد الدين ابن الداية المذكور ايضاً ·

(٤٤٦) « خانقاه سعد الدين كمشتكين الخادم » مولى بنت الاتابك عماد الدين المتوفى سنة خمسمائة وثلاث وسبعين كانت ملاصقة للمدرسة الصلاحية (البهائية اليوم) ثم عرفت بالقلقاسية ويرجح انها والآتية دخلتا في خان خيري بك ·

(٤٤٧) « خانقاه طاوس » بجانب السابقة ·

(٤٤٨) « خانقاه ابن الثني » أنشأها الامير جمال الدين ابو الثناء عبد القاهر ابن عيسى المعروف بابن الثني وقفها سنة ٦٣٩ عند وفاته وهي في ذيل محلة · العقبة والآن صارت دارين لصالح المكتبي ومحمد عرب وتحتهما في حجرة قبر الواقف

(٤٤٩) « خانقاه الامير علاء الدين طاي بغا » كانت داراً يسكنها فوقفها على الصوفية عند موته سنة ٥٥٠ وهي مما دخل في دار العدل ثم دثر وقام في محله المستشفى الوطني ·

(٤٥٠) « خانقاه العجمي » أنشأها شمس الدين ابو بكر احمد بن العجمي وكانت داراً يسكنها فوقفها الشيخ شرف الدين ابو طالب اخوه على الصوفية ·

(٤٥١) « خانقاه حوشي » أنشأها بيرم مولى ست حارم بنت التعسنا (التعسلني) خالة صلاح الدين في دهليز دار الملك المعظم وتعرف بخانقاه حوشي ·

(٤٥٢) « خانقاه بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد » المتوفى سنة ٦٣٢ كانت داراً يسكنها فوقفها للصوفية في هذه السنة ٠

(٤٥٣) « خانقاه الفطيسية » أنشأها سعد الدين مسعود بن عز الدين ايبك المعروف بفطيس المتوفى سنة ٦٤٩ وهو عتيق عز الدين فرخشاه وكانت في مدرسته المعروفة بهذا الاسم ثم دخلتا في دار العدل كما ذكر في خبر المدرسة ٠

(٤٥٤) « خانقاه سنقرجاه » وهي برأس زقاق البهاء قبلي دار العدل عمرت سنة ٥٥٤ ثم دثرت مع دار العدل ودخل الجميع في بناء المستشفى الوطني وما يليه ٠

(٤٥٥) « خانقاه الكاملية » مكتوب على بابها وقفت هذه الخانقاه فاطمة بنت الملك الكامل محمد بن العادل ابي بكر بن ايوب الخ توفيت سنة ٦٥٦ ، وهي في محلة الجلوم الكبرى في زقاق يسمي الآن بزقاق الشيخ عبد الله ليس فيها اليوم سوى ثلاث حجر صغيرة مشرفة على الخراب ٠

(٤٥٦) « خانقاه بنت صاحب شيزر » وهو سابق الدين عثمان أنشأتها قبالة دورهم، لا اثر لها اليوم وقد كانت في العرصة التي الى شرقي جامع العادلية وقبلي خان الفرابين ٠

(٤٥٧) « خانقاه بدرب البنات » شمالي البيمارستان الكاملي لا أثر لها اليوم وقفتها ست العراق ابنة نجم الدين ايوب بن شادي عن ولدها سيف الدين سنة ٥٧٤ وهذا الدرب يعرف اليوم ببوابة خان القاضي من محلة باب قنسرين ٠

(٤٥٨) « خانقاه بدرب البنات » كذلك أنشأتها زمرد خاتون واختها ابنتا حسام الدين لاجين عمر بن النوري وأمها اخت صلاح الدين يوسف ٠

(٤٥٩) « خانقاه نور الدين » محمود بن زنكي ذكرها ابو ذر قال : اظنها انشئت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، قال ابن شداد اظنها التي بجوار المدرسة الشاذبختية الجوانية ، وفي هامش بخط محمد بن عمر الموقع انها اصبحت تعرف بالشيجرية ، هي اليوم ليس لها من اثر ٠

(٤٦٠) « خانقاه ضيفة خاتون » بنتها سنة خمس وثلاثين وستمائة وهي بنت الملك العادل سيف الدين ابي بكر ام الملك العزيز محمد داخل باب الاربعين تجاه

مسجد الشيخ حافظ عبد الرحمن بن الاستاذ ، هذه الخانقاه الآن بمحلة الفرافرة امام جامع الزينبية ومدرسة الهاشمية ، تسمى الناصرية لان على بابها انها انشئت زمن الناصر يوسف بن ايوب فيها ايوان عظيم ومحراب بديع وهي مائلة الى الاندثار يسكنها بعض الفقراء من العبيد المعتقين .

(٤٦١) « خانقاه بنت والي قوص » مندثرة مجهولة المحل .

(٤٦٢) « خانقاه القوامية » كانت تجاه خانقاه ضيفة خاتون ، ليس لها اليوم اثر .

(٤٦٣) « خانقاه محمد بن عبد الملك بن المقدم » بدرب الحطابين الذي عرف بعد ذلك بدرب ابن سالار سنة اربع واربعين وخمسمائة ، لا اثر لها اليوم ودرب ابن سالار هو المعروف الآن بزقاق خان التتن من محلة الجلوم فيرجح انها كانت بجانب مدرسة المقدمية التي مر ذكرها المنسوبة الى محمد بن عبد الملك بن محمد الذي يظهر انه ابن صاحب الخانقاه .

(٤٦٤) « خانقاه الشمسية » في رأس درب الباز يار ملاصقة لبيت ابي ذر المؤرخ انشأها شمس الدين ابو بكر احمد واوصى اخاه الشيخ شرف الدين صاحب الشرفية ان يقفها على الصوفية ، الدرب المذكور يعرف الآن بزقاق الزهراوي .

(٤٦٥) « خانقاه الخادم » هي الى جانب المتقدمة من شماليها وقفها الخادم من عتقاء بني العجمي على سكنى بني العجمي الاناث .

(٤٦٦) « خانقاه تجاه المتقدمة » لا يعلم لمن تنسب ولعلها هي ماجاء في بعض التواريخ انها انشاء جمال الدولة اقبال الظاهري ، قال ابو ذر عن هاتين الاخيرتين ان في كل قبراً ، والآن تحول جميع ذلك الى دور مسكونة .

(٤٦٧) « خانقاه طغرل بك » هو الامير شهاب الدين طغرل الاتابك وهي في خارج باب الاربعين بالجبيل ، هي الآن مدرسة النجاة بيد المعارف .

(٤٦٨) « خانقاه الدورية » انشأها شمس الدين محمد بن جمال الدين يوسف الدوري عين التجار بحلب ووقف لها ابنه وقفاً وهي موقوفة على الشيخ شمس الدين الاطعاني ، كانت على شاطئ نهر قويق من جهة الناعورة وهي دائرة مكانها مجهول .

(٤٦٩) « خانقاه السحلولية » على شاطئ قويق قرب بستان حجازي وقفها

كافل حماة الاسعردي على عبد الرحمن بن سحلول المتوفى سنة ٧٨٢ وجعل لها مدرساً هدمت في حادثة تيمور وهي اليوم مندثرة لا يعلم محلها ·

(٤٧٠) « خانقاه الكاملة » انشأته الكاملة زوجة علاء الدين بن ابي الرجاء في خارج حلب ·

* * *

(٤٧٢) « رباط » أنشأه سيف الدين علي بن الامير علم الدين سليمان بن جندر بالرحبة الكبيرة وكان في دار تعرف ببدر الدين محمود بن شكري الذي خنقه الملك الظاهر غازي ، هو مندثر الآن و يرجح انه كان في محلة باب قنسرين تجاه جامع الكريمية ·

(٤٧٣) « رباط » قرب مندرسة النورية التي تعرف ايضاً بالنفرية ، كانت في محلة السفاحية تجاه المدرسة الصاحبية التي كانت في الزاوية الغربية من الجنينة المعروفة اليوم بجنينة الفريق وهي مندثرة ·

(٤٧٤) « رباطان » تحت القلعة للخدم احدهما برأس درب الملك الحافظ ، والآخر اسمه الجمالية برأس زقاق المبلط بينه وبين السلطانية طريق ، وهذا من إنشاء جمال الدولة اقبال الظاهري في حدود الاربعين وستمائة ·

(٤٧٥) « رباط قرا سنقر » ذكره ابن خطيب الناصرية في ترجمة بانيه المتوفى سنة ٧٢٨ وقال له وقف كبير ، وهو مندثر لا يعلم محله ·

(٤٧٦) « رباط الخدام » تحت القلعة ، مندثر ·

(٤٧٧) « رباط » بشرقي تربة ابن الصاحب أمام الظاهرية أُنشئ في دولة الناصر حسين علي بن احمد بن يعقوب بن عبد الكريم ·

(٤٧٨) « رباط » بجانب مدرسة ضيفة خانون في الفردوس أُنشئ سنة ٦٣٣ ·

(٤٧٩) « رباط » قرب الظاهرية التي في خارج حلب أُنشئ ايام يوسف الناصر ·

(٤٨٠) « رباط للقلندرية » في داخل المدرسة المقدمية التي كانت في الفرافرة تجاه قسطل الملك العادل ، مندثر ·

(٤٨١) « الثكنة العسكرية » أسسها ابراهيم باشا المصري (١٢٤٨) ثم أُصلحت

سنة ١٢٩٧ وتسمى بقشلة الشيخ ببرق لزاوية هذا الدفين بجانبها وهي في الجهة الشمالية الشرقية من حلب طولها ثلاثمائة واربعون ذراعاً وعرضها زهاء مائتين ٠

(٤٨٢) « تكنة على قمة جبل البختي » بدئ بتأسيسها (١٣٣٠) ثم زيد عليها بعد انسحاب الترك زيادات ولم تزل غير كاملة ٠

وقد درس كثير من الرباطات في باب المقام وغيره ٠

* * *

(٤٨٣) (زاوية معروفة ببني الخشاب) مكتوب على حجر في جدارها : جدد عمارة هذه الزاوية المعروفة ببني الخشاب الحسن بن ابراهيم بن سعيد بن الخشاب (٦٣٣) وفيها تربة كانت تسمى بالتربة الخشابية ، هي اليوم في زقاق اسمه زقاق ابي درجين من محلة الجلوم ، ثم انه في سنة ١٣١٥ جددها احد المشايخ القادرية الشيخ مصطفى الهلالي وجعل لها حجرة درس ومنبراً للجمعة ٠

(٤٨٤) (الزاوية الهلالية) في محلة الجلوم بزقاق يعرف بزقاق الهلالية كانت مسجداً صغيراً قطنه الشيخ محمد هلال الزام حمداني ثم وسعت وصارت تقام فيها الجمعة والاذكار ٠

(٤٨٥) (زاوية البزازية) في الجلوم بزقاق خان البيض تصلي فيها الاوقات الجهرية ولها قبلية أخرى ٠

(٤٨٦) (الزاوية الكمالية) في محلة العقبة في زقاق الكيزواني ٠

(٤٨٧) (زاوية الأخضر) في محلة السفاحية تجاه جامع الموازيني وقفها الشيخ الأخضر ودفن فيها سنة ١٢٨٧ ٠

(٤٨٨) (زاوية الشيخ تراب) ٠

(٤٨٩) (زاوية الطواشي) ٠

(٤٩٠) (زاوية النسيمي) تحت القلعة كانت مسجداً قديماً جددها قانصوه الغوري (٩١٠) ٠

(٤٩١) (الزاوية الجوشنية الاقصرائية) نسبة لمنشئها سنة ٧٤٧ علي الشيخ ابراهيم شهريار الكازروني ٠

(٤٩٢) (زاوية الصالحية) في سويقة الحجارين وتعرف بالقادرية ايضاً وكانت قديماً تعرف بالبهشنية من أقدم الزوايا متولوها بنو الحلوى ·

(٤٩٣) (زاوية البيلوني) في سويقة حاتم صغيرة معطلة يسكنها الفقراء إنشاء احد بني البيلوني ·

(٤٩٤) (زاوية محيي الدين) في باب الجنين ·

(٤٩٥) (زاوية الكيالي) في سويقة حاتم ·

(٤٩٦) (زاوية الجعفرية) في زقاق فرن جقجوقة من سويقة حاتم أُنشئت (٧٩٦) ·

(٤٩٧) (زاوية الهبراوي) في محلة الكلاسة كانت داراً وقفها الشيخ محمد خير الهبراوي وسع ببعضها الجامع وجعل الباقي زاوية ·

(٤٩٨) (زاوية لبني الهبراوي ايضاً) كانت تسمى مسجد الراعي ·

(٤٩٩) (زاوية في المقامات) مندرسة ·

(٥٠٠) (زاوية محمد الاطعاني) البسطامي في محلة الشماعين من المشارقة أُنشئت سنة ٧٠٠ ·

(٥٠١) (زاوية خضر) تجاه بستان الكلاب في جنوبي بستان ابراهيم اغا أنشأها بدر الدين بن زهرة منتزهاً ثم اغتصبها من بعده جلبان كافل حلب وجعلها زاوية سنة ٧٧٠ وهي مندثرة ·

(٥٠٢) (زاوية للقادرية) تنسب للامير جلبان ايضاً على رأس باب الجنان منشأة سنة ٧٧٠ ·

(٥٠٣) (تكية المولوية) من أعظم التكايا أنشأها مرزا فولاذ ومرزا علوان فارسيان من اتباع شاه اسماعيل الصفوي ثم احدث فيها زيادات كثيرة ·

(٥٠٤) (زاوية) غربي قبلية جامع فارلق أُنشئت سنة ١٢٠٧ ·

(٥٠٥) (زاوية الحربلي) في فارلق أنشأها الشيخ علي الحربلي سنة ١٣١٢ ·

(٥٠٦) (زاوية الشيخ طه) بطيخ في فارلق أُنشئت سنة ١٢٨٠ ·

(٥٠٧) (تكية الحداد) في محلة تاتارلر ·

(٥٠٨) (زاوية للخلوتية) بالجانب الغربي من الجامع الاحمدي في محلة الدلالين وقف الشيخ احمد صديق ·

(٥٠٩) (زاوية) بجانب سابقتها للطريقة النقشبندية للواقف المذكور ·

(٥١٠) (زاوية لطريقة الشيخ سعد اليماني) في محلة المشاطية ·

(٥١١) (زاوية الشيخ بلال) في محلة البلاط ·

(٥١٢) (زاوية بيت خير الله) في محلة بانقوسا ·

(٥١٣) (زاوية قطلبجا) في محلة محمد بك انشئت سنة ٧٥٧ ·

(٥١٤) (زاوية ابي الجدايل) بزقاق المزوّق ·

(٥١٥) (الزاوية الصيادية) انشأهـا ابو الهدى الصيادي سنة ١٢٩٥ ثم زيدت الى سنة ١٣٢٧ ·

(٥١٦) (التكية الاخلاصية) نسبة لاخلاص الخلوتي المتوفى سنة ١٠٧٤ عمرها له الوزير الاعظم محمد باشا الارنؤد ·

(٥١٧) (تكية القرقلر) مبنية فوق مغارة الاربعين تحت القلعة ·

(٥١٨) (زاوية الشيخ ببرق) في داخل الثكنة العسكرية انشئت سنة ٦٧١ ·

(٥١٩) (تكية بابا بيرم) للقلندرية انشئت سنة ٧٦٤ ·

(٥٢٠) (زاوية المصر يين) في محلة افيول ·

(٥٢١) (زاوية هي مسجد الفرا) انشيء في حدود الالف ثم اتخذ زاوية لبني الانجق في محلة الالماجي ·

(٥٢٢) (زاوية الشيخ عبد الله) هي مسجد في محلة الشرعسوس ·

(٥٢٣) (زاوية تغري ويرمش) كافل حلب قرب جامع الاطروش انشأها سنة ٨٤١

(٥٢٤) (زاوية العقيلية) في محلة محب ·

(٥٢٥) (تكية المخملجي) في ترب الغرباء انشئت سنة ٦٤٣ ·

(٥٢٦) (تكية الشيخ ابي بكر) للطريقة الوفائية اسسها احمد بن عمر القاري في القرن العاشر ·

(٥٢٧) (زاوية البعاج) في محلة الطبلة ·

(٥٢٨) (زاوية الشيخ جاكير) هي مدفن الشيخ تشبه زاوية ٠

وفي حلب خانقاهات ومدارس وزوايا لا تكاد تحصى اندثر معظمها ، جاء في ترجمة مظفر الدين صاحب اربل انه بنى اربع خانقاهات للزمني والعميان وداراً للارامل وداراً للايتام وداراً للملاقيط وخانقاهين للصوفية ٠

* * *

ربُطُ القدس وزواياها } كان في بيت المقدس عدة زوايا وربط منها (٥٢٩) « الزاوية المعظمية » وقد مر ذكرها في المدارس بقي منها غرفتان والباقي دارس ٠

(٥٣٠) « الزاوية الحنفية » بجوار المسجد الاقصى خلف المنبر وقفها السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٧ على رجل من اهل الصلاح اسمه جلال الدين الشاشي ثم من بعده على من يحذو حذوه وقد وقف صلاح الدين نصف دار الاسبتار رباطاً للمتصوفة والوافدين من اهل الطريقة والمعرفة ، ونصفها مدرسة للمتفقهة ، وللطلبة المتعففة المتنزهة تجمع بين العلم والعمل ، وكتب الرزق لهم الى كتاب الاجل — قاله العماد الكاتب ، ودار الاسبتار اليوم او هذا الرباط الآن خراب بلقع ٠

(٥٣١) « الخانقاه الفخرية » داخل سور الحرم ، وبجوار جامع المغاربة ، واقفها المقر العالي القاضي فخر الدين ابو عبدالله محمد بن فضل ناظر الجيوش الاسلامية اصله قبطي فاسلم ، وكانت له اوقاف كثيرة و بر واحسان لاهل العلم توفي في سنة ٧٣٢ ولا تزال عامرة الى يومنا هذا وقد اصبحت اليوم زاوية ودار سكن ٠

(٥٣٢) « الرباط الزمني » بباب المتوضإ تجاه المدرسة العثمانية ٠ واقفه الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن احد خواص الملك الاشرف قايتباي وكان بناؤه في سنة احدى وثمانين وثمانمائة ٠

(٥٣٣) (رباط كرد) بباب الحديد بجوار السور تجاه المدرسة الأرغونية واقفه المقر السيفي كرد صاحب الديار المصرية في (٦٩٣) استحال الآن دار سكن ٠

(٥٣٤) (الزاوية الوفائية) بباب الناظر تجاه المدرسة المنجكية وعلوها دار من معاليمها تعرف بدار الشيخ شهاب الدين بن الهائم ، ثم عرفت ببني الوفا لسكنهم بها

وتعرف قديمًا بدار معاوية وهي الآن دار سكن ·

(٥٣٥) (الزاوية الشيخونية) بالقرب من الصلاحية عند سويقة باب حطة واقفها الامير سيف الدين قطيشا بن علي من رجال حلقة دمشق جعل نظرها لنفسه ثم من بعده لولده شيخون فسميت بالشيخونية تاريخ وقفها (٧٦١) ·

(٥٣٦) (الرباط المارديني) بباب حطة مقابل الكاملية وهي بجوار التربة الأوحدية وقفه منسوب لامرأتين من عتقاء الملك الصالح صاحب ماردين وشرطه ان يكون لمن يرد من ماردين تاريخ وقفه (٧٦٣) وهو موجود ·

(٥٣٧) (الزاوية المهازية) غرب المدرسة المعظمية من الغرب منسوبة للشيخ كمال الدين المهازي ووقفت على مربع من الملك الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون في (٧٤٥) وهي معروفة اليوم ·

(٥٣٨) (الرباط المنصوري) بباب الناظر وقف السلطان قلاوون الصالحي (٦٨١)· معروف الى اليوم كان سجنًا في عهد الأتراك واليوم ينزله فقراء السودان ·

(٥٣٩) (رباط علاء الدين البصير) تجاه الرباط المنصوري واقفه الامير علاء الدين آيدغدي (٦٦٦) ·

(٥٤٠) (الزاوية المحمدية) بجوار البارودية من جهة الغرب واقفها محمد بن زكريا الناصري سنة ٧٥١ وهي خراب ·

(٥٤١) (الزاوية اليونسية) مقابل البارودية ونسبتها للفقراء اليونسية مجهول واقفها وهي موجودة الآن ·

(٥٤٢) (زاوية الطواشية) بحارة الشريف وتعرف قديمًا بحارة الاكراد واقفها الشيخ شمس الدين محمد بن جلال الدين عرب سنة ٧٥٣ ·

(٥٤٣) (زاوية المغاربة) باعلى حارتهم وقف الشيخ عمر بن عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي المجرد سنة ٧٠٣ ·

(٥٤٤) (زاوية البلاسي) بظاهر القدس من جهة القبلة وهي قديمة نسبتها للشيخ احمد البلاسي ·

(٥٤٥) « زاوية الازرق » بظاهر القدس من جهة القبلة شرقي زاوية البلاسي

نسبتها للشيخ ابرهيم الازرق المتوفى في سنة ٧٨٠ وتعرف ايضاً بزاوية السرائي ٠

(٥٤٦) « زاوية الدركاه » بجوار البيمارستان الصلاحي وكانت في زمن الفرنج دار الاسبتار وهي من بناء هيلانة ام قسطنطين التي عمرت كنيسة القيامة ٠ واقفها الملك المظفر شهاب الدين غازي بن السلطان الملك العادل ابي بكر بن ايوب صاحب ميافارقين وما معها وذلك في سنة ٦١٣ قسم منها داخل في كنيسة الالمان (الدباغة) والباقي خراب ٠

(٥٤٧) (زاوية الشيخ يعقوب العجمي) بالقرب من القلعة وهي كنيسة من بناء الروم تلاشت أحوالها ٠

(٥٤٨) (الخانقاه الصلاحية) علو كنيسة القيامة وقف الملك صلاح الدين على الصوفية (٥٨٥) وهي موجودة ٠

(٥٤٩) (زاوية الجثنية) كانت بجوار المسجد الاقصى وقفها السلطان صلاح الدين على جلال الدين الشاشي الزاهد ولا يعرف عنها شيء ٠

(٥٥٠) (الزاوية الحمراء) بالقرب من الخانقاه الصلاحية بجوار جامع عمر المنسوبة للفقراء الوفائية وهي باقية ٠

(٥٥١) (الزاوية الميمونية) بجوار باب الساهرة وهي كنيسة من بناء الروم ، واقفها الامير فارس الدين ابو سعيد ميمون القصري خازندار الملك صلاح الدين (٥٩٣) دخلت في المدرسة المأمونية ٠

(٥٥٢) الزاوية اللؤلؤية) بباب العمود احد أبواب المدينة وهي وقف بدر الدين لؤلؤ غازي واقف اللؤلؤية المتقدم ذكرها ٠

(٥٥٣) (الزاوية البسطامية) بحارة المشارقة[1] واقفها الشيخ عبد الله البسطامي وكانت موجودة قبل (٧٧٠) ٠

---

(١) قال الزوزني : والنصارى الشرقيون في القدس اصلهم من ارض البلقاء وعمان عُرفوا بالمشرقيين لانهم من شرقي القدس ولما استوطن بيت المقدس منهم من استوطنه سكنوا محلة هي شرقي القدس تعرف بمحلة المشارقة ٠

(٥٥٤) (زاوية الصمادية) بجوار زاوية البسطامية من جهة الشمال وهي بلصق درج البراق سد بابها في المئة التاسعة ٠

(٥٥٥) (زاوية الهنود) بظاهر باب الاسباط وهي قديمة كانت للفقراء الرفاعية ثم نزل بها طائفة الهنود فعرفت بهم ٠

(٥٥٦) (زاوية الجراحية) بظاهر القدس من جهة الشمال نسبة لواقفها الامير حسام الدين الحسين بن شرف الدين عيسى الجراحي احد امراء الملك صلاح الدين المتوفى سنة ٥٩٨ ٠

(٥٥٧) (تكية خاصكي سلطان) انشأتها ام السلطان سليمان ؛ ولا تزال عامرة تفرق الحساء والخبز ولا يزال يأخذ قسم من وجهاء القدس واشرافها هذه الصدقة والاحسان ٠

* * *

الربط والزوايا في المدن الصغرى } في خليل الرحمن لعهدنا ثلاث تكايا وزوايا وهي : (٥٥٨) (تكية سيدنا الخليل) لهـا مخصصات من دائرة الاوقاف وتعمل الحساء والطعام ٠

(٥٥٩) (زاوية الاشراف) تقوم الاوقاف بالادرار عليها ٠

(٥٦٠) (زاوية ابي بكر الشبلي) تدر عليها الاوقاف معاوناتها ٠

(٥٦١) (الزاوية القادرية)

(٥٦٢) (زاوية الشيخ سعيد)

(٥٦٣) (زاوية المجاهد)

(٥٦٤) (زاوية حارة قيطون)

(٥٦٥) (زاوية الشيخ الجعبري)

(٥٦٦) (زاوية الشيخ الخيري)

} وفيهـا زوايا خاصة لاقامة الذكر ووضع انواع الاعلام وما يتبعها ويجلسون فيها ويضيفون

وكان في الخليل على عهد مجير الدين الحنبلي (٥٦٧) (زاوية الشيخ عمر المجرد) و (٥٦٨) (زاوية المغاربة) بجوار عين الطواشي و (٥٦٩) (زاوية الشيخ علي البكا) و (٥٧٠) (زاوية القواسمة) نسبة للشيخ احمد القاسمي الجنيدي من ذرية ابي القاسم

الجنيد وهو مدفون بها و (٥٧١) (الرباط المنصوري) تجـاه باب القلعة وقف الملك منصور قلاوون . و (٥٧٢) (زاوية الشيخ ابراهيم المزي) بين حارتي الاكراد والدارية و (٥٧٣) (زاوية الشيخ عبد الرحمن الارزرومي) في حارة الاكراد . و (٥٧٤) (زاوية البسطامية) بجوار المسجد الجاولي من جهة الشمال و (٥٧٥)(زاوية السمانية) بجوار زاوية الشيخ عمر المجرد . و (٥٧٦) (زاوية ابي عقافة)و (٥٧٧) (رباط الطواشي) و (٥٧٨) (زاوية شيخون) و (٥٧٩) (رباط مكي) و (٥٨٠) (زاوية الشيخ رضوان) و (٥٨١)(زاوية الشيخ خضر) و (٣٨٢)(زاوية الصلاطقة) بجوار البركة وهي داخل زاوية الادهمية و (٥٨٣) (زاوية الرامي) و (٥٨٤) (زاوية الشيخ علي كنعوش الادهمي و (٥٨٥)(زاوية الشيخ محمد البيضة)و (٥٨٦) (زاوية الموقع) و (٥٨٧) (زاوية الشيخ ابراهيم الحنفي) و (٥٨٨) (رباط الجماعيلي) و (٥٨٩) (زاوية الخضر) بالقرب من متوضإ المسجد و (٥٩٠) (زاوية الحدادية) و (٥٩١) (زاوية القادرية) بظاهر البلد .

ومن رُبُط فلسطين (٥٩٢) (الخانقاه الصلاحي) في قرية حطين انشاء السلطان صلاح الدين ولم يبق منه الآن الا مطبخه وانقاضه .

ومنها (٥٩٣) (خانقاه الرملة) مهدم غير معلوم اثره .

* * *

وفي انطاكية ٥ تكايا وفي كلز وعملها ٢٤ تكية وزاوية وفي ادلب وعملها ١٥ تكية وزاوية وفي كل من حارم وبيلان والجسر تكية وفي كل من جبل سمعان ومنبج تكيتان . وفي حماة الزاوية الكيلانية بنى الجامع القبلي منها الشيخ ياسين الكيلاني (١١١٨) ولم يعرف اسم بانيها الاول . وفيهـا رباط السيد مرتضى الكيلاني ورباط السيد محمد الحريري ورباط السبسبي ورباط الكيالي . ومما كان في حماة ويصح ان يعين في جملة الربط دار الاكرام كانت معدة للضيافة وسكنى الملوك خربت وصار محلها مدابغ وأنشأ فيها مبارز الدين اقوش داراً لضيافة الملوك وهي مما خرب . وكان فيهـا دار الضيافة المسماة بالطيارة الحمراء على سور باب النقفي والطيارة الحمراء كانت فوق القبو والباسطية شرقي الجامع النوري . وكان في حماة ايضاً دار الفرح كانت

وقفاً للأفراح فمن أراد ان يتزوج مثلاً يأخذها من متوليها وكان فيها ٣٥ بيتاً وهي اليوم بيوت السادة الكيلانية · وفي ربض حمص زاوية قام بانشائها في العهد الحميدي الشيخ ابو الهدى الصيادي ولكنها لم تتم وهي حسنة البناء والطراز ·

وكان في حمص (دار صدقة) لأبي عبد الله صالح بن ثوبان من عبيد الرسول وهو الذي روى في مسجد دمشق انا الذي صببت الماء على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم واعطيته قدحاً فأفطر ·

وفي طرابلس ٨ تكايا وزوايا للخلوتية والقادرية والرفاعية والشاذلية والنقشبندية · وفي عكار تكية واحدة وفي اللاذقية ٤ تكايا وزوايا ·

* * *

مراقد العظماء ربط وخوانق } اكثر مراقد العظماء من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين والزهاد أشبه بزوايا وتكايا يقصدها النـاس للزيارة والتبرك وان كان منها ما لم يثبت ان فلاناً بعينه دفنت تجاليده في البقعة التي يعنونها فمن المقامات والمزارات قبر يحيى بن زكريا والحسين بن علي في الجامع الأموي بدمشق وقبر صلاح الدين يوسف بن ايوب شمالي هذا الجامع ومقام ذي الكفل وهود في سفح جبل قاسيون بدمشق ومقام زين العابدين وبلال الحبشي وبلال بن حمامة وخديجة ورقية وأم كلثوم وأم حبيبة وزينب الكبرى والسيدة سكينة وغيرهم في مقبرة باب الصغير بدمشق · ومقام ابي الدرداء في قلعة دمشق · ومقام حجر بن عدي في مسجد الاقصاب بدمشق · ومقام شريح بن حسنة وخولة وأبي وضرار وبنت الأزور والبدر الغزي والشيخ رسلان في باب توما و باب شرقي بدمشق · وزيد بن ثابت في باب السريجة من أحياء دمشق · وشمعون بن خناقة في حي الشاغور بدمشق · وصهيب الرومي وتقي الدين الحصني وغيرهما في الميدان · وعدي بن مسافر في بستان الورد بدمشق والشيخ السروجي في الشاغور · وعبد الرحمن الكردي في حي العمارة بدمشق · وعبد الرحمن بن ابي بكر وكمال الدين الحمزاوي وعبد الرحمن الدحداح والشهاب المنيني والشهاب العطار في مقبرة مرج الدحداح ومعاوية بن ابي سفيان في جامع الجراح بدمشق · ومقام الشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي والشيخ عبد الغني النابلسي واصحاب الكهف وعائشة الباعونية

بصالحية دمشق · ونور الدين الشهيد والامام ابن دقيق العيد في سوق الخياطين بدمشق · ومقام سعد بن عبادة في المنيحة · وعبد الله بن سلام في سقبا · والشيخ حرملة في جوبر · ومقام حزقيل في داريا · ودحية الكلبي في المزة · وهذه القرى الخمس من قرى الغوطة غوطة دمشق · وتميم الداري في قرية الطيبة من عمل دمشق · والشيخ حسن الراعي في قطنا غربي دمشق · ومعاذ بن جبل في قرية القصير · والشيخ جندل في قرية منين · ومقام السلطان ابي يزيد البسطامي في مرج دمشق · ومقام ايوب وسعد الاسود في قرية الشيخ سعد في حوران · وسلمان الفارسي في قرية السهوة · ومقام عكاشة في الجولان · والمقداد بن الاسود في تل المقداد · وسعد الدين الجباوي في قرية جبة · وعمار بن ياسر في اللجاة · وقبر ابي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل في الغور · ومقام جعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة قرب قرية مؤتة في المزار من عمل الكرك ·

ومقام الامام الاوزاعي في بيروت ومقام يوشع وشمعون في صور ومقام هرون ويعقوب في صفد ومقام الخضر والياس في حيفا · ومقامات شعيب والسيدة سكينة ومعاذ بن جبل ونصر الدين الطيار في طبرية · ومقامات صالح وابي عتيبة في عكا · ومقامات العزير ولوط ويونس في الناصرة · ومقامات يعقوب واولاده والخضر والشيخ مسلم وبشير ومسعود ورجال العمود والشيخ بدر والسلطان عماد الدين في نابلس · ومقامات دانيال ويامن ومعاوية واسكندر ذي القرنين وابن سيرين والشيخ حمدان وغيرهم في جينين · ومقامات يامن وشمعون ويعقوب والياس وابي خميس وابي شعير وعامر وعمار وعدنان في بني صعب · ومقامات يحيى وذي الكفل ويوشع وناتون وابراهيم وشبث والشيخ ابي الجود وابي رماح وابي عابد والجنيد والدجاني في جماعيل · ومقامات زكريا ويوسف وانبياء بني اسرائيل والشيخ حاتم وغانم المقدسي في المشاريق · ومقامات الشيخ زين ونصر الله في الشعراوية · ومقامات ابراهيم بن ادهم وابي يزيد البسطامي في وادي الشعير · ومقامات خالد بن الوليد وعمر بن عبد العزيز وابي امامة الباهلي وابي ذر الغفاري والنعمان بن بشير في حمص والمعرة وما اليهما · ومقام الشيخ ابي الليث السمرقندي والشيخ علوان في حماة ·

ذكر مجير الدين قبة راحيل والدة يوسف الصديق الى جانب الطريق بين بيت لحم وبيت جالا . وبظاهر الرملة من جهة الغرب بالقرب من البحر مشهد يقال له روبيل ابن يعقوب وبظاهر لد من جهة الشرق مشهد عبد الرحمن بن عوف الصحابي وبظاهر القدس في قرية العازرية مشهد العازار . وقبر شمويل بقرية ظاهر القدس من جهة الشمال على طريق الرملة في قرية رامة .

وللشيعة عدة مقامات في حلب وارجائها وفي غيرها من بلاد الشام نسبت لعلي بن ابي طالب وللحسن وللحسين كما ان للخضر عدة مقامات في كثير من الارجاء و يشترك في تعظيمها النصارى والمسلمون غالباً . — ومما ذكره ابن الشحنة من المقامات القديمة في حلب مسجد النور بالقرب من باب قنسرين كان ابو نمير عبد الرزاق بن عبد السلام (٤٢٥) يتعبد فيه تنذر له النذور و يزار . ومسجد غوث ومسجد الغضايري و يعرف بمسجد شعيب وقبر كليب العابد ومسجد الانصاري والمشهد الاحمر في رأس جبل جوشن ومشهد قرية براق ومقام ابراهيم الخليل في قرية نوايل وكلتاهما من عمل حلب .

وبقرية روحين من جبل سمعان مشهد فيه ثلاثة قبور الاوسط منها قبر قس بن ساعدة الايادي والقبران الآخران قبرا سمعان وشمعون من الحوار يين وقيل كانا من المتوحدين الرهبان . وبجبل برصايا من عمل اعزاز قبر برصيصا اي مقصورة العابد . وبقورس قبر اوريا وبمنبج مشهد خالد بن سنان العبسي صاحب الأخدود وبجبل بزاعا من غربي الباب مشهد يطل على الباب . وبجبل الطور المجاور لقنسرين مقام يقال انه مقام النبي وبدير سمعان من عمل المعرة قبر عمر بن عبد العزيز ووراءه قبر الشيخ ابي زكريا يحيى بن منصور . وبجبلة على ساحل البحر قبر ابراهيم بن ادهم الزاهد . ومعظم هذه المزارات مازالت معروفة يختلف اليها الناس وقام عليها شبه زوايا او تكايا . وفي عبيه من شوف لبنان مزار الامير عبد الله التنوخي يزوره معظم الطوائف الاسلامية وعليه مدرسة .

المستشفيات والبيمارستانات

مستشفيات دمشق } إقامة دور للبائسين ومآوي للضعفاء واصحاب العاهات والزمانات من امارات الحضارة ودلائل ارتقاء الانسان في رقة الشعور والعطف على من خانتهم الطبيعة · روى البلاذري ان عمر بن الخطاب (رض) مر عند مقدمه الجابية من ارض دمشق بقوم مجذمين من النصارى فامر ان يعطوا من الصدقات وان يجري عليهم القوت · ووقف عثمان بن عفان محلة سلوان في ربض القدس على ضعفاء البلد · واول من اتخذ المستشفيات صدر الاسلام الوليد بن عبد الملك فانه اقام في دمشق على ما يروى مستشفى للمجذومين بالقرب من الباب الشرقي في محل يسمى الآن بالاعاطلة ، ذلك لان في ماء دمشق على ما قالوا خاصية دفع مرض الجذام عن اهلها فلا يصيبهم الا في الندر ، واذا حل الغريب المصاب به تكسر عنه عاديته او يتوقف سيره في جسمه · قال ابن عساكر كان الوليد عند اهل الشام من افضل خلفائهم كان يعطي اكياس الدراهم لتفرق على الصالحين وفرض للمجذومين وقال لا تسألوا الناس ، واعطى كل مقعد خادماً وكل اعمى قائداً · وذكر بعضهم ان الوليد لما ولي اسحق بن قبيصة الخزاعي ديوان الزمنى بدمشق قال : لادعن الزمن احب الى اهله من الصحيح وكان يؤتى بالزمن حتى توضع في يده الصدقة · وفي سنة ١٦٢ أمر المهدي ان يجري على المجذمين واهل السجون في جميع الآفاق · وبذلك عرفنا ان القوم يخصون المجذمين باماكن خاصة لئلا تسري العدوى منهم الى غيرهم · اما المستشفيات فللامراض الاخرى ·

ولقد كان بدمشق ثلاثة مستشفيات او بيمارستانات — والبيمارستان كلمة فارسية مركبة معناها محل المرضى — الاول (٥٩٥) انشأه نور الدين محمود بن زنكي كما أنشأ غيره في البلاد . وكان بيمارستان دمشق اعظمها واكثرها خرجاً ودخلاً . قال صاحب الروضتين بلغني في اصل بنائه نادرة وهي ان نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض اكابر ملوك الافرنج فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً فشاور نور الدين امراءه فكل اشار بعدم اطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين ، ومال نور الدين الى الفدى بعد ما استخار الله تعالى فاطلقه ليلاً ، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات وبلغ نور الدين موت الفرنجي فبنى بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الامراء لأنه لم يكن عن ارادتهم . تولى بناءه كمال الدين الشهرزوري وكان الحاكم المتحكم في الدولة النورية بدمشق وهو الذي تولى بناء اسوارها وسنّ دار العدل لتنفذ احكامه بحضرة السلطان فلا يبقى عليه مغمز وملمز .

وذكر ابن جبير انه كان في القرن السادس بدمشق مارستانان قديم وحديث والحديث احفلهما واكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً وله قومة بايديهم الازمة المحتوية على اسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك والاطباء يبكرون اليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم والمارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال في الجديد اكثر . واغلب الظن ان البيمارستان الكبير هو النوري والآخر غيره[1] (٥٩٦) كان في باب البريد وخدم في هذا رشيد الدين ابن علي بن خليفة وعز الدين السويدي .

(١) قال الظاهري وفي دمشق بيمارستان لم ير مثله في الدنيا قط . واتفقت نكتة احببت ذكرها وهي اني دخلت دمشق في سنة احدى وثلاثين وثمانمائة وكان يصحبني شخص عجمي من اهل الفضل والذوق واللطافة وكان قاصد الحج في تلك السنة وألف مناسك الحج على اربعة مذاهب فلما دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه من المأكل والتحف واللطائف التي لا تحصر قصد اختبار حال البيمارستان المذكور فتضاعف

اما المستشفى الثالث (٥٩٧) فهو المستشفى القيمري في صالحية دمشق بجوار جامع محيي الدين ابن عربي نسبة لمنشئه سيف الدين ابي الحسن القيمري احد الامراء والابطال المذكورين المتوفى سنة ٦٥٣ لم يبق منه اليوم سوى بعض جدرانه واصبح باقيه حديقة ومسكنًا وواجهة الباب من اجمل هندسة عربية في القرون الوسطى تريد ان تنقض . وقد رمّ هذا المستشفى على عهد العثمانيين حسن باشا المعروف بشور يزي حسن ونظر الى اوقافه واقام شعائره كما فعل في البيمارستان النوري .

وقرأت في كتاب الجوامع والمدارس صورة وقف البيمارستان القيمري فاذا فيه : هذا وقف ابي الحسن بن ابي الفوارس القيمري على بيمارستانه في الصالحية على معالجة المرضى والمعاجين والاشربة . واجرة الطبيب يصرف الى الطبيب في كل شهر لواحد سبعون درهمًا ونصف غرارة من قمح والادنى ستون درهمًا ونصف غرارة قمح وللمشارف في كل شهر اربعون درهمًا ونصف غرارة قمح وللكحال في كل شهر خمسة واربعون درهمًا ونصف غرارة قمح وللحوائج في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وربع غرارة قمح والى ثلاثة رجال يقوم لكل من الرجال في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح ولمن يقوم بمريضات النساء والمجنونات في كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم وسدس غرارة قمح والى الشراب وبائعه لعمل الاشربة والمعاجين في كل شهر ستة وعشرون درهمًا وثلث غرارة قمح ولامين المشارفين والمتولين في الوقف الى كل واحد في كل شهر ستون درهمًا وغرارة قمح وغرارة شعير وللامام في كل شهر اربعون درهمًا وثلث غرارة قمح وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهمًا وسدس غرارة قمح ويكون بوابًا وللحوايج(؟) في كل شهر ثمانية دراهم وسدس غرارة وللناظر العشر عن المغل وربع

واقام به ثلاثة ايام ورئيس الطب يتردد اليه ليختبر ضعفه فلما جس نبضه وعلم حاله وصف له ما يناسبه من الاطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلواء والاشربة والفواكه المتنوعة ثم بعد ثلاثة ايام كتب له ورقة من معناها ان الضيف لا يقيم فوق ثلاثة ايام . وهذا في غاية الحذاقة والظرافة . وقيل ان البيمارستان المذكور منذ عمر لم تطفأ فيه النار اه .

الوقف و يصرف الى رجلين اثنين بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور ونحاس وفرش ولحف ومخدة وفي كل شهر الى قيمه والمؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة وعشرون درهماً فان فضل يصرف الى فكاك الاسارى من الكفار وبعد ذلك عاد وقفاً على الفقراء . وتاريخ الوقفية سنة ٦٥٢ وتاريخ المسجد سنة ٨٨٠ ثم ذكر القرى والبساتين والحوانيت والطواحين التي وقفها على بيمارستانه .

وظل المستشفى النوري عامراً الى سنة ١٣١٧ هـ وكان اطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً حتى قامت بلدية دمشق بانشاء مستشفى للغرباء (٥٩٨) في الجانب الغربي من تكية السلطان سليمان المطلة على المرج الأخضر وجمعت له اعانات من الناس باساليب مختلفة وأخذ مبلغ من واردات البلدية واوقاف المستشفى النوري واحتفل في ١٥ ذي القعدة (١٣١٧) بافتتاح المستشفى الجديد وخصصت اوقاف المستشفى النوري ومبلغ خمسمائة ليرة تؤخذ سنوياً من ريع البلدية تصرف على المستشفى الذي سمي بادئ بدء بالمستشفى الحميدي نسبةً الى السلطان الذي بني في عهده . وهكذا خلف المستشفى الجديد المستشفى النوري . اما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة اميرية للبنات ولا تزال كذلك وواجهتها لا تزال بحالها وفيها بعض الحجر والنوافذ من البناء القديم ، والغالب ان الايام سطت على بقية البناء فتغيرت معالمه .

وزاد المستشفى الجديد رونقاً ورواءً مقبرة الصوفية التي ضمت اليه وجعلت حديقة للمستشفى مغروسة باشجار تلطف الهواء وتعدل المناخ . وقد سمي المستشفى على عهد الحكومة العربية بالمستشفى الوطني وأقيمت مدرسة الطب بجانبه والحكومة متكفلة بالانفاق عليه .

وفي دمشق لهذا العهد عدة مستشفيات : الاول (٥٩٩) « المستشفى العسكري » وفيه مستشفى ضباط جيش الاحتلال وأجناده وهو من بناء ابراهيم باشا المصري في القرن الماضي .

و (٦٠٠) « المستشفى الاسكتلندي » وفي ١١ ذي القعدة ١٣١٥ (٢٤ أيار ١٨٩٩) احتفلت جمعية اسكتلندا الانكليزية بافتتاح المستشفى الذي أسسته في ارض الزينبية على طريق بغداد وهو على غاية من حسن الهندسة وجمال الحديقة وسعتها .

و (٦٠١) « المستشفى اللعازري » وبنته اخوية اللعازريين الافرنسية قبالة

المستشفى الاسكتلندي وهو حسن البناء والنظام ايضاً ·

و(٦٠٢) « مستشفى الراهبات المعازريات وهو قديم قرب مدرسة اللعازرية ·

والخامس « المستشفى الوطني » او مستشفى مدرسة الطب وقد مر ذكره ·

والسادس (٦٠٣) « المستشفى الطلياني » ·

والسابع (٦٠٤) « مستشفى المجاذيب » المسمى بمستشفى ابن سينا وينشأ له مكان في قصير دومة شمالي دمشق ·

✡ ✡ ✡

مستشفيات حلب

(٦٠٥) « بيمارستان بني الدقاق » كان يعرف بهذا الاسم ثم دخل في دار سودون الدوادار غربي المدرسة الحلاوية لا اثر له اليوم ·

(٦٠٦) « بيمارستان بني الدقاق » على باب الجامع الكبير كان له بوابة عظيمة ينسب لابن خرخان ، لما تعطل كان يجلس فيه الكحالون فعرف بدار الكحالة · بقي منه ثلاثة مخادع صغيرة يسكنها بعض الفقراء ·

(٦٠٧) « بيمارستان نور الدين » هو في الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمية من محلة الجلوم الكبرى ، مكتوب على بابه انه امر بعمله محمود بن زنكي بتولي ابن ابي الصعاليك · و يظهر انه حصل فيه اصلاحات كثيرة فانه كان فيه قاعة للنساء مكتوب عليها انها عمرت في دولة صلاح الدين يوسف سنة ٦٥٥ ومكتوب على ايوانه انه عمر ايام الاشرف شعبان المتوفى سنة ٧٧٩ وعلى الشباك الذي على بابه انه أحدث سنة ٨٤٠ وكانت قاعة المسهلين سماوية فسقفها القاضي شهاب الدين بن الزهدي · اما الآن فقد صارت حجراته تلالاً ولم يبق الابضع منها يسكنها بعض الفقراء · وقد جاء في بعض التواريخ ان هذا البيمارستان كان في الاصل من وضع ابن بطلان الطبيب البغدادي المتوفى سنة ٤٥٨ ثم جدده نور الدين ووقف عليه اوقافاً كثيرة وهو في أصح بقعة هواءً · حدثني الثقة انه اطلع على صك وقف احد المستشفيات في حلب قال جاء فيه ان كل مجنون يخص بخادمين يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحممانه بالماء البارد ثم يلبسانه ثياباً نظيفة و يحملانه على اداء الصلاة ويسمعانه قراءة

القرآن يقرأه قارئ حسن الصوت ثم بفسحاته في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الاصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطيبة ·

(٦٠٨) « بيمارستان ارغون الكاملي » هو في محلة اسمها الآن باب قنسرين أنشأه أرغون الصغير الكاملي نائب حلب سنة سبعمائة وخمس وخمسين ، وهو ابن طيجو تبناه الملك الصالح اسماعيل ، بامر من الملك الصالح بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، رتب كل ما يحتاج اليه من رزق وآلات وادوية وخدام ، وقد كان بيتاً لامير قبل ذلك ، شرط واقفه ان التولية لكافل حلب فكان في كفالة تغري برمش على أتم الوجوه ، فيه حجر وأروقة ومحابس للمجانين مظلمة وجميع ذلك ليس من فن الطب وحفظ الصحة في شيء مع انه يروى انه كانت توضع فيه الرياحين و يؤتى بالآلات الطرب والمغنين لتكون هذه المشاهد والانغام من تمام العناية بالمداواة ، ثم في اواخر عهد الاتراك نقل من كان فيه من المجانين وكانوا نحو العشرين الى مستشفى الغرباء وأصبح هو مأوى لبعض الفقراء · وفي مدخله أفاريز ونقوش من أجمل ما نقش النقاشون تزينه فتجعله بهجة للناظرين ·

(٦٠٩) « مستشفى الرمضانية » أنشأه ابراهيم باشا المصري وهو مخصص لمرضى العسكر ·

(٦١٠) « المستشفى الوطني » بدئ به سنة ثلاثمائة والف وبعد بلوغه نحو النصف ترك ثم أكمل بعد نحو عشر سنين وجعل للمرضى الغرباء والفقراء ·

(٦١١) « المستشفى الزهري » أنشأته ادارة الصحة للامراض الزهرية بعد تأليف الحكومة العربية ·

* * *

بقية المستشفيات } المارستان النوري هو المستشفى الوحيد في حماة بناه نور الدين محمود وكانت التولية علية سنة الف للشيخ صفا العلواني وكان مجموع نفقته كل يوم ثمانية وثمانين عثمانياً (العثماني او السلطاني نحو سبعة قروش) وهو الآن شبيه بالمدرس يستعمله بعضهم للسكنى وذهبت ادويته الا قليلاً · وقد وجد على حجر في المارستان بالجانب الغربي من اعلى البنيان كتابتان

الاولى سنة خمس وسبعمائة وهي رسم الملك لامر بختشاي الكافلي بحماة بابطال ما كان يؤخذ من البيمارستان بغير طريقه وان وقفه يصرف على ما وقفه الواقف على السكر والأشربة وذلك بامر السيفي · والثاني : لما كان بتاريخ الشهر المحرم سنة ثلاث وثمانمائة حضر الجناب العالي السيفي المارستان النوري بحماة المحروسة داودين المقر السيفي درداس الخاصكي كافل المملكة الحموية أعز الله أنصاره وتبرع بمعلومه على الضعفاء المقيمين به وهو في كل شهر مائة درهم لاغتنام الاجر والدعاء اه ·

وفي حماة اليوم مستشفى واحد ومثله في حمص وآخر في درعا ورابع في القنيطرة وخامس في بيرود وسادس في دير الزور وفي اسكندرونة مستشفى وذلك ماعدا المستوصفات في كثير من الاقاليم وكل هذه المستشفيات والمستوصفات بادارة الصحة والاسعاف العام ويقوم بادارتها وتمريض مرضاها اطباء وطنيون ·

وكان في طرابلس « مارستان » مهم أنشأه الامير بدر الدين محمد بن الحاج ابي بكر احد الامراء بحلب المتوفى سنة ٧٤٢ وكان من رجال الدنيا · وفي طرابلس اليوم مستشفى كان سمي مستشفى عزمي بك احد عمالها الذي قام بتنشيطه ·

وقبل ٣٥ سنة جاء نابلس مبشر انكليزي واسس فيها مستشفى واخذ يعالج المرضى باجور طفيفة ويكرههم على استماع وعظه فتحسس المسلمون واسسوا سنة ١٣٢٦ شرقية المستشفى الوطني وهو الى اليوم سائر سيراً حسناً يقوم باموالهم وريع البلدية ·

وهكذا اسس البروتستانت عدة مستشفيات ومستوصفات في بر الشام منها في طبرية والناصرة وصفد والصلت وصيدا والقدس ويافا وحيفا وبيروت ودمشق وغيرها من البلدان ولا تكاد تخلو المدن المهمة من مستشفى او شبه مستشفى مثل اللاذقية وطرطوس ومنها مستشفى خاص بمرض السل ومستشفى العصفورية للمجاذيب في لبنان وكان في الخليل مستشفى جميل اسمه المنصوري وقفه الملك المنصور قلاوون ومستشفيات الصهيونيين في القدس وحيفا ويافا وغيرها مهمة في بابها ·

وقد اقام الصليبيون في المدن التي احتلوها بعض مستشفيات منها واحدة في صور وكان لهم في القدس مارستان وهو من الاماكن التاريخية كان عبارة عن ١٥٥ متراً طولاً و ١٣٧ متراً عرضاً وعليه قامت في القرون الوسطى الملاجئ والمستشفيات الخاصة بزوار

الغرب ولاسيما مقر رهبنة فرسان القديس يوحنا ومستشفياته . وحول ابن اخت صلاح الدين كنيسة الملجأ الى مستشفى وبقي اسمه العربي الفارسي اي المارستان يطلق منذ ذلك العهد على مجموع تلك الاماكن وفي سنة ١٨٦٩ م اعطى سلطان العثمانيين النصف الشرقي من المارستان الى تاج بروسيا بمناسبة زيارة ولي عهد بروسيا للقدس . وقد كان صلاح الدين جعل دار الاسقف في القدس لما فتحها بيمارستانا رضى .

ومستشفيات القدس اليوم كمستشفيات بيروت مهمة لكثرتها ووفرة ريعها وتنافس المبشرين في تجويدها وتخيرهم لها احذق الاطباء .

* * *

لمحة على المدارس وغيرها

أرأيت ايها الناظر في هذا الكتاب ، كيف كان عمل الأجداد في إنشاء المدارس والربط والخوانق والمستشفيات ، وكيف تساوى في تأبيدها والوقف عليها الملوك والعظماء وجمهور الناس من الرجال والنساء . وكيف جودوا بناءها وأحكموا وقوفها الدارة ، ومع هذا لم تقو على مقاومة المخربين والغاصبين فعاد اكثرها دوراً وحوانيت . أزهرت في اربعة قرون واستصفيت في اربعة ، استصفاها من ارتكبوا العار في الاستيلاء عليها من دون حرج ، عملوا هذا وهم متمسكون بالدين يصلون ويصومون ، ويقال عنهم انهم المسلمون ، وربما كان على أبدان بعضهم شعار العلماء وما هم في الواقع الا من اهل الرسم لا من اهل العلم ، وقد يكون أقرب الناس الى مخالفة الشرع القائمون عليه .

ترى هل تلام الحكومات على هذا العبث بالمدارس وانتهاك حرمتها ام تلام الامة ؟ لا شك ان الحكومات ينالها قسط كبير من الملامة لانها هيأت سبل السرقات ، وربما كانت مشتركة بالسرقة أحياناً ، ولكن اللوم كل اللوم على الجماعة . فالبلاد بلادهم والمدارس مدارسهم والدين دينهم . ومنذ عبث العابثون بالمدارس ، وسرق السارقون عينها ومغلها ، تراجعت دروس الدين وتراجعت معها دروس العلوم الاخرى ففشا الجهل المطبق في الامة ، وكادت تعود سيرتها الاولى من الجاهلية الجهلاء ، وأصبح من وسموا بالعلم اذا سئلوا أفتوا بغير علم ، وجوزوا ما حرمه الشرع وحرموا

ما يحوزه ، ومن جملة شعائرهم اكل اموال الاوقاف، واستصفاء أعيانها ، وهدمهم تهضم خصوصاً المساجد والمدارس .

أضاع الخلف ما أبقاه السلف معموراً زاهراً من المدارس التي كانت في العصور الغابرة غاية ماوصل اليه العقل البشري ظرفاً ومظرفاً و بها أثبت أجدادنا قبل القرون الوسطى انهم كانوا شيئاً مذكوراً في اتقان الهندسة والبناء وانهم على جانب من سلامة الذوق وانهم حراص على مجد أمتهم وان الاعمال العظيمة لم تقم بنفسها لولم يفكر فيها عقول كبيرة ، وما كانت تلك المدارس تعمر لو لم يدرس فيها نوابغ من رجال العلم والآداب ولو لم تكن ذات قانون معقول . نعم لم نعرف سر هذه الصناعة التي مثلتها لنا هذه المدارس ، ولعله يقوم في الجيل المقبل من ابنائنا علماء بالآثار والبحث يكشفون سر أعمال الأجداد كما توفر علماء الآثار في اوربا مائة سنة حتى كشفوا لامهم أسرار البيع العظمى التي قامت في قارتهم خلال القرون الوسطى ، وعسى ان يبرهن الباحثون منا انه لم يقم في الارض شيء من العظمة الا كان الى جانبه عظماء يتعهدونه ويغذونه بمادة عقولهم ، و يفيضون عليه من معين قرائحهم .

قلت مرة من محاضرة ألقيتها في الشهباء في ربيع سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) وقابلت فيها بين مدارس حلب ودمشق : من تأمل مدارس ارباب الخير من المسلمين في الشهباء والفيحاء وقرأ ما كتب عليها بتأمل وزارها المرة بعد المرة على تغير معالمها ، وتشويه طرأ على محاسنها ، وفساد عرا أذواق الابناء والاحفاد ، اذا قيس الى سلامة ذوق الأجداد ، وجعل نسبة بين عدد ما عمر منها وما بقي في البلدتين الشقيقتين يؤكد معنا ان الفساد استحوذ عليها في دمشق اكثر من حلب ، وان من تجردوا من الوجدان فاستحلوا استصفاء تلك المدارس كانوا في الفيحاء اكثر من أمثالهم في الشهباء ، ولذلك كان عدد الباقي في حلب اكثر واجود من حيث الكمية والكيفية من المدارس في دمشق .

ولا ينكر ان مادة البناء قد تختلف في بلد عن آخر . وقد كان الاعتماد في تلك القرون على الحجر الصلد ، وفي دمشق عدة مقالع جميلة منوعة منه كما في حلب ، ولم يكثر الآجر والطوب والخشب الا في القرون الحديثة ، ولذلك لم تخرب المدارس

الدمشقية لعدم متانة في بنائها ، فان الأمثلة الظاهرة منها الى اليوم لا تجعلها تختلف في شيء عن مدارس حلب . ولكن القائمين على هذه المدارس في هذه المدينة كانوا يعتدلون في العبث بها ، ومتانة الأخلاق من جملة ما امتاز به الحلبيون ، يضاف اليها حب الاحتفاظ بتراث الاجداد على صورة كانت ظاهرة في قرون الارتقاء ، كامنة في عصور الشقاء والرجوع الى الوراء .

والناظر الى مدارس دمشق وحلب وهي لا تقل عن ثلاثمائة مدرسة ، منها زهاء مائتين في دمشق يدرك انها من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار واهل الخير . وكان منهم من يتوخى منهـا ان تكون توليتها لبنيه من بعده ليعيشوا منها اذا صودرت املاكهم . بنى قليل من التجار المدارس لان الشعب كان يفنى في أغلب العصور في كبرائه ، فلم يكن شأن في مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة او من كان يعد في جماتهم ، وكان الناس يحاذرون ان تنشأ لهم شهرة في الثروة ، والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس ، وفي بذل المال لإقامة دور العلم وإيواء اليتامى والمحاويج ، فكانوا يتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال .

وقلّ ان رأينا جماعة اتفقوا على اقامة عمل من هذا القبيل يفتخر به اللهم الا قليلاً من المساجد ، ولوفعلوا لامنت اعمال الجماعات من اعتداء المعتدين اكثر من عمل الافراد ، ولما استصفيت واستحل هدمها ، ولا غير خططها ومعالمها من لا يخافون الله ولا عباده ، ولجاءت ممثلة للعظمة الحقيقية في الامة ، على نحو ماقامت البيع والاديار والمدارس في القرون الوسطى بالغرب ، بارشاد رجال الدين من كرادلة واساقفة وقساوسة ، فكانوا يجمعون قليلاً من صدقات الملوك والاغنياء والفرسان والشعب ، فيجيء مجموعها عظيماً يدار بايدي هيأة منظمة على كل حال ، ويختطون خطة لا يخرج عنها الخلف الا قليلا ، . .

للاثر القديم من الموقع في النفس ماليس للاثر الحديث ، فان الاول يذكر بامور كثيرة ، يذكر بمجد السلف واياديهم البيضاء وارادتهم الصحيحة ، يذكرنا بان فلاناً الذي تحترمه الامة بنى ذاك المصنع وتلك الدار ، وان فلاناً العالم درّس هناك او كان يألف المكان الفلاني ، وكم من اثر تاريخي اومصنع من مصانعنا نمر به دون ان نحفل بما فيه من عبر ، ولو كنا على شيء من مدنية اجدادنا ما زهدنا هذا الزهد

البشع في تراثهم ، ولو اقتبسنا المدنية الحديثة بمحاسنها ومساوئها لرأيتنا اسرع الى التقاط آثار الجدود والاحتفاظ بها من الماء الى الحدور .

لا تستطيع امة ان تقطع الصلة بينها وبين ماضيها ، خصوصاً اذا كانت ذات غابرٍ عظيم كغابر الامة العربية ، قام على اساس متين ، وتقاليد جميلة ، ومقدسات متسلسلة ، اما ونحن لا نرقى بدون القديم والاخذ من نافع الحديث ، فواجب العقلاء ان يفكروا في اقرب الطرق الى هذه الغاية ، وهذا لا يتم بغير احياء دور العلم ومعاهد الفضل ، واحياؤها موقوف على قليل من العناية .

ليس للمدرسة الحديثة التي ننشئها اليوم تلك النضارة ، ولا تتجلى فيها معاني الحسن والاحسان التي نشعر بها ونكاد نلمسها في المعاهد القديمة مثل مدرسة ضيفة خاتون رحمها الله فانك اذا رأيتها تمثلت امامك صفحة من تاريخ هذه الامة المجيد ، تمثلت بيت بني ايوب وافضالهم على ربوع الشام ، وكفى بهم وبصلاح الدين حسنة عقم الدهر ان يلد مثلها . كثير من المصانع بناها الملوك بالسخرة وارهاق الرعية ، واعنات الاسرى والمعتقلين ، ولم نقرأ في التاريخ ان احداً من آل البيت الصلاحي عمر مدرسة او جامعاً او مستشفى او رباطاً من مال مشبوه ، او سخرة ممقوتة ، فأكرم وانعم بكل فرد اصيلاً كان في هذا البيت الشريف او دخيلاً عليه ....

عمر اهل الخيرات من سلف هذه الامة هذا القدر العظيم الذي نعجب به من معاهد التعليم الديني دع المساجد والجوامع ، ولو كتب البقاء لبعضها لاغنت القوم بعض الشيء بمعارفها ونشرت النور بينهم . وكانت المدارس والجوامع في تلك القرون المظلمة في الغرب المستنيرة في هذا الشرق هي المتكفلة بتعليم الناس واخراجهم من الامية ، وكان لمعظم المدارس والجوامع كتاتيب مرتبطة بها وخارجة عنها لتعليم الاطفال تؤهلهم لتلقي دروس المدارس والجوامع ، ولا نغالي اذا قلنا ان عدد الاميين كان في تلك العصور اقل مما هو الآن في هذه الديار . ولو اطرد العمل اطراده في مدارس المغرب مثلاً لاصبحنا في هذا القرن والأميون اقل مما هم في بلاد المدنية الحديثة .

ولكن الجهل قضى على تلك المدارس واكل المتولون اوقافها فخربت وتغيرت معالمها . وكم من وقف يستمتع به النظار عليه يصرفون ماوقف على الخير في سبيل

شهواتهم بدون محاسب من ذممهم ولا رقيب من اصحاب السلطان . ولو كتب لهم ان يأكلوا منها بالمعروف ويصرفوا حقوق تلك المعاهد او بعض مغلها على رمها واجراء الرزق على ساكنيها والدارسين فيها لاتت بثمرات جنية ، ولما اكلوا في بطونهم النار ، وركبوا متن العار والشنار ، وكم من بيت كان موسوماً في القديم بالعلم والتقى فخلف من بعد السلف خلف عبثوا بالحرمات فاستحلوا اموال المدارس والمعابد فدثر البيت وانقرضت الأُسرة وذهبوا وما يملكون جملة لم يُرحموا لانهم لم يَرحموا .

ضبطت الحكومة السابقة اكثر اوقاف الملوك والسلاطين وكان ريعها كثيراً جداً في هذه البلاد فلم تصرفها فيما خصصت له ولم تنجح في الغاية التي توختها منها ، واستقل بعض ارباب النفوذ بالاوقاف التي اؤتمنوا عليها او انتهت اليهم بحكم الوراثة فاساؤوا الاستعمال الا من عصم الله . فالسبب اذاً في خراب مدارسنا الجميلة سوء ادارة الحكومات السالفة وعبث المتولين عليها واخراجها عما وضعت له من عمل الخير بصنع اولئك الذين يعدون انفسهم في جملة [illegible]اة هذا المجتمع وهم اعدى عدائه اه .

دور الآثار

المتاحف والعرب — المتاحف العامة على الصورة التي نراها في بلاد الغرب اليوم ليست مما يعهد في بلاد هذا الشرق . فان آثينة منذ الزمن الأطول كان لها متحف دعته رواق الصور . وعرضت رومية أجمل ما اخذته من الصور من آثينة . ولم يكن حتى في القرون الوسطى في اوربا متاحف . وكانت بدائع الصنائع البشرية تحفظ في دور الملوك وفي قاعات البيع والاديار . حتى اذا كانت القرون الحديثة ونشأ كبار المصورين في ايطاليا وغيرها كثرت المتاحف التي تعرض فيها التصاوير العجيبة ومبدعات العقول والانامل بحيث كاد ان يكون لكل مدينة معرض منها . واخذت تغص بما يهديها إياه الكبراء والملوك ، ولما كثر الاخصاء عمّ المتاحف ايضاً . فصار للامم العظمى متحف لغرائب الصناعة في النقش ، وآخر في الرسم ، وغيرها في أدوات الحرب ، وآخر في أدوات الزينة وغيره ، في ادوات الموسيقى الى غير ذلك .

ولا نعلم انه كانت تعهد للعرب متاحف ايام مدنيتهم على الصورة التي هي اليوم في كل بلد تذوّق الحضارة بل كانت متاحفهم في جوامعهم وقصورهم التي اختاروا لنقشها وتزويقها أمهر صناع ايامهم على نحو ما كان في جامع بني أمية في دمشق والاقصى في القدس وبعض جوامع بغداد والقاهرة وفي الحمراء والزهراء في الاندلس وفي قصور الخلفاء ببغداد وقصورهم في الاندلس وقصور الفاطميين في القاهرة . وكانت دور العظماء في الشرق كما كانت في الغرب تتنافس في بدائع الصناعة وتجعلها بحيث

يراها من يختلفون الى قصورهم ، ولا تزال البيوت القديمة الى اليوم في الشام تفاخر بما عندها من مجموعات الصيني والقاشاني والسلاح القديم والحلي والاواني الفضية والذهبية القديمة على كثرة ما طرأ على البلاد من الحوادث التي عزت فيها الحاجيات دع الرغبة في الكماليات . وكان اقتناء هذه البدائع في هذه الديار من دلائل الظرف وآيات التعين والرياسة كما كان اقتناء الكتب في قرطبة بل في حلب ودمشق الى عهد قريب .

وكان الفاتحون يأخذون في القرون الوسطى في جملة ما يغنمون الطرائف البديعة وأدوات الزينة والابداع . هكذا فعل تيمورلنك في القرون الوسطى : فحمل معه من دمشق صناع هذه البدائع وما أبدعوه ، وهكذا فعل السلطان سليم العثماني فاتح مصر فنهب منها أجمل آثارها التي استطاع حملها وزين بها قصره وقصور جماعته في القسطنطينية . وذكر المؤرخون ان بعض ملوك الاندلس من العرب كانوا يعرضون في قصورهم التماثيل الجميلة من غير نكير ، وفيها صور الآدميين وغيرهم .

وكان اهل القرون الوسطى في اوربا زمن الحرب الصليبية وبعدها يتنافسون فيما يجلبونه من الاقمشة والبسط وأدوات الزينة من الشام ، ولما جاء القرن الاخير أخذوا ينقلون الى متاحفهم ما أبقته صنع الايدي من اهل المدنيات القديمة من تماثيل ونصب وأحجار زُبر عليها كتابة ، وفي بعض متاحف اوربا ولا سيما في متحف اللوفر في باريز والمتحف البريطاني في لندرا ومتحف برلين ومتاحف ايطاليا وغيرها كثير مما عثر عليه الباحثون من العاديات الحجرية في اليمن والشام ومصر ولا سيما من البلاد الشامية . وقد اخذت عادياتنا تسافر من بلادنا منذ اخذ علماء الآثار يبحثون في ارضنا سهولها وجبالها وما كتبه كثير من علماء المشرقيات والعاديات في القرن التاسع عشر دليل عظيم على ذلك ، وقد نشروا أبحاثهم في كتب خاصة ومقالات لهم في المجلات الاثرية والعادية والعلمية ومجلات المجامع العلمية .

اما نحن سكان هذه الديار فلم تكن لنا عناية بهذا الشأن بل قلَّ جداً من اهتدى الى الاحتفاظ بما خبأته الايام في بطون هذا الصقع وكنا أزهد الناس فيها حتى نقلت آثارنا ونفائسنا أمام أعيننا كما نقلت كتبنا ونحن ضاحكون مستبشرون ، وانتفع

بها القوم هناك واكملوا بها تاريخ المدنية ، ولما وقع الانتباه في الحكومة العثمانية اخذت تمانع بعض الشيء في نقل هذه التحف والطرف ، ونقلت بعض ما عثر عليه من المصانع في خرائب صيدا وتدمر وغيرها فزينت بها متحف الاستانة . وقد ندب بعض علماء الآثار من الانكليز وحفروا بطرق عجيبة مغارة الصخرة في المسجد الاقصى فذهب ما فيها ولم يعلم عنه شيء .

وكم من بعثة أثرية قامت بحفريات في بلادنا واخذت ما عثرت عليه ولم تأخذ الدولة العثمانية حقها منه ولسان حال الباحثين ماورد في الأمثال العربية « لايحزنك دم ضيعه اهله » . وقد طلب منها في مؤتمر الصلح بباريز إعادة ما اخذته هي والمانيا خلال الحرب العامة من هذه الديار من الآثار والعاديات .

ولقد كنا نزين للحكومة التركية منذ ست وعشرين سنة ان تنشئ لدمشق متحفاً صغيراً تجمل فيه العاديات وبدائع الصنائع فكان عمالها يتشاغلون عن ذلك لانهم يحبون ان يكون كل فضل في الاستانة وان تكون سائر الولايات قرى ومزارع للاستعمار على طريقتهم حتى اذا نادت سورية بالحكومة العربية صحت عزيمة هذه على إنشاء متحف فاتخذت له سنة ١٣٣٧—١٩١٩ دار المدرسة العدلية من أجمل قصور الفيحاء ومصانع العرب الباقية من القرون الوسطى ، واخذت تجمع بهمة المجمع العلمي ما بقي من الآثار النفيسة . فهو اول متحف عربي في هذه الديار ، سار القائمون به على قدم الغربيين في نظامه . وعسى ان لا يمضي بضع سنين أخرى حتى يكون غنياً بكل أنواع الإبداع الذي تم في هذا القطر منذ اربعين قرناً الى اليوم .

حياة المتحف العربي بمعاضدة الامة له . ولم يقصر بعض من لديهم مثل هذه التحف والطرف في اهدائها لتجعل في دار آثار الامة عنوان ارتقائها نموذجاً على معرفتها بتاريخها . لا جرم ان هذا المتحف هو البذرة الاولى التي أُلقيت في هذه التربة المخصبة المهيأة لأنواع النماء والاثراء يستفيد منه اهل الاجيال الخالفة ما يغني غناءه في تربية عقولهم وعيونهم وأناملهم ويعتبرون بماضي الصناعة عند الاقدمين ، وما كان لاجدادنا من الايادي البيضاء في الفنون الجميلة بين المحدثين .

***

نشأة علم الآثار (١)

عنيت الامم منذ القديم بالفنون الجميلة . وكان حظ كل أمة من هذا الشأن بحسب رقيها وحضارتها . وكان الأفراد يجمعون الآثار و يتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة والتفاخر . ودام هذا حالهم حتى سنة ١٧٦٤ م لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الأقدمين لمؤلفه وانكمان الالماني ، وهو اول من وضع أُسس هذا العلم الحديث .

ان علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ ، ومن أصعبها مراساً ، اذ يحتاج صاحبه الى قوة انتباه وذوق سليم . فان هذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة في المتاحف ووصفها ، بل ان الصعوبة كل الصعوبة في حل رموزها وفهم كنهها ، واستجواب تلك الشهود الصامتة ، واستنتاج الحقائق منها .

ولقد أصبح النظر اليوم في أبحاث علماء الآثار وتحقيقاتهم من الواجب على كل مؤرخ ومحقق . كما يستنير بها كل لغوي ومفسر . فكم معضلة تاريخية ولغوية حسمت بفضل هذا العلم . وها هي كلمة فرعون التي لا يجهل اليوم الأحداث معناها ، ذهب المتقدمون من علماء اللغة في تفسيرها مذاهب حتى قُيض لنا علماء الآثار فأظهروا وثائق تثبت انها لقب كل من ملك مصر . وكم من حوادث جاءت في كتب السلف بل وفي الكتب المنزلة فذهب الناس في تأويلها ، وشك بعضهم في صحتها ، ولولا علم الآثار الذي أماط عنها اللثام ، وأظهرها للعيان ، ملموسة محسوسة ، لقالوا انها أساطير الاولين . أليست جهود الذين اكتشفوا آثار بلاد آشور والكلدان ومصر وفارس و يونان وبعثوا ذكر تلك الامم بعد ان كانت نسياً منسياً الوفاً من السنين ، شاهداً عدلاً على أخبار تلك البلاد .

لم يدون الاقدمون غير النزر اليسير الذي وصلهم من اخبار الشعوب القديمة ، واغفلوا ذكر اكثر الامم البائدة التي ذهبت اخبارها بزوال اصحابها ، ولوا كتفينا بهذه النصوص المشوهة لما كنا اوفر حظاً ممن تقدمنا بمعرفة أخبار السلف ، وبفضل هذا العلم نعرف اليوم اخبار اكثر هذه الامم ، كما نعرف حوادث الامم في القرون الوسطى ،

(١) وضع هذا الفصل الاثري الباحث الامير جعفر الحسني .

وقد توصلوا لمعرفة ما كان عليه الانسان قبل عشرات الالوف من السنين ، يوم كان يأوي الى الكهوف ، ويقتات بالنبات ، ويفترس الوحوش ، مع اننا نجهل اليوم ، ونحن في القرن العشرين ، كثيراً من عقائد بعض الشعوب المعاصرة وعاداتها ممن تقطن مجاهل افريقية وسواها من القارات الخمس .

ومن الانصاف ان لا ننكر فضل من نقلوا الينا اخبار السلف لأن هذا الشيء اليسير هو الذي اثار في فئة من الناس حب الاستطلاع فدفعهم في هذه السبيل . وكانت هذه النصوص على علاتها نوراً يستضاء به ، ومرجعاً يستأنس به . وعلماء الآثار اصدق الناس في هذه الروايات وهم وان لم ينكروا وقوعها فلا يجزمون بصحتها الا متى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدها . ولأبحاث علماء الآثار ميزة جديرة بالاعتبار فهي في اكثر الاحايين تكون منزهة عن الاغراض والغايات النفسانية . وقد يخطئ الاثري في استنتاجه ، ولكنه لا يتعمد تشويه الحقائق ، لأن همه الوحيد ان يحيي هذا الماضي البعيد ، ويصبح معاصروه كأنهم يعيشون في ذاك العصر وذاك المحيط . ومن منا لا يشعر بمثل هذا الشعور عند ما يزور متحفاً او معبداً او اطلالاً قديمة . وكيف يمكنه ان ينكر الحقيقة ولسان حال هاته الامم البائدة يقول :

ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

لقي هذا العلم الحديث اقبالاً عظيماً في بلاد الغرب فعنيت حكوماتها به ، وارصدت للمشتغلين به اموالاً طائلة ، وانشأت له المدارس والمجامع العلمية أسوة ببقية العلوم . وقد ابدت هذه الفئة فئة الاثريين ، على قلة عددها ، نشاطاً عظيماً ، ووضعت في برهة قصيرة كثيراً من المؤلفات القيمة المفيدة . وقد نال الشام قسط وافر من هذه الابحاث ، فهي اول بقعة اتجهت نحوها الانظار وخصوصاً فلسطين ، لمكانة الشعوب التي استوطنتها منذ الزمن الاطول ، واهمهم الشعب الاسرائيلي ، ولعلاقة الامم الغربية بكتابهم المقدس .

* * *

البعثات الأثرية الغربية — اوفدت اكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار الشام نخص منها بالذكر البعثة الافرنسية التي رافقت حملتها في سنة ١٨٦٠ م والجمعية الانكليزية للبحث عن آثار فلسطين .

ثم تضاعفت الهمم فجاء من الافرنسيين رنان والدوق دولوين ودوسلسي ودوفوكوين وكلرمون غانو ودوسو وفانزان وغيران ، ومن الانكليز روبنسون ومادن وسايس وويلسون وفارين ، ومن الالمان اوتوتينيوس ، ومن السويسريين ماكس فان برشيم ·
واهم الامكنة التي نقبوا فيها هي تل الحسي وتل زكريا وتل الصافي وتل الجديدة وتل الجزر وتل تعناك وتل المتسلم وعكا ويافا والقدس وصيدا وصور وجبيل وعمريت وجزيرة ارواد وبعلبك وفي عدة اصقاع في الشام الشمالية ·

وبينا كانت هذه البعثات مجدة في عملها ، كانت الدولة العثمانية في سبات عميق لا تبدي حراكاً مكتفية بمراقبة هذه البعثات لاقتسام الغنيمة وايداعها متحف الاستانة الوحيد · ولم تفكر قط بعمل حفريات ، كما انها كانت تمانع بأنشاء فروع لمتحفها في الشام او في غيرها من البلاد العثمانية ، وحجتها في ذلك ان آثار البلاد اذا جمعت في مركز واحد ، وضم بعضها الى بعض نتجت من ذلك فوائد علمية وعملية لا ترجى من تعدد دور الآثار ، وذلك اسوة بمتاحف اكثر الامم الغربية ، وعملاً برأي اكثر علماء الآثار · ولكنها تجاهلت بانه ما يصلح لبلاد لها وحدة تاريخية لا يعمل به في بلاد ضمت تحت لوائها شعوباً مختلفة ومدنيات متباينة كالامبراطورية العثمانية ·

ولذلك كان جل همّ الدولة العثمانية انماء متحف الاستانة فاهملت امر الآثار القديمة في بلادها ، فلم تعهد الى أناس يتعهدونها او يراقبون سيرها ، ولذلك درس كثير من البنايات الأثرية البديعة ، واقبل الاهلون في كل ناحية ينقبون عن الآثار القديمة بغية الاتجار بها ، فأصبحت هذه التجارة ذات شأن في البلاد ، وغصت متاحف اوربا بآثار الشام ، واقتنى غواة العاديات الاجانب كثيراً منها · وبهذه الصورة وبفضل الامتيازات الاجنبية تمكنت الجامعة الاميركية والكلية اليسوعية في بيروت وغيرهما من المعاهد من إنشاء كل منها متحفاً خاصاً بها ، وجمع الدكتور فورد في صيدا وغيره في حلب من الاجانب مجاميع مهمة من آثار الشام · ولم يعرف من الشاميين من اشتهر بجمع الآثار القديمة بل كانوا لا يعبأون بها ، ولا يقيمون لها وزناً · ومن كان منهم يملك طرفة او اثراً يتنازل عنها مقابل دريهمات معدودة على ايسر صورة ، حتى تجردت اكثر البيوت والأسر من نفائسها ·

آثارنا وآثار جيراننا

ولقد تبين من الحفريات التي اجريت في الشام ومن الآثار التي اكتشفت فيها أن آثارها تختلف كثيراً عما وجد من نوعها في البلاد المجاورة لها ، ولا يرجى أن نعثر في هذه البلاد على آثار تثير بجسامتها إعجاب العامة قبل الخاصة ، كما هو شأن آثار مصر واشور وفارس . والسذاجة في الصناعات تغلب على الشاميين منذ القديم ، وهذا ناشئ عن طبائعهم ومعتقداتهم . فالشامي في جميع ادواره التاريخية يميل الى الساذج وهذا يظهر في صناعاته وفلسفته الدينية ، وتتجلى في هذه البساطة مواهب الشامي الفنية ، فقد جمع بين الساذج والجميل فأحسن الصنع وابدع . وتقل الآثار المنقولة النفيسة التي اكتشفت في الشام بالنسبة لما وجد في غيرها من البلدان المجاورة ، وهذا القليل يشهد ببراعة الصانع الشامي وذوقه السليم ، وهو ذو مكانة بين اقرانه من فناني بقية الشعوب .

وليس معنى قلة العاديات عدم انتشارها في البلاد بل لأنها لم تصل الينا لأسباب وعوامل شتى . اولاً لان تربة الشام رطبة لا تحفظ ما يودع فيها . وثانياً لأن الشاميين قلما يحملون في مدافن موتاهم نفائسهم ، كما هو شأن المصريين وغيرهم من الامم القديمة . بل يكتفون بالأشياء الساذجة المنوعة . فاذا اضفنا الى خلو القبور من الاعلاق ، وما قد كتبه اشمونزار ملك صيدا على تابوته مخاطباً به نابشي القبور ، ناصحاً لهم ان لا يهتكوا حرمته ، مؤكداً ان لا ذهب ولا فضة في قبره — ندرك من هذا كل سر ندرتها بين ايدينا . فاذا كان هذا حال ملوكهم فما بالك بالرعية . وخلو القبور منها هو حجة للشام لا عليها ، ودليل على سمو عقيدة سكانها ، ونضج فكرتهم منذ القديم ، لأن الشامي كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بان الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالاكرام الذي يبالغ به غيرهم من الشعوب . ومع هذا فقد انتشرت في الشام عادة وضع بعض الاشياء في القبور وذلك بمؤثرات خارجية ، واقتباس عادات الغالب ، لأن الشام كانت في اكثر ادوار تاريخها خاضعة لسلطان اجنبي .

الشام معهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر . وهذه الديانات لم تكن ابنة ساعتها بل هنالك عوامل مهدت لها السبيل مدة قرون عديدة قبل ظهورها . ولذلك يهم كل منا معرفة تطورها قبل نشوئها .

وهذا ما يزيد في مكانة آثار الشام ويجعل اقبال العلماء عليها اكثر من سواها لملاءَتها الكبيرة بنظامنا الاجتماعي الحاضر . وقد ادركت جمعية الامم هذا الامر واحتاطت له خوفاً من المزاحمة او استئثار دولة بهذه الآثار دون سواها . ولذلك اشترطت في المادة (١٤) من صك الانتداب أن القانون الذي سيسن لحماية العاديات يجب ان يستمد روحه مما يدعو الى التنشيط اكثر منه الى التثبيط ، كما انها اشترطت على الحكومة المنتدبة عند منحها اجازات بالحفر ان لا تتصرف بشكل يرمي الى حرمان علماء اي شعب كان تلك الاجازات دون اسباب موجبة وهكذا اصبح الباب مفتحاً لجميع الامم .

* * *

تأسيس دور الآثار } وقد تضاعف نشاط البعثات الاثرية الاجنبية عقب الهدنة في سنة ١٩١٨ ، واظهرت قيادة جيوش الحلفاء في الشرق عناية كبرى بآثار الشام ، وعهدت للاخصائيين في جيوشها بدرس الآثار في هذه الديار ورفع التقارير عنها ، وشددت النكير على العابثين بها . ومن جملة مقررات المؤتمر الافرنسي الذي عقد في مرسيليا سنة ١٩١٩ للبحث بشؤون الشام العامة اقتراح على الحكومة الافرنسية بانشاء ديوان للآثار القديمة ، والتشبث باسترجاع ما اخذته الحكومة العثمانية من آثار البلاد ، وقد حققت المفوضية الافرنسية في الشام الاقتراح الاول ، فأنشأت لها ديواناً للآثار القديمة وحذت المفوضية الانكليزية حذوها في فلسطين وشرق الأُردن .

ولم تكن الشام في عهد الملك فيصل اقل عناية من تينك الدولتين . فقد اغتنم هذه الفرصة بعض مفكري البلاد وفي مقدمتهم الاستاذ مؤلف « خطط الشام » فاقترحوا على الملك انشاء متحف في دمشق ، فقوبل هذا الاقتراح بارتياح عظيم . وما لبث الملك ان اصدر امره بذلك الى الاستاذ بامر تحقيقه على ان يكون فرعاً للمجمع العلمي العربي الذي اسمه الرئيس ايضاً . وفي عهد الانتداب الافرنسي أنشأت الحكومة السورية متحفاً آخر في حلب وأنشأت حكومات لبنان وجبل الدروز والعلويين متاحف في بيروت والسويداء وطرطوس وكذلك أنشأت كل من حكومتي فلسطين والشرق

العربي متحفاً جعلته الاولى في القدس والثانية في عمان . وحجم هذه المتاحف نمت بسرعة عظيمة بفضل ما اشترته واستهدته من الآثار ، وما نالها مما اكتشفته البعثات الاثرية في مناطقها . وبمقتضى تشجيع الحكومات المحلية والسلطات المنتدبة اصبحت الشام ساحة عمل دولي كبير .

ولقد قامت البعثات الافرنسية بالبحث عن الآثار في صيدا وام العواميد وكفر الجرة وبيروت وجبيل والقرية واشبا في منطقة الحكومة اللبنانية ، وفي السويداء وقنوات والشهباء في جبل الدروز ، وفي طرطوس من عمل حكومة العلويين ، وفي تل النبي مند (قدش القديمة) وفي المشرفة (قطنا القديمة) والنيرب وارسلان طاش والقصر الاحمر من اعمال دولة سورية ، وقامت بعثتان مختلطتان باعمال التنقيب في قلعة الصالحية (دوراسا وروبوس القديمة) على شاطيء الفرات وفي مدينة تدمر وتحرت البعثة التشكوسلوفاكية آثار الشيخ سعد وتل ارفاد ، ونقبت بعثة المانية في رأس العين شمالي الشام من عمل حكومة سورية . وحصرت البعثات الانكليزية والاميركية اعمالها في منطقة فلسطين والشرق العربي ، فنقبوا عن الآثار في تل المتسلم (مجدو القديمة) وبيسان وسبسطية (سمرة القديمة) وسيشم وبيت جبرين والقدس والتابغة وجرش .

* * *

متحف دمشق تختلف مجموعة دار الآثار في دمشق عن مجاميع متحف الشام للعناية التي بذلتها بآثار القطر الشامي على اختلاف أدواره التاريخية وخاصة العهد الاسلامي . وحريٌّ بدمشق عاصمة الأمويين ، ومهد الحضارة العربيـة ، أن يكون لها متحف يحيي ذكرى هذا الماضي المجيد . ورغم ندرة العاديات الاسلامية المنقولة في ربوع الشام وأسعارها الباهظة ، تمكنت دار الآثار من جمع أعلاق قيمة . منهـا مجموعة نقود اسلامية ، ومجموعة خزف عربي ، ومجموعة مصاحف مخطوطة ومذهبة . ومجموعة خشبية أخص بالذكر منها جانباً من سدة جامع من خشب الجوز الرومي آية في جمال الصنع وحسن الذوق ، مزينة بنقوش عربية بديعة ، وكتابات قرآنية كوفية مزهرة متناسقة جميلة جداً ، وقد كتبت في أعلاها هذه الفقرة : « بن محمد بن الحسين بن علي صفي امير المؤمنين تقبل الله منه وذلك في

شهور سنة سبع وتسعين واربعمائة » وتابوت مزين مجموع بشكل حشوات صغيرة منقوشة نقشاً بديعاً وقد كتب على جوانبه « هذا ضريح الست الجليلة الكبيرة المعظمة الملكة فخر الخواتين عصمة الدنيا والدين ، بختي خانون ابنة السلطان الملك معز الدين قيصر شاه ابن السلطان السعيد الشهيد ملك ملوك الروم والارمن قليج أرسلان قدس الله روحه ونور ضريحه وذلك في مستهل ربيع الاول سنة ثمان واربعين وستمائة » وبين مجموعة الكتابات الحجرية لوحتان سلجوقيتان كتب عليهما تاريخ ترميم جانب من جامع بني أمية في شهور سنة ٤٧٥ وأخرى ايوبية تاريخها سنة ٥٧٥ ومجموعة وافرة من شواهد قبور امراء الشام وعلمائها في القرن السابع والثامن ه . ومما يلفت النظر اليه جرة من رخام ابيض وعلى القسم الاسفل منها نقوش عربية وعهدها من القرن الثامن للهجرة . واخرى من الفخار عليها نقوش اشخاص وحيوانات وطيور وزهور محكمة الصنع وكتب في وسطها هذه العبارة (عز واقبال وسلامة وسعادة وكرم وغبطة ورفعة) وهذه الجرة فريدة في بابها وهي من صنع العراق في القرن الثالث عشر م .

ومن اهم الآثار غير الاسلامية مجموعة زجاجية وهي اجمل مجموعات العالم ، ومجموعة مهمة من الآثار التدمرية وهناك رأس تمثال احد عظماء الحثيين يرجع عهده للألف الثانية قبل الميلاد . ونصب الفرعون سيتي الاول وعليه ذكر انتصاره على الحثيين وطائفة من الآثار الرومانية واليونانية .

* * *

متاحف بيروت والسويداء وحلب وطرطوس والقدس وعمان	وجمع في متحف بيروت كثير من الآثار الفينيقية وغيرها أهمها الاواني والحلي التي عثر عليها في مدافن جبيل وفي أقبية معبدها .

ويرجع عهد بعضها الى الالف الثالثة وبعضها الى ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد . منها ناووس الملك احيرام المتوفى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد نقشت على جوانبه صورة الملك يتناول القرابين من اتباعه وبعض الشعائر الدينية وهو قائم على اربعة اسود . ومما يزيد في شأن هذا الاثر الكتابة الفينيقية التي زُبرت عليه وهي أقدم كتابة عرفت من نوعها حتى اليوم وهذه ترجمتها « عمل هذا الأران (التابوت) أفسبعل بن احرام

ملك جبيل لابيه كي يكون مقره الأبدي ، فاذا نصب ملك من الملوك او حكام من الحكام العداء لجبيل وأخرج هذا التابوت من تحت التبليط فيكون خاتور خصمه فيدك عرش ملكه ويعم الخراب جبيل اذا محا هذه الكتابة ٠٠٠٠٠٠٠ » وبين هذه الآثار آنية خزفية نقش عليها اسم الفرعون امنمحت الثالث (١٨٥٠—١٨٠٠) قبل المسيح ٠ وآنيتان عليهما اسم امنمحت الرابع وآنية من الرخام جميلة الصنع مع غطائها وكتب عليها بالهيروغليفية ما يأتي : « خدام الاله ابن الشمس فليعش امنمحت الى الأبد » وصندوق صغير للحلي من حجر كريم اسود محلي بالذهب وشكله على طراز الناووس وعلى الغطاء كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : « فليعش الاله بون سيد الارضين ملك مصر البحرية والقبلية مع خرون راع المحبوب من ثوم سيد هيليوبوليس الممنوحة له الحياة الأبدية » ٠ وجمعت في هذا المتحف كمية كبيرة من الفخار أهمها الاواني التي عثر عليها في كفر الجرة و يرجع تاريخ صنعها الى الالف الثانية قبل الميلاد ٠ ولآثار جبيل مكانة تاريخية عظيمة وهي من أهم ما عثر عليه حتى الآن في بلاد الشام ٠

وكان في متحف السويداء عاصمة جبل الدروز مجموعة حجرية نفيسة اكثرها من العهد اليوناني والروماني ولكن ضاع معظمها مع الاسف إبان الثورة السورية ٠ ومتحف طرطوس في حكومة العلويين حديث العهد وليس فيه الا مجموعة صغيرة ليست ذات شأن كبير ٠ واما متحف حلب فلم يخصص له مكان بعد ، ولكن مجاميعه جاهزة ستحفظ فيه متى هيئ لها المكان ٠ واكثر هذه الآثار حثية واشورية من التي استخرجت في حفريات أرسلان طاش وتل الاحمر وتل ارفاد والنيرب ٠

وفي متحف القدس مجاميع خزفية ومعدنية تبين تطور نهضة فلسطين والادوار التي مرت عليها في أهم عصورها التاريخية كما انه يحتوي على عدد من النواويس من العهد اليوناني والروماني وأجملها ما نقش عليه صورة معركة بين اليونان والنساء المترجلات (امازون) وطائفة آثار من الحجر البركاني من عهد الفرعون سيثي الاول ورعمسيس الثالث التي وجدت في بيسان ٠ وقد حفظت قطع الجمجمة التي وجدت في التابغة و يرجع عهدها الى ماقبل التاريخ ٠ واما مجموعة متحف عمان فاكثرها مما يرجع تاريخه الى العهد الروماني والبيزنطي ٠

وبعد فقد عرفنا بما تقدم مقدار العناية التي بذلتها البعثات الاجنبية بآثار الشام غير الاسلامية وإعراضهم عن هذه الاخيرة . لا جرم ان معظم الآثار الاسلامية في بلاد الشام محفوظة في الجوامع والمساجد والمدارس مع محتوياتها وهي بتصرف الاوقاف . ولذلك يتحاشى الاجانب ما امكن ان يثيروا عواطف عوام المسلمين حتى ان السلطات المنتدبة تركت لدوائر اوقاف البلاد حرية التصرف بهذه الاماكن المقدسة . وقد اكتفت بان تسدي اليها من حين الى آخر النصائح لبذل العناية لهذه الآثار . ولكن اكثر هذه الدوائر في شغل شاغل عنها . فكل يوم نسمع بضياع اثر او تشويهه لا عن قصد منهم بل لانهم لا يقدرون قيمة ما هو تحت تصرفهم ، حتى أصبحت اكثر هذه الأمكنة الأثرية في حالة يخشى عليها من الاندراس ، وبذلك تفقد البلاد هذه المفاخر التي تشهد بمدنية الالف العظيمة في أزهى عصور البلاد الشامية . فعسى ان تحذو البلاد حذو شقيقتها مصر وتؤلف لجنة للآثار الاسلامية تعنى بجمعها وتتفقد شؤون الابنية منها .

وقد انشأت الجمهورية الافرنسية في دمشق معهداً افرنسياً لدرس الآثار وخاصة منها الاسلامية على منوال المعهد الافرنسي في القاهرة . وقد سبق للبعثات الاجنبية ان اسست في القدس معاهد لدرس الآثار مثل المدرسة الاثرية الافرنسية ، والمدرسة الاثرية الانكليزية ، والمدرسة الاميركية للابحاث الشرقية ، ولهذه المعاهد فضل كبير بكشف غوامض تاريخ بلاد الشام القديم .

لم تدع السلطتان الافرنسية والانكليزية في منطقتي سورية وفلسطين باباً الا وطرقتاه لنشر الدعاية في البلاد الاجنبية عن آثار بلاد الشام ومكانتها . وقد تجلى ذلك في دعوتهم لمؤتمر الآثار الدولي الذي عقد في سورية وفلسطين في شهر نيسان سنة ١٩٢٦ فكانت نتائجه مرضية . وبفضل هذه الدعاية نرى عدد السياح بازدياد في كل سنة . ولا شك ان الشام اذا صرفت العناية بفنادقها وطرق مواصلاتها تصبح مقصد السياح من اهل الارض ، وتجني من ذلك فوائد مادية وادبية لا تقدر .

دور الكتب

نشأة الكتب

عرفنا من سير القدماء انهم كانوا يقيدون علومهم ومآثرهم وتواريخهم واياءهم في صنوف من المواد ، تكون على مقربة منهم ، وتكثر في ارضهم وديارهم . فالبابليون كتبوا كتبهم على الآجر اي بالطين المشوي ، والهنود كتبوا على النحاس والحجارة والحرير الابيض والطومار المصري ، والعرب في اكتاف الابل واللخاف ، اي الحجارة البيض الرقاق ، وفي العُسُب عسب النخل . وبقي الامر على ذلك حتى شاع الورق المعمول من الكتان في خراسان وسمرقند وبغداد ودمشق ، منذ القرن الاول للهجرة على ما يظهر .

ولما اخترع الورق وشاع ، قُضي على الرّق لسهولة تناول القرطاس والمُهْرَق ، وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها . وكان من الحرير الابيض ما يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه ، وقد اعتمدوا عليه قبل القراطيس بالعراق ، وكتب بعض اهل الغرب في صفائح من معدن رقيق . وكان اهل فرغانة في الروم اول من استنبطوا الرّق ، كانت له تجارة رابحة بارت بظهور الورق ، وكانت الكتب في العراق تجعل في جلود دباغ النورة اي الكلس ، وهي شديدة الجفاف ، ثم كانت الدباغة الكوفية ، تدبغ الجلود بالتمر وفيها لين ولا رائحة لها .

ولما فتح الاسكندر بلاد فارس كان العلم منقوشاً مكتوباً في صخور وخشب ، فأخذ حاجته منها وأحرق الباقي . ولما تولى اردشير بابك وابنه سابور على فارس والعراق جمع ما تفرق من الكتب فيها ، واستنسخ من الهند والصين والروم كتبهم .

ولما ملك بَطلِميوس (بطولوماوس) فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية فحص عن كتب العلم فعهد الى رجل اسمه زُميرة فجمع من ذلك على ما حُكي اربعةً وخمسين الف كتاب ومائة وعشرين كتاباً . وقال له قد بقي في الدنيا شيءٌ كثير في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعندالروم . وذكروا ان النعمان ملك الحيرة امر فنسخت له أشعار العرب في الطُّنوج اي الكراريس فكتبت له ثم دفنها في قصره الابيض ، فلما كان المختار ابن عُبيد قيل له ان تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الأسفار . قالوا فمن ثم كان اهل الكوفة أعلم بالاشعار من اهل البصرة . وبلغ من عناية ملوك الفرس بصيانة العلوم ، وحرصهم على بقائها على وجه الدهر ، واشفاقهم عليها من أحداث الجو وآفات الارض ، ان اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث ، وأبقاها على الايام ، وأبعدها عن التعفن والدروس ، فكتبوا في لحاء شجر الخدنك ، ولحاؤه يسمى التُّوز ، وكانت تعمل منه القسي ، وبهم اقتدى في ذلك اهل الهند والصين ومن يليهم من الامم .

ولما حصل الفرس العلوم طلبوا لها من المكاتب من بقاع الارض وبلدان الاقاليم ، أصحها تربة وأقلها عفونة ، وأبعدها من الزلازل والخسوف ، وأعلكها طيناً ، وأبقاها على الدهر بناءً ، فاختاروا مدينة جَيّ من عمل اصفهان جعلوها في قُهُندز اي حصن ، فانهارت هذه المصنعة في الاسلام فظهروا فيها على أزج معقود من طين الشفتيف ، اي بيت مستطيل من الخزف ، فوجدوا فيها كتباً كثيرة من كتب الاوائل مكتوبة كلها في لحاء التوز بالكتابة الفارسية القديمة ، وقالوا ان الفرس كانوا يودعون كتبهم في ساروية ، احد الابنية الوثيقة القديمة المعجزة البناء ، وتشبه الأهرام في الجلالة وإعجاز البناء ، وكانت الكتب تكتب على صفحة صفحة اي من وجه واحد .

هذا ما يؤخذ من كلام ابن النديم وغيره في منشإ الكتب عند القدماء ، ومع هذا لم تحفظ لغات الأقدمين لولا ما وجد منها مكتوباً على الأحجار ، وكان بعض تلك اللغات المهمة اندثرت في القرون الاخيرة حتى لا يحلها انسان ، مثل اللغة الهيروغليفية لغة قدماء المصريين المقدسة فعثروا في رشيد من ثغور مصر في سنة ١٨٢٦ على حجر كان مكتوباً بالهيروغليفي والديموطيقي واليوناني ، فحل شمبوليون الاثري الفرنسي

الخط الهيروغليفي ، وهو الخط الخاص بالآثار عند قدماء المصريين ، وكان الخط المعتاد عندهم الخط الهيراطيقي يكتبون به حاجاتهم العادية وفنونهم وآدابهم · وهذا يكتب على البَرْدِيّ بقلم من البوص المعروف بالغاب ، يغمس في مداد اسود او احمر ومنه ادراج طويلة قد يبلغ طول الواحدة منها ثلاثين متراً ، ومنها نماذج حفظت في متاحف الغرب ومتحف مصر ، وكذلك ما عثروا عليه في رسائل تل العمارنة في المنيا بمصر في سنة ١٨٨٨ وقد كتبت بالآجر بالحروف المسمارية البابلية ، وفيها سجلات الدولة في عهد فرعون مصر امينوفيس الرابع وابيه امينوفيس الثالث ، وانحلت بهذه الآجرّات عُقد من التاريخ القديم استدل بها على علاقة الشام بمصر ·

ومثل ذلك يقال في الاثر النفيس الذي اكتشفه احد امراء روسيا في تدمر سنة ١٨٨٢ وانحلت به مشاكل كثيرة من الحضارة التدمرية · وقد حل الخط التدمري بارتلي الفرنسي · واكتشف صديقنا العلامة دوسو الفرنسي في الجنوب الشرقي من النمرة في الصفا حجراً مكتوباً بالخط الارامي وهو بالعربية ، وحل لغة الصفا بيتمان وهاليفي · واكتشفت في البتراء المصانع المكتوبة بالآرامية ، وحلّ علماء الآثار اللغة الحميرية السبئية في اليمن · وحلوا لغة البابليين ومن أهم ما عثروا عليه من آثارهم ما اكتشفه دي مورغان في بابل من مِسلّة عظيمة عملت بمسحوق الحجر البركاني وقد زُبرت عليها شريعة حمورابي ، احد أعاظم ملوك البابليين ، وكان من اصل عربي كما يقول صديقنا العلامة هومل الالماني ·

وأهم الكتابات الفينيقية التي ظهرت ما وجد مزبوراً على ناووس احد ملوك صيدا سنة ١٨٥٥ والخط الفينيقي أشبه بالخط العبراني ، والخط المسند هو الذي كتبت به مصانع الفرس القدماء ومصانع اشور و بابل وارمينية وخوزستان وما الى ذلك من ارض العراق · ولا يزال العلماء يكتشفون الآثار والعاديات في ارض الشام ، والى اليوم لم يحل خط الحثيين اقدم شعوب هذه الديار ، ولا يزال علماء الآثار منذ عثر بروكهار في حماة على حجر مكتوب بهذا الخط سنة ١٨١٢ متوفرين على حل هذا القلم وقد ظفروا بكثير من آثار الحثيين في هيرابوليس او قرقميش عاصمة الحثيين وفي طرابلس وحلب وارفاد وحمص وغيرها ·

ومعنى كل هذا انه لم يصل الى اهل العلم الحديث بعد تطاول الاعصار من تلك اللغات القديمة الا ما كان مزبوراً على الاحجار والآجر ، ثم ما كان على الخشب والرق ثم الورق ، وكانت للعرب في الكتابة على الرّق والورق يد طولى نقلوا بواسطتهما ما أمكن من علوم القدماء ، وأعطوه لاهل الحضارات الحديثة بامانة وإخلاص · فالقدماء اذاً وضعوا الكتب ايام عرفوا الكتابة ، فكان لبعضهم كالفرس واليهود والهنود كتب مقدسة ، وخلف الرومان واليونان تواريخ وقصائد وخطباً ومقالات فلسفية · قال سنيوبوس : وقلما نجد في الكتب المواد اللازمة لمباحثنا اذ ليس لدينا كتاب اشوري ولا فينيقي · اما ما بقي من اسفار الشعوب الاخرى فتافه جداً · وكان القدماء يكتبون ولكن أقلّ منا ، ولذلك كانت تآليفهم اندر ، ولم يكن لهم من كل مصنف غير نسخ قليلة لما ان الحال كانت تقضي باستنساخها كلها باليد ، وقد دثر غالب هذه النسخ او ضاع وتعذرت قراءة مابقي منه ، و يسمي علم حلها باليوغرافيا اي علم الخطوط والكتابات القديمة ·

* * *

نشأة المكاتب والعناية بحفظها عرفنا بما تقدم اننا لانستطيع ان نحكم على العصور التي سبقت الاسلام في الشام في امر الكتب والمكاتب ، فلا أنطاكية نطقت بما كان فيها من علوم القدماء ، وانتقلت اليها من حران والاسكندرية ، ولا بيروت ولا مدرسة الفقه التي كانت فيها قبل الاسلام ، اطلعتانا على ما كان فيهما من خزائن واسفار ، فان اخبار هاتين المدينتين انطاكية وبيروت انطمست منذ القديم كما انطمست معالمها بالزلازل المدهشة التي قضت على دور العلم فيهما ، واتت ايضاً على مدن برمتها في العصور الاولى للاسلام ، والزلازل كالحريق تتلف الكتب وتدمر المكاتب ·

ثبت ان العرب لم يدونوا في الجاهلية شيئاً من مآثرهم بالعربية ، لان الخط العربي محدث انتقل اليهم من الانبار قبيل الاسلام ، ولكنهم كانوا اول من اسرع الى التدوين خارج جزيرتهم ، ولا سيما في العراق والشام اوائل عهد الاسلام · والظاهر ان اهم كتاب عربي قديم دخل الشام كتاب الرسول الى تميم الداري واخوته باقطاعهم حبرون

اي الخليل وما اليها وهي المرطوم وبيت عينون وبيت ابراهيم ، وقد رأى هذا الكتاب الشريف ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الابصار في سنة ٧٤٥ ، والغالب انه رأى صورة منه بحسب وصفه . ويقول العلامة كيرنكو ان هذا العهد مصنوع وان كثيراً من المتقدمين لُبّس عليهم . وكان هذا الاقطاع قبل ان تفتح الشام . اقطع الرسول تميماً الداري واخاه نُعيم بن اوس هذه القرى تحبباً او على امل فتح الشام . ومن اهم الكتب القديمة في الشام مصحف سيدنا عثمان الذي ارسله عام ثلاثين للهجرة الى دمشق ليكون الاعتماد عليه كما ارسل مثله الى الامصار الكبرى في الاقطار الاخرى . والغالب انه نقلت عنه عدة مصاحف عُدَّت من الامهات منها ما جعل في طبرية ، ومنها ما وضع في قنسرين . وكثرت النسخ بعد ذلك ، لكن هذه المصاحف ذهبت في الحريق الذي أُصيبت به الجوامع في عصور مختلفة ، وكلما حرق مصحف قديم قال القوم انه مصحف عثمان ، والاصح ان يقال المصحف المنقول عن مصحف عثمان . وحدثني صديقي الشيخ مسعود الكواكبي انه تشرف غير مرة بزيارة مصحف كتب عليه حرره عثمان بن عفان وهو محفوظ في مكتبة جامع ايا صوفيا في الاستانة .

ثبت ان اول خزانة كتب في الاسلام أُنشئت في دمشق انشأها حكيم آل مروان خالد بن يزيد الأُموي المتوفى سنة خمس وثمانين ، ولم يصل الينا من اخبارها شيء ، ولا شك انها كانت تحوي بعض العلوم التي نقلها من القبطية واليونانية والسريانية ، في الكيمياء والطب والنجوم وغيرها ، وربما كان فيها شيء من كتب الجغرافيا لانه ثبت مما قاله ابن السنبدي الذي زار خزانة الكتب بالقاهرة في سنة ٤٣٥ ﻫ انه كان فيها كرة من نحاس من عمل بطليوس ، كتب عليها حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية . وقال انه كان في تلك الخزانة من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء . ولا شك ان خزانة خالد بن يزيد كان فيها ايضاً كتاب عُبيد بن شَرْيَة الجرهمي الذي كان استحضره جده معاوية من صنعاء اليمن وسأله عن الاخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الالسنة ، وامر افتراق الناس في البلاد . فاجابه الى ما امر ، فامر معاوية ان يُدوّن . وينسب الى عُبيد بن شرية ولعبيد كتاب الامثال وكتاب الملوك واخبار الماضين . وهذا من

اول التدوين في النصف الاول من القرن الاول . ولوهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ أو ١٤ أو ١٦ تصنيف ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم رآه ابن خلكان في القرن الثامن وقال انه من الكتب المفيدة .

وجاء القرن الثاني والشام تهتز أعصابها بانتقال الملك من بني أمية الى بني العباس فلم يؤثر عنها انه كان فيها خزانة كتب ، ولا عرف احد من الخاصة بانه كان مولعاً بجمع الاسفار ، فكانت الكتب القليلة بالطبع اذ ذاك تجعل في الشام في الجوامع او في بعض دور الخاصة ، على ما كانت الحال في اكثر المدن الاسلامية . واذ وقع التدوين في القرن الاول لم يدخل القرن الثاني حتى كثرت الكتب ، وقد ورد في سيرة الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ وهو من اعلام التابعين انه كان اذا جلس في بيته وضع كتبه حوله مشتغلاً بها عن كل احد ، فقالت له زوجته : والله لهذه الكتب اشد عليّ من ثلاث ضرائر . وهذا دليل على تكاثر الكتب حتى صارت للزهري مجموعة منها ينصرف اليها بكليته ، وامرأته تريده على ان يكون لها فقط . وكل هذه الكتب لم تبق الايام عليها . والغرب كان امهر منا في الاحتفاظ بما دون فان اقدم كتاب في اوربا يرد الى القرن الثاني للمسيح .

ولم يعرف قبل عهد الرشيد والمأمون ان جمعت الكتب في خزانة وسميت دار الحكمة او بيت الحكمة او بيت المعرفة . وكانت دار الحكمة أشبه بجامعة فيها دار كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون ويطالعون وينسخون . ويدير شؤون تلك الدور من يثق الخليفة بعقلهم وأمانتهم وعلمهم . كان هذا في القرن الثاني واعتوره في القرن الثالث بعض الفتور ، وظل بيت الحكمة في القرنين الرابع والخامس في بغداد مفتح الأبواب . وأنشأ احد وزراء العباسيين ابو نصر سابور بن اردشير في القرن الخامس داراً بالكرخ في بغداد سماها دار العلم ، وقفها على العلماء ونقل اليها كتباً كثيرة . وأنشأ الفاطميون في القاهرة دار العلم في القرن الرابع تشبهاً بالعباسيين في بغداد ، انشأها الحاكم بامر الله سنة ٤٠٠ وفرشها ونقل اليها الكتب العظيمة واسكنها من شيوخ السنة شيخين . قال ابن قاضي شهبة : وبقي الحاكم كذلك ثلاث سنين ثم اخذ بقتل اهل العلم واغلق دار العلم . ولم تعهد الشام دار حكمة الا في القرن الخامس

انشأها بنو عمار في طرابلس · وكان في كل من كفرطاب والمعرة في زمن ابي العلاء المعري خزانة كتب وقد زارهما كما زار خزانة طرابلس · وهـذه الخزانة كانت قبل بني عمار بمدة خلافاً لما وَهِم بعض المؤلفين المعاصرين ، لان القضاة بني عمار لم يستولوا على طرابلس الا بعد الاربعين واربعمائة · وكان ابو العلاء زار طرابلس قبل هذا التاريخ اي في اواخر القرن الرابع ، وانتفع بخزانتها وكتبها الموقوفة · واول من حكم من القضاة بني عمار ابو طالب عبد الله بن محمد بن عمار في دولة المستنصر الفاطمي في حدود سنة اربعين واربعمائة · وبنو عمار هؤلاء هم من غير سلالة بدر بن عمار الذي كان يتولى الساحل وهو الذي مدحه ابو الطيب المتنبي غير مرة ·

وكانت في الشرقية التي بجامع حلب خزانة كتب مهمة اسمها خزانة الصوفية · واتفقت فتنة في بعض ايام عاشوراء بين اهل السنة والشيعة ونهبت خزانة الكتب ، وكان ذلك في زمن ابي العلاء ولم يبق في خزانة الكتب الا قليل · قال ابن العديم : وجدد الكتب بعد ذلك الوزير ابو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتباً أُخر · وقد ذكر ابن سنان الخفاجي (٤٦٦) هذه الخزانة في قصيدته اليائية التي كتبها من القسطنطينية يداعب احد اصدقائه قال فيها :

ابلغ أَبا حسن السلام وقل له هذا الجفاءُ عداوة الشيعية
فلأُطرفن بما صنعت مكابراً وابثُّ ما لاقيت منك شكية
ولأجلسنك للقضية بيننا في يوم عاشوراء بالشرقية
حتى أُثير عليك فيها فتنة تنسيك يوم «خزانة الصوفية»

وقد ظلت هذه الخزانة في حلب عامرة الى القرن السابع وهي مسبلة على المطالعة ، ولم يعلم هل كانت الخزانة المهمة التي انشأها في حلب سيف الدولة بن حمدان وجمع فيها الامهات الجيدة كانت عامة للناس ايضاً كخزانة الصوفية ام هي خاصة به وبجماعته في قصره ، وقد اشتهر عنه ولوعه بالكتب الى الغاية · وناهيك بخزانة كان من جملة خزانها الخالديان الشاعران المشهوران · وربما ذهبت هذه الخزانة في هجمة الروم على حلب وتخريبهم قصر سيف الدولة ·

وقلّت عناية الملوك بخزائن الكتب ، لما كثرت المدارس في هذه الديار في القرن

الخامس « اكتفاءً بخزائن كتب المدارس التي اثبتوها من حيث انها بذلك امس »
ولم تكد تخلو مدرسة من المدارس في بلاد الشام من خزانة كتب . وكان لحلب
ودمشق والقدس وهي من حواضر العلم منذ القديم الحظ الاوفر من ذلك ، لو لم تنازعها
طرابلس التي كان يراد من انشاء دار الحكمة فيها نشر التشيع على مايقال ، وساعد على
كثرة الكتب في طرابلس ما كان فيها من معمل الورق الجيد . وقد عرفنا ان
معامل الورق كانت تخرج الكاغد والقراطيس والطوامير الجيدة في طرابلس ودمشق
وحلب ومنبج وطبرية وغيرها من المدن . ومن اشهر خزائن الملوك والامراء في القرن
السادس والسابع خزانة الكتب التي وقفها بحلب نور الدين محمود بن زنكي على مدرسته
وسلمت الى محمد بن علي بن ياسر الجياني الاندلسي ، زميل ابن عساكر مؤرخ دمشق ،
وأجريت عليه جراية ثم وقف كتبه على اصحاب الحديث توفي سنة ٥٦٣ ووقف
نور الدين على البيمارستان الذي انشأه بدمشق جملة كثيرة من الكتب الطبية كما
وقف كتباً كثيرة على اهل العلم في ارجاء مملكته .

واعطى صلاح الدين يوسف لمؤدب ولده الافضل ابي سعيد البندهي (او البنجديهي)
كتباً كثيرة من خزانة كتب حلب ، اباح له ان يأخذ منها ماشاء ، وهذا جمعها وحصل
من الكتب التي لم تحصل لغيره ، ووقفها بخانقاه السميساطي بدمشق . وكثيراً ما كان
صلاح الدين يبيح لرجاله ان يأخذوا ماشاؤوا من الكتب التي وقعت اليه ، كما فعل في مصر
واعطى وزيره القاضي الفاضل من خزانة الفاطميين قدراً كبيراً من كتبها ، واعطى عماد
الدين الكاتب ايضاً بعض اسفارها ، وكان في هذه الخزانة على ماقيل الف الف كتاب
وفيها من تاريخ الطبري فقط الف ومائتا نسخة . فبيعت خزانة الفاطميين وتشتتت على هذه
الصورة ولم يكن في بلاد الاسلام اعظم منها . ووهب صلاح الدين القاضي الفاضل ماشاء
من كتب خزانة آمد لما فتحها وكان فيها الف الف واربعون الف كتاب على ماذكر المؤرخون
فانتخب منها الفاضل سبعين حملاً . وهذه الالوف من الكتب التي ملكها القاضي الفاضل
وقفها بعد على احدى مدارس القاهرة وكان هو وابنه من غلاة الكتب .

ومن الخزائن التي كانت بالشام خزانة علي بن طاهر السلمي النحوي (٥٠٠) كانت
له حلقة بالجامع بدمشق ووقف فيه خزانة كتب . وكان لتاج الدين الكندي في

الجامع الأموي بدمشق خزانة كتب فيها كل نفيس . ووقف شرف الدين بن عروة الموصلي المنسوب اليه مشهد ابن عروة في الجامع الاموي بدمشق خزائن كتبه فيه . ومن الخزائن المهمة خزانة بني جرادة العلماء في حلب فقد كتب احدهم ابو الحسن ابن ابي جرادة (٥٤٨) بخطه ثلاث خزائن من الكتب النفيسة وخزانة لولده ابي البركات وخزانة لابنه عبد الله . ومات موفق الدين بن المطران (٥٨٧) وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخه . وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له ابداً ولهم منه الجامكية والجراية . ومات امين الدولة السامري وقد اجتمع عنده نحو عشرين الف مجلد لا نظير لها في الجودة . وكان مهذب الدين الدخوار صاحب مدرسة الطب بدمشق من اهل القرن السابع اقتني كتباً كثيرة ، واقتنى من آلات النحاس التي يحتاج اليها في علم الهيأة والنجوم ما لم يكن عند غيره اي انه كان عنده مرصد فلكي وخزانة كتب .

وجمع جمال الدين بن القفطي (٦٤٦) في حلب ما لا يوصف من الكتب ، وكانت خزانته تساوي خمسين الف دينار . وكانت خزانة قطب الدين النيسابوري مهمة وقفها على احدى المدارس بدمشق . وكان الملك الناصر ابن الملك المعظم عيسى (٦٥٦) معتنياً بتحصيل الكتب النفيسة ، وكان جمع قبله الامير نور الدين محمد بن عمر بن شاهنشاه صاحب حماة وابن صاحبها من الكتب ما لا مزيد عليه ، وكان في خدمته ما يناهز مائتي متعمم من الفقهاء والادباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب (٦١٠) ووقف الملك الاشرف موسى (٦٣٥) كتبه بالمدرسة الاشرفية بدمشق واشتهرت في هذا القرن خزانة ابن ابي أُصيبعة وتلميذه ابن القف بدمشق . ومن خزائن القرن الثامن والتاسع والعاشر التي بلغنا خبرها خزانة ابي الفداء صاحب حماة فانه جمع من الكتب كثيراً وقفها على جامع الدهشة وكانت سبعة آلاف مجلد .

ولم يقم في هذا القرن بعد الملوك من بني ايوب احد من الامراء عُني بالكتب وتسبيلها على المطالعة لخدمة الامة . فالقرن الثامن كان خاتمة هذه الحركة المباركة في الشام . نعم لم يقم فيها في العصور الاخيرة مثل الملك المؤيد هزبر الدين داود ملك اليمن المتوفى سنة ٧٢١ ؛ وكان محباً للعلوم ، مقرباً لاهلها ، يستجلبهم اليه حيث كانوا ،

و يرغب فيهم و يرغبهم فيما عنده و يجمع الكتب والتحف وقد جمع من مصنفات اهل العلم على اختلافها ما ينيف على مائة الف مجلدة ، وحملت اليه التحف والكتب من كل جهة . وكان عنده زيادة على عشرة نساخ ينسخون الكتب و ترفع الى خزانته بعد مقابلتها وتحريرها .

ومن الخزائن المهمة في هذه الحقبة من الدهر خزانة ناصرالدين العسقلاني (٧٢٣) فقد خلف ثماني عشرة خزانة مملوءة كتبـاً نفيسة . واقتنى ابن قيم الجوزية تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية خزانة مهمة . وملك زين الدين عمر القرشي الدمشقي (٧٩٢) من نفائس الكتب شيئاً كثيراً . ووقف تقي الدين اليلداني اكثر كتبه ومجاميعه بالخزانة الفاضلية بالكلاسة بدمشق سنة ٦٥٥ ، وحصل شمس الدين البعلي كتباً وكتب بخطه المليح شيئاً كثيراً (٧٧٤) ، وخلف الفتح الفارقي (٦٩٤) الفي مجلدة ومائتي مجلدة . وكانت خزانة ابن رواحة الحموي (٦٢٢) في مدرسته بدمشق . وخلف بدر الدين ابن غانم الدمشقي الفي مجلدة . واجتمع لشرف الدين البازري الحموي (٧٣٨) من الكتب ما لم يجتمع لاهل عصره . وكانت خزانة الامير سيف الدين ارغون نائب حلب (٧٣١) عامرة بالكتب النفيسة . ومن الخزائن المشهورة خزانة ابن فضل الله العمري وابن مالك النحوي وابن خلكان المؤرخ .

واقتنى بعض ولاة العثمانيين في الشام كتباً نفيسة بطرق مختلفة ومنهم سنان باشا صاحب الجامع المنسوب اليه بدمشق خلف مائة وستين مصحفاً مرصعاً بالدرر والجوهر وخمسة وثلاثين صندوقاً مملوءة بالكتب التي لا تقدر بثمن ، وكانت الصناديق مرصعة باليواقيت والمعدن . وكل هذا اخذه صاحبه من اليمن والشام وغيرها ونقل الى الاستانة . وجاء من كملة الترك في العهد الاخير من نقلوا الكتب الثمينة من الاستانة الى المدينة المنورة مثل شيخ الاسلام عارف حكمت فانه وقف خزانته وهي بضعة الوف من المجلدات بالخطوط المنسوبة وجعلها في مكان خاص بها في البلدة الطاهرة . وكان في القرن العاشر في الجامع الاموي بدمشق خزانة كتب خاصة بالمالكية والامين عليها مفتي اهل هذا المذهب محمد بن عبدالسلام التونسي . ووقف علي الدفتري من اهل القرن

الحادي عشر للهجرة كتباً نفيسة غالية بدمشق . وكان لبولس الزعيم اللبناني من اهل القرن السابع عشر للميلاد خزانة مخطوطة .

ولم يبلغنا ان قامت للكتب سوق في وراء جنوب دمشق من البلاد الى اقصى حدود الشام مع ان بعض بلادها انجبت علماء اجلاء مثل قمرا وامتان وعُرَّمان ونجران وشهبة وصرخد وبُصري والصلت ووادي الاردن وجبل الشراة وعمان ومعان والشوبك وعجلون واذرعات وجَرَش والسويداء .

وبعد فقد كانت الوراقة او صنعة الكتب من نسخ وتجليد وتذهيب ، صناعة رائجة في العهد القديم ، كأهم الصناعات الضرورية في المجتمع ، والناسخ يرزق بقدر إجادته الخط او الخطوط التي يعرفها و يحسنها . وكذلك المجلد والمذهب يكافأ كل واحد منهما بحسب غنائهما . وكان كثير من العلماء يكتبون الخط المنسوب اي الخط ذا القاعدة وينسخون نسخاً لا بأس به ويعيشون من نسخهم . ومنهم من كانوا يتعففون عن القضاء ، او تولي شيء من امر الامة ، ويؤثرون ان يعيشوا بالنسخ اوالوراقة اوالاتجار بالكتب ، ومنهم من أثروا منها . وكان في كل حاضرة سوق لبيع الكتب يختلف اليه العلماء والادباء . ومن العلماء من نسخوا المئة بل المئات من الكتب ، ومنهم من نسخ الف مجلد في حياته . ولم يكد الكتاب يخرج من يد مؤلفه خصوصاً اذا كان من المشاهير الثقات حتى تتعاوره الايدي بالنسخ ، و ينتقل من قطر الى قطر ، و يتداول في الايدي ، و يجلد و يوضع في القماطر ، ليستفيد منه العلماء والطلاب ، ويستمتع به هواة الكتب .

وقد جاء زمن على دمشق مثلاً اي من القرن السابع الى القرن الحادي عشر وكل مدرسة من مدارسها الكثيرة لا تخلو على الجملة من خزانة مهمة وافية بغرض الاساتيذ والتلاميذ . ومن أهم المدارس التي حوت خزائن مهمة العمرية والعروية والناصرية والعادلية والاشرفية . جاء في فتاوى التقي السبكي صك وقف دارالحديث الأشرفية هذا : و يصرف الى خازن الكتب ثمانية عشر درهماً في كل شهر وعليه الاهتمام بترميم الكتب ، واعلام الناظر او نائبه ليصرف فيه من مغل الوقف ما يفي بذلك ، وكذلك اذا مست الحاجة الى تصحيح كتاب او مقابلته . وجاء فيه : وجعل

جزءاً من الوقف يصرف على مصالح المدرسة النورية ومن ذلك ان يصرف في شراء ورق وآلات نسخ من مركّب (حبر) وأقلام ودويّ ونحو ذلك ما يقع به الكتابة لمن ينسخ في الديوان الكبير او قبالته الحديث او شيئاً من علومه او القرآن العظيم او تفسيره ، و يصرف الى من يكتب في مجالس الاملاء ، والى من يتخذ لنفسه كتباً او استجازة ، ولا يعطى من ذلك الا لمن ينسخ لنفسه لغرض الاستفادة والتحصيل دون التكسب والانتفاع بثمنه . قال وللشيخ الناظر ان يستنسخ للوقف او يشتري ما تدعو الحاجة اليه من الكتب والاجزاء ثم يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها . وكتب سنة ستمائة واثنتين وثلاثين اه .

وكان رهبان الموارنة في لبنان منذ القرن الخامس عشر يصرفون بعض اوقات فراغهم في نسخ المخطوطات الدينية والعلمية بل ان بعض بطاركتهم وأساقفتهم كانوا يحملون الخوارنة والرهبان وغيرهم على نسخ الكتب يزيدون بها مجاميع الأديار والبيع في الجبل و ينقيلون في ذلك مثال إخوانهم علماء المسلمين في المدن . و بهذه الطريقة كانت تنمو الكتب والايدي تتناولها على أيسر وجه كأنها بعض المقدسات . او كأن القوم كانوا يتعبدون الله بحفظها وإماطة الأذى عنها وتجليدها وتحليدها ، وخدمتها بالتعليق عليها ومعارضتها بالنسخ الصحيحة ووضع الفهارس لها بحسب عرفهم في تلك الايام ، يتخيرون لها ما يبقى و يخلد طويلاً من الورق المتين والمركب الجيد والجلد النفيس المجود الدبغ لانها نادرة المثلة وفيها ثمرة العقول ، والنادر موضع العناية وهو خليق بان تشد عليه يد الضنانة وتحتفظ النفوس به وتغتبط بتعاور الايدي عليه من دون ان يناله سوء من عوادي الدهر .

* * *

مصائب الكتب والمكاتب } ما برحت المكاتب تزيد على الزمن بازدياد الحضارة في الاسلام وتنتقل الكتب من مصر الى الشام ومن الشام الى العراق ومن الحجاز الى الشام مثلاً و يُعنى بها العلماء والادباء ، ويتنافس في اقتنائها الملوك والامراء ، و يضعف الغرام بها يوم تضعف الحركة العلمية و يفسد الزمان و يُرغب عن الفضائل ، مابرحت الحال على ذلك حتى دخل الروم حلب واحرقوها سنة

٣٥١ ثم احرقوا ٠ ص وغيرها من مدن الساحل ٠ ثم وقع الحريق الاعظم الذي أُصيب به الجامع الاموي بدمشق سنة ٤٦١ ودثرت فيه محاسنه وما كان فيه من الاعمال النفيسة والكتب والمصاحف من جماتها ٠ وربما حرق فيه المصحف العثماني القديم ٠ ومن أهم النكبات التي أُصيبت بها الكتب في الشام نكبة طرابلس لما فتحها الصليبيون واحراق صنجيل احد امرائهم كتب دار العلم فيها ، واخذ الصليبيون بعض ماطالت ايديهم اليه من دفاترها وكتب الخاصة في بيوتهم ٠ واختلفت الروايات في عدد المجلدات التي كانت في خزانة بني عمار او دار حكمتهم في طرابلس وعلى اصح الروايات انها ما كانت تقل عن مائة الف مجلد واوصلها بعضهم الى الف الف وبعضهم الى اكثر ٠ وقفها امين الدولة ابو طالب الحسن بن عمار وجاء بعده الامير علي بن محمد ابن عمار الذي جدد دار العلم سنة ٤٧٢ ثم فخر الملك عمار بن محمد حتى صارت طرابلس كما قال ابن الفرات في زمن آل عمار جميعها دار علم ، وكان في تلك الدار مائة وثمانون ناسخاً ينسخون لها الكتب بالجراية والجامكية فضلاً عما يشترى لها من الكتب المنتخبة من البلاد ٠ وابن الفرات هو ممن يقول بان عدد ما كان في دار العلم هذه من الكتب نحو ثلاثة ملايين كتاب عند ما احرقها الصليبيون سنة ٥٠٣ ﻫ ٠ والغالب انه كان في طرابلس من الكتب الموقوفة غير دار العلم وقفت قبل بني عمار واراد ابن الفرات بهذه الثلاثة آلاف الالف عدد الكتب التي كانت في مكاتب طرابلس كلها ٠

ولا ينبغي ان يذهب عن الخاطر ان ما كانوا يسمونه جزءاً او مجلداً او مجلدة لا يتجاوز بضع كراريس من كراساتنا والكُرّاسة قد لا تكون اكثر من ثماني صحائف بمعنى ان الف المجلدة او المجلد لا تبلغ في مصطلحنا اكثر من خمسين كتاباً اوستين اوسبعين كتاباً ، فكان المجلد في تلك العصور قليل الاوراق ، لان الورق او الرَّق غليظ فاذا جعل كل مجلد مئتين او ثلاثمائة او اربعمائة او خمسمائة ورقة يصعب تناوله وحمله ونقله ولا يصح ما قاله ابن الفرات من انه كان في دار العلم في طرابلس ثلاثة آلاف الف يوم نكبتها الا على هذه الصورة اي ان كتبها كانت بين المائتين وثلاثمائة الف ومنها اجزاء صغيرة ورسائل وقد يكون الجزء من كتاب لا تتجاوز سطوره سطور مقالة من مقالاتنا او املاءة من اماليناا ومحاضرة اومسامرة من محاضراتنا ومسامراتنا اليوم ٠

فالمصيبة الاولى بل العظمى التي اصابت الكتب في الشام كانت على عهد الصليبيين والمصيبة الثانية ماحمله منها التتار في نوبة هولاكو وما احرق في مدارس دمشق وجوامعها من امهاتها فقد ذكر المؤرخون انه امتلأت خزانة الكتب بمراغة بما نهبه هذا الطاغية من الشام والعراق وغيرهما ٠ وقدر ما حمله بأربعمائة الف مجلد ومنها ما احرق في فتنة غازان سنة ٦٩٩ وفي وقعة التيمورلنك سنة ٨٠٣ فان النار ظلت تحرق دور دمشق ومدارسها وجوامعها في الفتنة التيمورية ثلاثة ايام فذهب في هذين الحريقين وغيرهما كتب المدرسة الضيائية والمدرسة العادلية وغيرهما من المدارس ٠

ومن الخزائن التي بلغنا خبر دمارها في الحروب الصليبية خزانة أسامة بن منقذ احد اصحاب قلعة شيزر فانها كانت اربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة ارسل بها بعد ان اخذ عهداً من الصليبيين من دمياط الى عكا في بطسة فنهبت ونهب معها ثلاثون الف دينار قال ان ذهابها حزازة في قلبه ما عاش ٠ ومن مصائب الكتب ما وقع من حريق في دار صاحب حماة سنة ٦٨٧ ذهب فيه من الكتب مالا يحصى ٠

ومنذ دخل الصليبيون بلاد الشام اخذوا على مايظهر يقتنون الكتب العربية ولكن على صورة ضعيفة لان العلم بها كان معدوماً عندهم ، يبتاعونها على انها عاديات قديمة غريبة الوضع والشكل ولما لمعت في القرن السادس عشر شعلة النهضة في ايطاليا اراد البابوات اقتناء الكتب العربية ٠ فندبوا لذلك بعض العارفين من رهبان الموارنة وحملوا الى رومية من اديار لبنان ما كان محفوظاً فيها من كتب الدين والعلم مما كان مكتوباً بالعربية والسريانية ٠ وحمل يوسف السمعاني من لبنان (١٧٦٨ م) كتباً في ثلاثة مراكب الى رومية ملأها بالمخطوطات العربية وغيرها فغرق منها مركبان ولا يقدر ما فيها باقل من عشرات الالوف من المجلدات ٠

ومن المصائب التي أصيبت بها الكتب ان بعض دول اوربا ومنها فرنسا وحكومات جرمانيا وبريطانيا العظمى وهولاندة وروسيا اخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين ، وكان القوم ولا سيما بعض من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع اليهم امر المدارس والجوامع بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل ان يفضلوا درهماً على انفس كتاب فخانوا

الامانة واستحلوا بيع ما تحت ايديهم او سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم. حدثني الثقة ان احد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشي منازل بعض ارباب العمائم في دمشق ، ويختلف الى متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع ، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة باثمان زهيدة وكان يبيعها على الأغلب ، واكثرها في غير علوم الفقه والحديث ، من قنصل بروسيا اذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها ابيض ، وبقي هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام فاجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها الى بلاده فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها ، والغالب ان معظم الكتب العربية المحفوظة في خزانة الامة في برلين هي من بلاد الشام . وفهرس هذه الخزانة من الكتب العربية فقط في عشرة مجلدات ضخمة ما عدا الملحق . وتكون فهارس الكتب العربية في خزائن الغرب اليوم خزانة برأسها . وان بعيداً يحسن القيام على هذا التراث الوافر لاحرى به من قريب يبدده جزافاً . وان امّا عرفتنا اكثر مما عرفنا انفسنا حتى قال احد علمائهم ان العرب وضعوا من المصنفات مالا يستطيع احدنا ان يقرأه طول عمره ، لجديرون بارث الشرق في مادياته ومعنوياته كما قلنا من فصل في مجلة المقتطف منذ اربع وعشرين سنة . نعم ان كتباً نتركها للأرضة تعيث فيها ، والعفن يعبث بجمال جسمها ورسمها ، وتحرم النور ويعفي اثرها الغبار والاوساخ . ويحرم النظر فيها على من يحسن الاستفادة منها ، او تُفَضّل عليها دريهمات معدودة حرية بان تكون في ملك من يستفيد منها ويفيد .

ومن الخزائن المشهورة التي بعثرت في عهدنا ولم نعرف متى جمعت خزانة قبة صحن الجامع الاموي بدمشق وكانت مملوءة برقوق نفيسة ففتحت سنة ١٣١٧ ﻫ بامر السلطان عبد الحميد الثاني إجابة لمقترح الامبراطور غليوم الثاني الالماني فعثروا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي ومنها قطع مهمة من مصاحف وربعات وقطع من الاشعار المقدسة بالارامية الفلسطينية وكتابات دينية وأدبيات دينية وقصص رهبانية ومزامير عربية مكتوبة بالحرف اليوناني ومقاطيع شعرية لاوميروس ، وكراريس واوراق بالقبطية والكرجية والارمنية في موضوعات دينية الا قليلاً ، وجذاذات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة وتقاويم أعياد

السامريين وصلوات وصكوك للبيع والاوقاف وعهود زواج وبينها مقاطيع لاتينية وافرنسية قديمة وقصائد شعرية يرتقي عهدها الى ايام الصليبيين ونسخ انجيل برقوق . فأهدى السلطان معظمها لعاهل المانيا ووزع قسم منهـا على بعض رجال الاستانة ورجال دمشق واستخلصت بعض قطع منها حفظت الآن في دار الآثار في هذه المدينة وأهمها تلك القطعة الكوفية المكتوبة على رق من ربعة شريفة وقفها عبد المنعم بن احمد سنة ٢٩٨ وعلى الوجه الثاني نقش مذهب باسم واقفها . ورأى شيخنا الامام طاهر الجزائري في تلك القبة جزءاً مكتوباً عليه انه حبس على مشهد زين العابدين صلوات الله عليه وعلى ابنائه الأئمة سنة نيف وسبعين واربعمائة .

وكانت في دير صيدنايا من جبل قلمون خزانة كتب حافلة بالمخطوطات النادرة ولا سيما السريانية فحاذر وكلاء الدير من كثرتهـا (المشرق ٢ ص ٥٨٨) ان تكون حجة بيد السريان يتقوون بها على اثبات حقوقهم في الدير فأجمع رأيهم على اخراجهـا واتلافها تخلصاً منها فجمعوها ومعظمها من النفائس المخطوطة على رق وبدأوا يحرقونها وقوداً للفرن خبزوا عليها خبزتين وكان هذا من نحو تسعين سنة . وهو عمل مثل الجهل المطبق والتعصب الممقوت . وكم وقع من حوادث افرادية من مثل هذه فضاعت فيها الكتب ولم تبلغنا تفاصيلها . ومما أعان على تشتت الكتب ان بعض من أولعوا في العهد العثماني بتسنم ذرى المناصب والقضاء ، وكان لهم مشاكل وقضايا يريدون حلها في المراجع العليا او لمجرد التقرب والتظرف كانوا يُعنون في مهاداة من يتوقعون الخير منهم بالكتب وبذلك رحلت الى الاستانة وغيرها أحمال من المخطوطات على هذا الوجه ايضاً . فعدت هذه الهدايا في جملة مصائب المكاتب .

* * *

خزائن اليوم واهم ما حوت من اهم الخزائن في ارض الشام اليوم خزانة مكتبة المسجد الاقصى في القدس وفيها نصف مصحف قديم بخط كوفي كتب عليه « كتبه محمد بن الحسن بن الحسين بن بنت رسول الله » واحدى ثلاث نسخ من مصحف مجزء ثلاثين جزءاً كتبها بيده احد ملوك المغرب ابن عبد الحق على رق وهي مجلدة على الطريقة المراكشية وموضوعة في صندوق مزخرف بالميناء على الطريقة الاندلسية .

ومصاحف كبيرة جداً وصغيرة كتبت في عهد المماليك وملوك بني عثمان . ومن كتبها « نشق الازهار » لابن اياس و« حوادث الجو» لمؤلف مجهول و« كتاب المعرفة والتاريخ » رواية ابن دَرَستويه عن ابن القطاف .

ومن خزائن القدس مكتبة القبر المقدس ودير الروم ومكتبة دير الدومنيكان ومكتبة الآباء البيض ومكتبة دير الفرنسيسكان ودير الارمن وخزانة الآثار الاميركية والآثار الانكليزية ومكتبة المجمع العلمي الأثري البرتستانتي والجامعة العبرية وفيها ١٣٠ الف مجلد والمكتبة الحنبلية ومكتبة الشيخ الخليلي ومكتبة البديري واهمها المكتبة الخالدية العمومية أنشأها في القدس الشيخ راغب الخالدي من اعيان تلك المدينة بمشورة استاذنا الشيخ طاهر الجزائري وتزيينه ومعاونته وقد بلغت نحو اربعة آلاف مجلد منها نحو ثلثيها من المخطوط وزادت زيادات كثيرة بما اضيف اليها من خزانة الأسرة الخالدية الكريمة . جعلت سنة ١٣٠٨ (١٩٠٠) على مقربة من المسجد الاقصى في مقبرة احد الامراء . ومن نوادرها « انموذج العلوم » للمولى شمس الدين محمد بن حمزة الفناري المتوفى سنة ٨٣٤ هـ ذكر فيه اصول مائة علم . « الطبقات السنية في تراجم الحنفية » عليه خط مؤلفه تقي الدين بن عبد القادر المصري التميمي الداري المتوفى سنة ١٠١٠ هـ . « الشعور بالعورة » للصلاح الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ في ذكر العلماء الذين أصيبوا بفقد احدى عينيهم . « منادح المادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر » وهو المعروف بالمدبجات لعبد المنعم الجلياني (٦١٣) . « مختصر حياة الحيوان » لجلال الدين السيوطي (٩١١) . «قهوة الانشاء لابن حجة الحموي» (٨٣٨) وهو مجموع رسائله . « اختصار السيرة النبوية » لمحيي الدين بن عربي (٦٣٨) . رواية ولده ابي سعيد وولده ابي بكر بن ابي المعالي محمد وابنته فاطمة عنه . « نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين » لمرعي الحنبلي (١٠٣٣) . « رونق الحفاظ بمعجم الألفاظ » للحافظ جمال الدين يوسف سبط شيخ الاسلام شهاب الدين احمد بن علي ابن حجر وعليه خط الحافظ زين الدين قاسم بن قطلوبغا (٨٧٩) وهو المجلد الثاني ويرجح انه بخط مؤلفه . « مثير الغرام بفضائل القدس والشام » لشهاب الدين سرور المقدسي (٧٦٥) وفي آخره حواش فيها اسماء بعض تواريخ القدس . « اتحاف الاخصا

في فضائل المسجد الاقصى » لكمال الدين محمد ابي شرف الشافعي المصري (٩٠٦) . «شاناق في السموم والترياق » لشاناق الهندي نقله من لغته الهندية الى الفارسية منكه الهندي نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه وهو في معرفة السموم والترياق وهي نسخة ملوكية . « الوسيط » للواحدي (٤٦٨) الجزء الثالث منه . « عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير » لابن سيدالناس اليعمري (٧٣٤). « ارجوزة محمد بن احمد الباعوني » (٨٧١) في التاريخ وقعت في نحو الف بيت من الهجرة الى الملك برسباي . « تعاليق شهاب الدين احمد بن الهائم » على الخصائص النبوية بخط المؤلف شهاب الدين احمد الشهير بابن الهائم (٨١٥) . «تقويم اصول الفقه وتحديد ادلة الشرع» للدبوسي (٤٣٠) . « مجموعة رسائل لابن كمال باشا » (٩٤٠) . « تأويل مشكل الاحاديث والرد على الملاحدة والمعطلة واهل الاهواء المبتدعة » من املاء ابي بكر محمد بن حسن بن فورك (٤٠٦) . « ايضاح الاشكال في من ابهم اسمه من النساء والرجال » اي رواة الحديث للحافظ محمد بن طاهر المقدسي (٥٠٧) وهو ينسب الى قيسارية بين حيفا ويافا على ساحل البحر . « كتاب الاربعين الابدال التساعيات » للبخاري ومسلم للحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي (٧١٧). «ارتياح الاكباد بارباح فقد الاولاد » للسخاوي . « كتاب قصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام» لاحمد بن محمد بن عمر القدسي الشهير بابن زوجة ابي عذيبة . « كتاب التبيان في اعراب القرآن » لابي البقاء العكبري (٦١٦) . « دمية القصر وعصرة اهل العصر» لابي الحسن علي الباخرزي (٤٦٧) ذيل يتيمة الدهر للثعالبي .

ومن الخزائن المهمة في غزة مكتبة المفتي وفي يافا المكتبة الاسلامية ومكتبة ابي نبوت وفي ارباض حيفا مكتبة دير كرمل وفيها صكوك قديمة لها علاقة بالدير . ومن المكاتب الخاصة في حيفا مكتبة الاستاذ عبدالله مخلص وفي عكا خزانة جامع الجزار وفي نابلس مكتبة آل الجوهري وخزانة آل صوفان وفي صفد خزانة آل النحوي وفي جبل عامل خزانة آل خانون وابراهيم يحيى والشيخ زين الدين وآل الصغير والشيخ احمد رضا .

واهم خزائن لبنان خزانة آل ارسلان في عبية وخزانة السيد جرجس صفا في دير القمر وخزانة دير الشرفة ودير السير ودير المخلص ودير البلمند وعين تراز ومكتبة

قزحيا و بزمار واللويزة ومار اشعيا ودير يوحنا مارون بكفرحي . وكان في بعض اديار اليسوعيين في لبنان مخطوطات نقلوها الى ديرهم في بيروت كما نقلت المخطوطات المهمة في القرون الماضية من اديار الموارنة في الجبل الى رومية العظمى .

ومن مكاتب بيروت المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين وفيها مخطوطات مهمة بالعربية وغيرها لا تقل عن مئة وعشرين الف مجلد باللغات المختلفة والعلوم المنوعة ومكتبة الجامعة الاميركية معظمها بالانكليزية وزادت كتبها العربية بمجموعة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف مؤخراً ومجموعة دار الكتب الكبرى في بيروت قليلة المخطوطات كثيرة المطبوعات وكان في بيروت مجموعة البارودي من المخطوطات فبيعت كما بيعت مجموعة الامير حيدر احمد الشهابي ومجموعة السيد جميل العظم ومجموعة الكتاني رشيد الدحداح في بيروت وغيرها من مجاميع الافراد التي بعثرت لقلة العناية بالعلم او لاسباب مادية قاهرة احياناً . ومن خزائن الساحل خزانة آل كرامة وآل الجسر وآل المغربي وآل السمين في طرابلس وخزانة آل الازهري في اللاذقية وخزانة الشيخ سليمان احمد في جبل العلويين وخزائن بعض المدارس في انطاكية . واشهر الخزائن العامة في حلب خزائن المدرسة الاحمدية والمدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية والمدرسة القرمانية وجامع الناصرية والمكتبة المارونية والارثوذكسية والكاثوليكية وخزائن آل الكواكبي والغزي والملاح والزرقا والكتخدا ومنش والانطاكي والعينتابي وقطراغاسي ومجموعة سباط بيعت مؤخراً . وفي المكتبة الاحمدية بحلب « المباحث المشرقية » للفخر الرازي . و « الوافي » للصفدي و « مختصر تاريخ الذهبي المسمى بالعيار » و « تاريخ الذهبي » في سبعة مجلدات و « در الحبب في تاريخ حلب » لابن خطيب الناصرية في مجلدين و « التفسير المهمل » للفيض الهندي و « مثير الغرام لزيارة القدس والشام » ومن مخطوطات المدرسة العثمانية المعروفة بالضيائية بحلب « عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ » للحلبي السمين و « المقدمة السنية للصفدي » و « الدر الثمين في اسماء البنات والبنين » و « الحدائق الانسية في الحقائق الاندلسية » . وكتاب « الناسخ والمنسوخ » للحازمي وفي خزانة المولوي خانه بحلب « اختلاف الفقهاء » للوزير ابن هبيرة المسمى بشرح معاني

الصحاح . وخزانة الجامع الكبير بحلب غنية بالكتب الفلكية وآلات علم الفلك وكان واقفها محمود الجزار وابوه من علماء هذا الفن . وفي المدرسة البهائية « عيون السير » لابن سيد الناس في السيرة النبوية وحاشية عليه في ثلاثة اجزاء لابراهيم بن محمد بن خليل سبط ابن العجمي الحلبي . وفي بعض المدارس الحلبية الاخرى كتب متفرقة لكنها غير ذات بال . وفي الكنيس الكبير في حلب توراة مخطوطة قديمة الخط جداً . وفي حماة خزانة نوري باشا الكيلاني في جامع الشيخ ابراهيم ومجاميع الكيلاني . وفي حمص مجاميع آل الاتاسي ومكتبة القديس اليان الحمصي ومكتبة الخوري عيسى اسعد وخزانة بني الجندي وكامل لوقا . وفي المعرة مجموعة آل الحراكي .

وكان في دمشق عدة خزائن بعثرت منها خزانة آل حمزة ، وخزانة الحضرة وآل الحسني وهما مما بعثر وابيع وخزانة آل الامير عبد القادر الحسني بعثر بعضها . وأهدت أسرته كثيراً منها للمجمع العلمي فجعلها في الخزانة الظاهرية . وحرقت خزانة العلامة الشيخ بدر الدين الحسني وخزانة الشمعة وآل مردم بك وخزانة آل القوتلي . وخزائن آل الحسيبي والعطار والحلبي والغزي وبايزيد والايوبي تشتت . وخزانة آل السقطي وزعت ، والى اليوم لا تزل محفوظة خزانة كل من آل الاسطواني وكان أحرق قسم منها في دار الفقيه الكبير سعيد افندي وذلك في حريق سوق الحميدية ، وحفظت خزائن كتب آل البيطار وآل القاسمي والبخاري وعابدين والمبارك وآل النابلسي وآل المنير وآل المرادي ودخل قسم مهم من هذه الى دار الكتب . وحملت خزانة الشيخ طاهر الجزائري وكان فيها الامهات المحررة الى مصر فاباعها من دار الكتب المصرية والخزانتين التيمورية والزكية . ومما حفظ من المجاميع مجموعة البطريركية الارثوذكسية ومجموعة كنيسة السريان وهما مجموعتان جديدتان جمعتا بعد فتنة سنة ١٨٦٠ التي ذهبت فيها مجاميع الكنائس والاديار في دمشق وبعض لبنان ولا سيما زحلة . وفي بعض البيوت القديمة في دمشق وحلب والقدس بل في معظم بلاد الشام القديمة مجاميع قليلة يحتفظون بها ورثوها من اجدادهم ومنهم من لا يرجعون اليها ولا عرفوا مضامينها ويتغالون بحفظها ويتنوقون في رصفها كأنها بعض الآنية اللطيفة والعروض التي يتنافس فيها ذو الهوى هواها . واهم الخزائن العامة

في الشام خزانة دار الكتب العامة التي يقال لها الظاهرية لا بكثرة اعداد كتبها بل بالنوادر المحفوظة فيها من الكتب والرسائل وربما كانت مجموعتها اندر مجموعة فيها بضعة آلاف كتاب ورسالة وفيها ما هو بخط مؤلفيه او مقروء عليهم ومنها القديم جداً بل فيها اقدم كتاب في الشام من القرن الثالث . أنشئت هذه الخزانة سنة ١٢٩٦ بمساعي استاذيَّ الشيخ طاهر الجزائري وسليم افندي البخاري ومعاونة غيرهما من العلماء اذ ذاك وكان للمرحومين مدحت باشا وحمدي باشا والي سورية يد في جمعها وانَّم رجل من عمال الدولة عطف على هذا المشروع وساعده مساعدة فعلية المرحوم بهاء بك مكتوبي ولاية سورية ومن علماء الترك وكتابهم . فجمع ما تفرَّق من الاسفار في الخزانة العامة التي ابقت عليها الايام وبعد ممانعات شديدة ممن يرومون كتم العلم وابقاء الناس في عماية جمعوا مقداراً من الكتب جعلوها في شطر من مدرسة الملك الظاهر بيبرس تحت القبة قبالة العادلية الكبرى ونصبوا عليها قواماً ووضعوا لها مثل شرائط المكاتب الكبرى فجاءت مكتبة مؤلفة من ٢٤٥٣ كتاباً منوعة عدا الدشت والكراريس والاوراق المتفرقة . أُخذت من عشر مكاتب وهي :

(١ً) مكتبة المدرسة العمرية بالصالحية وهي قديمة العهد وقفها بعض اهل الخير ولكن كان الناظر قد سرق جانباً عظيماً منها لا تزال عند ابنائه ومنها ما في الظاهرية الجزء الاول او الثاني والتتمة او الاول في دار السارق . (٢ً) مكتبة مدرسة عبدالله باشا العظم وقفها سنة ١٢١١ وضم اليها كتباً وقفها والده محمد باشا العظم سنة ١١٩٠ . (٣ً) مكتبة سليمان باشا العظم وقفها سنة ١١٩٦ كانت بمدرسته بباب البريد . (٤ً) مكتبة الملا عثمان الكردي كانت بمدرسة السليمانية ايضاً . (٥ً) مكتبة مدرسة الخياطين وقفها اسعد باشا العظم بعد سنة ١١٦٥ وكان مقرها بمدرسة والده اسمعيل باشا العظم . (٦ً) مكتبة المرادية بمدرسة الشيخ مراد المرادي النقشبندي . (٧ً) مدرسة السميساطية وهي قديمة وقفها بعض اهل الخير . (٨ً) مكتبة الياغوشية كانت موضوعة في مدرسة سياوش باشا بالشاغور . (٩ً) مكتبة الاوقاف وهي مؤلفة من عدة مكاتب حفظت بقاياها . (١٠ً) مكتبة بيت الخطابة كانت بحجرة الخطابة بالجامع الاموي . ومن كتب اخرى موقوفة .

وفي زمن رؤوف بك والي دمشق اوائل هذا القرن جمع لها بتبرع بين صديقيه الاستاذين الجزائري والبخاري المشار اليهما نحو خمسمائة ليرة وابتاع لها كمية من الكتب المطبوعة في ديار الغرب وغيرها وجاد بعض كتبها حتى اذا كانت سنة ١٩١٩م وتألف المجمع العلمي العربي على يد الضعيف كاتب هذه السطور و برئاسته بذلت العناية بابتياع او استهداء الكتب المخطوطة والمطبوعة وقليل منها بغير اللغة العربية فناهز عدد الكتب المخطوطة ثلاثة آلاف وسبعمائة كتاب عدا المجاميع وعدد المطبوعة الثلاثة عشر الفاً عدا الخزانة التي اعدها المجمع لاعماله في الفروع التي يبحث فيها وهي تربو على ثلاثة آلاف وحصلت الفائدة من تنوع الاسفار والمجلات والصحف حتى قدر معدل الداخلين للاستفادة منها كل يوم بمئة انسان ومازالت عناية المجمع بتكثير كتبها متوفرة ولا تمضي اعوام قليلة حتى تصبح مثل بعض الخزائن المهمة في ديار الغرب بحول الله وقوته . ومن الكتب المخطوطة المهمة التي حفظت في دار الكتب هذه « الكواكب الدراري » لابن عروة الحنبلي وهو في اكثر من مئة وعشرين مجلداً في فن التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والرد على الفلاسفة واسماء الرجال وعلوم شتى والموجود منه ٤٢ جزءاً . و « الغريب في الحديث » كثير منها اجوبة الامام احمد عن اسئلة ابي داود السجستاني كتب سنة مائتين وست وثمانين وهو اقدم كتاب عرف في الديار الشامية . و « البحر المحيط » في اصول الفقه للبدر الزركشي في خمس مجلدات والجزء الاول من « التذكرة » للعلامة اميرك من علماء المعتزلة في علم الكلام . والاول ايضاً من « الاشارات الالهية » لابي حيان التوحيدي في مخاطبة النفس . والاول من « سر الصناعة » لابن جني في اسرار العربية و « شعب الايمان » في التصوف والاخلاق لعبد الجليل الاندلسي . و « الرسالة الجامعة » من جمع اصحاب رسائل اخوان الصفا تقرأ عندهم بعد الرسائل المعروفة . و « الصحائف اليونانية في مخاطبة النفس الانسانية » و « الضوء اللامع » للسخاوي في تراجم اهل القرن التاسع في خمس مجلدات كبيرة . والثاني من « مناقب الخلفاء الاربعة » لابي بكر ابن الطيب الباقلاني . و « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر الاندلسي . والثالث من « الجليس والانيس » لابي الفرج المعافا بن زكريا . وكتاب « الاحكام السلطانية » للقاضي ابي يعلى . و « تفضيل السلف على

الخلف » لابراهيم بن هبة الله و « ديوان خالد الكاتب » (المتوفى في حدود السبعين والمائتين) · و « الطب الروحاني » لابن الجوزي في علم الأخلاق · و « الإطراف فيما يتعلق » بالمحدثين سبع مجلدات للحافظ جمال الدين المزي · و « كتاب الاموال » لابي عبيد بن سلام الازدي · و « تاريخ دمشق » لابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١) في عشرين مجلداً · والجزء الخامس من « الفتاوى المصرية » لشيخ الاسلام ابن تيمية وهي في علوم شتى · و « اخبار الاذكياء » ليوسف بن عبد الهادي (المتوفى ٩٠٩) بخط مؤلفه · و « فهرس الكتب الموقوفة » بخط يوسف بن عبد الهادي بعضها من تصنيفه وبخط يده · « المناقب والمثالب » تأليف هبة الله بن عبدالواحد الخوارزمي · « مساوئ الاخلاق ومذمومها ومكروه طرائقها » لابي بكر محمد بن جعفر الخرائطي في خمسة اجزاء · « شذرات الذهب في اخبار من ذهب » لابن العماد الدمشقي المتوفى سنة ١٠٨٩ · « الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة » لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ بخط ابراهيم البقاعي · « عقد الجمان في مختصر اخبار الزمان » المنسوب للمسعودي المتوفى (٣٤٣) وهو للشاطبي المتوفى (٨٧٢) · (ارشاد السالك الى مناقب الامام مالك) ليوسف بن عبد الهادى بخط المؤلف · (طبقات النحاة واللغويين) لابن قاضي شهبة الاسدي ويليه (مختصر النحاة للزبيدي) · (المدهش) لابي الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ · (اللطف واللطائف) لأبي الفرج بن الجوزي فيما قيل كتب سنة ١٢٨٨ هـ · (ادب السلوك) لابي الفضل عبد المنعم بن عمر ابن عبد الله الاندلسي المتوفى (٦٠٣) مشتمل على مشارع كلمات الحكمة والأدب والأخلاق · (قاموس الاطباء وناموس الالباء) لمدين بن عبد الرحمن القوصوني المصري من اطباء القرن الحادي عشر للهجرة في المفردات الطبية · (ما لا يسع الطبيب جهله) ليوسف بن اسمعيل المعروف بابن الكبير من اهل القرن الثامن · (منهاج البيان فيما يستعمله الانسان) لابي العباس يحيى بن عيسى الكاتب الملقب بالرئيس الأجل المتوفى (٤٩٣) وهو في جزئين دخلا في مجلد واحد · (خلاصة تحقيق الظنون في الشرح والمتون) تأليف كمال الدين محمد بن مصطفى الصديقي وهو ذيل لكشف الظنون أتمه (١١٨٠) · (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) لنور الدين

ابي الحسن علي بن ابي بكر الهيثمي المتوفى (٨٠٧) جمع فيه مؤلفه زوائد الكتب الستة من مسند احمد بن حنبل والبزار وابي يعلى والموصلي والمعاجم الثلاثة للطبراني نسخة في مجلد كبير . (المجمل في اللغة) لابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا المتوفى (٣٩٠) اقتصر فيه مؤلفه على الالفاظ المهمة المستعملة اخذا كثرها بالسماع عمن تقدمه واختصر الشواهد ورتبه على الابجدية منه جزء يبتدئ من حرف العين الى آخر الكتاب بخط ابي بكر محمد بن محمد بن خلف في سنة ٥٨٩ . (جنى الداني في حروف المعاني) لبدر الدين حسن بن قاسم المرادي المتوفى (٧٤٩) وهو كما في كشف الظنون مأخذ المغني لابن هشام . (شرح الايضاح) لابي علي حسن بن احمد الفارسي المتوفى (٣٧٧) والشرح لعبد القادر الجرجاني المتوفى (٤٧١) شرحه اولاً شرحاً مبسوطاً في نحو ثلاثين مجلداً وسماه المغني ثم لخصه في مجلد واحد وسماه المقتصد وهو في مجلد ضخم (٩٠٤ صفحات) بخط نفيس من القرن العاشر . (مجمع الآداب في معجم الاسماء والالقاب) لكمال الدين عبد الرزاق الفوطي المتوفى (٧٢٣) منه الجزء الرابع يبتدئ من حرف العين الى القاف بخط مؤلفه وهو في أسلوب عجيب . (الكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة) للنجم الغزي المتوفى (١٠٦١) وذيله المسمى (لطف السمر وقطف الثمر) من تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر . (طبقات الحنابلة) لابن رجب (٧٩٥) . (نشر المحاسن اليمانية في خصائص ونسب القحطانية) لاحد أفاضل وصاب بلاد اليمن . (اجزاء من عيون التواريخ) للصلاح الكتبي سنة ٧٦٤ .

وفي خزانة المجمع العلمي الخاصة عدة مخطوطات نادرة أُخذت بالتصوير الشمسي منها نسخة من (الدارس) للنعيمي (ابي المفاخر محيي الدين) المتوفى (٩٢٧) منقولة عن نسخة لابن المؤلف محفوظة في خزانة مونيخ . و (تراجم الاعيان) للبوريني (١٠٢٤) . (الذيل على الروضتين) لابن ابي شامة (٦٦٥) . (حكماء الاسلام) للبيهقي المتوفى في حدود سنة ٥٧٠ . (رحلة الامير يشبك) بن مهدي الدوادار (٨٨٥) . (كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن ابي العلاء المعري) لكمال الدين ابن العديم الحلبي المتوفى سنة ٦٦٠ ناقص من آخره . (مجموع فيه نقش خواتم الحكماء

وآدابهم ، واجتماعات الفلاسفة في بيوت الحكمة وغير ذلك . (التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار) فيما يجب من حسن التدبير والنصيحة في التصرف والاختبار لمحمد ابن محمد بن خليل الاسدي صاحب كتاب لوامع الانوار ومطالع الاسرار فرغ من تصنيف كتابه سنة ٨٥٤ . (المثالث والمثاني في المعالي والمعاني) لصفي الدين الحلي (٥٧٠) ومعه مجموعة اخرى للشاعر نفسه . (نظم درة الغواص) للسراج الوراق بخط محمد بن الصالحي الهلالي كتبها سنة ٩٨٠ وهو المتوفى سنة ١٠٠٤ . (تحفة ذوي الالباب) للصفدي سنة ٧٦٤ . وفي المجاميع عشرات من الرسائل النادرة الجديرة بالنشر .

هذا ما امكن استيعابه من الكلام على خزائن الكتب المخطوطة في هذا القطر عرفنا بها في الجملة كيف نمت وجمعت و كيف مزقت وتشتتت . و كان القوم يعتقدون ان اقتناء الكتب يورث الغني وبيعها يورث الفقر ، ولذلك احتفظت بعض البيوت بكتبها وربما زادت عليها . وشوهد اثر هذه العناية في البيوتات القديمة فان المخطوطات على كثرة ما اصابها من التفريق ما برحت محفوظة في المدن بل في القرى في بيوت افراد من الشعب قد لا يخطر في البال انها تُعنى بمثل هذه الكنوز . ومنهم من يتبرك بها ، ويفاخر باقتنائها ، ومنهم من يرتقب الزمن ليبيعها بالاثمان الغالية . وقد ابتاعت مصر في العهد الاخير كميات عظيمة منها ، لغنى مصر وشيوع العلم في بنيها ، وتفانيهم في احراز آثار السلف كما كانت مألوفة معروفة في ايامهم . وقد يبتاعون السفر المخطوط بثمن فاحش وربما كان مما مثل بالطبع مرات ، لان للمخطوط روعة غير روعة المطبوع ، وقيمة تاريخية يدركها حق الادراك من يعاني هذه الصناعة ويقدر العاديات قدرها .

ومن الاسف ان صناعة النسخ ماتت من بلادنا وضعف بذلك التنافس في الخطوط الجيدة المنسوبة وغيرها كما قضت الآلة الكاتبة في الغرب على الخط ايضاً . ومن المؤلفين والكتاب اليوم من يملون على كُتّابهم على تلك الآلة مباشرة او يكتبون هم بانفسهم عليها دون ان يتعبوا اناملهم بتنميق السطور ووضع الصفحات مما يفيد في الاسراع بالاعمال ، ويقضي على الفن والجمال . ولولا الحرص المغروس في الفطر مابقيت هذه البقايا التي نفاخر بها من عمل الاجداد ، وهي في نظر العقلاء اغلى من التبر والعسجد ، ولا سيما بعد ان سطت عليها كل يد اثيمة وابيع من كتب الجوامع والمدارس بالالوف

فسافرت عنا تنزل على الرحب والسعة على من يعرف قيمتها و يحسن تعهدها · والكتب كما قال احد المولعين بها كالطيور لا تطلب الا الهواء الطلق السالم من الشوائب · ولطالما انتقلت من يد الى يد ومن جيل الى جيل كما تتنقل الاعلاق النفيسة او كما تتداول النقود والحُلِيّ ولكن بتجلة وحرمة ·

هذا وخير طريقة تحفظ بها ثمالة تركة السلف الصالح اليوم ان يعمد كل من حوت رفوفهم وقماطرهم كتباً الى كتبهم المخطوطة فيودعوها في الخزائن العامة لانها اقل عُرضة للحريق والتلف ولكارث ووارث ، وان يستعاض عنها بالكتب المطبوعة في الخزائن الخاصة ، وتجعل المخطوطات ملك الجماعات يرجع اليها العلماء والباحثون ، وتسهل عليهم فتكون منهم على طرف الثمام ، وبذلك يزيد النفع منها و يحيا بالطبع والنشر ما لم تساعده الحال ان يعرف حتى الآن ، وبذلك تجتمع فائدتان فائدة الانتفاع وفائدة الحفظ ، كما فعل المصريون وحفظوا بقايا كتبهم في داري الكتب المصرية والازهر والخزانتين التيمورية والزكية في القاهرة وخزانة المجلس البلدي في الاسكندرية والجامع الاحمدي في طنطا· والله يرث الارض ومن عليها ·

الاديان والمذاهب

أديان القدماء — اهتدى الفينيقيون بفطرتهم الى الاعتقاد بالتوحيد على ما يظهر . ودعوا معبودهم البعل اي الرب والسيد . وقد يسمونه ادون ومعناه السيد ايضاً . ولقبوه بملوك او ملوخ اي الملك او ببعل شمائيم اي رب السماء ، ثم اخذوا يصورون الرب ويجسمونه على الصورة التي يختارونها ، خصوصاً لما مصروا الأمصار وجابوا الأقطار ، فأصبحت كل مدينة تخص الرب بها ، فكان اهل صور يطلقون على معبودهم بعل صور ، واهل صيدا يقولون عن معبودهم رب صيدون ، واهل بيروت يعرف ربهم ببعل بيروت وهكذا يقولون بعل حرمون وبعل جاد وبعل تامار .

وتفننوا بعد في أربابهم فأخذوا ينسبونها الى النار وعبادة الطبيعة وأنشأوا يؤلهون قوات الوجود ومظاهره الرائعة والأفلاك والنجوم . وكما جعل الفينيقيون لاربابهم انداداً اخترعوا لهم ازواجاً سموها عشتروت وقد عُبدت في سواحل الشام خاصة . ثم اخذت بعض المدن بالطبع تطلب لمعبوداتها زوجات وتنشيءُ لها معابد . وكان معبد بعلة جبيل يحج اليه الناس من انحاء القطر كما يحتفلون في الربيع بقتيل الرب ادونيس او نهر ابراهيم . وكان من كهنة الفينيقيين ان أقاموا في اوقات مخصوصة من السنة حفلات دينية تجري فيها امور غريبة من الرقص والفحش ومن تضحية البنات والاسرى على مذابح الهيا كل التي كانت أشبه بمواخير يأوي اليها الفاحشات فيختلف اليهن من يريد الفحش باسم الدين .

ويقال على الجملة ان الفينيقيين عبدوا في كل بلد مجموعة من الارباب فأهل صور عبدوا عشتروت وملكرت وبعلا واهل صيدا اشمون وعشتروت وبعلا واهل بيروت عشتروت وعطارد وبعل مرقد . وتجيء بعد هذه الطبقة من الارباب طبقة أخرى منها كالرب ابيس والرب سلمان . ومجموع الأرباب الكبرى عند الفينيقيين كمجموعة ما عبده الرومان بعد قرون في بعلبك من عطارد والمشتري وغيرهما .

وكانت ديانة الاراميين كديانة الاشوريين والبابليين يعبدون الرب العظيم ورب الفكر ورب السماء والرب الاسد . ويجسمون رب الارباب عندهم ، على صورة انسان في نصفه الاعلى ، ونصفه الأسفل على صورة سمكة . وذكروا ان شيما كانت ربة اهل حماة . وعبد الاراميون النيازك والشمس والقمر والسيارات السبع والهواء والرياح والنيران وعبدوا اترعطي الربة السورية ودعوها در كيتو نصفها انسان ونصفها السفلي سمكة . وكان عابدوها اكرامًا لها يمتنعون عن تناول السمك ويتوفرون على فتح أحواض يربون الاسماك فيها . ومن معبودات الاراميين هدد وسيميوس زوج الربة شيما واترعطي زوج الرب هدد .

وكان الحثيون على مثال من تقدمهم من الأمم عباد اوثان ايضًا ، فقد عبدوا الرب تيشوبو وهو مثل هدد الاراميين وبعل الكنعانيين . وروي انهم عبدوا الشمس واخذوا عن الكنعانيين عبادة عشتروت وغيرها من الارباب وألهوا مظاهر الطبيعة فعبدوا جمالها وجلالها .

وعبد الكلدان والاشوريون اولاً رب السماء ورب الارباب وربالارض ورب البحر ، وجعلوا لكل رب من هذه الارباب ربة تكون قرينته . وبعد حين عبدوا القمر والشمس والزهرة . والزهرة هذه ينظرون اليها انها قد تجسدت فيها الحياة والحرب ففيها اللطف والهمجية ، وقد بنوا لها في مدينة أرك هيكلاً للفحش حتى دعيت هذه المدينة بمدينة العاهرات . وعبد البابليون على عهد حمورابي مردوك رب الاكوان وعبدوا رب الحكمة والعلوم والحرب والصيد والزراعة والموت والزوابع والانواء والاوبئة . واقتبس الاشوريون عامة معبودات البابليين وزادوا عليها ربهم اشور رب الارباب عندهم ، ينزهونه عن الوالد والولد والزوج ، ويعتقدون بحشر الاجساد

او ما يشبه ذلك في يوم الجزاء · و يرمزون الى ار بابهم بحيوانات ودواب كرمزهم بالافاعي والطير والسمك والغزلان والبقر والخرفان ·

اما قدماء المصريين فقد اهتدوا الي عبادة رب الار باب وتمثلوه في الشمس الحاكمة على الاكوان · وقدسوا معبودهم على صور شتى ثم أصبح لكل مدينة ربها يعتقدون بانه واحد احد يظهر في مظاهر مختلفة من مظاهر الطبيعة من نبات وحيوان وجماد وكواكب وانهار ولا سيما النيل ، وأقاموا لكل واحد من اربابهم الهياكل يخدمها الكهنة والسدنة · ومن أهم معبوداتهم اوزيريس وايزيس وهوروس اي الوالد والوالدة والولد · واعتقد المصريون بالآخرة والجزاء في العالم الثاني وحشر الاجساد ، ولذلك عُنوا بتحنيط موتاهم على عالم يصل اليه احد قبلهم ، علّ الميت يأنس بصورته ·

وعبد الفرس قوى الطبيعة التي وقعت تحت حسهم من شمس وقمر ونار وماء وهواء ، ثم عبدوا ميترا التي هي الزهرة ، ثم كان من مجوسهم على عهد زردشت واخلافه ان عبدوا رب الخير والشر ، واسم رب الخير يزدان او رب النور وهو الرب الاعظم مبدع الكائنات ، واسم رب الشر اهرمن وهو رب الظلمة واصل كل بلاء · قال ماني : مبدأ العالم كونان احدهما نور والآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل من الآخر ، فالنور هو العظيم الاول ليس بالعدد وهو الاله ملك جنان النور وله خمسة اعضاء الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة ، وخمسة أُخر روحانية وهي الحب والايمان والوفاء والمروءة والحكمة ، وزعم انه بصفاته هذه أزلي ومعه شيئان اثنان أزليان احدهما الجو والآخر الارض ، واعضاء الجو خمسة الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة واعضاء الارض النسيم والريح والنور والماء والنار ، والكون الآخر وهو الظلمة واعضاؤها خمسة الضباب والحريق والسموم والسم والظلمة ، ومن تلك الظلمة كان الشيطان · قال ابن ساعد : والصابئة هم القائلون بالاصنام الارضية للارباب السماوية اي الكواكب متوسطون الى رب الارباب ، و ينكرون الرسالة في الصور البشرية عن الله تعالى ولا ينكرونها عن الكواكب ·

هذا وقد دان اليونان كما دان كثير من الامم القديمة قبلهم بتأليه الجمال على اختلاف مظاهره ، عبدوا الجمادات لاول امرهم ثم ترقوا الى غيرها من تأليه الاشجار

والوجوم والاحجار ، وانشأوا يكرمون الافعى في هيا كلهم كما يكرمون بعض حيوانات البحر وطيور البر . وكانوا يبالغون في اكرام الموتى من عظمائهم حتى الحقوهم بار بابهم ، ونسبوا اليهم كل صفات البشر وابشع رذائلهم . ويقدمون في المذابح ذبائح من الطيور والحيوانات والبشر مما كان عند الفينيقيين . وهكذا كثرت ار بابهم الى التي ليس بعدها فلما فتحوا بلاداً اخرى اضافوا الى ار بابهم بعض الار باب التي وجدوها تعبد في البلاد المغلوبة على امرها ، وكثرت خرافاتهم حتى كان يستهدف للموت كل من يريدهم من عقلائهم على ان يقلعوا عن تخريفهم . هذا غاية مايشار اليه من اديان قدماء الدول التي طال امرها في هذه الديار .

ومن اجيال العرب التي حكمت اجزاء مهمة من هذه الديار قبل الاسلام النبطيون في الجنوب والايطوريون في بعض الساحل وقد عبد النبطيون اللات والعزّي ، وكانت البتراء مركز عباداتهم قبل العهد اليوناني بستة قرون على الاقل . وعبد الايطوريون الكواكب والشمس والزهرة وذا الشرى ، وربما تشابهت معبوداتهم ومعبودات النبطيين . وكان لهم في بعلبك مذبح كانوا يقولون انه بيت من بيوتهم عظيم عندهم جداً . وصنم الأُقيصر الذي كان في مشارف الشام كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان كانوا يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده فكان كلما حلق رجل منهم رأْسه القى مع كل شعرة قرة من دقيق اي قبضة . وعرف من الآثار ان اهل صرخد كانوا يعبدون اللات على ما اكتشف على باب كنيستها . ومعظم هذه الاصنام كان مما ينحت من الاحجار ومنها ما كان من الشبه (البرونز) وقد نقلوا هذه الاصنام الى الغرب خصوصاً منذ اوائل القرن الثالث قبل المسيح لماقبض على زمام الامبراطورية الرومانية امبراطرة من الشاميين ، وقد عثروا على بعضها في فرنسا والنمسا وايطاليا . وكان ياهو المشهور في تاريخ الاسرائيليين حفيد يهوشافاط الذي قتل جميع انبياء بعل وعبدته يعبد العجول في بيت ايل . وبيت ايل الى شرقي خط يمتد من اورشليم الى نابلس على بعد واحد من كلتا المدينتين وكانت قديماً عاصمة الكنعانيين .

وقد عبد الرومان قوى الطبيعة من الافلاك والشمس والارض والنبات والحيوان واكرموا الينابيع والاشجار العظيمة والحجارة ، ثم عبدوا المشتري واظهروه في مظاهر

عديدة وكانوا يقولون رب البرق ورب الرعد ورب النور · وجعلوا للمشتري ربة اسمها جونون وعبدوا المريخ رب الحرب يقدمون له ضحايا من الخنازير والبقر والغنم بل يقدمون له الذبائح البشرية يختارونهم من اسرى الحرب على الاكثر · ولهم ارباب اخرى كرب البيت وحارسه ورب نار البيت وجعلوا لها هيا كل اقاموا على حراستها بنات عذارى يتعهدن نارها حتى اذا غفلن عنها فأُطفئت وأُدوهن على ما كان اهل الجاهلية يئدون بناتهم خشية العار · ولما اختلط الرومان بالامم الاخرى اقتبسوا منها ما راقهم من اربابهم ومنها عشترت المعبود الشامي ·

قال كلرمون غانو : لم تكد تظهر الوثنية اليونانية الرومانية حتى اصبح الناس يحبونها في جميع اصقاع الشام ويقبلونها راضين · وذلك لانها قائمة على اساس التسامح القابل للظهور في كل مظهر وصورة · تلتئم بمرونة عجيبة مع اشكال الديانات التي تدين بها الشعوب الاخرى · وذلك بان تمزج هذه الديانات بنفسها او تمزج نفسها بها · ولم تُدخل في ذاك المحيط الخاضع المدهوش الا اصلاحاً واحداً وهو معرفة الاشياء الحسنة ، ولم تقض الا بقضاء واحد وهو الابتعاد عن البشاعة ، ولم تضع الا نظاماً واحداً وهو نظام السرور ، ولا تعليماً واحداً غير تعليم الذوق ، ولم توح بغير الجمال · وكانت ترفق بالاديان التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها ولا تشتد الا على الاديان التي تحاول مقاومتها · فالعبادات القديمة التي عرفت عند الكنعانيين استقت من هذا النبع الصافي البارد مأخوذة بشيء من الجنون اه ·

لما جاء كسرى الى حلب وعمر بيتاً للنار كان في الشام اربعة اديان امهات ، وهي : اليهودية والنصرانية وعبادة الاوثان والنيران · وجاء الاسلام والناس في الشام يدينون بهذه الاديان · وكانت النصرانية قبل الاسلام على رواية اليعقوبي في ربيعة وغسان وبعض قضاعة ، واليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة ، والمجوسية في تميم ، والزندقة في قريش اخذوها من الحيرة · وكان بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية الهاً من حَيْس ، والحيس تمر يخلط بالسمن والأَقط فيعجن ، فعبدوه دهراً طويلاً ثم اصابتهم مجاعة فاكلوه · ولما مرض عمرو بن لُحَي وكان يلي امر الكعبة في الجاهلية قيل له ان بالبلقاء من الشام حَمَّة ان أَتيتها برأت فأتاها فاستحم بها

فبرأ ووجد اهلها يعبدون الاصنام فقال ما هذه فقالوا نستسقي بها ونستنصر بها على العدو ، فسألهم ان يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة ٠

***

اليهودية (١) يرجع البشر على اختلاف مذاهبهم واديانهم الى جد واحد وهو آدم والى ابناء سيدنا نوح الذين تناسلوا وتكاثروا وانتشروا على سطح الارض ٠ ومعلوم انّ عرب الجاهلية واليهود هم ابناء سام ولذلك سموا بالشاميين واستوطنوا في الاصل البلاد الكنعانية المعروفة اليوم بفلسطين ومشوا منها الى حدود مصر جنوباً والى العراق ثم الى منتصف آسيا شرقًا ٠ والحاميون ابناء حام سكنوا بلاد مصر والحبشة وانتشر القسم الثالث اي ابناء يافث فهم في القارة الاوربية والبلاد التركية ٠

ولما ظهر الابُ الاولُ سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، من بلدته الرُّها (اورفة) من بلاد الكلدان اذ ذاك جاء منقاداً بمشيئة الله الى البلاد الكنعانية واقام في بلدة حبرون اي خليل الرحمن رمزاً لمودَّة الخالق له ٠ وهنا نغضي عن سرد ما اوتي من المعجزات لخروجها عن صددنا ونغفُل ايضًا عن ذكر من جاء بعده من الآباء والانبياء الكرام وما اوتوا هم ايضـًا من المعجزات ٠ والكتب المقدسة والقرآن الكريم حافلة بكل ما يراد معرفته بهذا الشأن ٠ بيد انه لا نرى بدًّا من الاشارة فقط الى ان سيدنا اسماعيل ابن الخليل الاكبر قد نزح وامه هاجر من البلاد الكنعانية الى شبه

---

(١) رجونا بعض المحققين العارفين بهذه المذاهب ان يكتب كل واحد عن دينه فكتب على اليهودية الدكتور سليمان تاجر وعلى الارثوذكسية الارشمندريت توما ديبو المعلوف وعلى الكثلكة الاب لويس شيخو اليسوعي وعلى المارونية الخوري بطرس غالب وعلى البرتستانتية القس اسعد منصور وعلى اهل المسلمين السنيين أستاذنا الشيخ سليم البخاري وعلى المسلمين الشيعة الاستاذ الشيخ احمد رضا ووصفنا نحن مذاهب الباطنية كالنصيرية والاسماعيلية والدروز والبابية ووصف الفاضل السيد محمد عزة دروزة نحلة السامرة ٠

جزيرة العرب وبقي اخوه اسحق في تلك الاصقاع الموصوفة بارض الميعاد ، اشارةً الى العهد الذي اعطاه الخالق سبحانه وتعالى خليله ابراهيم القائل باعطاء البلاد الكنعانية على رحبها الى نسله . وقد سميت بالبلاد المقدسة ايضاً عندما بدأ اليهود يحجون الى الهيكل المقدس الذي بناه سليمان الحكيم . وقد كان بناء هذا الهيكل مدعاة لتمسك اليهود بهذه البلاد ولعدم النزوح عنها الاَّ لتعاطي التجارة لمن كان مكرهاً بحكم الضرورة على الاقامة موقتاً في البلاد المجاورة . وقد وُجِدت في الدهر الغابر آثار تاريخية كثيرة تدل على نزول اليهود حوران ودمشق وبلاد الفينيقيين الواقعة على شاطيء البحر المالح (المتوسط) .

ومما لا ريب فيه ان اليهود قد اقاموا عصوراً عديدةً في البلاد التي دوختها جيوش النبي داود واعني بها سوريا وشمال ما بين النهرين . ولماَّ اعمل بنوخذ نصَّر ملك بابل (٦٠٠ ق م) سيفه باليهود هاجر قسم منهم الى بلاد فارس وآسيا الوسطى وآب قسم آخر الى دمشق . وعادت البقية وعلى رأسها نحميا ودانيال وجددوا بناء الهيكل المقدس الذي لم يلبث ان جاء تيطوس الروماني (٧٠ ب م) وهدمه . وقد اعمل هو ايضاً السيف برقابهم واضطرهم الى النزوح الى الامصار البعيدة كبلاد اليونان والاندلس وشمال افريقية . وقد رُوِيَ عن بولس الرسول انه حاول اقناع اليهود القاطنين في الشام لاتباع السيد المسيح والتدين بدين النصرانية ، وهذا مما يدل على وجودهم في تلك الأزمنة في هذه البلاد .

ثم ان قائدي عساكر سيدنا عمر عندما فتحا الشام انتقيا نفراً غير قليل من اليهود والمسلمين الدمشقيين ارباب الصناعات والفنون الجميلة وجيَ بهم بعدُ الى بلاد بخارى فتوفروا على البناء المماثل تمام المماثلة للنسق الدمشقي من حيث طرز البناء ورسومه واشكاله وادواته حتى يخيل لمن يزور تلك الاصقاع انه في سوق او دار من اسواق الشام ودورها . هذا ولم تزل حارة اليهود في بخارى حارة واحدة تضمهم واخوانهم العرب مما يدل على انهم لم يفترقوا منذ اتوا تلك البلاد . وهذا ايضاً يؤيد وجود اليهود في ذاك الزمن . ثم ان نزول اليهود في دمشق منذ امد بعيد مشهود ومحسوس من كنيس قرية جوبر التي تبعد بضع دقائق عن شرقي دمشق وقد جاء ذكره في التلمود الموضوع منذ اكثر

من الفي سنة وذلك بقوله بالحرف الواحد : « كنشتادبه جوبر » ومعناه كنيسة جوبر القائمة الى يومنا هذا والتي كانت مقراً للنبيين ايليا (الخضر) وتلميذه اليشاع (اليسع) وفي بعض دور الكتب العبرية في دمشق الى اليوم آثار مخطوطة يرجع عهدهـا الى القرن الحادي عشر للميلاد . وصفوة القول ان اليهود لم ينقطعوا عن الشام لاسيما عند فتح المسلمين لها اذ ثبتت اقدامهم فيها وتوفرت لهم اسباب الهناء والرخاء .

ولم تؤثر التطورات والفتوحات التي وقعت في هذه البلاد في اعتقاد اليهود الديني ولا غيرت شكلاً من مراسمهم بل كانت بالعكس سبباً قوياً لتضافرهم وتحفزهم لدرء كل ما من شأنه ان يفسد لهم معاملاتهم وعاداتهم . وما زالوا منذ الخلقة كسائر اليهود يعبـدون الله عزَّ وجلّ ويوحّدونه ويَعْرِفونه يَهوَه كما تسمى الى آدم والى الآباء والانبياء بقوله لهم باللفظ العبري : « اَني يَ هَوَه » اي انا يَهوَه .

وقد فصل المجتهدون من علماء اليهود اسمه المقدس تفصيلاً وافياً خلاصته باللغة العبرانية : « هيا ، هيو ، يهيه » ومعناه كان (في الماضي) وكائن (في الحال) وسيكون (في المستقبل) اي انه تعالى حيٌّ قيومٌ دائمٌ الى الابد . وكان يرفق احياناً اسمه الكريم في التوراة كلمة « إلوهيم او شَدَّايْ » ومعناهما الجبروت والشدة . و يحترم اليهود ايضاً الانبياء الذين اوحي اليهم في زمن ملوكهم وعددهم — ٤٨ — .

ويتألف اليهود كل الألفة مع مواطنيهم مهما اختلفت اميالهم ونزعاتهم . فهم كالفرنسيس في فرنسا وكالروس في روسيا وكالانكليز في بريطانيا الخ وهنـا ايضاً لايختلفون عن الشاميين من حيث الاخلاق والزي . ولأسمائهم دخل قوي في الألفة مع مسلمي الشام . فهم يتسمون بأسماء لا يسمى بها غيرهم من اليهود كصبحي وصبري وعارف ومراد ويحيي وعبده و بهية وعائشة وجميلة والى ما هنالك من الاسماء العربية المحضة ، ومما يزيد ائتلافهم مع المسلمين انهم مضطرون بحكم الدين الموسوي ان يراعوا مثلهم احكام الختان والغسل والطهارة .

ولغة اليهود «العبرية» اينما حلّوا ورحلوا يتعرف بها بعضهم الى بعض و بها يؤدون فروض صلواتهم اليومية وشعائرهم الدينية . ولغتهم هذه هي شقيقة اللغة العربيـة .

فان الصرفيين العرب لا يتعذر عليهم معرفة دقائق الصرف العبراني وكذلك العبرانيون لا يصعب عليهم تعلم اللغة العربية والتعمق في دقائقها . وهي كما قلنا لغة سامية يبدأ تحريرها كالعربية من اليمين الى الشمال واغلب كلماتها هي كشقيقتها لفظاً ومعنى . وعدد حروفها ٢٢ حرفاً وهي : ا ب ج د ه و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت اي ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت .

وقد كان للغة العبرانية الفضل الاكبر في حفظ حياة اليهود الى هذا الزمن فهي التي جمعت شملهم في البلدان المختلفة وهي التي ذبت عن حياضهم وحافظت على كيانهم . وقد حث العلماء المعاصرون على رفعها الى مصاف اللغات الحية مما حدا بهم الى تأسيس الجامعة العبرية في القدس الشريف في ١ نيسان سنة ١٩٢٥ وبدؤا بترجمة الآثار النفيسة والكتب المفيدة اليها . ولا يمضي زمن الا و يكون لهذه اللغة على ما ارى شأن عظيم ومركز سام . ورب قائل يقول انه قد يحول دون توسع علماء اليهود في الترجمة والانشاء فقدان الكلمات الفنية الحديثة من اللغة العبرانية فالجواب ان التلمود اتى على ذكر بعض المخترعات التي نظنها وليدة القرن الغابر والحاضر كالمناطيد والكهرباء وسماها باسمائها المخصوصة . وقد اعيدت الى اللغة في هذا العصر ومع هذا لم يحجم علماء اللغة في القرن الماضي عن استعمال الكلمات الدخيلة المحتاج اليها والتي تفي بالمعاني المقصود ادخالها على اللغة العبرانية . ولذلك فاني اتفاءل خيراً بمستقبل هذه اللغة السامية القديمة واتمنى ان يحذو حذوهم علماء اللغات الشرقية الشقائق .

* * *

السامرة (١) | يتسب السامريون انفسهم الى سبط يوسف وينسب كهانهم انفسهم الى سبط لاوي ويقررون ان هذا السبط

(١) لا شك ان المطلعين على ما جاء في التوراة المعتبرة عند اليهود والمسيحيين معاً سيجدون بوناً عظيماً بين ما ذكر في هذه الرسالة وبين ما جاء هناك ولكننا أردنا ان ننقل مايقوله السامريون عن انفسهم . وكتبت هذه النبذة اقتباساً من كتاب مخطوط الفه احد كهان الطائفة السامرية في نابلس .

هو بيت الكهنوت الاسرائيلي حصراً · و «السامرية» نسبة الى اقطاع شمرونيم الذي كان في ملك سامير الاشوري الشمرونيمي · وذلك ان الاشوريين لما غزوا فلسطين غزوتهم الاولى انتشروا في البلاد وامتلكوا كثيراً من اقطاعاتها · وكانت فرقة شمرونيم تملكت اقطاع سبسطية واخذوا يستغلون ارضه بعد ان خربوا المدينة المذكورة · ثم آل هذا الاقطاع الى الامير سامير امير الفرقة فجاء اليه احد ذوي اليسار من آل يوسف واشترى اقطاعه واخذ يعمره هو وآله ، فلبستهم نسبة الارض ثم ابتنوا اخيراً مدينتهم التي تسمت بالسامرية نسبةً الى اصل تسمية الاقطاع ومالكه الاشوري ·

ويعزو السامريون سبب انشقاقهم عن سائر اسباط اسرائيل الى خلاف ديني نشأ بينهم وبين هذه الاسباط · وذلك ان الاسرائيليين ظلوا الى القرن الثالث من دخولهم ارض كنعان يقدسون جبل جرزيم الذي هو جبل « نابلس » الجنوبي ويقربون عليه قرابينهم اعتقاداً منهم ان يوشع أقام هيكل العبادة الاول في هذا الجبل · وكان الى ذلك التاريخ مركز حجهم ومقام امامهم الاكبر وكاهنهم الاعظم · فلما ورث الامامة الكبرى الامام عزي بن بحقي وكان حديث السن لحسده الكاهن الأعظم عالي وأنف ان يكون له مرؤوساً واخذ يدس له الدسائس حتى نجح في استمالة فريق من الاسرائيليين فهجروا جرزيم وانتقلوا الى سيلون — قرب القدس — وكان ماهراً في الشعوذة واعمال السحر فعظم حوله الجمع فأقام هيكلاً وصندوقاً للشواهد وادعى انهما الاصليان وأوجب تقديسهما وصرف الوجوه عن جرزيم · وقد ساعده في عمله اختفاء الهيكل وصندوق الشواهد اللذين أقامهما يوشع على جرزيم باعجوبة ربانية انتقاماً من اليهود لمخالفتهم الشريعة وانغماسهم في المعاصي · فاعتبر سائر اليهود قول عالي واخذوا يقدسون هيكل سيلون ·

اما سبطا يوسف ولاوي فانهما ظلا على عهدهما من نصر الامام عزي وتقديس جرزيم واعتباره المحل المختار الذي اختاره الله للهيكل والذبح · ومن هذا الحين اصبح الاسرائيليون فرقتين فرقة عزي ومركزهم جرزيم وحدوده ، وفرقة عالي ومركزهم سيلون · وقد استحكم العداء بين الفرقتين فأخذتا تبتعدان احداهما عن الاخرى

وطفقت كل فرقة تلصق بالاخرى التهم ، وجرت بينهما مناقشات ومنازعات كانت تؤدي في بعض الاوقات الى اراقة الدم ٠

يقول السامريون ان عالي الكاهن بعد ان عظم امره اخذت مطامعه تظهر واساء السيرة في اليهود هو واولاده واخذوا يخالفون اوامر الله وشريعته ، وقد تبنى ولداً اسمه صموئيل أتقن الشعوذة ٠ واغتنم الفلسطينيون فرصة انشقاق الاسرائيليين فزحفوا على اليهود ونكلوا بهم فلما مات الكاهن خلفه صموئيل فلم ير الا ان يدعي النبوة ربطاً لقلوب اليهود به فصدقه هؤلاء لقوة شعوذته ودهائه ولكنهم طلبوا منه ان يقيم عليهم ملكاً يدير شؤونهم ويجمع شملهم دفعاً للخطر الذي داهمهم من ناحية الفلسطينيين فأقام عليهم شاول الملك ٠ وكان من أعمال هذا الملك اشهار الحرب على سبطي يوسف ولاوي لعدم اتباعهم لهم وعدم اعتبارهم هيكل سيلون وذبحهم معهم في مذبح سيلون ٠ وقد كبس شاول السبطين في عيد المظال فقتل منهم كل من وجده وذبح امامهم الاكبر شيشي بن عزي وخرب محل عبادتهم في جرزيم ونقض حجارة الهيكل ٠ واحتل منطقتهم فتشتت قسم كبير من الذين سلموا من القتل منهم ٠ وظل آل يوسف ولاوي اثنين وعشرين عاماً لا يقدرون على أداء فريضة الحج ولا يجرأون على التظاهر بشعائرهم الدينية ٠ وقد حاول كاهنهم الاكبر باير اقناع داود حينما ملك باحترام جرزيم وبناء الهيكل فيه فلم ينجح واخذ يقيم الهيكل في يابيس « القدس الآن » وادعى هو وابنه سليمان من بعده انه المحل المختار وأناطوا به جميع المقدسات المنوطة بجرزيم دون ان يكون في أسفار التوراة الخمسة دليل على ذلك في زعم السامريين ٠

ولما غزا بختنصر فلسطين اجلى في من اجلاه آل يوسف الى بابل وأسكن محلهم أمماً غريبة فسبب ذلك انحباس الأمطار وعطب الزيتون فالتمس القاطنون من الملك ان يسأل آل يوسف عن سبب ذلك فأجابه هؤلاء ان لنا جبلاً مقدساً نحج اليه ونتقرب الى الله فيه بالقرابين فلم نكن نرى حبساً ولا عطباً فعزم على اعادتهم الى بلادهم ليقيموا شعائرهم ٠ وقد وقع في هذا السياق بينهم وبين آل يهوذا خلاف على المحل المختار ولكنّ آل يوسف أقنعوا الملك بقوة نصوصهم فرجحهم وأعادهم وجعل لهم شيئاً من السلطة فجاؤوا وأقاموا هيكلهم وزحفوا على يابيس وهدموا هيكلها ٠ فكان نجاحهم

هذا عاملاً جديداً في ازدياد النفرة بين الفريقين اولاً وتحريف اليهود نسخ التوراة الموجودة في ايديهم ثانياً ·

وقد طعن اليهود في اصلهم فقالوا عنهم كوتيين ونعتوهم بانهم وثنيون وان لهم صنماً اسمه اشيما نكايةً وتغرضاً وانتقاماً · وقد كان اليهود في عهد الحكم الروماني والفارسي كثار المدد · وكان لهم يد كبرى في الثورات الوطنية التي كانت تنشب من حين الى آخر · وقد أفنت هذه المنازعات عدداً كبيراً · فلما دخل العرب فلسطين اخذ السامريون يدينون بالاسلام فيقل عددهم رويداً رويداً الى ان أصبحوا طائفــة قليلة جداً ربما لا يتجاوز عددها الآن مائتي نفر ذكوراً واناثاً كباراً وصغاراً · وقد اقتبسوا من المسلمين واقتبس المسلمون منهم في نابلس على توالي الايام كثيراً من العــادات واللهجات · وهم الآن يتكلمون بالعربية النابلسية العامية · وقليل منهم يعرف العبرانية كما ان عبرانيتهم قديمة بينهــا وبين عبرانية اليهود اختلاف بين وان متت اللغتان الى اصل واحد · ولا يزال اصل بعض الأسر المسلمة في نابلس معروف النسبة والأرومة في الطائفة السامرية ·

ينعت السامريون انفسهم بالمحافظين لانهم حافظوا ولا يزالون يحافظون على ادق شعائر العبادات والشريعة دون تأويل ولا انحراف · و يزعمون ان التوراة التي في ايديهم اصدق واقدم توراة وانها بخط ابيشع بن فينحس بن العزر بن هرون نقلها ابيشع عن المدرج الذي كتبه بيده موسى عليه السلام · وتوراتهم هذه مدرج طويل من الرق له اسطوانة مفضضة محفوظة في معبدهم تكاد تكون سلوتهم الوحيدة في هذا العالم الذي اصبحوا فيه غرباء عن كل امه واثراً تاريخياً اكثر مما هو شعب حي · وهم يزعمون ان توراة اليهود قد فقدت مراراً وحرفت كثيراً وان التوراة التي بين ايدي اليهود ملفقة استندت الى الظن والحدس على غير اساس ، وان اليهود عدا ذلك قد تسامحوا بكثير من مظاهر الدين واولوا نصوص الشريعة فصار بينهم فروق كثيرة · وفي ايدي السامريين كتب جدلية كثيرة في تثبيت طريقهم والطعن في طريقة اليهود وتفسيراتهم وتأويلاتهم ·

واول خلاف نشأ بينهم وبين اليهود خلاف القبلة · فالسامريون يعتبرون جبل

جرزيم هو الجبل المقدس والمحل المختار الذي امر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده عليه والذي امر يوشع من قبل موسى باقامة الهيكل فيه ويقررون ان عيد الفسح وقرابينه لاتجوز الا في هذا الجبل وحدود منطقته التي لاتتعدى منطقة نابلس الآن . ومن الخلافات بينهم وبين اليهود وقت الختان . فالسامريون لا يقبلون عذراً لتأخير يوم الختان الى ما بعد اليوم الثامن من الولادة على حين يتجوز اليهود في ذلك . وبين الفريقين خلاف في مواعيد الاعياد وشعائرها وفروعها وفرضية القرابين والطبقات الملزمة بها . وللسامريين اصول فلكية دقيقة يستندون اليها في حساب تولد الاهلة وتعيين مواعيد الاعياد والشعائر .

ويخالف السامريون اليهود في تجويز بعض الانكحة فهم يحرمون نكاح امرأة الاخ الشقيق وبنت الاخ وزوج الاخت وامرأة العم وامرأة الخال واليهود يحللونها . وكذلك هم يختلفون في بدء عيد الفطير والطقس الخمسيني ذوي الاسابيع السبعة المقدسة التي يحيي بها الاسرائيليون ذكرى اسابيع الخروج من مصر ودخول ارض كنعان . والسامريون يتشددون في شعائرهم الدينية لا سيما يوم السبت ، ويزعمون انهم يطبقون اوامر التوراة حرفياً . ويتشددون في احكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة وكيفياتها ويحملون انفسهم عبئاً لا يملك الانسان نفسه من الشفقة عليهم من اجله . وهم اليوم لا يغسلون موتاهم ولا يحملونهم وانما يستأجرون لهذين الغرضين أناساً من المسلمين لان للميت وغسله ومائه نجاسات يتعذر طهر السامري منها في الحال الحاضر . ويقولون ان السامري لا يطهر منها الا اذا رش بعد عزلة الايام السبعة برماد بقرة مقررة الصفات . وقد نفد هذا الرماد الذي كانوا يتوارثونه منذ امد طويل ولم يمكنهم تعويضه . وللسامريين صلوات مفروضة يوم السبت وغيره . ففي غير السبت لهم صلاتان مفروضتان هما صلاة الصبح وصلاة المغرب . وفي يوم السبت صلاتان زائدتان على تينك الصلاتين هما صلاة الظهر وصلاة الصرفة . وصلاتهم ذات ركوع وسجود وانتصاب يتلون فيها سوراً من التوراة . وهم يتوضأون قبيل الصلاة وضوءاً يقرب من وضوء المسلمين .

واهم أعيادهم عيد الفسح في آخر اسبوع الفطير . ويكون في الرابع عشر من

الشهر القمري الذي يجتمع مع شهر نيسان . وهو عيد سنوي جامع يشبه الحج . يصعد السامريون فيه كبارهم وصغارهم جبل جرزيم . و يوجبون حضوره على كل سامري دون ان يقبل للمتخلف عذر او مسامحة . فلما يكون يوم العيد وتأخذ الشمس بالزوال يتهيأون للعيد في ثياب بيضاء وجبب زاهية ويعتمون بعمائم بيضاء او حرير (أغبانية) مطرزة و يهيئون سبعة اكباش سالمة من كل عيب ونقص و يحفرون تنوراً عميقاً يبنونه بحجارة مرصوفة من دون طين . فاذا آن وقت الغروب يأخذون بتلاوة التوراة وقراءة التراتيل مصطفين على شكل امام ومؤتمين فحينما يأزف الوقت المقرر وهو بين الغروبين يعطي الكاهن الاكبر اشارته فيذبح الذباحون الاكباش بسرعة البرق ثم ينتهون من هذه الصلاة الاولى و يبادرون جميعاً لتحضير الذبائح ينتفها أناس و يملحها آخرون وبعضهم يوقدون النار و يحمون التنور وهم في كل أعمالهم هذه في صلاة لا يفترون عن التلاوة والترتيل . ثم يحرقون شحوم القرابين وأطرافها على مذبح يصنعونه من الحجارة و يلقون بعد ذلك الذبائح في التنور و يقضون بعد ذلك ثلاث ساعات في الصلاة ريثما تنضج القرابين فيرفعون عنها الحجارة و يخرجونها و يأكلونها وبعد ان ينتهوا من الاكل يحرقون الفضلات والعظام ، اذ انه لا يجوز لغريب ان يمس الذبيحة ولا اثراً منها . وقد اعتاد المسلمون في نابلس ان يصعدوا الجبل في هذا اليوم للتفرج اولاً ولزيارة شيخ لهم اسمه الشيخ غانم يظن انه من شهداء الحروب الصليبية اه .

وفي كتاب ولاية بيروت ان شروط العقيدة الاصلية عند السامريين خمسة وهي الاعتقاد بوحدانية الله ونبوة موسى وان التوراة كتاب منزل وان جبل جرزيم هو مقدس وان الساعة آتية لا ريب فيها . و يعتقدون ان الله منزه عن جميع الصفات ولا يؤمنون بنبوة احد من الانبياء سوى موسى و يُوشع و يعتقدون ان البشر يحاسبون على أعمالهم في اليوم الآخر و يؤمنون بمجيء المهدي و يطلقون عليه اسماء مختلفة فيسمونه « حاشا حيب » و « حاطا حيب » و « مرجع » وان لظهوره علائم فيظهر كلمة الله و ينقل عصا موسى والواحه العشرة و يجيء بقدرة المن وهي الحلوى الآلهية . و يعتقد السامرة بالملائكة و يفرض على كل سامري ان يصليَ ويحج و يصوم و يزكي

فالصلاة صلاتان احداهما صلاة الصبح والثانية صلاة الغروب وكل صلاة احدى عشرة ركعة يسجدون في مبدإ كل ركعة ثم يقفون على القدمين ويتلون التوراة ، والصلاة جماعة أفضل والصلاة مفروضة على الرجال والنساء ولكن النساء لا يخالطن الرجال خلال الصلاة ويشترط ان يكون المصلي طاهراً والطهارة عندهم على نوعين الغسل اولاً والوضوء ثانياً ، فالطهارة من الحدث شروط اولي على كل موسوي حتى ان لمس الحائض موجب للغسل وعلى الحائض ان تحضر ثلاثاً من النساء يقفن على رأسها حين اغتسالها ، واما الوضوء فيغسل المتوضئ اولاً يديه ، واذا كان من اصحاب الاعمال اليدوية فيغسل يديه الى المرفقين والساعدين ثلاث مرات . ثم يتمضمض ويستنشق ثلاثاً ثم يغسل وجهه ويمسح أذنيه ويغسل رجليه ثلاثاً . ويتلون التوراة في الصلاة باللسان العبري القديم وتجوز تلاوتها باللغة السامرية . والحج عند السامريين هو عبارة عن زيارة جبل جرزيم وهو ثلاثة أشكال حج الفطير وحج العنصرة وحج المظال . ويمسكون في صومهم اربعاً وعشرين ساعة قبل حج المظال بخمسة ايام فلا يدخل السامري كبيراً كان او صغيراً شيئاً الى فمه حتى الطفل الرضيع فانه يمنع من الرضاعة طول هذه المدة ولا ينامون مطلقاً في هذه الاربع والعشرين ساعة بل يقضونها بالطاعة والعبادة . اما الزكاة فهي عبارة عن اعطاء واحد في العشرة من الارباح الى الكاهن والفقير . ويحجب السامريون نساءهم ويجوز الزواج ثانية اذا كانت المرأة عاقراً او مريضة او ذات عيب شرعي . واصول مواريثهم لا تخالف اصول الشريعة المتبعة عند جميع الموسويين .

* * *

الارثوذكسية — ليس من دين يدين به أبناء آدم الا فيه مذاهب متباينة بتباين منازع زعمائه . فقد خاصم اهل الختان المتنصرون رسل المسيح ليقنعوهم بوجوب اختتان الوثنيين الراغبين في التدين بالنصرانية . ولكن الرسل والكهنة اجتمعوا في اورشليم في السنة الخمسين بعد الميلاد « وحكموا بالا يُثقل بهذا الناموس على من يرجع الى الله من الامم » (اع ١١ : ٢ — ٣ و١٥ : ١—٣١ و١٦ : ١—٣) .

وفي القرن الثاني نشأت في الدين المسيحي بدع اليهود الناصريين والابيونيين والكلساعيين والشمشونيين والفنوستيين على تفرق نحلهم فانتبذتهم الكنيسة وعاجلهم سهم القضاء . وقام بعدهم مبتدعون كثيرون اشتهر منهم في القرن الرابع قس كنيسة الاسكندرية آريوس اذ كفر بألوهة المسيح فجمعت عليه الكنيسة سنة ٣٢٥ مجمعاً مسكونياً في مدينة نيقية حضره اول ملوك المسيحيين القيصر قسطنطين الكبير وثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ما عدا الكهنة والشمامسة والعلماء وحكمت عليه فعُري من الكهنوت ونفي وقُطع السبب باتباعه .

وبتأثير ضلال آريوس كفر مكدونيوس أسقف القسطنطينية بالروح القدس فحكمت عليه الكنيسة وعلى بدع آفنوميوس وأبوليناريوس وصباليوس ومار كلوس وآفدوكسيوس وفوتينوس بالمجمع الثاني المسكوني الذي التأم سنة ٣٨١ في القسطنطينية على عهد القيصر ثيوذوسيوس الكبير وحضره مائة وخمسون أسقفاً أثبتوا صلاحية المجمع الاول الشرعية واكملوا دستور الايمان الذي وضعه ، قاضين بافامته على كل اورثوذكسي فهو شعار ايماننا الى يوم القيامة ومطلعه « أومن بالله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والارض ... » وحطوا مكدونيوس من رتبته الكهنوتية فسكن نسيسُ مشايعيه .

وأولع نسطوريوس أسقف القسطنطينية بعشق الامامة نافراً اليها في شاكلة من « خالف ليُعرف » فكفر بالمسيح وأمه مريم فرمته الكنيسة بإتحاف رأسه في مجمعها الثالث المسكوني الذي اجتمع في مدينة افسس سنة ٤٣١ على عهد القيصر ثيوذوسيوس الصغير وحضره نحو مئتي أسقف فرعوا ضلال نسطوريوس بالحق فأسقط من الكهنوت ونفي الى مصر وباتت بدعته تدمى في الكلدان كالخنفساء الى اليوم .

وركب أوطيخا الراهب رأسه في محاربة ضلال نسطوريوس حتى انتشر عليه رأيه في طبيعتي المسيح ففسد ايمانه بها وأغرق في غوايته حتى انتصفت منه الكنيسة بحكمها عليه وعلى بدعته بمجمعها المسكوني الرابع الذي اجتمع في خلكيدون سنة ٤٥١ وحضره القيصر مركيانوس وستمائة وثلاثون أسقفاً . وضرب الدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة فتشردوا قِدَداً رنَّقت عليها المنية لولا زعيمهم أسقف أرفا يعقوب

الزنزلي المشهور بالبرادعي . فانه لأم صدعهم بتجديده لهم مركز البطريركية في انطاكية فتسموا « باليعاقبة » اكراماً له وانقسموا الى سريان وارمن ومصريين .

وفي سنة ٥٥٣ اجتمع المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية على عهد القيصر يوستنيانوس الكبير وكان اعضاؤه مائة وخمسة وستين أسقفاً حكموا على غوايات اوريجانوس الشهير وما يُعرف في التاريخ الكنسي « بالقضايا الثلاث » واثبتوا أحكام المجامع المسكونية الاربعة .

وفي سنة ٦٨٠ التأم المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية وحضره القيصر قسطنطين اللحياني ومائة وسبعون أسقفاً وفي رواية أُخرى مائتان وتسعة وثمانون اباً حكموا على القائلين « بالمشيئة الواحدة » في المسيح منهم سرجيوس بطريرك القسطنطينية وأُونوريوس بابا رومية وأقاموا المجامع المسكونية الخمسة فباتت هذه البدعة تعالج النزع في شيعة الراهب يوحنا مارون التي عرفت « بالمردة » وانحصرت على قنن لبنان وتسمى الآن « بالمارونية » نسبةً الى الراهب المذكور الذي صار أسقفاً اول عليها حتى استوفت انفاسها أيام ركبات الفرنج الصليبيين على الشام سنة ١١٨٢ فانهم جذبوا الموارنة الى الخضوع لكنيسة رومية فثبتوا فيه بعد ان طرد المسلمون الصليبيين الا انهم ابدلوا بدعة « المشيئة الواحدة » بما ابتدعته رومية من الاضاليل بعد ان قطعتها الكنيسة من شركتها في القرن الحادي عشر .

وفي سنة ٧٢٦ بدأ القيصر لاون الايصوري محاربة صور الاولياء (الايقونات) وبقاياهم وشايعه أساقفة كثيرون فتأذت الكنيسة من هذه البدعة حتى حكمت عليها في مجمعها السابع المسكوني الذي اجتمع في مدينة نيقية سنة ٧٨٧ على عهد القيصرة ايريني الوصية على ابنها قسطنطين السادس وحضره ثلاثمائة وسبعة وستون اباً . الا ان هذه البدعة تجددت في الشيع البرتستانتية في أوائل القرن الخامس عشر ولا تزال ترهقها باضرار جمة عاملة على تشعث الفتها وتمزق شملها .

وفي سنة ٨٧٩ التأم المجمع المسكوني الثامن في كنيسة اجيا صوفيا وحضره القيصر باسيليوس المكدوني وعماله ليحافظوا على النظام جرياً على عادة أسلافه العواهل العظام وثلاثمائة وثلاثة وثمانون رئيس كهنة أثبتوا دستور الايمان الذي وضعه المجمعان

الاول والثاني على ما مرّ قاضين بانتباذ من يزيد فيه او ينقص منه · ولا يحصى هذا المجمع رسمياً مع المجامع السبعة المذكورة مع ان الكنيسة كلها شرقاً وغرباً اشتركت فيه وقررت احكامه بالاتفاق التام جرياً على عادتها فيها · وسبب ذلك هو انه لم يلتئم بعده مجمع مسكوني تام الشروط ليثبت صلاحيته الشرعية اتباعاً لنظام المجامع ·

ونشرت كنيسة رومية الدين المسيحي في شعوب اوربا ايام كان الله خاتماً على قلوبهم فبذلوا لها مقادتهم وخشع ملوكهم أمام أساقفتها فعصفت في رؤوس البابوات زوابع المجد العالي واسترسلوا في سعيهم وراء السلطة المطلقة على الممالك والكنائس فنزل جهل الغرب المطبق على مقدَّرحهم وأسدَر عيونهم نور الشرق — والشرق مبعث النور — فنصح لهم البطريركان المسكونيان فوتيوس في القرن التاسع وميخائيل كيرولاريوس في القرن الحادي عشر ان يتّزعوا فما كان منهم الا ان غلوا في طغيانهم فنبذتهم الكنيسة بمجمع التأم على عهد القيصر قسطنطين مونوماخس والبطريرك ميخائيل المذكور فعمدوا بعد يأسهم الى القوة البدنية توصلاً الى ما اشرأبت اليه أطماعهم فسيروا على الشرق الحملات الصليبية التي سوّدت بالخاشها فيه مجلدات برمتها حتى محقها المسلمون وطهروه منها وردوا على الكنيسة الارثوذكسية حقوقها التي منحها اياها الخليفة عمر بن الخطاب وخلفاؤه · فمقت الروم اللاتين حتى آثروا ان يروا عمامة السلطان محمد الثاني (الفاتح) في كنيسة أجيا صوفيا على ان يروا فيها كمة البابا ·

ولما انحجب نور الشرق عن رومية تاهت كنيستها في شعاب الباطل فأجفل منها معظم أمم اوربا متعوذين بالمذهب البرتستانتي فأنشأت لهم « ديوان التفتيش » المشهور بفظائعه · ثم لما سطع فجر العلم في اوربا وامتنع عليها إكراه الناس على التدين بما تمليه عليهم عمدت الى دهاء الرهبانيات كالجزويت والكبوشيين وغيرهم فاستغوت بالمال حزائق من الطوائف الشرقية القديمة منها حزيقة الروم الكاثوليك الذين استغوتهم من الملة الارثوذكسية فانتحلوا لانفسهم وصف «الملكيين» ليوهموا الناس انهم الاصل ولكنهم لم يوهموا الا انفسهم فصدق فيهم قول المتنبي :

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه   وصدق ما يعتاده من توهم

اما الحقيقة التاريخية فهي ان القائلين « بالطبيعة الواحدة » من أقباط مصر

نعتوا الارثوذكسيين « بالملكيين » لتمسكهم بايمان ملوك القسطنطينية .

فمن هذه الحقائق التاريخية التي ايدتها شواهد العقل والنقل المثبتة في المطولات يعلم الطالع :

١ً ان الحقيقة الانجيلية حُفظت في الكنيسة الارثوذكسية مصونةً عن كل شائبة بدعة وضلال وستحفظ الى منتهى الدهر (مت ١٦ : ١٨ و ٢٨ : ٢٠ يو ١٤ : ١٦) .

٢ً وان المملكة البزنطية التي عاشت زهاء الف ومئة وخمسين عاماً قد ناصرت الكنيسة على صيانة هذه الحقيقة مؤثرة اياها على المصلحة المادية .

٣ً وان امر الكنيسة الارثوذكسية شورى لانها تعمد في حل المشكلات الى المجامع اقتداءً برسل المسيح المخلص فلا يستبد فيها شخص واحد برأيه (مت ١٨ : ١٥ — ١٧ واع ١٥ : ٦)

٤ً وان السلطة العليا فيها منحصرة في المجامع المسكونية وحدها فهي تؤمن بما حددته من عقائد الايمان المقررة في الكتاب المقدس وتأتمر باوامرها وتحفظ قوانينها وتنبذ كل بدعة نبذتها وتحكم على من يتجاسرون على نقض احكامها والعبث بقراراتها ايًا كانوا .

٥ً وان الشرق كان موطن احبار الدين المحققين ، وجهابذة اليقين الراسخين ، الذين حددوا العقائد المسيحية تحديداً لا يحتمل التأويل والتبديل بما اقاموا عليها من البينات الواضحة والحجج الدامغة مما اضطر الغرب ان يجعل قياده في يده وينزل على حكمه في جميع الامور الدينية .

٦ً وان الروم الارثوذكسيين كانوا اصحاب البلاد وكان معتقدهم سائداً في من توطنها من العباد حتى افتتحها المسلمون وأمَّنوهم على دينهم واموالهم فعاش بوجاهتهم في الممالك الاسلامية حتى اليوم بقية الطوائف النصرانية التي حكمت عليها الكنيسة قبلاً وقد قال القرآن الشريف في الروم « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلَبِهم سيغلبون » (سورة الروم) .

* * *

الكثلكة الكثلكة او الدين الكاثوليكي او الكنيسة الكاثوليكية اسم واحد للمذهب الديني المعروف الذي يدين به اليوم نيّف وثلاثمائة مليون من البشر كما ورد في اضبط الاحصاءات الحديثة . يعلن اصحابه ويثبتون قولهم بالبرهان انه هو الدين الوحيد الذي بشر به السيد المسيح قبل تسعة عشر قرناً واخذه عنه رسله الحواريون لينشروه بامره في كل العالم (متى ٢٨ : ١٨ — ٢٠ مرقس ١٦ : ١٥) تحت رئاسة الاساقفة الخاضعين للحبر الاعظم بابا رومية وخلف القديس بطرس المقام من السيد المسيح كالمتقلد الرئاسة العامة المطلقة على كنيسته وكراعي نعاجه وخرافه (متى ١٦ : ١٨ — ١٩ يوحنا ٢١ : ١٥ — ١٧) واما اسمها فمشتق من لفظة يونانية معناها الجامعة والمنتشرة في كل الارض لان الكنيسة الكاثوليكية منذ عهد الرسل انتشرت في جميع انحاء المعمور حتى ما وراء حدود المملكة الرومانية .

واصل الكثلكة تلك الجماعة الاولى التي أنشأها السيد المسيح بذاته ودعاها كنيسة (متى ١٦ : ١٨) الفها من الاثني عشر رسولاً (متى ١٠ : ٢—٥) ثم من الاثنين والسبعين تلميذاً (لوقا ١٠ : ١) وأنبأهم بتبشير انجيله في كل العالم (متى ٢٦ : ١٣) واوصى تلامذته قبل صعوده ان يتلمذوا كل الامم ويعمدوهم باسم الاب والابن والروح القدس ويعلموهم ان يحفظوا جميع ما أوصاهم به (متى ٢٨ : ١٩ — ٢٠) فما مر عليهم بضعة ايام حتى حل عليهم البارقليط اي الروح القدس الذي وعدهم بارساله (يوحنا ١٥ : ٢٦) فأنطقهم بالسنة جميع الامم التي كان حضر بعض ابنائها اورشليم لعيد العنصرة ووقفوا بذلك على الدين الجديد (اعمال ٢ : ١—١٢) فاعتمد في ذلك اليوم ثلاثة آلاف من اليهود (اعمال ٢ : ٤١) ثم بلغ عددهم خمسة آلاف بعد ايام (٤ : ٤) ثم شاع اسمهم فعُرفوا بالمسيحيين (١١ : ٢٦) ثم صار التخصيص بظهور بعض الشيع فدُعوا بالكاثوليك وكنيستهم بالكنيسة الكاثوليكية قريباً من عهد الرسل كما ورد في كتاب القديس اغناطيوس تلميذهم والفيلسوف يوستينيوس النابلسي المستشهد سنة ١٦٥ م ولم يزل مذ ذاك الوقت اسمهم الخاص دون سواهم .

يؤمن الكاثوليك بكل العقائد التي اوحى الله في الكتب المنزلة وفي التقليد .

وتقسم الكتب المنزلة الى قسمين أسفار العهد العتيق وأسفار العهد الجديد · واسفار « العهد العتيق » منها اولية ومنها ثانوية · فالاولية هي التي كتبت في الاصل باللغة العبرانية وهي : أسفار موسى الخمسة (التكوين والخروج والاحبار والعدد وتثنية الاشتراع) ثم الاسفار التاريخية (يشوع والقضاة وراعوث والملوك الاربعة واخبار الايام الاثنان وعزرا ونحميا واستير) ثم الاسفار النبوية : اربعة كبار (أشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال) واثنا عشر صغار (هوشع و يوئيل وعاموس وعوبديا و يونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجّاي وزكريا وملخيا) ثم الاسفار الحكمية (مزامير داود وأمثال سليمان وأيوب ونشيد الاناشيد والجامعة) ·

اما الاسفار (الثانوية) فهي التي كتبت بالكلدانية او اليونانية ونقلت في الترجمة المعروفة بالسبعينية وهي : طوبيا و يهوديت وابن سيراخ والمكابيون (اثنان) ·

وهذه كتب « العهد الجديد » : الاناجيل الاربعة القانونية للرسولين متى و يوحنا وللتلميذين مرقس ولوقا · ثم سفر أعمال الرسل للقديس لوقا · ثم رسائل القديس بولس الاربع عشرة ثم رسالة القديس يعقوب ورسالتا بطرس وثلاث رسائل يوحنا ورسالة يهوذا ورؤيا يوحنا ·

وفي الكنيسة الكاثوليكية معتقدات أُخر ليست مدوّنة في الاسفار المنزلة وانما اخذتها بالتعليم الحي بسلسلة متواصلة من عهد الرسل الى يومنا وأعلنت بها في مجامعها او في براءات أحبارها وفي تعليمها اليومي · وخلاصة هذه المعتقدات المدوّنة في أسفار العهد العتيق ولا سيما في أسفار العهد الجديد مرجعها الى ما يلي :

أولاً عقيدة التوحيد : اي اعتقاد وجود اله واحد روح بسيط أزلي لا اول له ولا آخر لا يحصر جوهره المكان قائم بذاته ذو صفات وكمالات لاحدّ لها من قداسة وحكمة وقدرة ورحمة وعدل · وهو خالق كل الكائنات الروحية والهيولية من العدم بجوده واختياره ·

ثانيًا عقيدة التثليث : هذا الاله الصمد ذو الجوهر الفرد والطبيعة الالهية الواحدة له ثلاثة أقانيم هي صفات جوهرية نسبية متساوية بكل كمال وكل قدرة لا يفرقها شيء سوى نسبة بعضها الى بعض · فندعو الاقنوم الاول « أباً » وهو اصل

اللاهوت غير مولود وغير منبثق · والثاني (« ابناً ») مولوداً من الآب منذ الازل ليس ولادة جسدية بل ولادة عقلية روحية بمعرفة الآب لذاته ولكمالاته يصدر بهذه المعرفة ابنه الشبيه به وضياء مجده وصورة جوهره (عبرانيون ١ : ٣ كولوسي ١:١٥) فهو اله من اله نور من نور اله حق من اله حق من جوهر الآب (دستور نيقية) · والثالث (روحاً قدساً) منبثقاً من الآب والابن ليس بطريق الولادة العقلية بل بتبادل حب الآب لابنه وحب الابن لابيه المولود منه · وهذا الحب ليس عرضياً بل جوهرياً ندعوه الروح القدس · وهذه عقيدة تثليث لاقانيم في الله اوحى بها الله بنوع خفي في العهد العتيق كما يؤخذ من بعض آياته ثم صرَّح به السيد المسيح في نصوص عديدة في الانجيل وقرره تلاميذه في رسائلهم بما لا يبقي في الامر ادنى ريب وان كان سراً يفوق الادراك البشري ·

ثالثاً عقيدة التجسد : هو سر الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس الذي تأنَّس واتخذ في احشاء مريم العذراء دون زرع بشري طبيعتنا البشرية بكل خواصها ماعدا الخطيئة ليفدي بني آدم من تبعة الخطيئة الاصلية التي ارتكبها الابوان الاولان بمخالفتهما الاوامره تعالى في جنة عدن وخلَّفاها لسائر نسلهما وبها حصل هلاك الجنس البشري ففقد البرارة الاصلية التي مُنحها قبل خطيئته فلم يعد اهلاً للتمتع بالنعيم الابدي ومشاهدة الله في السماء · واذ كان الانسان غير قادر على الوفاء عن خطيئته لجلال الله فانه تعالى رحمه ووعدَهُ بمخلّص يُعيد له بفدائه ما فقده من تلك النعم (تكوين ٣ : ١٥) وليس هذا المخلص الا السيد المسيح منتظر الآباء والأنبياء وجميع الشعوب وهو الاله المتجسد ذو الأقنوم الالهي الواحد وذو الطبيعتين الالهية والانسانية (يوحنا ١ : ١٤ و ٣ : ١٦ لوقا ١ : ٢٦ — ٣٦) فهذا الاله المتأنس قضى على الارض ثلاثاً وثلاثين سنة يعمل ويعلّم وأنشأ كنيسةً واسلم نفسَهُ اختياراً للعذابات والموت ثم قام بقوّة لاهوته من قبره في اليوم الثالث وتراءى مراراً لتلاميذه ثم صعد الى السماء بعد اربعين يوماً · وبكل ذلك اتمَّ جميع ما تنبَّأ عنه الانبياء دون ان يخلَّ من نبوّاتهم حرفاً ·

ولما كانت اعماله سواء صدرت من طبيعته الالهية كالمعجزات التي صنعها او من طبيعته الانسانية كمولده وموته ذات قيمة غير متناهية لصدورها عن شخصه الوحيد

الالهي شخص ابن الله فقدَّمها لابيه ولا سيما موته على الصليب تكفيراً عن خطايا البشر الذين يستطيعون بعد ذلك ان ينالوا نعمة البرارة والخلاص الابدي بواسطة المعمودية والاعمال الصالحة والتوبة عن الزلاَّت ٠

رابعاً عقيدة القيامة : يؤمن الكاثوليك بخلود النفس فعند انفصالها عن الجسد بالموت تدخل السماء ان كانت طاهرة من كل خطيئة ثقيلة اوخفيفة وتعاقب بعقوبات جهنم ان كانت في حال الخطإ المميت دون توبة عند الموت ٠ اما ان كانت مدنسَّة ببعض الخطايا الخفيفة اولم تكفر تماماً عن خطاياها السابقة المغفورة فيحكم عليها بعذابات موقتة وذلك ما يدعونه المطهر ريثما تفي لعدل الله الوفاء التام ٠ وفي آخر الازمنة سيبعث الله الموتى من قبورهم فيعودون الى اجسادهم ليحضروا الدينونة الاخيرة التي يتولاها السيد المسيح فيحكم نهائياً على البشر فيجَازى الابرار بالنعيم الابدي ويعاقب الاشرار بالعذاب الدائم (يوحنا ٥ : ٢٦ — ٢٩) ٠

خامساً المعتقدات التقليدية : ماعدا المعتقدات السابقة التي وردت في الاسفار المقدسة يؤمن ايضاً الكاثوليك ببعض الحقائق التي لم تصرح بها الكتب المنزلة وان امكن اثباتها من بعض آياتها كعقيدة عصمة الحبر الاعظم عن الغلط في امور الايمان والآداب اذا علَّم كنائب المسيح وكخليفة هامة الرسل و كعقيدة الحبل العذراء مريم بلا دنس و كعقيدة وجود المطهر وهلمَّ جرَّا ٠ فهذه العقائد يمكن ترقيتها بسلسلة متواصلة الى زمن الرسل تشهد عليها نصوص الآباء والمجامع جيلاً بعد جيل ويُعلن بها ارباب الكنيسة في تعليمهم اليومي بالاجماع ٠ لما كانت الكنيسة الكاثوليكية تعلن بكونها هي كنيسة المسيح ويعارضها في ذلك غيرها من الكنائس المنفصلة عنها كان لا بدَّ ان تمتاز الكنيسة الحقيقية عن سواها ببعض العلامات الخاصة ٠ وهذه العلامات قد سبق الرسل ودوَّنوها في دستور الايمان المنسوب اليهم ونكرر ذكرها في كل دساتير الايمان المقررة بعدهم وهي اربعة : ان تكون الكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ٠ وهذه العلامات لا تستطيع ان تثبتها لنفسها اي كنيسة كانت الا الكنيسة الكاثوليكية ٠

فهي « واحدة » باتفاق جميع اعضائها في خضوعهم لرأس واحد منظور هو نائب

المسيح وخليفـة بطرس هامة الرسل ثم في اعتقادهم كل ما تعلمه الكنيسة دون خلاف وأخيراً في اشتراكهم بالاسرار عينها ·

وهي « مقدسة » لان منشأها السيد المسيح هو القداسة بالذات ثم لان كل تعاليمها وآدابها صالحة مقدسة ولانها ايضاً تقدم لذويها وسائط جمة لتقديس نفوسهم لا سيما بالاسرار السبعة التي رسمها المخلص أعني المعمودية والميرون والتوبة والقربان الاقدس ومشحة المرضى والكهنوت والزواج بقرينـة واحدة دون طلاق · ولذلك قد اولدت عدداً لا يحصى من القديسين في كل انحـاء العالم تشهد على قداستهم اعمالهم العجيبة وفضائلهم السامية التي لاتزال آثارها ظاهرة لكل ذي عينين · وكفى دليلاً عليه وجود الرهبانيات الساعية وراء الكمال بنذورها والمتفانيـة في عمل كل خير دون غاية زمنية ·

وهي « جامعة » لانها وحدها قد نشرت تعاليمها في جميع أقطار العالم المعروف فقام دعاتها بامر الرب الموصي بنشر انجيله بين كل الامم ومن ثم لا يكاد يخلو قطر من بعض تبعتها · وهي أعظم عدداً من اي مذهب كان اذا قيس بها منفرداً منقسماً كالروم والشيع البرتستانية والبوذية والبرهمانية وهلم جرًّا · وفي اسمها دليل على هذه السمة فان الكاثوليكية معناها الجامعة · وقد ظهرت هذه العلامة منذ عهد الرسل اذ يقول القديس بولس في رسالته الى اهل رومية (١ : ٨) « ان ايمانكم يبشر به في العالم كله » ·

وهي « رسولية » لان سلسلة أحبارها الاعظمين تتصل دون انقطاع برأس الكنيسة الاول القديس بطرس هامة الرسل · وبيوس الحـادي عشر الجالس اليوم سعيداً على كرسي رومية انما هو خلفه المائتان والسادس والستون ·

هذه علامات الكنيسة الكاثوليكية الاصلية · اما ما يرى في بعض بلاد الشرق من الاختلافات في الطقوس واللغات والعادات الدينية فكل ذلك ثانوي عرضي يمكن تغييره مع الزمان دون ان يمس جوهر الكنيسة الكاثوليكية لا بل يزينها ويزيدها جمالاً ·

ومعلوم ان الكنيسة الكاثوليكية انتشرت بكل سرعة في العالم كله منذ عهد

الرسل الحوار بين حتى تجاوزت حدود المملكة الرومانية · ولوقوع بلاد الشام في جوار فلسطين لا يستغرب انتشار النصرانية فيها قبل سواها · وذلك ما تثبته أقدم الشواهد التاريخية واولها سفر اعمال الرسل الذي منه يلوح انشاء الدين المسيحي في انطاكية (١١ : ٢٦) وفي سائر سواحل الشام ذُكر منها صور وعكة وقيصرية (٢١ : ٣ — ٨) ·

ويمكننا ان نتتبع تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في الشام جيلاً بعد جيل على الرغم مما حلَّ بها من اضطهادات الوثنيين وعلى الرغم مما شاع من البدع كالاريوسية واليعقوبية والنسطورية والمنوثلية فلم يكن بين الطوائف الشرقية ما يفصلها عن الكنيسة الرومانية في ايمانها وخضوعها لرأس الكنيسة الرومانية وآدابها غير الاعراض السابق ذكرها · والدليل على ذلك اكرام كنائس الشرق لقديسي الغرب واكرام الغربيين للقديسين الشرقيين · وفي طقوس الشرقيين القديمة ما يشهد الى اليوم بتلك الوحدة والاتفاق · وكذلك سِيَر القديسين الشرقيين تثبت ذلك الامر · وكثيرون منهم ازهروا في الشام كالقديس يوحنا فم الذهب والقديس افرام السرياني والقديس مارون الناسك ·

غير ان تملك العرب على الشام واستفحال الشيع المضادة لتعاليم الكنيسة وصعوبة طرق المواصلات بين الشرق والغرب اضعفت الدين الكاثوليكي كثيراً في الشام الى ان عاد فتعزَّز بقدوم الصليبيين الى الشرق ثم بدخول المرسلين منذ القرن الثالث عشر في هذا القطر فظهرت آثاره الطيبة اولاً بين الموارنة ثم بعد ذلك بزمن بين الروم والارمن ثم بين الكلدان والسريان حتى قامت لكل هذه الطوائف كنائس منظمة لها بطاركتها وأساقفتها ورعاياها ولكل طائفة تاريخها الخاص يترجم عن اعمال بنيها ومشاهير ملتها وارتباطها مع الكرسي الروماني ·

واليوم يبلغ احصاء الكاثوليك في الشام نيفًا وستمائة الف معظمهم الموارنة (٣٠٠٫٠٠٠) · ثم الروم الكاثوليك (١٢٠٫٠٠٠) · ثم الارمن (٨٠٫٠٠٠) · ثم السريان (٢٠٫٠٠٠) · ثم اللاتين (١٠٫٠٠٠) · ثم الكلدان (٢٠٠٠) هذا ما عدا المهاجرين منهم الى اميركا وغيرها ·

وقد تعززت الكثلكة في الشام بدخول الرهبان واقدمهم الفرنسيون في القرن الثالث عشر . ثم في القرن السابع عشر الكرمليون والكبوشيون واليسوعيون . ثم في اواخر القرن الثامن عشر اللعازريون وفي القرن التاسع عشر اخوة المدارس المسيحية والاخوة المريميون مع راهبات من رهبانيات مختلفة كراهبات الزيارة وراهبات المحبة واليوسفيات وراهبات القلبين الاقدسين وراهبات السجود وراهبات العائلة المقدسة وراهبات العجز الخ . ولكل من هؤلاء الرهبان والراهبات من المشروعات الجليلة ما يكفي وحده لتشريف الكنيسة الكاثوليكية . ولله الحمد على كل حال .

* * *

المارونية } الموارنة طائفة من النصارى الكاثوليكيين الشرقيين يعرف من تواريخهم انهم ينتسبون الى الناسك البار القديس مارون القورسي النشأة على ما يرجح . اعتزل هذا الفاضل الدنيا في اواخر القرن الرابع ولجأ الى صومعة في قمة جبل غير بعيد عن انطاكية فما لبثت رائحة فضائله ان فاحت في تلك الانحاء فجذبت اليه جماعات من الناس قصدوه ليلتمسوا منه بركته وصلواته ويسترشدوا بتعاليمه ويقتدوا بسيرته . وقد زهد قوم منهم بالدنيا واختاروا العزلة والتفرغ لخدمة الله في المغاور واعالي الجبال ليقيموا بعيدين عن ضوضاء العالم على ان أريج حياتهم الطاهرة لم يمكن اخفاؤه فتقاطر المجاورون حول تلك المناسك وتألفت منهم طائفة عُرفت فيما بعد باسم الطائفة المارونية وكان اهم المراكز التي التفوا حولها دير القديس مارون المبني على ضفاف النهر العاصي في نواحي افامية .

ولما توافر عددهم مسّت الحاجة الى تنظيم احوالهم الروحية فأُقيم لهم بطريرك هو البار يوحنا مارون وبه تبتدئ سلسلة بطاركة الموارنة وعاش هذا البطريرك الاول في اواخر القرن السابع في حين كان للموارنة امراء يديرون شؤونهم الزمنية ثم أخذ الموارنة يهجرون الى الاقطار المجاورة فنزل قوم منهم في جبال عكار وعمروا فيها القرى وسارت فئة نحو الجنوب الى لبنان الشمالي فما عتموا ان قويت شوكتهم فيه فبلغ في القرن العاشر عدد رجالهم الصالحين للقتال اربعين الفاً على ما ذكر مؤرخو الحروب الصليبية .

وقصد فريق منهم سورية الداخلية فاستوطن جوار دمشق واستغل الارض فيها

وبني الدساكر والمرابط · وفريق أمَّ القدس وآخر نزح الى قبرس في ايام الصليبيين وبعض العيال سكنت حلب في اواسط القرن الخامس عشر وهبط بعضهم مصر ورودس ومالطة · على ان الاغلب فضلوا الاقامة في جبال لبنان فاعتصموا بها ونموا وكثروا رغم ما اصابهم من النكبات في اوقات مختلفة · ولما ضاق بهم جبلهم رحل قسم منهم الى بلاد المهجر كاميركة وافريقية واوقيانية حيث الفوا جاليات لها مقامها المعتبر في عالم التجارة والصناعة والادب كسائر اخوانهم اللبنانيين والسوريين وبلغ عدد الموارنة بما فيه المهاجرون خمسمائة الف نسمة ·

اما في الدينيات فيتفق الموارنة مع الكاثوليكيين بمعتقدهم وشرائعهم الدينية والادبية وهم مثلهم خاضعون لسلطة بابا رومية انما لهم وللسريان لغة طقسية واحدة هي السريانية لكنهم يختلفون عن سائر الطوائف بترتيباتهم ونظام ادارتهم الروحي المبينة كلها في دستورهم المجمع اللبناني الذي عقد سنة ١٧٣٦ وفي عاداتهم المشروعة ويرأس الطائفة بطريرك يعرف ببطريرك انطاكية مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين مركزه الشتوي دير سيدة بكركي فوق جونية ومقره الصيفي جديدة قنوبين في لبنان الشمالي فوق طرابلس · ويخضع لادارته مطارنة يقيم بعضهم نواباً له وبعضاً على ابرشيات معينة مستقل بعضها عن بعض ويعهد اليهم في تدبير هذه الابرشيات الروحي والزمني وادارة اوقافها مباشرةً او بواسطة وكلاء يسمونهم لذلك ويراقبون أعمالهم ، وفي الابرشيات كهنة يعنون بخدمة الرعايا · وفي الطائفة جمعيات رهبانية يقيم اعضاؤها في اديارهم ومدارسهم ويتفرغون لخدمة الله والنفوس ·

وكان للموارنة شرع خاص يتقاضون بموجبه اقره لهم جميع الذين حكموا البلاد من نصارى وغير نصارى ولا تزال اغلب قوانينه مرعية الاجراء عندهم حتى اليوم ·

ونبغ منهم في رجال الدين كثيرون نذكر منهم البطاركة جرجس عميرة الذي الف اول غراماطيق سرياني ووضع قواعده باللغة اللاتينية ليسهل على المستشرقين درس هذه اللغة ثم العلامة اسطفانوس الدويهي المؤرخ المشهور ويوسف حبيش وبولس مسعد ويوحنا الحاج والبطريرك الحالي الياس الحويك صاحب المواقف المشهورة في القضايا الوطنية ·

ثم الاساقفة كالمطران جرمانوس فرحات والسيد يوسف سمعان السمعاني ويوحنا حبيب ويوسف الدبس وغيرهم كثيرون من رجال الدين ممن خدموا اللغة العربية والقانون والتاريخ ٠

وبين العلمانيين امراء شهاب وبيت ابي اللمع وأناس امتازوا بخدمة وطنهم واعمالهم المبرورة كآل خازن ودحداح وحبيش والسعد وكرم والظاهر ونبغ غيرهم في خدمة العلم كآل البستاني والشدياق والنقاش والباز ٠ ولا يمكن في عجالة سرد اسماء جميعهم ٠

* * *

البرتستانتية — التأم في اوائل سنة ١٥٢٩ في احدى مدن جرمانيا مؤتمر بامر الامبراطور كارلس الخامس قرر عدم السماح باحداث تغيير في الرسوم الدينية وكان هذا القرار موجهاً ضد الاصلاح والمصلحين ٠ وفي ١٩ نيسان من نفس السنة أرسل كثيرون من الامراء والاشراف واربع عشرة مدينة امبراطورية احتجاجاً قالوا فيه انهم مستعدون ان يطيعوا الامبراطور والمؤتمر في كل القضايا الواجبة والممكنة ولكنهم لا يخضعون لاحد في ما يعتقدونه مخالفاً لكلمة الله وضميرهم ٠ فسموا من ذلك برتستانت او محتجين ومن هذا الوقت أُطلق هذا الاسم على كل المسيحيين من غير اللاتين والكنائس الشرقية بفروعها ٠ وهم يدعون انفسهم غالباً انجيليين ويدعون غيرهم تقليديين نسبةً الى التقليد كما سترى ٠

والبرتستانتية بمعناها اللغوي لا يخلو منها دين او مذهب ففي كل زمان ومكان أفراد وجماعات يحتجون على رسوم في الدين او المذهب الذي ولدوا فيه قد ينجحون او لا ينجحون اما البرتستانت فقد نجحوا نجاحاً لم يقدره احد لهم فعددهم الآن يتجاوز مئتي مليون في الدرجة الاولى عدداً بعد اللاتين وكل من انضم اليهم من الكنائس الشرقية وفي الدرجة الاولى في الرقي وسعة الملك ٠

والبرتستانتية في المسيحية كالوهابية في الاسلام فكل من المذهبين يحصر عقيدته في الكتاب الذي يعتقد انه كتاب الله ٠ ثم ان البرتستانت وان افترقت اكثر فرقهم في امور اكثرها عرضية فهم مجمعون على امور كثيرة واليك التفصيل في ما هم مجمعون

عليه وما هم مختلفون فيه : اهم ما تجمع عليه اكثر فرق البرتستانت (عدا ما هم مجمعون عليه مع غيرهم مما يأتي بيانه) :

(أ) : ان الكتاب المقدس هو القانون الوحيد في كل ما يلزم للخلاص ·

(ب) : ان المسيح هو المخلص الوحيد وليس باحد غيره خلاص ·

(ج) : ان الخلاص كله نعمة مجانية من الله ·

(د) : ان الايمان هو السبيل الوحيدة لنيل الخلاص ·

(ه) : ان الاعمال الصالحة هي ثمر الايمان الحي فنعمل لاننا مخلصون لا لكي نخلص·

والبرتستانت اجمالاً قسمان كبيران — الاول الابسكوبليان اي الاسقفيون وهم الذين يقولون ان درجات الاكليروس ثلاث الاسقف والقسيس والشماس — الثاني البرسبتيريان اي القسوسيون وهم الذين ليس عندهم رتبة أساقفة · واكثر فرق البرتستانت هذا القسم · فالاسقفيون مثلاً يجرون العبادة غالباً بموجب كتاب صلاة اي صورة معينة تتلى وقت عبادة الجماعة · واما العبادة العائلية والاجتماعات الاخرى الروحية فيتركونها لحرية القسيس او من ينوب عنه · اما القسوسيون فالحرية مفوضة للخادم في كل الاوقات · وعندهم بعض صلوات وارشادات مكتتبة لمساعدة القسيس في احوال خصوصية ·

على ان هذا النظام لا يعد جوهرياً فهذه الكنيسة الانكليكانية وهي تجري عبادتها بموجب كتاب صلاة تقول في العقيدة ٣٤ « لا يلزم ان تكون التقاليد والطقوس في جميع الاماكن واحدة متساوية اذ قد اختلفت في كل الازمان و يصح تغييرها على مقتضي اختلاف المكان والزمان وعادات الناس بحيث لا يرتب منها شيء مضاد لكلام الله ··· وكل كنيسة تختص بامة فلها سلطان ان تثبت وتغير وتبطل طقوسها ورسومها التي رتبت بسلطان الناس فقط » ·

وكل الاسقفيين والاكثرية العظمي من غيرهم يجرون السرين المعمودية والشركة ويعمدون الاطفال والبالغين الذين لم يعمدوا أطفالاً اما بعض القسوسيين فلا يعمدون الا البالغين ويسمون بالمعمدانيين وبعضهم لا يجري السرين مطلقاً وهم المعروفون بالفرندس او الكويكرس ·

يتفق البرتستانت مع غيرهم في امور كثيرة جوهرية ويخالفونهم في امور أخرى واليك التفصيل: اهم الامور الجوهرية التي يتفق فيها البرتستانت مع غيرهم . يتفقون في قانوني الايمان — اولاً القانون المعروف بقانون ايمان الرسل وهو يرجع الى اواخر القرن الاول المسيحي بل قيل ان الرسل انفسهم وضعوه — ثانياً قانون الايمان النيقاوي وضعه المجمع المسكوني الاول الذي التأم سنة ٣٢٥ في مدينة نيقية مع ما أضيف اليه في ما بعد سوى عبارة واحدة بخصوص انبثاق الروح من الابن اضيفت فيما بعد لا يقبلها الروم الارثوذكس . و يوجد قانون ايمان ثالث مجمع عليه يسمى قانون مار اثناسيوس ولكنه اقل شهرة واقل استعمالاً من الاولين . ويمكن تلخيص الامور الجوهرية التي يتفقون فيها في ما يأتي: (١) التوحيد والتثليث (٢) الخلق والسقوط والفداء (٣) تجسد الكلمة الازلية المسيح ابن الله من مريم العذراء بالروح القدس وكل ما يتعلق بتاريخ فداء المسيح من ميلاده الى مجيئه الثاني للدينونة (٤) القيامة والدينونة (٥) وجوب التبشير بالمسيح ودعوة الغير الى الايمان به (٦) عدم تحريف الاسفار التي يتفقون على قانونيتها من الكتاب المقدس .

واهم الامور المختلف فيها سلطان الكتاب المقدس . ويعتقد البرتستانت انه المرجع الوحيد المعصوم الذي يجب الرجوع اليه في عقائد الايمان . ويعتقد غيرهم ان للكتاب والتقليد سلطاناً متساوياً ومن هذا يدعوهم البرتستانت تقليديين . والتقليد عند المسيحيين كالتلمود عند اليهود والحديث عند المسلمين . وبعد فلا خلاف بين البرتستانت وغيرهم في عدد اسفار العهد الجديد انما الخلاف في عدد اسفار العهد القديم . فالبرتستانت لا يقبلون الا الاسفار التي يقبلها اليهود وذكر عددها يوسيفوس . وغيرهم يضيف اليها اسفاراً تسمى ابوكريفا وجدت في الترجمة السبعينية مضمومة الى باقي الاسفار . ومع تسليم البرتستانت بلزوم المجامع وفائدتها فهم لا يحسبون لما تقرره قوة ولا سلطاناً الا اذا اثبت من الكتاب المقدس . اما المجامع عند الروم الارثوذكس والمجامع والبابا عند البابويين فهم معصومون من الخطإ في ما يقررونه من عقائد الايمان . و يعتقد البرتستانت ان فرصة الخلاص تنتهي بالموت و به يتقرر حال كل نفس اما في النعيم او في الجحيم . و يتفق معهم غيرهم في حال اهل الجحيم و يخالفون في حال اهل النعيم

فعندهم مكان عذاب وقتي غير الجحيم يسمى عند الباباو بين المطهر وعند الروم الارثوذكس عقالات الجحيم تذهب اليه الانفس لتكفر عن ذنوب صغيرة ، وتصرف فيه مدة تطول وتقصر بحسب عدد تلك الذنوب وصفتها ، ويمكن تقصير هـذه المدة بالصلوات والصدقات . يحصر البرتستانت الشفاعة وطلب الخلاص بالمسيح وغيرهم يطلبهما منه ومن الملائكة والقديسين .

عند البرتستانت سران فقط هما المعمودية والشركة وغيرهم يضيف اليها خمسة فيصير العدد سبعة والمضـافة هي : (١) التثبيت عند اللاتين والموارنة . والميرون عند غيرهم . (٢) الكهنوت . (٣) الاعتراف للكاهن . (٤) الزواج . (٥) المسحة الاخيرة قبل الموت . اما الافاضة في تعريف السر وفاعليته وما يحدث فيه وما يحدثه هو من التغيير وفي سبب هذا الخلاف فانها تخرجنا كثيراً عن المقصد .

والبرتستانت يعترفون لله وحده وللشخص الذي اخطأوا اليه ، ولله وحده عندهم السلطان على مغفرة الخطايا . وغيرهم يوجب الاعتراف للكاهن . وللكاهن سلطان مطلق على غفران الخطايا .

ولما كان البرتستانت في هذه الديار ثمرة الارساليات نرى من الواجب ان نشير الى الداعي الى الارساليات ، فالداعي اليها اوامر الكتاب المقدس الكثيرة ، واهمها امر المسيح الاخير الصريح « اذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم باسم الاب والابن والروح القدس » . وقد أطاع رسله امره وتفرقوا في انحاء العالم المعروف حينئذ وليس لهم ما يستندون عليه امام قوات هذا العالم سوى ايمانهم وثقتهم بوعده . وعدوا مخالفة امره هذا جرماً عظيماً فقال الرسول بولس « اذ الضرورة موضوعة عليَّ فويل لي ان كنت لا أُبشر » . ولا يزال هذا التبشير من مميزات الكنيسة الحقيقيـة ففي العقيدة ١٩ الانكليكانية « كنيسة المسيح المنظورة هي جماعة المؤمنين التي فيها يبشر بكلمة الله النقية » .

وقد وجه البرتستانت قواهم الى هذا الواجب حالما تمكنوا من تنظيم شؤونهم ، فتألفت الجمعيات هنا وهناك ، وربما كان اقدمها جمعية المورافيين نسبة الى مورافيا على ضفاف الدانوب ، وتعرف بجمعية الاخوة المتحدين ، وقد كانوا ولا يزالون في المقدمة بالنسبة الى

عددهم الذي لا يتجاوز ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ · وفي اواخر القرن الثامن عشر زاد عدد الارساليات البرتستانتية وزاد نشاطها · وقد طلبت من امين سر الجمعية (C . M . L .) المستر هاردمان في القدس بعض احصاءات لهذه الارساليات فأرسل آخر ما عرفه منها اعربه بالشكر قال : عدد ارساليات البرتستانت في العالم ٣٨٠ ، عدد المرسلين رجالاً ونساءً ٢٩٠٤٩ والمال الذي صرفته خمسة عشر مليون ليرة انكليزية · « هذا عدا ما جمع في حقول الارساليات نفسها وصرف عليها ايضاً » · وعدد الارساليات في فلسطين ١٧ وعدد المرسلين فيها ١٦٠ ·

وعمل بعض هذه الارساليات عام وبعضها خاص محصور في قارة او مملكة او اقليم او دين او مذهب او رتبة من الناس او الذكور او الاناث او الطب العام او الخاص او طبع الكتب او نشرها او التبشير مجرداً او فتح المدارس فقط · وهذا الاختصاص في الغرب حتى في الامور الدينية هو اساس نجاحه ·

ومن المبادئ الاساسية لهذه الارساليات ان تنظم المهتدين جماعات تشرع بادارة شؤونها بنفسها ، وتسير نحو الاستقلال الاداري والمالي · ومنها عدم التدخل في سياسة البلاد التي يرسلون اليها ، ووجوب اطاعة اوامر حكوماتها ، والمحافظة على قوانينها ونظاماتها في كل ما لا يخالف الضمير بناءً على قول المسيح « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وبناءً على اوامر رسله المتعددة بالصلاة والطاعة للحكام · ومع ذلك فقد اوقعت السياسة الاوربية تهمة المداخلة في السياسة على المرسلين ، لانها استعملت الارساليات على غير قصد من المرسلين جسراً عبرت عليه الى مقاصدها الاستعمارية فشوهت سمعة المرسلين ·

ولقد كان من الطبيعي ان توجه الارساليات افكارها الى هذه البلاد مهبط الوحي ومهد المسيحية لانعاش المسيحية وتبشير غير المسيحيين بها · وفي احصاء بتاريخ سنة ١٩١٣ ان عدد الارساليات في هذه البلاد اكثر من ٣٠ اميركية وانكليزية واسكوتلاندية وايرلندية والمانية ودانماركية ومورافية واسوجية · ويقوم باكثرها افراد او مدينة او جماعة صغيرة واعمالها غالباً محصورة في العواصم كالقدس وبيروت ودمشق او بعض المدن والقرى كيافا وحيفا والناصرة وبيت لحم والخليل ورام الله وصفد والشويفات وبرمانا وبيت مري والشوير وشملان وبعلبك والنبك وديرعطية وغيرها · وليس بين

كل هذه الارساليات سوى ارساليتين عموميتين كبيرتين لهما طائفة منظمة بمجامع وقوانين وميزانية مالية مستقلة عن ميزانية الارسالية، الاولى اميركية قسوسية في الشمال، والثانية انكليزية أسقفية في الجنوب ·

ارسالية الشمال اميركية قسوسية أُسست سنة ١٨١٠ · وسنة ١٨٢١ نزل اول مرسليها من ميناء يافا وشرعت بعملها في القدس وجوارها ، ولكن قضت الاحوال ان ينحصر عملها في الجزء الواقع شمالي رأس الناقورة ، وقام مرسلوها بمبادئ الارساليات البرتستانتية بكل امانة ونشاط وكان لهم اليد الطولى وفضل السبق في نشر العلم ورقي البلاد لا بما عملوه فقط بل بتحريض غيرهم ايضاً ·

ودائرة عمل ارسالية الجنوب من رأس الناقورة شمالاً الى حدود مصر جنوباً ، وهي انكليزية أُسقفية فاعضاؤها من كنيسة انكلترا المثبتة · أُسست في لندن في ١٢ نيسان سنة ١٧٩٩ واسمها جمعية المرسلين الكنسية و يعبرعنها بالاحرف (C. M. L.) وللاحاطة بعمل ارسالية فلسطين لا بد من ذكر لمحة من تاريخ الاسقفية الانكليزية فيها · في سنة ١٨٤١ تأَسست أُسقفية انكليكانية في القدس بالاشتراك مع بروسيا · وكان من مبادئ المرسلين الاولية ان لا يشقوا من الطوائف الاخرى المسيحية طائفة برتستانتية وخصوصاً من طائفة الروم الارثوذكس التي يعتبرونها ام كنائس البلاد · بل قصدوا ان يعملوا بالاتفاق مع رؤسائها لانعاش المسيحية من الغفلة التي استولت على معظم مسيحيي الشرق · ولكن مقاومة هؤلاء الرؤساء وهيجهم طوائفهم على المرسلين وعلى كل من يقترب منهم ، اضطرتهم بعد تردد طويل الى تأليف طوائف · وقد دان بالمذهب البرتستاني من كل طبقات البلاد ، وارتقى كثيرون من اولاد الفقراء والفلاحين الى اسمى ما يمكن الوصول اليه من المراتب · على ان تأثير المرسلين لم يقتصر على العدد القليل من البرتستانت العرب بل عم البلاد بل هم كانوا من اول عوامل الرقي ·

ان لكل من الارساليات المذكورة عمالاً وافراداً متعلقين بها وعددهم بحسب سعة عملها · ولكن للارساليتين السابقتين فقط طوائف برتستانتية منظمة بمجامع وقوانين وميزانية مستقلة عن ميزانية الارسالية كما مر ·

ليس لطائفة البروتستانت العرب كامر قوسية مشيخية وليس لها كتاب صلاة تجري بموجبه عبادة الجماعة سوى بعض ارشادات مطبوعة ضرورية لارشاد القسيس في بعض الواجبات وهو مع ذلك غير مقيد بها . وتستعمل كتاب ترتيل فيه الآن ٤٣٢ ترتيلة بانغام مختلفة غربية وبعض انغام شرقية ، وانما العلامات الموسيقية كلها غربية . وهذا الكتاب مشترك بين سورية وفلسطين ومستعمل للعبادة في الكنيستين .

وعدد نفوس الانجيليين في لبنان ١٠ آلاف نفس . بقي الكنائس الاخرى غير المشيخية منها كنيسة الفرندس في برمانا ورأس المتن والكنيسة المعمدانية في راشيا الوادي وجوارها والكنيسة الانجيلية في دمشق للكنيسة المشيخية الاسكوتلاندية والكنائس الانجيلية في جهات قضاء القلمون وهي تابعة للارسالية الدانيمركية ولها عدة مراكز في النبك وديرعطية و يبرود وصدد وغيرها .

اما طائفة البروتستانت العربية في فلسطين فهي أُسقفية انكليكانية تجري عبادتها بموجب كتاب الصلاة العامة المترجم عن الانكليزية مع عقائد الدين التسع والثلاثين وكتاب الترتيل المشترك مع كنيسة سورية . رسم اول قسوسها الوطنيين سنة ١٨٧١ في الناصرة وكانت طائفة الناصرة في مقدمة كنائس فلسطين في إقامة الاوقاف والسعي نحو الاستقلال وكان احد افرادها عودة عزام المستوطن القدس في الربع الثالث من القرن الماضي وقف املاكه كلها لكنيسة القدس واصبحت الآن ذات قيمة كبيرة . وتبعه غيره في الوقف على الكنائس . ويبلغ مجموع البروتستانت في فلسطين وشرقي الاردن نحو ثمانية آلاف انسان .

وبعد فان في العالم اجمع الآن حركتين متضادتين نعبر عنهما بالجذب والدفع ، فبينما انت ترى الشعوب تتحرك بدفع بعضها عن بعض فتتألف كتلاً متفرقة تجدها في نفس الوقت تنجذب وتتقارب وتتفاهم وتسعى لتوحيد هذه الكتل او ربط بعضها ببعض على الاقل ، وعلى الرغم مما تجده من التباعد بحركة الدفع والتمركز نجد الناس يقرب بعضهم الى بعض بحركة الجذب ، والعامل الاقوى في حركة الجذب سرعة المواصلة وانتشار العلم ، فسرعة المواصلة قربت الناس بعضهم من بعض فأخذوا يتفاهمون ، والعلم جعلهم يحكمون العقل اكثر من العواطف فرأوا ان كثيراً من الفوارق اما وهمية

او عرضية او مبالغ فيها · وما يجري في الدائرة البشرية الاجتماعية يجري في الدائرة الدينية · فعلى الرغم من بعد مسافة الفوارق الدينية والمذهبية نجد اهل هذه الاديان والمذاهب اكثر تسامحاً واسرع سعياً نحو الاتفاق ، حتى في الاديان التي نراها على اعظم مسافة من البعد ، فلا تكاد تمر سنة حتى يعقد مؤتمر الاديان يجتمع فيه نواب معظم الاديان الالهية كالمسيحية والاسلام واليهودية وغير الالهية كالبوذية وغيرها · وقد عقد اول مؤتمر رسمي في ١٦ ايلول سنة ١٩٢٤ في سوق الغرب اجتمع فيه نواب الجهتين للسعي في زيادة الاتحاد وتوحيد النظام ·

* * *

السنة — لا يخفى ان الاحكام الشرعية التي علمت من الكتاب والسنة ثلاثة أقسام : الاول الاحكام الاعتقادية واصولها المجملة ستة الايمان بالله وبالملائكة وبالكتب وبالرسل وباليوم الآخر وبالقدر · ويقال لجميع هذه الاحكام دين الاسلام وهي ما جاء به جميع الانبياء · وهذه وان كانت في تعيينها مذاهب عديدة الا ان ماعدا مذهب اهل السنة باطل ·

القسم الثاني الاحكام العملية وهي عشرة : الفرض ، الواجب ، السنة ، الاستحباب ، الاباحة ، الحرمة ، الكراهة التحريمية ، الكراهة التنزيهية ، الصحة ، الفساد · ولا يخلو فعل العاقل البالغ عن حكم منها ، فالشرائع المتعلقة بافعال المكلفين ثلاثة أنواع إجمالية · الاول العبادات وهي عبارة عن الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر الفرائض والواجبات · الثاني المعاملات كالنكاح والطلاق والهبة والوصية والبيع والشراء والكفالة والوكالة · الثالث العقوبات كالدية والكفارة والفدية والقصاص ، وفي تعيينها مذاهب كثيرة الا انه تقرر فيها المذاهب الاربعة ، وأصحابها ابوحنيفة نعمان بن ثابت ، ومحمد بن ادريس الشافعي ، ومالك بن أنس ، واحمد بن حنبل ، فما اتفق عليه هؤلاء الائمة الاربعة هو حق وصواب ، وما اختلفوا فيه يحتمل الخطأ والصواب ، لان كل مجتهد يخطئ ويصيب ، والحق واحد لا يتعدد ، وكل مؤمن مأمور باتباع مذهب منها اذا لم يكن بلغ مرتبة الاجتهاد ، ويلزمه الاعتقاد بصواب متبوعه ، اذ لا يجوز له تقليده ان اعتقد خطأه ·

القسم الثالث الاحكام الشرعية المتعلقة باحوال القلوب ، والمتكفل بذلك علم الاخلاق والتصوف . والقصد هنا بيان اعتقاد اهل السنة والجماعة في القسم الاول . وينبغي ان نبين اولاً من هم اهل السنة والجماعة ثم نذكر عقائدهم اذ ربما يظن بعض الناس ان كل من يطلق عليه اسم المسلم هو من اهل السنة والجماعة ، وليس الامر كذلك فان اهل البدع والاهواء مخالفون لاهل السنة والجماعة ، والحال ان فيهم من يعد من اهل ملة الاسلام ، لذلك رأيت من اللازم اولاً بيان من هم اهل السنة والجماعة ، ثم بيان عقائدهم التي اتفقوا عليها ، ولم أتعرض للمخالفين لهم ولا لذكر حجج الطرفين ، وسرد المسائل التي وقع فيها اختلاف بين الاشعرية والماتريدية لما ان ذلك خارج عن موضوع الخطط وانما هو من خصائص الكتب الكلامية ، بل اقتصرت على أهم المسائل الاعتقادية التي يكلف كل مؤمن باعتقادها .

اما اهل السنة والجماعة فهم السلف الصالح من أئمة الدين والفقه واهل الحديث ومن اخذ عنهم ، وهم الذين عناهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المروي عن ابي هريرة وهو قوله صلى الله عليه وسلم : افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، وفي رواية زيادة كلها في النار الا واحدة ، قيل من هي قال : ما انا عليه وأصحابي .

وقد ألّف العلماء كتباً لبيان هذه الفرق ومقالاتها كالشهرستاني وابن حزم وعبد القاهر البغدادي وغيرهم . اذا أطلق اهل السنة والجماعة يراد بهم الاشعرية والماتريدية ، اما الاشعرية فهم أصحاب الامام ابي الحسن علي بن اسماعيل من ذرية ابي موسى عبدالله ابن قيس الاشعري الصحابي الجليل . اخذ علم الكلام اولاً عن شيخه محمد بن عبدالوهاب الجبائي شيخ المعتزلة وتبعه في الاعتزال حتى صار للمعتزلة اماماً ، ثم رجع عن مذهبه وصنف كتباً في الرد عليهم ، وأجمع على عقيدة الاشعري المالكية والشافعية وبعض الحنفية وفضلاء الحنابلة ، ولم يكن ابو الحسن اول متكلم بلسان اهل السنة انما جرى على سنن غيره او على نصرة مذهب معروف فزاد المذهب حجة وبياناً ، وليس له في مذهب السلف اكثر من بسطه وشرحه وتآليفه في نصرته . ولد سنة ستين ومائتين وتوفي سنة اربع وعشرين وثلاثمائة .

واما الماتريدية فهم اصحاب الامام ابي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي نسبة الى قرية بسمرقند ، الحنفي المتكلم ناصر السنة وقامع البدعة ومحيي الشريعة ، كان اماماً جليلاً مناضلاً عن الدين موطداً لعقائد اهل السنة قطع المعتزلة وذوي البدع في مناظراتهم ، وله مصنفات منها كتاب التوحيد وكتاب بيان وهم المعتزلة وكتاب تأويلات القرآن وهو كتاب لا يوازيه فيه كتاب .

وليس هو من اتباع الأشعري لكونه اول من أظهر مذهب اهل السنة كما ظن . لان الماتريدي مفصل لمذهب الامام ابي حنيفة واصحابه المظهرين قبل الاشعري مذهب اهل السنة . وكانت وفاته بسمرقند سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة .

والحاصل ان كلاً من هذين الامامين الجليلين ابي الحسن وابي منصور لم يبدعا من عندهما رأياً ولم يشتقا مذهباً انما هما مقرران لمذاهب السلف مناضلان عما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . احدهما قام بنصرة مذهب الشافعي وما دل عليه والثاني قام بنصرة مذهب ابي حنيفة وما دل عليه . وناظر كل منهما ذوي البدع والضلالات حتى انقطعوا .

ومما ينبغي ان يعلم انه ليس بين هاتين الطائفتين اختلاف في اصول الدين وانما اختلفوا في بعض مسائل متفرعة عن الاصول لا تستلزم تضليلاً ولا تفسيقاً .

ثم ان عقائد اهل السنة والجماعة تنحصر في اربعة اركان هي مبنى الايمان : الالهيات والصفات والافعال والسمعيات .

(الركن الاول في ما يجب لله تعالى وما يجوز وما يستحيل) — العالم بجميع أجزائه حادث وجد بعد ان لم يكن ، وهو قابل للفناء وله صانع واجب الوجود لذاته ممتنع العدم بالنظر لذاته ، واحد لا شريك ولا مثيل له في ذاته وصفاته وافعاله ، قديم لا بداية له ، أبدي لا نهاية له ، متصف بصفات الكمال ، منزه عن سمات النقص ، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ، ولا تحله الجواهر ولا الاعراض ، ولا يحل في غيره ولا يتحد بغيره ، ولا يقوم بذاته حادث ، منزه عن التحول والانتقال ، استوى على العرش على الوجه الذي عناه و بالمعنى الذي أراده ، استواءً يليق بجلال ذاته ، وهو فوق سمواته فوق عرشه ، مباين لخلقه لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون

بقدرته ، ومع ذلك فهو قريب من كل موجود بل هو اقرب الينا من حبل الوريد ·

وهو تعالى مرئي للمؤمنين بالابصار في دارالقرار، فيرونه لا في مكان ولا على جهة من مقابلة واتصال شعاع او ثبوت مسافة بين الرائي والمرئي ·

(الركن الثاني في العلم بصفاته تعالى) الله تعالى متصف بالعلم والقدرة و لارادة والسمع والبصر والكلام والحياة ، وهي صفات له أزلية ونعوت له أبدية ، فهو تعالى قادر على جميع الممكنات ، وجميع الحوادث واقعة بقدرته تعالى ، وقدرة الله على المقدورات كلها قدرة واحدة ، يقدر بها على جميع المقدورات على طريق الاختراع دون الاكتساب ، ومقدوراته تعالى لا تفنى ·

وهو سبحانه مريد لافعاله فلا وجود الا وهو مستند الى مشيئته وصادر عن إرادته ، لا يقع شيء في العالم الا بارادته ومشيئته ، فالخير والشر والطاعة والمعصية واقعة بارادة الله تعالى وقضائه وقدره ومشيئته ، ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وإرادته تعالى قديمة وهي في القدم تعلقت باحداث الحوادث في اوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الازلي ، والارادة غير الامر لانه قد يأمر بالشيء ولا يريده ، ويريد الشيء ولا يأمر به ، ويريد الشيء ويأمر به ، ولا يريد الشيء ولا يأمر به ·

وغير الرضا ايضاً فان الارادة قد تتعلق بما لا يرضى به الله تعالى كالكفر الواقع من الكفار فانه تعالى أراده ولم يرض به ولا يرضى لعباده الكفر ، وليست عين العلم لان العلم يتعلق بالواجب والمستحيل والجائز ، والارادة لا تتعلق الا بالجائز ·

وهو تعالى عالم بجميع الموجودات كلياتها وجزئياتها ومحيط بكل المخلوقات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السموات ، وعلمه واحد يعلم به جميع المعلومات على تفصيلها من غير حس ولا بداهة ولا استدلال عليه ، وعلمه قديم لم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة بالعلم الازلي ·

وهو تعالى حي وحياته بلا روح ولا اغتذاء ، وجميع الارواح مخلوقة ، والحياة شرط في العلم والقدرة والارادة والرؤية والسمع فمن ليس بحي لا يصح ان يكون عالماً قادراً مريداً سامعاً مبصرا ·

وهو سبحانه سميع بصير يسمع و يرى لا يعزب عن سمعه مسموع وان خفي ، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وان دق ، ولا يحجب سمعه بُعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، لم يزل رائياً لنفسه ، وسامعاً لكلام نفسه ، وان الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالبصر ، وان كليهما غير الانكشاف بالعلم ، بل لكل منهما حقيقة يفوض علمها لله تعالى . وهو تعالى متكلم بكلام قائم بذاته ليس بحرف ولا صوت هو به آمر ناهٍ مخبر وان القرآن كلام الله غير مخلوق ،

(الركن الثالث في الافعال) الله تعالى لاخالق سواه وكل حادث في العالم حدث بقدرته وخلقه لامحدث له غيره ، وجميع أفعال العباد اختيارية اواضطرارية ، مخلوقة له تعالى ومتعلقة بقدرته وانما الله تعالى خالق في العبد قوة تسمى الارادة الجزئية واقدر عبده على صرف هذه القوة الى ما شاء من جزئيات المأمورات والمنهيات باختياره ، وهذا الصرف هو الذي يسمى بالكسب تارة و بالميل والجزء الاختياري تارة أُخرى . ويسمى ايضاً بقدرة العبد . وقد جرت عادة الله تعالى انه لا يخلق القدرة على المعصية في اعضاء العبد حتى يصرف العبد ارادته الجزئية اليها ، فاذا صرفها اليها بان مال قلبه وعزم عليها فهناك يخلق الله تعالى القدرة في اعضائه على فعلها فيفعلها فقدرة العبد التي هي الميل المذكور مقارنة لايجاد الله تعالى ليس لها تأثير في ايجاد الفعل بل مجرد مقارنة .

وهو تعالى لا يجب عليه شيء من فعل الاصلح لعباده ، ورعاية الحكمة والمصلحة في فعله ، فله ان يعذب على الطاعات و يثيب على المعاصي ، وان يبتلي عبده بضروب الآلام من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق ، ولا يعد ذلك منه قبيحاً ولا ظلماً لانه يتصرف في ملكه لا في ملك غيره ، يفعل ما يريد ، ولا حاكم عليه بل له الحكم ، وانما يثيب على الطاعة بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم و يعاقب على المعصية عدلاً منه تعالى ، وقد راعى الحكمة فيما خلق وامر تفضلاً منه ورحمة ولا باعث له على الفضل .

بعثة الانبياء ممكنة عقلاً وواقعة قطعاً ، وفي وقوعها حكمة بالغة ورحمة للعالم شاملة ، واحتياج الناس الى الانبياء كاحتياجهم الى الاطباء ، النبوة انما تحصل بمجرد

اصطفاء الهي لا باستحقاق من المبعوث واجتماع شروط فيه ، بل الله يختص برحمته من يشاء وهو تعالى اعلم حيث يجعل رسالته ، وقد ارسل الله تعالى رسلاً من البشر الى البشرمبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة ، وايدهم بالمعجزات الخارقة للعادات المقرونة بالتحدي وكلهم جاؤا بتوحيد الله تعالى والنهي عن الشرك واخلاص العبادة له تعالى ، وهم صادقون فيما جاؤا به مصونون عن التحريف والتبديل ، معصومون من كل نقص حسي (١) او معنوي مبلغون اممهم جميع ما أمروا بتبليغه ، واولهم آدم وآخرهم نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ·

ان الله سبحانه ارسل نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم الى الخلق كافة بشيراً ونذيراً ، وجعله خاتم النبيين فلا نبي بعده وايده بالمعجزات الباهرة ، والبراهين الظاهرة ، وانزل عليه القرآن الكريم الذي هو له معجزة باقية الى يوم الدين فنسخ بشرعيته الشرائع التي كانت قبله الا ما قرر منها ، وفضله على سائر الانبياء ، وجعل الشهادة له بالرسالة شطر الايمان ، والزم الناس تصديقه في جميع ما اخبر به عنه ، وامره بتبليغ ما انزل عليه فقال تعالى : « ياايها الرسول بلغ ما انزل اليك » فبلغ صلوات الله وسلامه عليه الرسالة وادى الامانة ونصح الامة حتى اتاه اليقين ·

ان لله تعالى ملائكة هم عباد الله المكرمون ورسل الله بينه وبين انبيائه وامناؤه على وحيه لا يعصون الله ماامرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لا يوصفون بذكورة ولاانوثة ، ولا يأكلون ولا يشربون ، ولا يعلم حقيقتهم ولا عددهم الا خالقهم ، وهم اجسام لطيفة نورانية يروننا ولا نراهم بصورهم الاصلية ·

(الركن الرابع في السمعيات) ان لهذه الدنيا اجلاً محدوداً فاذا جاء اجلها يتبدل نظام هذا الكون ، فتبدل الارض غير الارض والسموات غير السموات ، ويعيد الله تعالى الارواح الى الاجساد ، ثم يجازي الله تعالى كل نفس بما كسبت امابنعيم ابدي او عذاب سرمدي وجميع ما اخبر به الصادق من عذاب القبر ونعيمه ، وسؤال الملكين

(١) النقص الحسي يكون في الذات كالجذام والبرص والعمى والجنون ، والمعنوي يكون في الصفات كدناءة الحرفة ودناءة النسب وكالمعاصي الكبائر والصغائر ·

ووزن الأعمال ، والمرور على الصراط ، والشفاعة لمن أذِن له الرحمن ، جميع ذلك حق يجب الايمان به ·

* * *

الشيعة | الشيعة لفظ معناه الأتباع والأنصار يطلق على الواحد والمثني والجمع والمذكر والمؤنث نقول هو شيعة وهي شيعة وهما وهم وهن شيعة وجمعه شيع وأشياع ، ثم صار علماً بالغلبة على اتباع علي بن ابي طالب عليه السلام ·

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثل سلمان الفارسي القائل بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلي بن ابي طالب والموالاة له · ومثل ابي سعيد الخدري الذي يقول أُمر الناس بخمس فعملوا باربع وتركوا واحدة · ولما سئل عن الاربع قال الصلاة والزكاة وصوم شهر رمضان والحج قيل فما الواحدة التي تركوها قال ولاية علي بن ابي طالب قيل له وانها لمفروضة معهن قال نعم هي مفروضة معهن · ومثل ابي ذر الغفاري وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت وابي ايوب الانصاري وخالد بن سعيد بن العاص وقيس بن سعد بن عبادة وكثير أمثالهم · ومن ارادهم فليراجع كتاب الدرجات الرفيعة لابن معصوم ·

عرف هؤلاء باسم شيعة علي ثم غلب فأُطلق فقيل لهم شيعة · ذكر ابو حاتم الرازي في كتاب الزينة في الالفاظ المتداولة بين ارباب العلوم على مانقل في كتاب الروضات ان اول اسم ظهر في الاسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (الشيعة) وكان لقب اربعة من الصحابة وهم ابو ذر وسلمان وعمار والمقداد الى ان آن اوان صفين فاشتهر بين موالي علي عليه السلام · ومهما تكن منزلة هذه الرواية من الثقة فالامر الذي لا خلاف فيه انه لما استقل الأُمويون بالامر وناهضوا الهاشميين واتباعهم تلك المناهضة الشديدة كان اسم الشيعة على اطلاقه علماً على اتباع آل البيت ·

اما ما ذهب اليه بعض الكتاب من ان اهل مذهب التشيع من بدعة عبد الله بن سبا المعروف بابن السوداء فهو وهم وقلة علم بحقيقة مذهبهم · ومن علم منزلة هذا الرجل

عند الشيعة و براءتهم منه ومن اقواله واعماله وكلام علمائهم في الطعن فيه بلا خلاف بينهم في ذلك ، على مبلغ هذا القول من الصواب ·

لا ريب في ان اول ظهور الشيعة كان في الحجاز بلد المتشيع له · وكان التشيع هناك ضعيف الحول ولكنه مكين في قلوب اهله · ثم استفحل امره في العراق زمن خلافة علي عليه السلام · اما في الشام فالمعروف بين الشيعة في جبل عامل خلفاً عن سلف ان الذي دلَّهم على هذا المذهب ابو ذر الغفاري لما سُيِّر الى الشام ولا يزال في قرية الصرفند (بين صيدا وصور) له مقام معروف باسمه اتخذ مسجداً معموراً وهو غير مسجد القرية الجامع وفي قرية ميس الجبل له مقام آخر · وميس هذه قرية في جبل عامل على طريق القادم من دمشق · وروى الحر العاملي في كتابه امل الآمل ان ابا ذر لما أُخرج الى الشام تشيع فيها جماعة ثم أُخرجه معاوية الى القرى فوقع في جبل عامل فتشيعوا من ذلك اليوم · ثم ذكر رواية عن الامام ابي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وقد سئل عن اعمال الشقيف فقال ارنون وبيوت وربوع تعرف بسواحل البحار واوطئة الجبال هؤلاء شيعتنا حقاً ·

وفي كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرئيل القمي رواية مسندة الى عمار ابن ياسر وزيد بن أرقم تدل على انه كان زمن خلافة علي عليه السلام قرية في الشام عند جبل الثلج تسمى اسعار اهلها من الشيعة ، وأسعار هذه قرية خربة بين مجدل شمس وجباتا الزيت وهناك نهر يعرف بنهر اسعار ·

المتاولة جمع متوالي مأخوذ من الموالاة وهي الحب ، لموالاتهم اهل البيت واتباعهم طريقتهم · والظاهر ان تلقيبهم بهذا اللقب في جبل عامل لم يتقدم عن القرن الثاني عشر للهجرة لان كل المؤرخين قبل هذا القرن لم يعرفوا لهم هـذا اللقب ولم ينبزهم به احد منهم وكانوا اذا أرادوا ذلك تجنبوا الشيعة وقالوا الرافضة كما فعل المحبي في خلاصة الاثر · ولكن من تأخر عن القرن الحادي عشر لم يلزمهم بترك نبزهم به كما فعل المرادي في سلك الدرر فانه لم يذكرهم في جبل عامل الا باسم المتاولة وفاقاً للشهرة في عصره ·

وقد جاء في احدى « السالنامات » التركية ان ابتداء ظهور المتاولة سنة ١١٠٠

للهجرة . وعلى الجملة ان هذا اللقب أُطلق عليهم لما أظهروا وجودهم السياسي وخلعوا طاعة أُمراء لبنان واجتمعوا جملة واحدة في جبل عامل تحت قيادة آل نصار الوائليين وفي بعلبك تحت لواء بني حرفوش وفي شمالي لبنان بزعامة المشايخ آل حمادة .

كانوا يومئذ (ينتخون) باسم بني متوال فعرفوا به واشتهر عنهم ويدلنا على ذلك ان هذا اللقب لم يكن الا للذين دخلوا في غمار تلك الفتن فعرف به شيعة جبل عامل وبعلبك وشمالي لبنان ولم يعرف لشيعة حلب وحمص وحماة ولا لشيعة دمشق الا الذين تديروا الصالحية وأطراف الميدان وهم من مهاجرة بعلبك وجبل عامل .

الشيعة في الشام هم في جبل عامل ، وهو البلد الواقع بين صفد جنوباً ، ونهر الاولي شمالاً ، وغور الحولة وما حاذاه الى ارض البقاع شرقاً ، والبحر المتوسط غرباً . وفي مدينة بعلبك واعمالها وزمنهم فيها قديم .

وفي أعمال حمص قرى قليلة لهم وفي نفس المدينة جماعات ظاهرة ومستترة وفي أعمال ادلب قرى الفوعة ونبُّل وغيرهما وكلها شيعة وفيها الى اليوم السادة بنو زهرة نقباء الاشراف في مدينة حلب في الزمن السالف . وكل هؤلاء من بقايا زمن الحمدانيين ومن فلول شيعة حلب يوم تشتت شملهم .

وفي دمشق و يرجع عهدهم الي القرن الاول للهجرة وفي اكناف حوران وهم من مهاجرة جبل عامل وفي شمالي لبنان والمتن والبترون وهم من مهاجرة بعلبك . ولا يقل عدد نفوس الشيعة في الشام عن مائتي الف من الامامية .

معتقدات الشيعة ، وهم فرقة من المسلمين ، اعتقادات المسلمين العامة عينها ولكنهم في الاصول يخالفون اهل السنة بالامامة ، وهي عندهم رياسة عامة في امور الدين والدنيا لشخص من الاشخاص بحق النيابة عن النبي وهي واجبة عقلاً على الله لانها لطف وكل لطف واجب عليه تعالى ولذلك خالفوا المعتزلة القائلين بوجوبها على الخالق عقلاً والأشاعرة القائلين بوجوبها على الخلق شرعاً .

و يجب عندهم ان يكون الامام معصوماً وانفرد بهذا الشرط الامامية والاسماعيلية من الشيعة ، وان يكون منصوصاً عليه وان يكون أفضل اهل زمانه .

وان الأئمة اثنا عشر اولهم علي بن ابي طالب المنصوص عليه من الرسول صلى الله

عليه وسلم وآخرهم محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى عام ٢٦٠ في سر من رأى وهو حي يرزق ولا يعلم الناس مقره وسيظهر في آخر الزمان في مكة المكرمة وقد قال بقولهم هذا فريق من اهل السنة . واما القول بانه يخرج من سرداب سر من رأى فلم يقل به احد من الشيعة وان نسبه اليهم من لا يعرف مذهبهم جهلاً بحقيقة الحال .

و يخالفون الاشاعرة في بعض صفاته تعالى فالاشاعرة تقول في كونه تعالى متكلماً ان الكلام معنى قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا شيء من أساليب الكلام وهو قديم . والشيعة والمعتزلة يقولون ان الكلام قائم بالغير يراد من كونه متكلماً فعل الكلام لا ان الكلام قائم به ولذلك فالكلام حادث .

والاشاعرة تقول ان افعاله تعالى لا لغرض والا لكان ناقصاً مستكملاً بذلك الغرض . وعند الامامية ان أفعاله معللة بالعلل والاغراض والا لكان عابثاً والغرض عائد لغيره اما لمنفعة العبد او لاقتضاء نظام الوجود ذلك الغرض .

والاشاعرة تقول ان الافعال كلها واقعة بقدر الله وانه لا فعل للعبد اصلاً . وقال بعضهم ان للعبد من ذلك الكسب اي كونه طاعة او معصية . وقال آخرون ان العبد اذا صمم خلق الله الفعل عقيب التصميم وانه تعالى فاعل للكل حسناً اوقبيحاً .

والشيعة امامية او زيدية يقولون بقدرة العبد واختياره وانه ليس بمجبور على فعله بل له ان يفعل وله ان لا يفعل وان الفعل منسوب اليه نفسه وانه يستحيل عليه تعالى فعل القبيح . وقالت الامامية بوجوب اللطف عليه تعالى وهو مايقرب من الطاعة و يبعد عن المعصية ولا حظ له في التمكين ولا يبلغ درجة الالجاء .

وقالوا بجريان المسببات عن أسبابها فالشبع مثلاً شيء حادث عن الاكل لا انه شيء يحدثه الله عند الاكل .

وقالت الاشاعرة بامكان الرؤية البصرية يوم القيامة على الله تعالى . وقالت الشيعة والمعتزلة باستحالتها مطلقاً .

وقالت الاشاعرة في الحسن والقبح بانهما شرعيان اي انه ليس في العقل ما يدل على الحسن والقبح بل ما حسنه الشرع فهو حسن وما قبحه فهو قبيح . وقالت الشيعة

الامامية بان الحسن حسن في نفسه يستحق صاحبه المدح والقبيح قبيح بنفسه يستحق صاحبه الذم ولا يتوقف ذلك على حكم الشارع ·

و يقولون ان العدل صفة من صفاته تعالى واجبة الثبوت له · هذه أُمهات المسائل الاصولية التي يخالفون فيها بعض فرق المسلمين كالاشاعرة وربما وافقهم في اكثرها غيرهم كالمعتزلة · واما في الفروع فلا تكاد تجد لهم قولاً مخالفاً لا يكون قائلاً به غيرهم من فرق المسلمين اليوم ·

نعم انفردوا اليوم بالقول بالمتعة وان كان اثرها في العرب منهم قليلاً بل اندر من النادر · وهي متعتان متعة النكاح ومتعة الحج ، فالاولى هي الزواج الى اجل مسمى تحل عقدته بانقضاء الاجل ، وعلى الزوجة المتمتع بها بعد انقضاء الاجل ان تعتد العدة الشرعية فلا تنكح زوجاً غيره حتى تنقضي عدتها ، ولا بد فيها من ذكر المهر والاجل ولا توارث بينها وبين الزوج للدليل الخاص الا مع الاشتراط ولكن الولد منها ولد شرعي لا فرق بينه وبين اخوته · واما متعة الحج فهي الطواف الاخير المعروف بطواف النساء فلا تحل للمحرم النساء حتى يأتي به ·

ومنها في الميراث مسألة العول والتعصيب فهم ينكرون العول · و يقول امامهم جعفر بن محمد الصادق على ان الذي احصى رمال عالج يعلم ان المواريث لا تعول و يجرون فيما جاء من ذلك على قاعدة من له الغنم فعليه الغرم ·

ولا يقولون بالتعصيب بل يرثه اقرب الناس اليه ، وطبقات الارث في النسب ثلاث : الآباء والابناء ، والاخوة والاجداد ، والاخوال والاعمام · فالمتقدمة من هذه الطبقات تحجب ما بعدها ، فاذا كان ذو فرض اخذ فرضه ورُدَّ الباقي على نفس الطبقة لا يتعداها سواء كان المردود عليه ذكراً او أُنثى ·

فاذا مات الميت عن بنت واب اخذت البنت النصف والاب السدس بالفرض ورد الباقي عليهما كل بقدر سهمه لانهما من طبقة واحدة فلو لم يكن له اب بل جد او اخ كان الرد على البنت لانها من الطبقة الاولى والجد والاخ من الطبقة الثانية فهي اولى منه بآية واولو الارحام ·

ويقولون بالجمع بين صلاتي الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء سفراً وحضراً ولكن التفريق افضل ٠

واذا قال القائل لزوجته انت طالق ثلاثاً فان كانت جامعة لشروط الطلاق وقعت واحدة والا كان الطلاق باطلاً ٠ وشرط صحة الطلاق ان تكون الزوجة طاهرة في طهر لم يواقعها الزوج فيه وان يكون الطلاق بشهادة ذوي عدل ٠

وتجتمع الشيعة في ايام عاشوراء فتقيم المآتم على الحسين بن علي شهيد كربلاء عليه السلام وعهدهم بذلك بعيد يتصل بعصر الفاجعة واول من رثاه ابو باهل الجمحي بقصيدة يقول فيها :

تبيت النشاوى من أُمية نوَّماً ... وبالطف قتلى ماينام حميمها

والظاهر من سيرة ديك الجن الحمصي في كتاب الاغاني ان هذه الاجتماعات للمآتم كانت معروفة في زمانه ٠ ثم ان بني بويه ايام دولتهم عنوا بها مزيد العناية ٠ ولا تزال الى اليوم تقام في جميع اقطار الشيعة وليست هي من الفروض كما يتوهم بل يستحبونها لانها تصدر عن ولاء ومحبة ٠ وقد تطرف بعض العجم فأبدعوا فيها بدعاً يمقتها الله والناس من ضرب انفسهم بالمدى واسالة الدماء على اثوابهم وعمل ما يسمونه (الشبيه) وقد مقته العلماء من الشيعة ولم تذعن لهم به العامة في كثير من البلدان التي استحكمت فيها هذه العادة ٠

* * *

الباطنية ـ أُطلق هذا اللقب على فرق خالفت الاسلام مدعية بان لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً ٠ ولهم القاب كثيرة سوى هذه على لسان قوم قوم ٠ فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية ، وبخراسان التعليمية والملحدة ، وهم يقولون نحن اسماعيلية لانا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص ، ثم ان الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على ذلك المنهاج — هذا ما قاله الشهرستاني ٠ وقال عبد القاهر البغدادي ان الذين وضعوا اساس دين الباطنية كانوا من اولاد المجوس ، وكانوا مائلين الى دين اسلافهم ، ولم يجسروا على اظهاره خوفاً من سيوف المسلمين فوضع

الاغمار منهم اساسًا من قبلها صار في الباطن الى تفضيل اديان المجوس ، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبي عليه الصلاة والسلام على موافقة اساسهم . ولما تأولت اصول الدين على الشرك احتالت ايضاً لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدي الى رفع الشريعة او الى مثل أحكام المجوس .

وذكر انه خرج منهم أناس بالبحرين والقطيف والاحساء ومنهم من ظهر في طريق الحجاز واستولى على مكة . ومنهم من ظهر بالقيروان واستولى باتباعه على بلاد المغرب . ومنهم من استولى على هجر . ومنهم من ظهر باليمن وقتل الكثير من اهلها . ومنهم من خرج بالشام وهو ابو القاسم بن مهرويه . وان زعيمهم الاول ميمون بن ديصان كان مجوسيًا اولاً . ومنهم من نسب الباطنية الى الصابئين الذين هم بحرّان واستدل على ذلك بان حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية . واستدل على ذلك ايضاً بان صابئة حران يكتمون أديانهم ولا يظهرونها الا لمن كان منهم . والباطنية ايضاً لا يظهرون دينهم الا لمن كان منهم ، بعد احلافهم اياه على ان لا يذكر أسرارهم لغيرهم . قال عبد القاهر : الذي يصح عندي من دين الباطنية انهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم الى استباحة كل ما يميل اليه الطبع . والارجح ان المحور الاعظم الذي تدور عليه الباطنية هو مسائل الملك والسلطان وهي أشبه من بعض الوجوه بالطريقة الماسونية .

وعلى الجملة فان منشأ هذه المذاهب خلافة علي بن ابي طالب ، وطلب شيعته باسمه الملك فغالوا فيه مغالاة عظيمة حتى أخرجه بعضهم عن البشرية . وقد كان اكثر اهل الشام في القرون الثلاثة الاولى للاسلام على ما يظهر من مذاهب النصارى ، والمسلمون أقل منهم . ولقد انتهى الحال بجميع القبائل القديمة في الشام مثل بني كلاب وبني جذام وبني عاملة ان دانوا بالاسلام ولم يتخلف عنهم بادئ بدء سوى تنوخ في حلب وتغلب في شمالي شرقي تدمر . ولما مرّ السائح ويليبالد في القرن الاول للهجرة بحمص كانت نصف مسلمة وقويت حركة الاسلام في القرون التالية لما سكنها العباس من قواد المروانيين في خمسين من اولاده .

وكانت الشام في الاسلام توالي عليًا واصحابه تارة وتوالي غيره أخرى . وكان

اهل حلب سنية حنفيـة حتى قدم الشريف ابو ابراهيم الممدوح فصار فيهـا شيعية وشافعية . واتى صلاح الدين وخلفاؤه فيها على التشيع كما اتى عليه في مصر . وكان المؤذنون في جوامع الشهباء يؤذنون بحي على خير العمل . وحاول السلجوقيون مرات القضـاء على التشيع فلم يوفقوا الى ذلك . وكان حكم بني حمدان وهم شيعة من جملة الاسباب الداعية الى تأصل التشيع في الشمال . ولا يزال على حائط صحن المدفن الذي في سفح جبل جوشن بظاهر حلب ذكر الأئمة الاثني عشر وقد خرب الآن . وفي سنة ١٤١ ظهر في حلب قوم يقال لهم الراوندية خرجوا بحلب وحيران وكانوا يزعمون انهم بمنزلة الملائكة وصعدوا تلاً بحلب فيما قالوا ولبسوا ثياباً من حرير وطاروا من التل فكسروا وهلكوا .

وصف المقدسي مذاهب الشام في القرن الرابع للهجرة فقال ان السامرة فيه من فلسطين الى طبرية ولا تجد فيـه مجوسياً ولا صابئـاً ؛ مذاهبهم مستقيمة اهل جماعة وسنة . واهل طبريا ونصف نابلس وقَدَس واكثر عمان شيعة ولا ماء فيه لمعتزلي انما هم في خفية وببيت المقدس خلق من الكرّامية لهم خوانق ومجالس ولا ترى به مالكيًا ولا داودياً ، وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب اصحاب الحديث ، والفقهاء شفعوية واقل قصبة او بلد ليس فيه حنفي وربما كانت القضاة منهم قال : واليوم اكثر العمل على مذهب الفاطمي .

ووصف ابن جبير المذاهب المتغلبة على الشام في القرن السادس فقال : وللشيعة في هذه البلاد امور عجيبة وهم اكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السبابون ومنهم الاماميـة والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة . ومنهم الاسماعيلية والنصيرية يزعمون الالهية لعلي رضي الله تعالى عنه . ومنهم الغُرابية وهم يقولون ان علياً (رض) كان أشبه بالنبي (ص) من الغراب بالغراب و ينسبون الى الروح الامين عليه السلام قولاً تعالى الله عنه علواً كبيراً . الى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء . قال وسلط الله على هذه الرافضة طائفـة تعرف بالنُّبُوية سنيون يدينون بالفتوة و بامور الرجولة كلها وكل من الحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحرّمونه السراويل فيلحقونه بهم ولا يرون ان يستعدي احد منهم في

نازلة تنزل به ، لهم في ذلك مذاهب عجيبة ، واذا اقسم احدهم بالفتوة برّ قسمه . وهم يقتلون هؤلاء الروافض اين ما وجدوهم . وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في رسالته الرد على النصيرية ايام استولى هؤلاء على جانب كبير من الشام : ان للقرامطة في معاداة الاسلام وقائع مشهورة وكتباً مصنفة فاذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين وقد قتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم وامرائهم وجندهم ما لا يحصي عدده الا الله تعالى وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين ، فهم مع النصارى على المسلمين ، ومن اعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار ، ومن اعظم اعيادهم اذا استولى النصارى على ثغور المسلمين ، و بسببهم استولى النصارى على القدس الشريف وغيره ، فان احوالهم كانت من اعظم الاسباب في ذلك . واتفقوا بعد صلاح الدين ونور الدين مع النصاري فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد . وقال ان لهم القاباً معروفة عند المسلمين تارةً يسمون الملاحدة وتارة يسمون القرامطة وتارةً يسمون الباطنيـة وتارةً يسمون الاسماعيلية وتارة يسمون النصيرية وتارةً يسمون الخرمية وتارةً يسمون المحمرة . وهذه الاسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض اصنافهم . وهم كما قال العلماء فيهم ، ظاهر مذهبهم الرفض و باطنه الكفر المحض . وحقيقـة امرهم انهم لا يؤمنون بنبي من الانبياء والمرسلين لا بنوح ولا ابراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ولا بشيء من كتب الله المنزلة لا التوراة ولا الانجيل ولا القرآن ، ولا يقرون بان للعالم خالقاً خلقه ولا بان له ديناً أمر به ، ولا ان له داراً يجزي الناس فيها على اعمالهم في غير هذه الدار ، وهم يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة تارة وعلى أقوال المجوس الذين يعبدون النور . وقال ان اخوان الصفا ونحوهم هم من أئمتهم و ينكرون على الرسل ودعوى انهم من جنسهم ظالبون للرئاسة فمنهم من احسن بطلبها ومنهم من اساء في طلبها حتى قتل و يجعلون محمداً وموسى من القسم الاول والمسيح من القسم الثاني و يستهزؤن بالصلاة والزكاة والصوم والحج الخ اه .

* * *

الاسماعيلية { هم القائلون بانتقال الامامة بعد جعفر الصادق الى ابنه الاكبر اسماعيل ، انتقلت اليه بعد ابيه دون اخيه موسى الكاظم . وهم يوافقون الإمامية في سوق الامامة من امير المؤمنين علي بن ابي طالب الى جعفر الصادق ثم يعدلون بها عن موسى الكاظم الذي هو الامام عند الامامية الى اسماعيل هذا . ثم يسوقونها في بنيه فيقولون ان الامامة انتقلت بعد امير المؤمنين علي الى ابنه الحسن ثم الى اخيه الحسين ثم الى ابنه علي زين العابدين ثم الى ابنه محمد الباقر ثم الى ابنه جعفر الصادق ثم الى ابنه اسماعيل الذي تنسب اليه هذه الفرقة بالنص من ابيه . ثم يقولون انها انتقلت من اسماعيل الى ابنه محمد المكتوم ثم الى ابنه جعفر الصدق ثم الى ابنه محمد الحبيب ثم الى ابنه عبيدالله المهدي اول خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وهو جد الخلفاء الفاطميين بمصر ، ثم الى ابنه العزيز بالله ابي منصور نزار ثم الى ابنه الظاهر لاعزاز دين الله ابي الحسن علي ثم الى ابنه المستنصر بالله ابي تميم معد خامس خلفائهم بمصر .

ومن هاهنا افترقت الاسماعيلية الى فرقتين مستعلوية ونزارية . فاما المستعلوية فيقولون ان الامامة انتقلت بعد المستنصر بالله الى ابنه المستعلي بالله ابي القاسم سادس خلفائهم بمصر ثم الى ابنه الآمر باحكام الله ابي علي منصور الى آخر من جاء بعدهم وهو حادي عشر خلفائهم بمصر . واما النزارية فانهم يقولون ان الامامة انتقلت بعد المستنصر الى ابنه نزار بالنص من ابيه المستعلي . ثم الاسماعيلية في الجملة من المستعلوية والنزارية يسمون انفسهم اصحاب الدعوة الهادية تبعاً لامامهم اسماعيل المذكور ، وكان يسمي صاحب الدعوة الهادية — وفي القرن التاسع كانو يسمون في ديوان الانشاء بالقصاد وبين العامة بالفداوية — وهم يرون ان الارواح مسجونة في هذه الاجسام المكلفة بطاعة الامام المطهر ، فاذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت وانتقلت للانوار العلوية ، وان انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السفلية .

وذكر في العبر ان منهم من يدعي الوهية الامام بنوع الحلول ، ومنهم من يدعي رجعة من مات من الائمة بنوع التناسخ والرجعة ، ومنهم من ينتظر مجيء من يقطع بموته ، ومنهم من ينتظر عود الامر الى اهل البيت . ويتفق المستعلوية والنزارية في

بعض المعتقدات ويختلفون في بعضها . ولدعاة الائمة المستورين عندهم مكانة عظمى لاسيما الداعي القائم بذلك اولاً وهو الداعي الى محمد المكتوم اول ائمتهم المستورين ، فان له من الرتبة عندهم فوق ما لغيره من الدعاة القائمين بعده . واشتهر من دعاتهم رمضان وابنه ميمون وعبد الله القداح ابن ميمون ، اطلع هذا على اسرار الدعوة من ابيه وسار من نواحي اصفهان الى الاهواز والبصرة وسلمية من ارض الشام يدعو الناس الى اهل البيت . ثم انشأ ابنه احمد فارسل هذا احد دعاته الى اليمن والى المغرب . ومن نسب احداً من هؤلاء الدعاة الى ارتكاب محظور او احتقاب اثم فقد ضل وخرج عن جادة الصواب عندهم ، ويرون تخطئة من مالأ على الامام عبيدالله المهدي اول ائمتهم القائمين ببلاد المغرب وارتكابه المحظور وضلاله عن طريق الحق ، وكذلك من خذل الناس عن اتباع القائم بامر الله بن عبيدالله ثاني خلفائهم ببلاد المغرب اونقض الدولة على المعز لدين الله اول خلفائهم بمصر ، ويرون ذلك من اعظم العظائم واكبر الكبائر .

ومن اعيادهم العظيمة الخطر عندهم يوم غدير خُم (غيضة بين مكة والمدينة على ثلاثة ايام من الجحفة) وسبب جعلهم له عيداً انهم يذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل فيه ذات يوم فقال لعلي : « اللهم من كنت مولاه فعليٌّ مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار » . ومن اكبر الكبائر عندهم واعظم العظائم ان يرمي احد من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ولا سيما الائمة بكبيرة ، او ينسبها احد اليهم او يوالي لهم عدواً او يعادي ولياً . ويقولون ان الامام منهم لا يموت الا وقد خلف ولداً ذكراً منصوصاً عليه .

واصل هذه الفرقة كانت بالبحرين في المائة الثانية وما بعدها ومنهم كانت القرامطة الذين خرجوا من البحرين حينئذ ثم ظهروا باصبهان في ايام السلطان ملكشاه السلجوقي ، واشتهروا هناك بالباطنية لانهم يبطنون خلاف ما يظهرون ، وبالملاحدة لان مذهبهم كله إلحاد ، ثم صاروا الى الشام ونزلوا فيما حول طرابلس واظهروا دعوتهم هناك ، واليهم تنسب قلاع الاسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة فيما حول طرابلس كمصياف والخوابي والقدموس والمرقب والعليقة والمينقة والكهف والرصافة وغيرها . وهم يعظمون راشد الدين سنان ، وهو رجل كان بقلاع الدعوة وانتهت اليه رياستهم في زمن صلاح الدين .

ولما افترق الاسماعيلية الى مستعلوية ونزارية اخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية عملاً بدعوة ابن الصباح ، واخذ من منهم بالشام بقلاع الاسماعيلية بمذهب المستعلوية وصاروا شيعة لمن بعد المستعلي من خلفاء الفاطميين بمصر واشتهروا باسم الفداوية لفاداتهم بالمال على من يقتلونه . روى هذا القلقشندي وقال ابن ساعد : ويلقب الاسماعيلية بالسبعية لقولهم بسبعة أئمة ، ويرون ان في كل دور سبعة أئمة ، اما ظاهرون وهو دور الكشف ، واما مختفون وهو دور الستر ، ولا بد من امام ، اما ظاهر واما مستور ، لقول امير المؤمنين رضي الله عنه لن تخلو الارض عن قائم لله بحججه ، ويلقبون ايضاً بالباطنية لقولهم ان لكل ظاهر باطناً ، وبالتعليمية لقولهم ان العلم بالتعلم من الائمة خاصة ، وربما لقبوا بالملاحدة لعدولهم عن ظواهر الكتاب والسنة لانهم يتأولون سائر النصوص ، وعندهم ان من مات ولم يعرف امام زمانه وليس في عنقه بيعة امام مات ميتة جاهلية اهـ .

وذكر كاتب چلبي انه كان للفداوية الذين اشتهروا في زمن الظاهر بيبرس — هكذا كانت العامة تسمي الاسماعيلية — من طرابلس الى صيدا الى حلب على الساحل حتى حوران سبعون قلعة أهمها قلعة صهيون . وقد ذكر مؤرخو حلب انه جاء الى جبل السماق سنان بن سلمان بن محمد ابو الحسن البصري صاحب الدعوة النزارية ومتولي الحصون الاسماعيلية ، وكان اديباً فاضلاً عارفاً بعلم الفلسفة وله شعر حسن وكلام منثور جيد ، وتمكن في الحصون وانقادت اليه الطائفة الاسماعيلية ما لم ينقادوا الى غيره .

ويقضي مذهبهم على ما قال هوار في المعلمة الاسلامية بان الله لا صفات له ولا تدركه العقول ولا تفهمه الالباب ولم يخلق العالم مباشرة ، بل تجلت ارادته في امره وهو العقل العام وفيه تختفي جميع الخصائص الالهية وهو الله المتجلي . واذ كان لا يُصلى لكائن لا يدرك فان الصلاة تتجه نحو صورتها الخارجية وهي العقل الذي هو حقيقة معبود الاسماعيلية . فكما انه لا سبيل الى معرفة الله بل يُعرف العقل فقط فهذا العقل يطلق عليه اسماء الحجاب والمكان والازل والعقل والاول . والعقل يخلق الروح العام الذي هو الجوهر في الحياة واذ كانت حياة العقل بالعلم وهو ناقص من هذا النظر فيرمي بالضرورة الى تحقيق الكمال . ومن هنا تنشأ حركة بمعنى آخر عن

حركة أخرى تتولد منها . الروح تخرج المادة الاولى التي تتألف منها الارض والكواكب وهي غير عاملة بل تتجلى في أشكال تنطوي فيها الافكار على العقل . وهناك كائنان ضروريان واصليان وهما الامد والزمان . والكواكب والعناصر نتيجة لازمة من عمل هذه المخلوقات الخمسة مشتركةً . ويُفسر ظهور الانسان بالضرورة التي يشعر بها الروح العام في إحراز العلم الكامل حتى يرقى الى طبيعة العقل العام ومتى جرى الوصول الى هذه الغاية تبطل كل حركة . وللخلاص يجب على المرء تحصيل العلم الذي لا يتأتى ان يأتي الا من تجسد العقل على هذه الارض ويتجسد ذلك في الرسول وخلفائه والائمة . ويسمى العقل المتجسد « الناطق » والروح المتجسد « الاساس » والاول هو الرسول الذي يتجلى فيه الكلام الموحى ، والثاني هو ترجمان هذا الكلام بما يحوي من المعاني التي تُؤَول . والمبادئ الثلاثة الاخيرة هي الامام والحجة ، الذي يبرهن على رسالة الاساس ، والداعية . وكان محمدٌ الناطقَ وعليٌّ الاساس .

والذين يرخص لهم بالاطلاع على أسرار الدين هم طبقات كانوا اولاً سبعة ثم صاروا تسعة . ويبدأ الداعية مع من يريد تلقينه أسرار الدعوة بان يضع له مشكلات في صعوبة فهم الشريعة وهي الطريقة التي يجري عليها الباطنية عامة ، ولا يزال به حتى يذكر له ان هذه المشاكل قد حلت على أيسر وجه بتأويل القرآن ومعرفة رموزه . وللحساب المستخرج من قيمة الحروف العددية شأن كبير . ومتى اقتنع المدعو بقوة البراهين التي أوردها له الداعية يستحلفه بان لا يبوح بادنى سر من الاسرار التي سيفضي بها اليه ، ويعلمه بان الواسطة للنجاة ان يخضع خضوعاً اعمى لاوامر الامام الروحية والزمنية . وجمهور المؤمنين بهذه الدعوة ما كانوا يقفون على اكثر من الدرجة الاولى او الثانية من الأسرار ، والدعاة يصلون الى الدرجة السادسة الا قليلاً . ولا يبلغ الدرجة العالية الا بعض الممتازين . وهذا أشبه بتعاليم الشيعة والمتصوفة في تعيين درجة الانسان الكامل .

والجنة معناها مجازاً حالة النفس الواصلة الى كامل العلم ، وجهنم معناها الجهل ، وما من نفس يحكم عليها بالخلود في جهنم على الابد ، بل تعود الى الارض بالتناسخ حتى

تعرف امام الزمان وتأخذ عنه علوم الدين . والشر لا بقاء له ولا بد من زواله يوماً بتمثل كل الموجودات في العقل العام تمثلاً تدريجياً . ومع ما اشتهر عن الاسماعيلية من القتل يجب ان نذهب الى ان ما اجترحوه لم ينشأ عن عقيدة لهم بل يجب ان ينظر فيه الى الافراط الذي عرف به رؤساؤهم في نيل السلطة السياسية . وقال روسو من السياح : ان من عرفهم من الاسماعيلية هم على جانب عظيم من الكرم ولطف الأخلاق ، وقلما يحبون التنقل ويعملون في بلادهم ويتمسكون باهداب دينهم الذي يخالف مذهبهم القديم كل المخالفة وهم أشداء عند الحاجة خاضعون لزعمائهم . انتهى قول هوار .

ولم يعرف الزمن الذي نزل فيه الاسماعيلية بعض ارجاء الشام اذ لم يجر لهم ذكر قبل أوائل القرن الخامس للهجرة . وكان الحكيم المنجم وابو طاهر الصائغ وهما من دعاة الاسماعيلية وامثالهما من العجم اول من اظهر هذا المذهب بالشام في ايام الملك رضوان بن تتش السلجوقي صاحب حلب الذي أغضى عنهم وأراد اتخاذهم حزباً له فقبل دعوتهم على ما قيل ، واستمالوا اليهم خلقاً كثيراً بسرمين والجوز وجبل السماق وبني عليم وجعل لهم في حلب دار دعوة . ولم يلبثوا ان اغتالوا في جامع حمص (٤٩٦) عمه جناح الدولة صاحب حمص ، تولى ذلك ثلاثة من العجم يلبسون لباس الصوفية بينا كان يتهيأ لغزوة صنجيل اميرطرابلس من الصليبيين لرفع الحصار عن حصن الاكراد . ولم يلبث هذا الطبيب المنجم ان قضى نحبه عاهداً بالدعوة الى رفيقه ابي طاهر الصائغ . واستولى الاسماعيلية على أفامية من الصليبيين ثم استرجعها هؤلاء منهم (٤٩٨) ووُضع السيف في الاسماعيلية بحلب سنة ٥٠٧ او ٥٠٨ كما وضع فيهم في دمشق سنة ٥٢٢ (خطط الشام ج ١ص ٢٩٩ وج ٢ص ٣) وكذلك كان حالهم في الباب من عمل حلب . قال ابن جبير : فداخلت اهل البلاد الحمية فتجمعوا من كل اوب عليهم ووضعوا السيوف فيهم فاستأصلوهم عن آخرهم . وقال ان الاسماعيلية يبذلون الانفس دون امامهم سنان وحصلوا من طاعته وامتثال امره بحيث يأمر احدهم بالتردي من شاهقة جبل فيتردى . وفي تلك السنة ايضاً قتلوا برق بن جندل احد مقدمي وادي التيم . وفي سنة ٥٧١ حاول اغتيال احد الاسماعيلية من العجم السلطان صلاح الدين يوسف

ابن ايوب فأنجاه الله وأغضى الطرف عنهم . وفي سنة ٥٨٨ قتل الاسماعيلية كونراد امير صور . وبعد مدة قتلوا ريموند بن بوهيمند الرابع المعروف بالاعور امير انطاكية من الصليبيين قتلوه في الكنيسة . وفتح الظاهر بيبرس والتتار قلاعهم وخضعوا بعد ذلك لمماليك مصر .

وكان للاسماعيلية في بلاد العجم وقائع عظيمة وهم الذين قتلوا الوزير نظام الملك في بغداد وغيره من رجال الاسلام حتى ضاقت بهم الصدور . وقد سمّوا اوائل دخول الصليبيين الى الشام بالحشاشين او القتلة (Les assassins) لان رؤساءهم كانوا فيما قيل يعطون الحشيشة لمن يريدونه على قتل احد خصومهم السياسيين . وكان الصليبيون يطلقون على رئيسهم شيخ الجبل . وقد نالوا من الصليبيين كثيراً كما نالوا من أمراء المسلمين . وهم جمعية سياسية ترمي الى إقامة مُلك . وما كان هذا القتل منهم عن باعث مذهبي بل سياسي . على انهم أخافوا رجال السياسة في هذه الديار وهي في أشد اوقات ضيقها زمن الحروب الصليبية وحروب التتار . ويبلغ عدد الاسماعيلية اليوم في الشام نحو خمسة وثلاثين الفاً منهم جماعة في سلمية وفي قلاع الدعوة في جبل النصيرية . ومن الاسماعيلية عشرات الوف في العجم والهند والافغان وعُمان ومسقط وزنجبار وإفريقية الشرقية . واسماعيلية هذه البلاد يجبون الزكاة كل سنة ويرسلونها الى امامهم آغاخان في الهند اما سائر الاسماعيلية فليسوا مرتبطين به . وقد ذكر بعض اعيانهم ان الاسماعيلية اليوم يقولون ان كل زمن لا يخلو عن رجل من السلالة الطاهرة يسمونه اماماً واعتباره اعتبار علمي ديني خالٍ من كل غرض سياسي .

* * *

النصيرية او العلوية — قال القدماء : هم اتباع نصير غلام امير المؤمنين علي بن ابي طالب وهم يدعون الوهية علي رضي الله عنه مغالاةً فيه ويزعمون ان مسكنه السحاب واذا مر بهم السحاب قالوا : السلام عليك يا ابا الحسن ويقولون إن الرعد صوته والبرق ضحكه ، وهم من اجل ذلك يعظمون السحاب ، ويقولون ان سلمان الفارسي رسوله وان كشف الحجاب عما يقوله من اي كتاب بغير اذن ضلال ويحبون ابن ملجم قاتل علي ويقولون انه خلص اللاهوت من الناسوت ويخطئون

من يلعنه . وان لهم خطاباً بينهم من خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم ولا يذيعه ولو ضرب عنقه. وهم يخفون مقالتهم ومن اذاعها فقد اخطأ عندهم . ولهم اعتقاد في تعظيم الخمر ويرون انها من النور ولزمهم من ذلك ان عظموا شجرة العنب التي هي اصل الخمر حتى استعظموا اقلاعها. و يزعمون ان الصديق واميرالمؤمنين عمر واميرالمؤمنين عثمان تعدوا على علي ومنعوه حقه من الخلافة .

وقال المحدثون منهم انفسهم على ماذكره صاحب تاريخ العلويين ان النصيرية رجع لهم اسمهم القديم بعد انتهاء الحرب العامة (١٩١٨م) وسميت العلوية وكانت محرومته مدة ٤١٢ سنة اي من قتال الاتراك للعلويين وان اسم العلويين الذي كان يطلق على طائفتهم دثر عدة قرون[1] وسمي الموجودون باسم الجبل و يظن بعضهم ان اسم النصيرية هو نسبة للسيد ابي شعيب محمد بن نصير البصري النميري مع ان الاصح هو لانه تغلب اسم الجبل عليهم واصبحت كلمة النصيري اشنع كلمات التحقير .

وقال ان قوله تعالى اليوم اكملت لكم دينكم ، معناه كمال الدين وكمال الدين هو ولاية علي ، وهذه هي الحكمة المقصودة من نزول القرآن بالتدريج . ويقول العلويون انه لما اعلن كمال الاسلام كان لا يزال بعض العقائد مكتوماً وخفياً ، ولذلك بقي الى هذا اليوم مكتوماً بخصوصيته ، وبتعبير اصح ان بقاء عقيدة العلويين مكتومة هو من كمال الاسلام واعلانها مضرٌّ به لان الرسول صلى الله عليه وسلم بشر المؤمنين بولاية علي وبذلك كمل الاسلام ولكنه بقي حريصاً على كتمان البقية ولذلك كان كتمان البقية من كمال الاسلام ايضاً . وهذا هو تعليل تكتم العلويين في عقيدتهم . وهم يقولون ايضاً ان بني هاشم كانوا يعرفون في زمن النبي احكاماً ما كان يعرفها الأمويون وان اهل البيت تعلموا علوماً لم يسمعها غيرهم . وهنا مبدأ اسرار العلويين . ومن جملة اسباب تكتم العلويين ان بيعة غدير خُم لم تكن الا افشاءً لبعض حقوق اهل البيت والامر باتباعها واحترامها .

(١) اجمع المؤرخون ومن كتبوا في الملل والنحل ان النصيرية عرفوا بهذا الاسم في القرن السادس والسابع وبعده ، فدعوى انه كان يطلق عليهم اسم العلويين وحرّم عليهم اربعة قرون فيها نظر .

وقال ان السلطان سليماً العثماني لما فتح الشام استدعى عشائر تركية من الاناضول الى خراسان وقدرها تسعون الف خيمة اي اكثر من نصف مليون تقريباً واسكنهم في القلاع في جبال النصيرية والمواقع الغنية المرتفعة منه ، ولم يمض اكثر من خمسين عاماً حتى انقرض الاتراك في المنطقة الضيقة التي لم تكن حاصلاتها تكفي سكانها الاصليين ، ولم يبق من الاتراك سوى خمسة عشر الفاً وهم اليوم في الباير والبوجاق وقليل منهم في الساحل ، حافظوا على جنسيتهم ولسانهم ، ومن نزل منهم ارجاء حماة وحمص تغلبت عليه العربية ·

وليس بين العلويين اختلاف في المذهب بل تفرقوا عشائر وافخاذاً فمنهم الكلبية وهي من اكبر العشائر والنواصرة والجهينية والقراحلة والجلقية والرشاونة والشلاهمة والرسالنة والجردية والخياطية والبساترة والعبدية والبراعنة والفقاروة والعمامرة والحدادية وبنو علي والبشالوة والياشوطية والعتارية والمتاورة والحلبية والخرزجية والسوارخة والنيلاتية والسرانية والصوارمة والمهالبة والدراوسة والمحارزة والبشارغة والجواهرة والسواحلية والانطاكيون والاطنوبون · والنسبة في هذه الاسماء اما الى اشخاص منهم معروفين عندهم او الى قرى ومدن معروفة في ارضهم وغيرها ·

وقال ايضاً ليس للعلويين ديانة خاصة او مذهب خاص كما يظن بعضهم بل ان العلويين مسلمون شيعيون جعفريون ، لا تفرق بينهم وبين سائر الجعفرية قيود دينية او اجتهادات عملية ، و يعتقدون ان الائمة الاثني عشر هم معصومون من الخطايا ، وان أقوال الائمة دلائل قطعية ، ولا يمكن ان يخالف الامام القرآن والأحاديث ولا يحق لاحد ان يؤول القرآن ، ولا ان يفرق بين محكمه ومتشابهه سوى اهل البيت ، ولا تنفع عند العلوي القواعد الصرفية والنحوية او الاصولية في استخراج الاحكام الشرعية ، بل كل ذلك من جملة حقوق اهل البيت · وان العلويين يمتازون على بقية الجعفرية اي الاثني عشرية بانتسابهم في الآداب الدينية الى الطريقة الجنبلانية وهذا الانتساب هو الذي ادى الى افتراقهم عن بقية الاثني عشرية · و يرى المؤلف ان يتحد العلويون والشيعة المتاولة والاسماعيلية ، وليس بين هؤلاء وبين العلويين سوى الافتراق الخاص في اعتبار الائمة بعد جعفر الصادق ·

وقد سألنا الاستاذ الشيخ سليمان احمد من علمائهم فأجاب معتذراً عن التوسع في وصف مذهبهم وختم بقوله : أمة توالت عليها النوائب السياسية والاجتماعية طيلة خمسة أجيال فأخملتها اي اخمال ، وانزوى علماؤها وصلحاؤها وعاث الجهل في عشائرها فساداً ، ليس من السهل الكتابة عنها ، وليس بالهين ضلال التاريخ ، وقل من جرى في ميدانه فلم يعثر . لا فرق بينهم وبين الامامية الا ما اوجبته السياسة والبيئة وعادات العشائر التي توارثها سكان الشام ، اكثر الناس اختلافاً ، واقلهم ائتلافاً ، اذ شيخ مذهبهم الذي ينتمون اليه (الخصيبي) من رجال الامامية تقرأ ما له وما عليه في كتب الرجال . انما لهم طريقة كالنقشبندية والرفاعية وغيرها من الطرق الصوفية بالنسبة الى اهل السنة . وهذا مصدر النقولات الباطلة عليهم ، وما أُبرّئ جهلتهم من كل ما يقال ، ولكن أشهد بالغرض والتغرض على غالب المؤرخين الذين كتبوا عنهم اه .

و يسكن النصيرية او العلويون اليوم في جبال اللاذقية وطرابلس وحماة ومنهم فئة قليلة في دمشق وصالحيتها وفي قرى عين فيت وزعورا وغجر في الحولة وعدد العلويين اليوم مائة وستون الفاً . وقد استعمل العنف معهم في اكثر الادوار السالفة فنفروا وقد كان الظاهر بيبرس في القرن السابع امر ان تبنى لهم جوامع في قراهم فبنوا في كل قرية جامعاً وما كانوا يدخلونها على عهد ابن بطوطة في القرن التاسع بل كانت حظائر للغنم واصطبلات للدواب وهكذا فعل عبد الحميد الثاني من العثمانيين فبنى لهم جوامع لم يلبثوا ان خربوها واهانوها . وشأن العلويين شأن سائر الطوائف الاسلامية الصغرى كلما زادوا علماً وتربيةً رجعوا الى الاصول الصحيحة . وفيهم كرم وشمم وشجاعة ومكارم اخلاق .

***

الدروز — لما طمع الحاكم بامر الله الفاطمي سادس خلفاء الفاطميين او العبيديين بمصر في دعوى الربوبية ، اخذ يمهد لذلك المقدمات ولقب نفسه الحاكم بامره وامر الخطباء بان يقرأوا بدل البسملة (باسم الله الحاكم المحيي المميت) وفي رواية انهم كتبوا بسم الحاكم الله الرحمن الرحيم . فلما انكر عليهم كتبوا بسم الله الحاكم الرحمن الرحيم فجعلوا في الاول لله صفة للحاكم وجعلوا في الثاني العكس . وانشأ

يدعي علم المغيبات ، وكان من دعاته رجلان عجميان من دعاة الباطنية يقال لاحدهما محمد بن اسماعيل الدَّرزي [1] المعروف بنشتكين وللآخر حمزة بن علي بن احمد وهذا من اعظم دعاة الحاكم كان يؤثره على جميع عشيرته ، وكان صاحب الرسائل والمكاتبات عنده . وصنف الدرزي كتاباً كتب فيه ان روح آدم انتقلت الى علي بن ابي طالب ومنه الى أسلاف الحاكم متقمصة من واحد الى آخر حتى انتهت الى الحاكم بامر الله . وقرئ هذا الكتاب في الجامع الازهر بالقاهرة ، فهجم الناس على مؤلفه ليقتلوه ففر منهم ، وحدث شغب عظيم في القاهرة وقتلوا كثيرين من اصحابه . وكانت بلغت جريدة اسمائهم ستة عشر الفاً . ولم يسع الحاكم بامر الله بعد ان وقع ما وقع الا ان يبعث الى الدرزي في السر مالاً واوعز اليه ان يخرج الى الشام و ينشر فيها الدعوة ، فنزل وادي تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق ، وقرأ الكتاب على اهله واستمالهم الى الحاكم ، واعطاهم المال فكثر مشايعوه وانصاره .

وكان الامراء التنوخيون سكان لبنان على استعداد لقبول دعوة الدرزي فانقادوا اليه فسمي جماعته بالدروز . والدروز ينكرون هذه التسمية ويحبون ان يدعوا بالموحدين ، وكان يسميهم اصحابهم بالاعراف . وغلب عليهم في حوران في العهد الاخير لقب آل معروف دعوا به تحبباً . وهذا كان من شعار اليمنيين لانقسام هذه الطائفة الى اصلين من أمهات اصول العرب في هذا القطر وهما القيسية واليمنية . ولما انشأ الدروز يبثون دعوتهم بين المسلمين غُزوا في عُقر دارهم في وادي التيم نحو سنة ٤١٠ على الارجح وغزوا في جبل السماق من ارجاء حلب لما جاهروا بمذهبهم ايضاً وخربوا ماعندهم من المساجد فقتل دعاتهم وأعيانهم سنة ٤٢٣ (خطط الشام م ١ ص ٣٤٦ و ٢٥١) .

ووقع خلاف بين الداعية الأول محمد بن اسماعيل الدرزي والداعية الثاني حمزة ابن علي بن احمد ، فكتب التقدم لهذا ومات الدرزي في سنة ٤١١ فقام بالدعوة حمزة

---

(١) الدَّرزي بفتح الدال معناه الخياط فارسي معرب والعامة تضم الدال و يقولون في الجمع الدروز والصواب الدَّرزة محركة .

واصبح القوم يقدسونه و يلقبونه بهادي المستجيبين وحجة القائم وغير ذلك · ولما هلك الحاكم كتب حمزة الرسالة المسماة بالسجل المعلق وعلقها على ابواب الجامع وفيها يقول ان الحاكم اختفى امتحاناً لايمان المؤمنين ، وشرع حمزة يزرع في القلوب بذر الاعتقاد بالوهية الحاكم وتوحيده وعبادته، ويجتمع هو واتباعه في المعبد السري، حتى ثارت عليهم المسلمون وطردوهم ففروا من مصر الى الشام ·

قال الاستاذ البخاري ان الدروز يخالفون في عقائدهم عقائد الفرق من ارباب الديانات يتظاهرون بالتبعية لمن يكونون تبعاً له ، واما في الباطن فانهم ينكرون الانبياء عليهم السلام و ينسبونهم الى الجهل وانهم كانوا يشيرون الى توحيد العدم وما عرفوا المولى ، و يشنعون بالطعن على جميع ارباب الديانات من المسلمين والنصارى واليهود ، والديانة الحقة عندهم هي توحيد الحاكم ، ويفترض عندهم صدق اللسان بدل الصوم وحفظ الاخوان بدل الصلاة · ويقرأون القرآن ويؤولونه ويذهبون الى قدم العالم تبعاً لبعض الفلاسفة ويقولون بالتناسخ معبرين عنه بالتقمص ، فالجسد يسمى قميصاً عندهم ، وان الميت حين موته تنتقل روحه الى من يولد وقتئذ ، فالارواح الانسانية لا تنتقل عندهم الا الى قوالب انسانية · ويقولون الهوية الالهية تنتقل من قالب وتحل في قالب آخر في كل عصر، فتتجلى في كل زمن بصورة وتجلت اخيراً في الحاكم ، وان حمزة ايضاً ظهر في كل عصر بقالب ، ففي زمانٍ كان فيثاغورس الحكيم ، وفي زمانٍ كان شعيباً ، وفي زمانٍ كان سليمان بن داود ، وفي زمانٍ كان المسيح الحق ، فهو النبي الكريم عندهم ، وحمزة العصر المحمدي هو سلمان الفارسي ، و يزعمون ان القرآن قد اوحي حقيقة الى سلمان الفارسي وانه كلامه وان محمداً اخذه وتلقاه عنه حتى زعموا بان خطاب لقمان الذي خاطب به ولده في معرض الوصية بقوله : « يا بُنيَّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » هو خطاب سلمان لمحمد والتعبير بالبنوة انما هو من خطاب المعلم للمتعلم ·

واذا اراد احد من جهالهم ان يدخل في سلك الموحدين ينبغي له ان يستجلب رضاهم بتقديم وسائل العطف مدة حتى تتحقق توبته ، فاذا قبلوه أدخلوه على الامام فيوصيه

بحفظ السر وعدم اشهاره ، ويأمره بتحرير العهد الواجب تحريره ، اذ لا يكون موحداً خالصاً بدون تحرير العهد على نفسه ، فاذا حرره وسلمه الى الامام صار واحداً منهم . وصورة العهد وهو المعروف لاول انتشار الدرزية بميثاق ولي الزمان : « توكلت على مولانا الحاكم الاحد الفرد المنزه عن الازواج والعدد ، أقر فلان بن فلان اقراراً أوجبه على نفسه واشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز امره طائعاً غير مكره ولا مجبر ، انه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والاديان والاعتقادات كلها على اصناف اختلافاتها وانه لا يعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره والطاعة هي العبادة وانه لا يشرك في عبادته احداً مضى او حضر او ينتظر وانه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ورضي بجميع احكامه له وعليه ، غير معترض ولا منكر لشيء من افعاله ساءه ذلك امسره ، ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه واشهد به على روحه او اشار به الى غيره اوخالف شيئاً من اوامره ، كان بريئاً من الباري المعبود وحرم الافادة من جميع الحدود واستحق العقوبة من البار العلي جل ذكره ، ومن أقر ان ليس له في السماء اله معبود ولا في الارض امام موجود الا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين . وكتب في شهر كذا وسنة كذا وكذا من سني عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن احمد هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرشدين بسيف مولانا جل ذكره وشدة سلطانه وحده » .

وليس لاحد من الناس ان يدخل في مذهب الدروز لان ذلك لا يتأتى الا إبان الدعوة الاولى ، وقد سد هذا الباب بعد ذلك . ويحرص الدروز كل الحرص على كتمان عقائدهم ولذلك يعبرون عن مرامهم في كتبهم ورسائلهم بطريق الرمز والكناية فلا يفهم ما يراد منها الا الطبقة العالية من ارباب الدين عندهم اومشايخ العقل . ويذكرون مباحث من علم الكلام ، وبعض مقالات غلاة المتصوفة ، وتأويلات الرافضة والملاحدة ، وخصوصاً الاسماعيلية من غلاة الشيعة . ولهم قضاة منهم يحكمون في المعاملات المدنية الجارية بينهم على مقتضى الشريعة ، غير انهم يخالفونها في بعض المعاملات بحكم العادة الموروثة وقد اصطلحوا على التوصية بما يشاؤن لما يشاؤن . ولا يجوز عندهم الجمع بين امرأتين فان لم يطلق التي

عنده لا يمكنه التزوج بغيرها . وتطلق المرأة بادنى سبب ، ولا يجوز عندهم رد المطلقة ولو كان بعد زوج آخر .

و يقسم الدروز من حيث الدين الي ثلاثة أقسام : العقال اوالاجاويد والشراح والجهال . و يرخص للشراح بالاطلاع على ما كتبه الشيخ الفاضل بشرح احد اوليائهم الامير عبد الله التنوخي الملقب بالسيد دفين قرية عبيه وهو الذي بنى المساجد وجدد الجوامع ، وكان على ما قيل يريد ان يرجع بالدروز الى مذهب اهل السنة والجماعة توفي سنة ٨٨٤ .

ولا يباح للجهال من الديانة غير معرفة المسائل الاولية من الدين . ومن العقال طبقة اتقياء يقال لهم المتنزهون وهم مثابرون على العبادة والورع ، ومنهم من لم يتزوج ، ومنهم من لم يأكل لحماً طول حياته ، ومنهم من هو صائم كل يوم ، ولا يذوقون شيئاً من بيت احد من غير العقال . والعقال جميعهم يعتقدون ان اموال الحكام والامراء حرام فلا يأكلون شيئاً من طعامهم ولا من طعام تخدمهم ولا من طعام حمل على دابة مشتراة من مال حاكم ، وقد يتعاشون من عمل لهم خاص يتعاطونه بانفسهم من زراعة وصناعة . و ينزهون السنتهم عن الفاظ الفحش والبذاءة ويتجنبون الاسراف .

واسمع بعد هذا رأي العلامة الامير شكيب ارسلان (من مقالة في جريدة الشورى ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤) في الدروز قال : الدروز فرقة من الفرق الاسلامية اصلهم من الشيعة الاسماعيلية الفاطمية ، والشيعة الاسماعيلية الفاطمية اصلها من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة ، وهؤلاء هم من جملة المسلمين كما لا يخفى . واذا قيل ان الدروز هم من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالاسلام فالجواب ان الدروز يقولون انهم مسلمون ويقيمون جميع شعائر المسلمين و يتواصون بمرافقة الاسلام والمسلمين في السراء والضراء ، و يقولون ان من خرج عن ذلك منهم فليس بمسلم . ولهذا أصبح من الصعب على المسلم الذي فهم الاسلام كما فهمه السلف الصالح والذي سمع حديث (فهلا شققت عن قلبه) ان يخرج الدروز من الاسلام . وفي الشرع المحمدي قاعدة : نحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر . وقد قال الله تعالى : « ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » وهؤلاء

لا يلقون السلام فقط بل يلقون السلام ويقولون انهم مسلمون، ويحفظون القرآن، ويلقن ملقنهم الميت « اذا جاءك منكر ونكير وسألاك ما دينك ومن نبيك وما كتابك ومن اخوانك وما قبلتك فقل لهما الاسلام ديني ومحمد نبيي والقرآن كتابي والكعبة قبلتي والمسلمون اخوتي » وليس من شعائر الاسلام شيء لا ىقيمه او لا يوجب اقامته الدروز .

واذا قيل انه مع كل هذه المظاهر تحتوي عقيدتهم الباطنية التي تعرفها طبقة العقال على ما يصادم اركان عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها في شيء . فالجواب قد وجد في الاسلام ائمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم ولهم قباب تزار وتعلق فيها القناديل وكانوا يقولون بوحدة الوجود ! فهل وحدة الوجود مما يطابق السنة ؟ كلا فهل اخرج المسلمون هؤلاء الائمة من الاسلام ؟ واما تجسد الاله فليس من عقيدة الدروز كما يتهمهم بعضهم والتجسد شيء والترائي شيء آخر . واما تأويل آي القرآن الكريم بحسب زعمهم فكم من فرقة في الاسلام انفردت بتأويل للآيات الكريمة ... اه .

وبعد فان للدروز روابط مهمة بينهم منها انهم مهما كانت بينهم طوائل وحزازات يتخلون عنها ويصبحون جسماً واحداً يوم يريدون مقاومة عدوٍّ لهم . وهم من التسامح على جانب حتى مع من يخالفهم . ومعظم عاداتهم اسلامية واسماؤهم اسلامية وفيهم من الاسلام شيء كثير من جوهره . وقد رأينا لعهدنا ابناء هذا المذهب كلما تعلموا قربوا من الاصول الاسلامية وفيهم اليوم فئة صالحة مستنيرة تريد الجهر بالرجوع الى مذهب اهل السنة . ومن اراد زيادة تفاصيل في مذهب الدروز فعليه بالرجوع الى كتبهم ورسائلهم وهي محفوظة في دور الكتب العامة هنا وفي الغرب . وينزل الدروز اليوم في شوف لبنان وجبل حوران ووادي التيم وبعض قرى الغوطة بدمشق والجبل الاعلى في حلب وبعض قرى عكا ولا يقل عددهم عن مئة واربعين الفاً .

* * *

البابية } مؤسس هذا المذهب رجل من فارس اسمه الميرزا علي محمد الشيرازي ولد سنة ١٢٣٥ هـ وتوفي والده وهو حدث فكفله خاله وعلمه مبادىء الفارسية والعربية وحسن الخط واشتغل لاول امره بالتجارة وفي

سن العشرين اخذ يكثر من الرياضة والعبادة فخاف خاله على صحته فأرسله الى العراق وقضى أشهراً في كربلاء والنجف اجتمع خلالها الى علماء الشيعة وخرج من العراق بافكار تخالف ما عرفه الناس من الاسلام ، واخذ يبث دعوته فمال اليه جماعة وحج في تلك الايام . وكان يقول ادخلوا البيوت من أبوابها « انا مدينة العلم وعليّ بابها » يشير الى انه واسطة السعادة الأبدية ، ثم دعا نفسه «الباب» ومعنى الباب عند الشيعة نائب المهدي المنتظر وتخلى عن اسمه . وبعد مدة أرسل الى بوشهر ومنها أرسل دعاته الى شيراز واصفهان يبثون دعوته . فعقد والي شيراز لهم مجالس المناظرة مع الفقهاء فأفتى هؤلاء بكفر البابية ووجوب قتلهم . لكن الوالي اكتفى بقطع العصب الكعبري من كعابهم وسجنهم . وجيء بالباب من بوشهر (١٩ رمضان سنة ١٢٦١) وأنزل في دار ابيه ريثما يهدأ روعه ، ثم استقدمه الوالي سراً وبعد المفاوضة تظاهر الوالي بانه اقتنع بصحة دعوة الباب وجعل هذا في قصره ، ثم عقد له مجلساً لمناظرته فأفتوا بكفره فلم يسع الوالي الا ان أشار بضربه على رجليه فلما استغاث أوعزوا اليه ان يصعد المنبر ويعلن توبته ففعل . وظهر الوباء في شيراز واختلت أحوال فارس فبعث والي اصفهان يستدعي الباب اليه ، فلما رأى والي شيراز ذلك نفى جميع اصحاب الباب من ولايته ، ولما حمل الباب الى والي اصفهان أوعز هذا بان يحسن القوم استقباله فاستقبلوه ؛ ثم عقد له مجلس المناظرة فأفتى العلماء بقتله ، فاعتذر الوالي عن تنفيذ فتواهم ، وخبأه في قصره مطلقاً له حرية التأليف والكتابة وبقي في داره حتى قُتل الوالي وخلفه في الحكم ابن اخيه ، فطالع هذا رجال عاصمة الملك بالامر ، فأمروا بنفيه الى آذر باجيان فحبس في قلعة جهريق ثم في قلعة ماكو .

وبث الباب دعاته وساعده المحيط واختلال الامن في كثير من الولايات ، فاشتد دعاته في بث دعوته فلقيت قبولاً من بعض الناس ، وفي مقدمة أتباعه الملا حسين بشرويه الملقب بباب الابواب في خراسان ، والثاني الملا محمد علي البارفروشي بمازندران والثالثة امرأة من قزوين اسمها زرين تاج من عائلة عريقة في العلم وزوجة احد المجتهدين وهي جميلة الصورة جميلة الادب ، تحفظ القرآن وتعرف تفسيره وأسراره ، فاقتنعت بصحة دعوة الباب ، ولم تلبث ان دعت اليه سراً وجهراً وان لم تجتمع به ، فمال

الناس الى مواعظها وفتنتهم بفصاحتها وجمالها وجميل شعرها ، وقد حسرت نقابها ولقبت بقرة العين ، ثم خرجت الى خراسان فالتقت في رشت بالبارفروشي احد الدعاة ومعه جند من البابية فبعثا منادياً ينادي « عجلوا أيها الناس فقد ظهر الامام المنتظر » فنصبوا منبراً ووقفت قرة العين سافرة وحثت الناس على الاعتقاد بالباب فآمن بعضهم وأنكر الآخر ، ثم انتقلت على هودج الى مازندران والناس يتبعونها ، واخذت تطوف القرى تبشر بدعوة الباب فقبضت عليها الحكومة وخنقتها وأحرقتها .

ثم قام الملا حسين بشرويه وقد كثر أنصار الباب والف منهم جيشاً صغيراً قاتل جيش الشاه في مازندران وجعل الملا علي البارفروشي مقدساً وسماه « حضرت اعلى » وحجبه عن الناس ، وأصيب بشرويه في احدى المعارك واوصى جماعته بان يطيعوا « حضرت اعلى » وتغلبت الحكومة على قلعتهم وقبضوا على ملا محمد علي وحاكموهم فقتلوهم على بكرة ابيهم . وبلغ عدد من قتل في هذه الوقائع الفين وخمسمائة من البابية وخمسمائة من الجند وغيرهم . وحدث مثل ذلك بقيام احد الدعاة الملا محمد علي الزنجاني في زنجان ولكنه لم يوفق . وكذلك وقع في مدينة تبريز فقاتلت حكومة فارس دعاتهم حتى أبادتهم . اما الباب فكان مسجوناً في سجن جهريق . ولما اندلع لسان الثورة في مازندران وزنجان وتبريز وقتلت الانفس ، ارتأى رئيس حكومة فارس قتله فقتله بمشورة الشاه في ٢٨ شعبان سنة ١٢٦٦ هـ . ووضعت حكومة فارس في أشياعهم السيف في جميع بلادها خصوصاً بعد ان ثبت ان الذي حاول اغتيال ناصر الدين شاه سنة ١٢٦٨ هو من شيعة البابية .

وكان من جملة العلماء الذين فتنوا بدعوة الباب رجل اسمه بهاء الله ميرزا حسين علي فلما وقعت هذه الحوادث قبض عليه وسجن ثم حوكم ، وكان سفير روسيا يدافع عنه من تهمة الاتفاق مع الخارجين على الشاه ، ثم أفرج عنه ونفي الى العراق فأرسل مخفوراً بالجند الفارسي مع بعض فرسان من سفارة روسيا في طهران لئلا يغتالوه في الطريق فأقام في العراق ١٢ سنة ثم حمل الى الاستانة ومنها الى ادرنة فأقام فيها نحو خمس سنين ثم صدر الامر بنفيه الى عكا سنة ١٢٨٥ هـ . ونفي اخوه مرزا يحيى نوري

الملقب بعدُ بيحيي صبح ازل الى قبرص وظل البهاء في عكا حتى وافاه اجله سنة ١٣٠٩ فدفن فيها ، وخلفه ابنه عباس افندي وكان كأبيه على غاية من حسن السمت والأخلاق وعظم النفس و بسط اليد وجمال الادب وحسن العشرة حتى استمال باخلاقه من يعتقد بالبابية ومن لا يعتقد . ولما توفي سنة ١٩٢٢ تفرق امر الجماعة وانقلبوا فرقاً كما كان عباس افندي في حياته مع صبح ازل متخاصمين متشاكسين . وسرت دعوتهم الى عدد قليل من ابناء البلاد والى بعض اهل اوربا واميركا . و يبالغون في عدد من دانوا بهذا المذهب في الغرب . وهم في الشام وفي اميركا واوربا بضعة آلاف على الاغلب .

يقولون ان من تعاليم الباب تحريم الكتب المنزلة قبله ونسخ القرآن واحكامه . انه قضى بهدم المزارات حتى الكعبة وقبر الرسول وفرض بناء ١٩ مزاراً باسمه ومن دخلها كان آمناً وأبطل الحج وقسم السنة الى ١٩ شهراً وجعل الشهر الواحد ١٩ يوماً فأيام السنة عنده ٣٦١ وأضاف اليها خمسة ايام سماها المسروقة ورمز عنها بحرف (ه) وجعل اول يوم من شهر (فروردين ماه) الفارسي الموافق للحادي والعشرين من شهر مارس الافرنجي الغربي الذي هو يوم الاعتدال الربيعي وهو يوم عيد النوروز عند الفرس عيداً للفطر وخصه بنفسه وسماه عيد رضوان . وجعل الصوم ١٩ يوماً من شروق الشمس الى غروبها وخصص الايام الخمسة المذكورة للهو والطرب قبل دخول شهر الصيام . والمطهرات عنده خمسة النار والهواء والماء والتراب وكتاب الله (اي البيان كتابه) وكيفية التطهير بالبيان ان يتلى ما تيسر من اسم النقطة اي الباب مع تلاوة آية التطهير ٦٦ مرة على كل شيء نجس . وجعل الدم وروث البهائم وغيرها طاهراً . وللباب وخليفته بهاء الله عدة رسائل وكتب منها ما كتباه بالفارسية ومنها بالعربية من اهمها من قلم الباب كتابه البيان وفيه شريعته وتعاليمه . ومن اهم كتب بهاء الله كتاب اقدس نهج فيه منهج القرآن في ترتيب الآيات والسور ودوّن فيه شريعته واحكامها باللغة العربية . وقد ادخل البهاء عدة اصلاحات على مذهب الباب اقتضته الحال ذلك . وبعضهم يطلق على اهل هذا المذهب اسم البابية نسبة للمؤسس

الاول وبعضهم يلقبهم بالبهائية نسبة لبهاء الله الذي زاد في المذهب ونقص منه ، وهم يسمون انفسهم اهل البيان ٠

قال كليمان هوار : ان الباب أنشأ دينًا جديداً بتعاليمه وعقائده وانشأ مجتمعاً جديداً تحت ستار الاصلاح في الاسلام ٠ فالله واحد وعلي محمد مرآته التي ينعكس فيها النور الالهي ويتأتى لكل انسان ان يشاهدها ٠ وقال الباب في كتابه البيان : عليكم ان تجعلوا من انفسكم ومن اعمالكم مرائي بحيث لا ترون فيها الا الشمس التي تحبونها وقد برأ الله العالم على سبع صفات سميت حروف الحقيقة وهي القدر والقضاء والارادة والمشيئة والاذن والأجل والكتاب ٠ ويدير شؤون الطائفة ١٩ رجلاً وكل بابي يدفع لهم في السنة خمسة في المئة من قيمة رأس المال ، وتلغى جميع العقوبات ما عدا الغرامة التي توضع على زوجين لا يريدان ان يتعاشرا بالمعروف ٠ والتجارة والعقود مشروعة ، ويسمح بدفع فائدة عن بضائع بيعت بالنسيئة ٠ والزواج اجباري بعد الحادية عشرة والطلاق ممقوت ، ويمهل الزوجان المتخاصمان سنة لتأليف ذات بينهما وعلى الارامل من الرجال والنساء ان يتزوجوا ، وعدة الرجال منهم تسعون يوماً والنساء خمسة وتسعون يوماً واذا لم يفعلا يغرمان غرامة ٠

ولا يضرب الولد قبل ان يبلغ الخامسة وبعد ذلك لا يضرب اكثر من خمس ضربات ٠ ويسمح لمن يدينون بهذا المذهب ان يستعملوا الحلي والجواهر خلافاً للامر به الشرع الاسلامي ٠ ويسمح لهم بالوضوء ولكن لا على انه فرض ، ويجب ان يكون في كل حي حمام ، ولا يتحجب النساء ويؤذن بالتحدث اليهن من دون اكراه ، وان يكون الكلام معهن جهراً لا سراً ٠ ويحج اتباع الباب الى البيت الذي ولد فيه حيث يقام له مسجد ، او الى المكان الذي سجن هو فيه او خاصة حواريه ، ولا يسمح لمن يدينون بمذهبهم بالارتحال والسياحة الا لمن اضطر الى ذلك ، ولا يسمح بركوب البحار منهم الا للحجاج والتجار ، ولا تقام صلاة جماعة الا على الاموات وخطبة المسجد واجبة ، ويدفن الموتى في زجاج او في حجار مخونة مصقولة ، ويجعل في يد الميت اليمنى خاتم يكتب على فصه « لئلا يفزع الموتى في قبورهم » ٠ وليس من حق احد ان يستعمل الشدة مع انسان ولا ان يسيء الى اخيه ، ويجيبون على كل من يكلمهم او يكاتبهم

ويفرض عليهم ان يؤدوا الرسالة التي اؤتمنوا عليها الى صاحبها من دون عبث بها . ويحظر عليهم تعاطي المخدرات والمسكرات ، ويجب ان يدعو كل واحد منهم في كل شهر تسعة عشر انساناً ، وان يجتمع معهم ولو على شرب الماء القراح ، ويحظر عليهم الكدية ، ومن الضلال اعطاء الشحاذين . وتقسم مواريثهم على الصورة التالية بعد صرف نفقات الدفن والجنازة : للولد ٩ من ستين وللزوج ٨ من ستين وللوالد ٧ من ستين وللام ٦ من ستين وللاخ ٥ من ستين وللاخت ٤ من ستين وللاستاذ ٣ من ستين ، ولا يرث احد من ذوي القربى بعد ذلك اه .

وحُظر على البابية لما نزلوا عكا الدعاية الى مذهبهم في الشام . ولما اعلنت الحرية سنة ١٩٠٨ انتقلوا الى عكا وزاد اشياعهم قليلاً وهم هنا قلائل ربما لم يتجاوزوا المائتين وهم على غاية من حسن الاخلاق وجميل المعاملة قلما شكا منهم انسان او اشتكوا هم من انسان ، ولا تجد بينهم من لا يحترف حرفة ويعمل ويكد . ولا سيما رئيسهم الاخير عباس افندي فقد كان محافظاً على صلواته مع الجماعة لم يخرج في سمته عن روح الشرع الاسلامي . فاما ان يكون صادقاً في اسلامه او انه عاش في تقية متقنة كما يعيش كثير من ارباب النحل الضعيفة بين المخالفين لهم من السواد الاعظم ، ولا سيما الشيعة بين ظهراني اهل السنة .

وكان عباس على علم وادب اذا تكلم يمزج الفلسفة بالمنقولات فيتعذر على كل انسان فهم كلامه ، وله خطب ومواعظ انطلق بها لسانه في سياحة له في اوربا واميركا دامت خمس سنين ، ويؤخذ من مجموع اقواله ان البهائية او البابية ترمي الى تطبيق الشرائع السماوية على العقل وحل المشاكل القائمة بين اهل الاديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والاسلام . وقال مرة ان الباب صاحب المذهب كان يريد التوفيق بين السنة والشيعة . بل كان يرمي الى وحدة العالم الانساني ونشر السلام العام والتأليف بين قلوب البشر بقوة الدين وتحكيم العقل والعلم ، ونبذ التعصب الديني والجنسي والوطني السياسي ، ونشر العلم وانشاء محكمة عامة كبرى تفصل الخلافات التي تحدث بين الشعوب والدول ، والى تربية بني البشر على الفضائل الانسانية والى اقامة القواعد الاقتصادية وتأليف لغة عامة تفهمها جميع الامم .

ويقال على الجملة ان التشيع كان منشأ البابية والاسماعيلية والنصيرية والدرزية. وكما كانت فارس مثابة كثير من اسباب المدنية الاسلامية كانت ايضاً منشأ معظم ما تفرع من الاسلام من النحل والطرق الغريبة. ولو تسامح اهل هذه المذاهب في نشر حقائقها، لما تقول عليهم المتقولون، ولا رماهم المخالفون بما قد يكونون منه ابرياء. بقي ان يقال ان في الشام مذهب اليزيدية عبدة الشيطان، وممن ينتحلون هذه النحلة قريتان في ضواحي حلب، ولما كانت جمهرة اهل مذهبهم في جبل سنجار من عمل الموصل لم نخصهم ببحث خاص لانهم لا يسترعون الانتباه ويتمثلون على الاغلب في سواد الامة والله أعلم.

الاخلاق والعادات

عادات الدمشقيين(١) { كان سهر الشاميين وسمرهم قبل نصف قرن تقريباً في بيوتهم ، تكتفي كل طبقة باجتماعها مع اهل طبقتها ، فنتج عن ذلك ان ترى في المدينة الواحدة من مدن الشام الكبيرة تبايناً ، يكاد يوهم لاول وهلة انهم من بلاد مختلفة يتباينون باز يائهم ومآ كلهم ومشاربهم وسمرهم ولهجاتهم ، و بالطبع بتصوراتهم وعقليتهم · الى ان ولي الشام مدحت باشا الوالي العثماني الشهير ووضع أسس الاصلاح العلمي والاجتماعي والاداري ، وبدأت النهضة الادبية عقب ذلك فتعارف الاولاد بالمدرسة اولاً ، وتقومت السنتهم ، واعتادوا التلفظ بالفصيح الصحيح ، وفتحت الاندية والمقاهي ودور التمثيل ، ثم قاعات الصور المتحركة ، وتعارف الناس وقلت الفوارق ، وقضي على الارستقراطية الا قليلاً ، وحلت محلها الديموقراطية ، فنشأ عن ذلك اعتياد الشباب الراقي المتعلم ارتياد المحال العامة والاحتكاك بمن مضى وقت تعليمهم ، فمرنوا ايضاً على التخاطب بالفصيح الصحيح ما أمكن ، وعم ذلك جميع الطبقات حتى غير المسلمة وما نزال نرى ذلك في تقدم مستمر ·

* * *

تنقسم حفلات الدمشقيين الى مدنية ودينية · اما الدينية فتنحصر فيما يلي : عيد الفطر والنحر ، والرجوع من الحج ، والاياب من زيارة مسجد الرسول عليه الصلاة

---

(١) كتب هذا الفصل الفاضل السيد محمد شخاشيرو ·

والسلام ، وسنة الختان ، وبعض نذور لله يقوم بها من أبلَّ من مرض شديد ، وآب من سفر خطر او بعيد ، وعادات القوم في تلك الاعياد اخراج الصدقات والزكوات والتوسيع على الفقراء ، وتكثير الزيارات ، و يتصافح القوم عما بينهم من سيئات ، و يصلون أرحامهم و يوسعون على عيالهم . وعادتهم في ذلك ان يبدأ الاصغر سناً بزيارة الاكبر ، و يُقدَّم الاكبر سناً و يحترم في كل شيء . ومنشأ ذلك على ما اعلم الأُمية فان غلبة الأُمية على قوم تضطرهم الى احترام من كان اكثر تجربةً منهم ، وذلك معقول لان من مرت عليه السنون ، وحلب الدهر أشطره ، وكثرت تجاربه ، كان جديراً بالاحترام . اما اليوم فحقيق بالاحترام من يقدم الخدم النافعة لامته ، وليس للسن دخل في ذلك . وخير الناس كما قيل أنفعهم للناس .

و يتقدم عيد الفطر شهر رمضان ، وللدمشقيين فيه عادات : منها اتمام فريضة الصيام ، والانقطاع عن بعض عادات ضارة ، و يقضون نهاره في سماع المواعظ في المساجد ، وليله في زيارات بعضهم بعضاً ، وارتياد محال اللهو المباح ، وتكثر حركة الاخذ والعطاء والبيع والشراء ، وهو من المواسم المذكورة في البلاد .

اما حفلات الحج في هذا العصر ، فتتم حين رجوع احدهم من بعد اداء فريضة الحج بان يقدم الى خواص ذوي قرباه وجيرانه واصدقائه وزملائه واحبابه هديةً ، وتختلف هذه الهدية بحسب مقدرته المالية ، ويبتدئ المهنئون بزيارته في داره ، ويقدم له خواص اصدقائه واقربائه قبل وصوله الى وطنه هدايا تكون غالباً من اللباس الفاخر ، ويكون مثل ذلك بعد رجوع احدهم من زيارة مسجد الرسول الاعظم في المدينة المنورة . وتختم هذه الزيارات غالباً باقامة حفلة يدعونها مولداً وهي عبارة عن اجتماع يضم اصدقاء المحتفى به وذوي قرباه وزملاءه وجيرانه في داره ، و يدعون المنشدين ويفتتحون بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم و ينشدون بعض قصائد في مديح الرسول يتلون المولد النبوي فيه وتعداد بعض مآثره ونسبه وبعض ارهاصات تقدمت بعثته ، وحين مولده ، يقصدون من ذلك التبرك .

ومثل ذلك حفلة الختان ومن المتعارف فيها ان يهدي الى صاحب الحفلة اهله واصدقاؤه شيئاً كثيراً من السمن والارز والغنم والقهوة ، بل من جميع ما يلزم لتلك

الحفلة ، و يكون ذلك دينًا عليه وفاؤه ، حين اقامة حفلة مثلها عند الهادين · وتختم هذه الحفلة مثل اخواتها ايضًا بتلاوة المولد ·

ولم يبرح بعض من لا يعتدّ بعقولهم ينذرون بعض نذور غريبة وهي ما يسمونه بالنوبة يقيمون لهاحفلة هي عبارة عن دعوة بعض الفقراء المشعوذين ، ممن يضربون على الطار والطبل ، و يلعبون بالشيش ، وبعض قطع من السلاح الابيض و يطفئون بافواههم النيران فيجتمع عليهم الاطفال وبعض صغار الاحلام فقط · وهي عادة اصبحت على وشك الزوال ·

ومن الحفلات الدينية ايضًا حفلات تكايا او زوايا المولوية ،وارباب هذه الطريقة لهم حين اقامة هذه الحفلات لباس خاص وهو ثوب ابيض فضفاض ، و يلبسون على رؤوسهم مايسمونه « كلاهًا » وهو من اللباد مستطيل الشكل ، ويمتاز رئيس تلك الطريقة بوضعه عمامة خضراء فوقها و يدورون على انفسهم على نغمات موسيقية مطربة جداً من حيث الفن الموسيقي · وهي من حيث نظامها اتقن حفلات الشرق الدينية على الاطلاق ، وهي بالحفلات المدنية اليق منها بالدينية ·

* * *

اذا حضرت احدهم الوفاة تعلن وفاته ان كان من الاشراف والعلماء وارباب الظهور في مآذن المدينة ، ثم يحضر غسل المتوفى اصدقاؤه وذوو قرباه · وغسل الميت عند المسلمين يقوم مقام التقرير الطبي في هذه الايام ، يثبت بها ان الميت مات ميتة طبيعية فيطلع الغاسل على عامة جسمه ، فاذا كان فيه اثر ضرب او رض او خنق ظهر ذلك لحاضري غسله ، وهم غالبًا من محبيه ، فيشيع ذلك و يتصل بالحكام ، وبعد غسله يشيعون جنازته الى احد المساجد و يصلون عليه ، و يذهبون به الى المقبرة ويمشي المؤذنون امام جنازته يذكرون الله وذلك اشهاراً لموته واعلاناً له · وبعد رجوعهم من المقبرة يذهبون الى منزل عميد الأسرة يعزونه و يحضرون على ثلاث ليال بعد العشاء احد المساجد القريبة من دار المتوفى ، يسمعون ما تيسر من القرآن الكريم ، ويسمون ذلك «صباحية » ، ويحضر تلك الحفلة اقرباء الراحل وجيرانه وزملاؤه ، و يصرفون على الفقراء والمعوزين الدراهم والطعام بحسب ثروة المتوفى · وهذه العادة كادت تبطل

لمعرفة القوم بقيمة الوقت فاخذوا يكتفون بالتعزية في بيت آل الفقيد · وعادة اعادة المريض معدودة عندهم من الواجبات يواسونه و يسلونه و يكررون الاختلاف اليه ·

* * *

من عاداتهم المدنية انه متى بلغ الشاب العشرين الى الثلاثين ان يتولى عميد أُسرته ارسال عميدة العائلة مع من ترضاه من أُخت وعمة وخالة ونسيبة وبعض خواص الجيران الى بيوت المدينة واحيائها يبحثن و ينقبن على زوجة لذلك الشاب ، وتكون قاعدتهم في خطبتهم غالباً الكفاءة من جهة الثروة والسن والآداب · ولا يزلن بوالين بحثهن عاماً كاملاً على الاقل ومتى قر قرارهن على احدي البنات يكررن التردد الى دارها مرات عديدة ليرينها بجميع مظاهرها ، يرينها في زينتها وفي وقت الغسيل ووقت الطبخ وتنظيف المنزل · وعادة الدور التي يكون بها بنات في سن الزواج وهي عادة من الخامسة عشرة الى الخامسة والعشرين ان يناط بالبنات تقديم القهوة والشراب للخاطبات فيتأمل الخاطبات مشيتها ونقل اقدامها وادبها في تقديم القهوة في الاياب والذهاب و يخاطبنها فيرين غنة كلامها وفصاحتها ، ومتى أصبح الامر تقريباً واقعاً يذهبن الى الحمام معاً و يرين جسمها عارية و شعرها ويشممن آذانها وفمها وتحت إبطها ورائحة عرقها وثيابها ، و ينقلن ذلك الى الخاطب وعميد الأُسرة مع وصف شكلها وجمال وجهها وطولها وغير ذلك · هذا مما له مساس بالنساء من طرف الخاطب ·

اما وظيفة النساء من جهة الخاطب فيزرن الحي القاطن فيه سراً و يرسلن من يثقن به من اقربائهن وجيرانهن فيدخلن غالب بيوت ذلك الحي باحثات عن اخلاق الخاطب وثروته وتجارته او وظيفته ، وعن عدد آل بيته ومركز تلك الأُسرة في الهيأة الاجتماعية · و يجري التقصي عن آداب بيت الخاطب واصوله و يذهبن بالمخطوبة سراً الى مقر الخاطب او طريق ذهابه وايابه فتراه فاذا راق الخاطب في أعينهن بعد تلك الاستخبارات يرفعن الامر الى عميد أُسرة المخطوبة · وهنا تنتهي مهمة النساء ، ثم يتألف شبه وفد من عميد أُسرة الخاطب ، والبعض من معارف عميد بيت المخطوبة ، الى دار ذلك العميد ، و يطلبون منه الموافقة على زواج تلك البنت من ذلك الشاب ،

بعبارات تختلف بحسب مركز تلك الأسر في المجتمع . ويكون الامر مقضياً على الأغلب بعد تلك التمهيدات ، ويقررون المهر ويقرأون الفاتحة فاتحة القرآن الكريم للتبرك دليلاً على رضى الطرفين . وبعد ثلاثة ايام يقدم الخاطب خاتم الخطبة . وبعد اسبوع غالباً يحتفل بحفلة العقد يقوم بها الخاطب ، فيدعو برقاع مطبوعة على غاية الاتقان اهله ومعارفه ، معيناً وقت الدعوة ويومها ، ويرسل الى عميد أسرة المخطوبة بعدد من تلك الرقاع يتفقون عليه من قبل ، فيدعو من أراد من أسرته واصدقائه . فيجتمع المدعوون في المحل المعين ويجري على الاغلب افتتاح تلك الحفلة بقراءة المولد ، وتدار المرطبات وقراطيس الحلوى على المدعوين ، بعد عقد قران الزوجين الشرعي ، وينفض المدعوون ، وتنتهي حفلة العقد بعد دفع المهر المقرر ، وبعد شهرين او ثلاثة غالباً يذهب وفد نسائي من قبل العروس بعد ان يكون اهل العروس اتموا لوازم عروسهم يحملن هدية تختلف بحسب مكانتهن ، يسمينها « تعيينة » فيعين موعد حفلة العرس وعدد المدعوات من اهل العروس وتكون تلك الحفلة ليلاً في الغالب ، ويرسلون بطاقات الدعوة ، وليلة الحفلة يرسل وفد من النساء في مركبات على عدد المدعوات من النساء الى دار العروس ، يأتين بها من دارها مع المدعوات الى دار العروس ، وتكون هذه على غاية الرواء والبهاء والزينة ، ويدعى عادة الى تلك الحفلة المغنيات والمطربات ويقضين تلك الليلة بعد دخول العروس بعرسه غرفة خلوتها بالغناء والرقص وسماع الموسيقي وآلات الطرب ، ويمسين على ذلك الى الصباح ، وتعود السيدات المدعوات الى دورهن ويبقى في بيت العروس بعض الخواص من اهلها ، مثل امها وعمتها وخالتها ومربيتها سبعة ايام .

هذه هي الحفلة النسائية اما الحفلة الخاصة بالعروس (الرجل) فيتقدم احد وجوه أسرته او اصدقائه غالباً يعد داره لتلك الحفلة ويسمونها « تلبيسة » ويدعون اليها جميع اقارب العروس واصدقائه وارباب مهنته وجيرانه ، في جوقة موسيقية تدير هذه الحفلة نحو ساعتين تطرب الحضور بأنغامها ، ومتى حان للعروس لبس ثيابه يهزج الشباب عادة عند الباسه كل قطعة من ثيابه باهازيج وطنية عامية بحسب كل عصر ومصر . يذهب به الحضور عقبى ذلك الى دار حفلة العروس بالأهازيج ، ويدخلونه الدار مع عميد

الأسرة فيدخله و يضع يده بيد عرسه و يدخل بهما الى غرفتهما و يذهب بسلام ٠

هذه حفلات الزواج وعوائد القوم قديماً ، واليوم قد زيد عليها معاينة صحة الزوجين ، و ينظرون الى الكفاءة العلمية قبل كل شيء مما يبشر الأسرة المقبلة باعلى درجات السعادة الزوجية ، وهذا الشكل في تأسس الأسرة يعض عليه المحافظون بالنواجذ ، ويؤيدونه بكل ما أوتوا من قوة ، و يرونه أضمن لحفظ السعادة البيتية من جميع اشكال النظم المتبعة في العالم ٠

* * *

ومن عاداتهم الخروج اواخر فصل الشتاء واوائل الربيع الى المتنزهات العامة يوماً في الاسبوع لاستنشاق الهواء النقي ، على اختلاف عادهم ومذاهبهم ، نساءً ورجالاً ، وتكون اماكن جلوس النساء خاصة بهن غالباً ، ولا يتيسر للرجال ان يخالطوهن بحكم العادة ، والشاذ قليل ٠ ومن العادات القديمة التي نشأت من الامية ايضاً سماع القصاص في المقاهي وقد تلاشت الآن هذه العادة ، وكان يجتمع في المقهى عدد يختلف بحسب المحل والقصاص ، ويدعون القصاص «الحكواتي» يتصدر في صدر المكان و يقرأ لهم غالباً القصص التي يرغبون فيها مثل رواية عنترة والزير وابي زيد وهي روايات حماسية ، تمثل الشجاعة والكرم والأنفة والحمية والوفاء والصدق والمروءة والجرأة وحفظ الذمام ورعاية الذمار والجار ، الى آخر ما هنالك من مكارم الاخلاق ينسبونها الى ابطال الرواية ، و يجعلون نهاية النصر لهم والدائرة على مناوئيهم ، و يصفون الخصوم بالجبن والكذب والبخل والرياء والغدر والخيانة والنكث بالعهد ، الى آخر ما هنالك من مفاسد الاخلاق ، مما يربي نفوس السامعين على حب الفضائل ويحبب اليهم العمل بها ، و يبغض لهم النقائص و يحملهم على البعد عنها ، وغالب من يجتمعون لسماع تلك الاقاصيص من طبقة العوام ، وهم متصفون ببعض تلك الفضائل ٠

ومن ملاهيهم خيال الظل والعوام يدعونه « قره كوز » ، وكان في اول القرن الحاضر من اشد العوامل تأثيراً في تهذيب الاخلاق وتقويمها ، بما يلقيه استاذ هذا الفن المشهور بدمشق السيد علي بن حبيب على السن تلك الخيالات من المواعظ الاخلاقية ، بعبارات ملؤها انتقاد ، تفعل في قلب اشد الناس بلادة ، وكان يصور في كلامه العادات

السيئة المتفشية في عصره ، و يظهرها في قالب ينفر الناس منها ، و يصور ظلم الحكام واصحاب النفوذ واغلاطهم ، في صور نقد لطيف ، وكان يحترمه علية القوم و يعد استاذاً كبيراً في الموسيقي تخرج به كل من ينتمي لهذا الفن بدمشق .

ومن العادات الشائعة تعاطي القهوة والشاي في المقاهي العامة شتاءً ، وانواع المرطبات صيفاً ، والتدخين بالتبغ والنارجيلة على الدوام ، وتكون صورة اجتماعهم حسب طبقاتهم ، و يرتادون اماكن سمرهم هذا ، بعد العشاء حين الانتهاء من مزاولة الاشغال وطلب الراحة . واحاديثهم غالباً تدور على السياسة وفي موضوعات علمية واجتماعية يمتدحون فلاناً لمكرمة اتاها ، ويذمون فلاناً لنقيصة بدرت منه . ارتقت احاديثهم في هذا القرن الى الخوض في هذه الشؤون العامة ، ولم تكن في القرن الماضي تتعدى احاديث البطون والفروج الا قليلاً . ومنهم من يقضي سمره ببعض الالعاب الشائعة كالشطرنج والبليار والدومينة والداما والنرد والعاب الورق على اختلاف أشكالها وأسمائها .

وقد فشت مؤخراً عادة ارتياد بعض الشباب اماكن الشراب ، وموقعها غالباً بين الرياض والغياض ، وعلى ضفاف الانهار ، وتكون اغلب تلك الاجتماعات متجانسة ، فتراهم جماعات متشاكلين حول مناضد الشراب ، يجتمع كل اليف على اليفه ، وتجد جالساً الى كل منضدة غالباً رجلٌ من ارباب الصوت الحسن ينشد اصحابه الاناشيد الحسان . ومنهم من يختلف الى زمرة من الموسيقيين الفنانين ، يصحبون آلاتهم كالعود والكمنجة والقانون والدائرة والناي . ومنهم من يقتصر على بعض تلك الآلات . وتجري غالب الاجتماعات في اماكن خاصة . واما المحال العامة للشراب فتحوي من كل شيء أحسنه كالمنشدين والمغنين والآلاتية ، وتسمى تلك الاماكن الجنائن ، تضم غالباً الماء والخضرة والشكل الحسن ، وتبتدي وقت الغروب وتنتهي عند منتصف الليل .

هذا مجمل عادات دمشق ولا تختلف عنها عادات سكان القطر في الشمال والجنوب والغرب اختلافاً يذكر ما خلا بعض عادات دينية عند الطوائف غير المسلمة ، وفيما عدا ذلك فهم متشابهون في اخلاقهم الاجتماعية ، ويمتاز سكان هذه البلاد عن غيرهم

في المحافظة على ما ورثوه من بعض اخلاق الفاتحين العرب منذ نيف وثلاثة عشر قرناً وهي الرزانة والوقار والصبر على المصائب ، ويلتزمون هذه الرزانة وهذا الوقار في اعمالهم ومجالسهم بل وفي بيوتهم وبين ذويهم ومجالس سمرهم وشرابهم وأُنسهم ، ويكرهون من يتصف بالطيش والرعونة والشكوى الصريحة و يتجنبون مجالسته ، ولكل عادة من هذه العادات شذوذ وهي قليلة .

* * *

عادات الحلبيين (١) للحلبيين المسلمين عادات يستعملونها في افراحهم واتراحهم نذكر منها شيئاً يحفظه التاريخ الى ما بعد ان يجتاحه تطور الزمن فيبقى ذكره من مستغرب الاخبار وروائع الآثار فنقول :

مما يستعملونه في قضية الولادة ان الطفل متى تمخضت به امه وولدته تلمسه القابلة فان كان غلاماً صلت على محمد وان كان جارية ترضت عن فاطمة الزهراء ثم يقدم الى احد اقاربه فيؤذن في أُذنه الأذان الشرعي ثم يسمى من قبل وليه ويطبخ لامه حلوى بالشونيز والجوز لتكثير لبنها وتقتصر بالشرب على ماء الحمام المنقوع فيه اصول البنفسج مدة اسبوع و يرسل احد اصدقاء الاسرة مائدة كبيرة تشتمل على مقدار عظيم من الزلابية معها اباليج السكر ، و يولم اهل المولود في اليوم السابع وليمة حافلة بين اطعمتها حلوى قوامها الدبس والسمرة تعرف باسم « المغلي » وقد يحضر في ليلة تلك الوليمة قيان للنساء ومطربون للرجال وكل صديق لأبوي المولود يقدم هدية بعضها مأكول وبعضها مما يتحلى به ومنها مسكوكات ذهبية قديمة تعلق في قلنسوة الطفل واسم ذلك « تهناية » وبعد مضي اربعين يوماً على الولادة تؤخذ النفساء الى الحمام مع اترابها من النساء ويكبس بدنها « بالشدود » وهو المردقوش والخزامى المغربية . واذا شعرت ام الطفل بمغص في بطنه تمضغ له لب عجو الدراقن وتعصر لفاظتها في فمه فيسكن مغصه وتدهن مراقه بالزيت وتذر عليه مسحوق ورق المرسين ومتى بدأت أسنانه

---

(١) تفضل بكتابة هذا الفصل العلامة الشيخ كامل الغزي اخذاً من كتابه نهر الذهب .

بالخروج تسلق له شيئاً من الحنطة تدوفه بالسكر ولب الجوز واللوز والفستق وتطعمه منه وتفرق باقيه على الاهل والجيران ٠

متى بلغ الطفل الخامسة من عمره يرسل الى المكتب او الى الشيخة اوالمعلمة اذا كان جارية ومتى ختم تعلم القرآن العظيم تعمل له حفلة تسمى « نشيدة » يحضر فيها الى منزل الغلام جماعة الشداة والمطربين ودراويش الطريقة المولوية وبعد ان تقام نوبة سماح يطاف بالغلام ورفقائه بعض شوارع البلدة وهم ينشدون ازجالاً في المدائح النبوية ماشياً وراء الغلام حامل المبخرة ورجل آخر ينثر الشعير على رؤوس الناس دفعاً لاصابة عيون العين ثم يعود هذا الموكب الى منزل الغلام وتبسط له الموائد فيأكل وينصرف ويملأ جيب كل ولد فستقاً وزبيباً مضافاً اليها شيء من النقود ٠ وقد يختن الولد في هذا اليوم اذا لم يكن ختن من قبل ٠ واعتاد كثير من الناس ختن اولادهم في اليوم السابع من ولادتهم كما اعتادوا ثقب شحمة اذن الانثى فيه ٠ وقد يفرد لختان الغلام حفلة يدعى اليها الأحباب والأصحاب و يولم لهم ثم يزين الغلام بالحلي والحلل و يركب على برذون مزين و يركب وراءه رديف ٠ يقال له العريف ويطاف به في الشوارع يتقدمه احد مشايخ الطرق راكباً على برذون مجلل بسجادة الارشاد مكللاً رأسه بطيلسان احمر في يده عقافة يشير بها الى جماعته وهم سائرون امامه يحملون اعلام طريقتهم و يضربون طبولهم وبعد ان ينتهوا من تطوافهم يعودون الى منزل الغلام وتتلى قصة المولد النبوي وفي ختامها يختن الولد ٠ وقد يرافق هذا الموكب طائفة من الدارعين ولابسي الجواشن والخوذ في ايديهم السيوف والتراس يقفون في فسحات الطرق ويلعبون بعضهم مع بعض بسيوفهم وقد سار وراء جموعهم رجل يقود جملاً على ظهره منصة مهندمة يقوم فوقها رجل يرتدي كسوة نساء عرب البادية يقال له « عبلة » قد امسك بيديه صنوجاً يرقص بها حتى يصل الى دار المختون وهذا الموكب يسمى « عراضة » ٠

للغلام في اول يوم يصومه من رمضان طبق يملأ بانواع الحلوى يفطر عليه ٠ واذا بلغ الغلام مبلغ الرجال وتاق للزواج تأخذ امه وذوات قرابته بالتمسن له زوجة تنطبق اوصافها على اذواقهن ٠ والأغنياء يغالون بالمهور وربما بلغت جملة المهر الف ذهب

عثماني وزيادة والمهر عند الفقراء لا حد لأقله والمعجل منه ثلثاه والمؤجل الثلث الباقي. والزوجة الغنية تضيف الى المهر من مال ابيها قدره وربما زادت وتصرف الجميع على شراء اثاث المنزل . وعقد الزواج يكون في بيت الزوجة باحتفال فائق يحضره المطربون ويطاف على الحاضرين بكؤوس المرطبات وانواع الحلوى المجففة . وبعد ان يتم العقد بايام ينقل الجهاز الذي اعدته الزوجة الى بيت الزوج بموكب حافل يتقدمه جماعة الحمالين ولاعبو السيوف والعصي، وشداة الازجال، ويسبق ليلة القران ليالٍ يسمونها «التعاليل» يحضر فيها المطربون والموسيقيون وتحرق الألعاب النارية . وقبل ليلة القران بليلتين يدعو اهل الزوجة اقاربهن ويفرق عليهن الحناء ونقوشها فينلن منها على ايديهن ماتناله منها العروس على يديها ورجليها ومعصميها وتعرف تلك الليلة بليلة النقش. ثم في صبيحة اليوم الذي يكون القران في مسائه تقام وليمة العرس وتكون الدعوى اليها جفلى يجلس على سماطها من احب. وفي هذا اليوم يأخذ اهل الزوج الزوجة من بيت اهلها فيركبن العربات المزدانة ويأتين بها الى بيت زوجها وكن قبل ظهور العربات يأتين بها الى بيت زوجها ماشيات على اقدامهن يزغردن ولا يمررن بها على باب حمام زعماً بان جنه يخطفها. واصل هذا ما كان يفعله الانكشارية من اختطاف العرائس اللواتي يمررن على حمامهن فكانوا لا يطلقون سراح العروس الا بعد ان يأخذوا شيئاً من حليها او نقوداً من زوجها .

في مساء هذا اليوم يأخذ الزوج زينته في منزل احد اصدقائه ويحضر الى منزله بموكب حافل من المطربين والموسيقيين وهو يسير الهوينى بين شابين يشبهانه يقال لهما سخاديج واحدهما سخدوج . قد حملت امامه مصابيح ضخمة على عتلات في مقدمتهم شداة يترنمون بمواليات كلما اتم احدهم مواليه يهتف الجمع بقولهم : « الله يساور جوز جوز جيز » تحريف « الله يصور الزوج زوج جهاز » . وقد تقدم صف الزوج صفوف المطربين وأصحاب الأزجال الحماسية وحملة المشاعل ومحرقو الالعاب النارية والمدعون واللاعبون بالسيوف العاب الفروسية الى ان يصل هذا الموكب منزل الزوج فيدخله وتتلقاه عرسه وبضع يدها في يده اقرب انسان اليه ويدخلان الغرفة المعدة لهما ويفتح على رأسيها طيلسان ورديّ اللون. وفي صبيحة تلك الليلة يدخل الزوج الحمام ومعه الجم الغفير من الخلان والاخوان وبعد خروجه منه يعمل له اصدقاؤه الولائم على عدة

ايام وهي المسماة بالصبحيات · وفي اليوم الخامس عشر يولم الزوج لاهل زوجته وليمة شيقة تسمى عزيمة الخامس عشر ·

ومما يستغرب من عادات بعض الأهلين من قطان اطراف حلب انهم يفرشون ليلة القران في غرفة العروسين قطيفة يجعلون رؤوس ماالتوى من ريشها الى جهة صدر الغرفة فاذا وجد الزوج الوردة زرا غير باسم الثغر حول القطيفة اي جعل رؤوس ما التوى من ريشها الى جهة عتبة البيت والا ابقاها على حالها وفي الغد يقوم الخصام سرا فاذا لم يقع التراضي بين الطرفين فانهما يعلنان القضية وتعلو الضوضاء وتشتد الضجة ويفتضح الحال ·

ومما يستعمله الحلبيون المسلمون في اتراحهم من العادات هو ان بعض سكان اطراف البلدة يُحضر حين وفاة رجالهم الاعزاء عليهم — نائحات بدويات ينثرن على رؤوسهن الحناء و يشددن في أوساطهن المآزر و يخدشن خدودهن و يسودن وجوههن بسخام القدر وحين خروج النعش من الدار يضربن جبهة بابها بإناء خزفي زاعمة ان هذا العمل يمنع من ان يلحق بالميت غيره من اهله · ونعش الميت يسيرون به وهم يجهرون بكلمة التوحيد ، وقد يكون في مقدمته من يؤذن أذان الجوق و ينشد بعض المدائح النبوية ، وقد يمشي أمام النعش جماعة الدراويش المولوية · واذا كان الميت من مشايخ الطريق يتقدم جماعته و يحملون نعشه و يتجاذبونه و يتماسكون به كأنه يحاول الطيران وهم يمنعونه عنه و ينادونه باسمه و يضرعون اليه بان يعدل عن الطيران وحملة اعلام الطريقة يفعلون باعلامهم فعل حملة النعش به فيركضون بها إيهاما بانها تجرهم وتحاول ان تطير بهم الى غير ذلك من الحركات التي ينكرها الشرع · اذا وصل النعش الى القبر حطوه الى الارض واخرجوا الميت منه ولحدوه ومن الناس من يودع في نقرة من جدار القبر قنينة فيها شيء من زيت الزيتون قصد تعتيقه لينتفع به بعد من يكون مصاباً بالريح فيطلي منه بدنه فيبرأ ·

في الليالي الثلاث الاولى من الوفاة يجتمع في مسجد الحي بين العشائين نفر من الرجال والاطفال يكررون كلمة التوحيد وفي ايديهم سبحة كبيرة ينتظم في سلكها خمسمائة حبة كل حبة منها في الجوزة حجم · فاذا دارت دوراً سكتوا وتلا امام المسجد

شيئاً من القرآن . ثم تدور دوراً آخر في ختامه ينتهي الذكر و يفرق على الحاضرين الحلوى المعروفة بالغريبة . في صباح اليوم الثالث من الوفاة يجتمع الجم الغفير على القبر وتمد البسط على اطرافه وتوضع عليه قماقم ماء الورد وتنثر فوقه الزهور و يفرق على الحاضرين أجزاء الربعات وبعد الانتهاء من قراءتها يصطف الناس حلقة و يذكرون الله تعالى و يفرق على الفقراء شيء من النقود و يعزي الناس اهل الميت وهم في المقبرة . وهذا اليوم يسمى الثالث وفيه وفي كل من اليوم السابع واليوم الاربعين واليوم المتمم للسنة من الوفاة يدعى جماعة من القراء الى بيت الميت يتلون القرآن العظيم في نهارهم وفي المساء تبسط الموائد و يفتح باب الدار للفقراء فيأكلون و يزودون .

ومما اعتاده الحلبيون في اول يوم من المحرم ان يكون فطورهم من طعام حلو وان يخرج جماعة من العجزة يتصدق عليهم الناس بشيء من البرغل يقال لهم « فاز من صلى » سموا بلازمة زجل ينشدونه على الابواب وهو « فاز من صلى على تاج العلى طه النبي المصطفى جد الحسين » وبعض الناس يسمونهم الحسينية . وهذه العادة موروثة عن الطوائف العلوية التي كانت تقطن حلب . وفي يوم عاشوراء يوسع الناس على عيالهم بالمطاعم و يطبخون طعام الحبوب الذي يشير اليه ابن منير الطرابلسي الشاعر بقوله :

« وسهرت في طبخ الحبو ب من العشاء الى السحر »

وفي يوم عاشوراء كانت الحكومة قبل خراب مشهد الحسين تولم فيه وليمة حافلة يحضرها الوالي ومن دونه و ينشد احد المطربين قصيدة ابن معتوق في رثاء الحسين التي مطلعها « هلّ المحرم فاستهل مكبرا » . وتعطل الحكومة ايضاً في آخر اربعاء من صفر وفي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول وتحتفل بتلاوة قصة المولد النبوي في الجامع الكبير ، ويستمر الناس على تلاوة هذه القصة ليلاً ونهاراً الى آخر هذا الشهر ، و يولمون من اجلها الولائم العظيمة . وتعطل ايضاً في اليوم السابع والعشرين من رجب وتحتفل بقراءة قصة المعراج في المشهد المذكور . و يجتمع الناس ليلة النصف من شعبان في المساجد بين العشائين و يقرؤن سورة يس ثلاث مرات و يلقنهم الامام دعاء ليلة النصف المذكور في كتاب نزهة المجالس وغيرها من الكتب ، وتهجر المعاصي في شهر رمضان و يكثر تردد الناس على الجوامع والمساجد و يقبلون على تلاوة القرآن ومنهم من يقصد المقاهي ليلاً للتفرج على المشعوذين

والمتصارعين · و يخرج قرب السحر طبال يوقظ الناس للسحور و يعقبه شداة المدائح النبوية في منارات الجوامع · وبعد صلاة العيد يخرج الناس الى المقابر لزيارة موتاهم وكان يخرج قبل العيد بيومين رجل سُخْرة معه حمار مدرع بالودع والخرز والأجراس يستجدي الناس بالرقص ويضحكهم بحركات حماره يقال له جحش العيد · وكان يخرج في ايام العيد ولدان قد صبغوا اجسامهم بالسواد وعلى رؤوسهم الطراطير يستدرون احسان الناس بالرقص والقفز و يقال لهم « بضه بضه » · و بعد انتهاء العيد يأخذ رواد الحجاز اهبتهم و يسافرون لاداء فريضة الحج و يحتفل احبابهم بوداعهم · وفي عيد النحر يقبل الناس على الضحايا · وفي تاسع آذار الرومي الشرقي يخرجون صباحاً الى ضاحية البلدة لاستنشاق نسيم الصبا التي تهب في ذلك الوقت كما يزعمه بعض المنجمين · و يكثر خروج الناس في اوائل ايام الربيع الى جبل الجوشن وما قرب منه فاذا نور الشجر واورق يترددون على البساتين · وفي شهر نيسان يحتكرون مؤوناتهم من السمن والجبن والفحم · وكان النساء في يومي اربعاء الزوبعة وخميس البيض (و يكونان قبل يوم الأحد وهو اول يوم من عيد الفصح) يخرجن الى البساتين و يمضين فيهما سحابة يومين و يفعلن مثل ذلك في يوم الاثنين الذي يلي عيد الفصح و يزعمن ان من لم يخرج الى النزهة في هذه الايام لا يأمن الصداع ووجع الرأس الى غير ذلك من العادات التي بعضها مستحسن و بعضها مستهجن مما هو مذكور في كتاب نهر الذهب مسهباً مفصلاً ·

* * *

واما ما يستعمله النصارى الحلبيون من العادات في افراحهم واتراحهم فمنها ان مريد الزواج منهم يبدأ بتصفح وجوه النسوة في مجامع الناس وحين خروجهن من الصلاة فمتى اعجبته انثى سعى باعلامها انه يرغب ان تكون له زوجة وهذه هي الخطبة الاولى · ثم يسعى بالخطبة الثانية وهي ان يرسل احد اوليائه مع كاهن طائفته الى ولي مخطوبته فيعلماه ان موليهما يرغب ان تكون موليته زوجة له فاذا اجاب طلبهما وضع الكاهن يد أحدهما بيد الآخر علامة على الرضى المتبادل ، وبعض الكهنة يسأل المخطوبة بقوله هل رضيت ان يكون فلان زوجاً لك فتطأطئ رأسها بالايجاب وحينئذ يقدم لها قطعة من الحلي مرسلة من زوجها وبعد ذلك يشرع الخاطب بزيارة مخطوبته · وطالما

نهى الكهنة عن كثرة هذه الزيارة فذهب نهيهم سدى . وبعد مدة يرسل الكاهن الى اهل المخطوبة ليتفق معهم على ميعاد عقد الخطبة وليقدم هدية الخاطب الى مخطوبته . وهذا العمل يسمى المشورة وقد ينكث اهل المخطوبة ويفسخ عقد الخطبة فيقيم الكاهن الحجة على اهل المخطوبة و يغرمهم ما انفقه الخاطب في مدة الخطبة . اما اذا لم يفسخ عقد الخطبة فان رقاع الدعوة ترسل بتوقيع الوليين الى المدعوين لحضور حفلة الاكليل فيقبل المدعوون الى بيت الخاطب في اليوم المعين ثم يتوجهون الى بيت المخطوبة فيضعون عليها خمارها وازارها وتكون جميع ثيابها بيضاء و يأتون بها في وقت العتمة الى بيت خاطبها وهي تسير الهوينى بين امرأتين على شاكلتها وأمامها المصابيح وجماعة الموسيقي حتى اذا اقتربت من بيت خاطبها خف لاستقبالها فخاصرها ودخل بها الى منزله وانتظم عقد المدعوين ثم يقف العروسان بين يدي مطران الطائفة ومن معه من الكهنة وهم متحلون بملابسهم الكنائسية و يشرع المطران يترنم بآيات من الانجيل مخصصة بعقد الزواج و يجري بين العروسين الايجاب والقبول و يلقي عليهما النصائح و يأمرهما بالتحابب والطاعة احدهما للآخر و يستغرق ذلك نحو ساعة من الزمن . وفي الختام يرفيهما هو والحاضرون ثم تعزف آلات الطرب وتدور اقداح الراح فيرقصون و يمرحون الى الهزيع الاول من الليل فيقدم للحاضرين سفرة « الدخلة » وهي قطع من لحم الدجاج الهندي والهضم المحمضة المعروفة بالمخللات والخبز الحوارى وغير ذلك وبعد ان يتم الحاضرون اكلهم يعودون الى السماع والطرب . ثم في منتصف الليل يقوم بعض الادباء و يهنئ العروسين بقصيدة وفي الصباح يقدم للحاضرين الفطور من معمولات اللوز الهندي « الشوكولاتة » مع بعض الحلاوي واللحوم المقددة ثم يتحلق الحاضرون حلقاً و يجلون العروسين بالرقص العربي والكردي ثم ينصرفون . وفي هذه الصبيحة يهدي احد ابوي الزوج الى الزوجة قطعة من الحلي تسمى الصبحية وفي اليوم الرابع يحضر المدعوون الى منزل الزوج لتهنئة العروسين ثم في اليوم الثامن يزور العروسان اصحابهما فيحيون لهما ليلة طرب ثم في اليوم الثاني عشر يولم الزوج الى كهنة الطائفة وبعد شهر يطوف العروسان منازل الألى كانوا مدعوين ليلة القران و يردان اليهم الزيارة .

المهر يدفع من الزوجة الى الزوج عكس ما هو معروف عند المسلمين ولا حد لا كثره اذا كانت الزوجة غنية والرغبة منها في الزوج فوق رغبته بها وهو يسمي « دوطه » وبعض الكتبة يترجمون هذه اللفظة بكلمة « بائنة » واذا كانت رغبة الزوجين في الزواج متساوية فليس هناك دوطة انما كل واحدٍ من الزوجين يهدي الآخر قطعة من الحلي قيمتها تناسب ثروته ·

بعد انتهاء هذه الحفلات يصرف بعض المتفرنجين شهراً من حياته بالتغيب عن منزله يسمونه شهر العسل يمضيه الزوجان في موضع نزه جميل يطلقان فيه حريتهما كأن العروسين يمضيان هذا الشهر في وداع الحياة المطلقة المؤذنة بفراقها لحلول ذلك الضيف الثقيل بل القيد الأبدي الذي لا يحل رثاقه الا بالموت : عادة اخذهـا الغربيون عن الامم الوثنية القديمة كأنها رمز الى سرعة انقضاء راحة الانسان بالزواج وطول عنائه بعده ذلك لأن الزوجين لا يلبث فرحها بعد الاقتران سوى ايام قلائل حتى يدخلا في العريض الطويل من تكاليف الحياة واوصابها التي لا تنفد الا بنفاد العمر · فما اشبه الحياة وما فيها من الراحة والتعب بأناء مفعم من الصبر قد بسط على وجهه قليل من العسل وكأن الانسان لا يضطر الى استعمال ما في هذا الإناء اضطراراً حقيقياً الا بعد ان يتزوج فكأن مقدار ما يناله حينئذٍ من الراحة وما يعقبها من التعب كمقدار ما في ذلك الأناء من الصبر والعسل فلا يلعق من العسل غير القليل حتى ينفد ويظهر تحته الصبر فيجرعه مكرهاً ضرورة عدم امكان الحياة الا به وهذا مصداق قول الناس في الزواج « فرح شهر وترح دهر » ·

ومما يستعمله النصارى في اتراحهم انه متى احتضر المريض يحضر اليه كاهنه ويستأديه واجباته الدينية وبعد ان يقضي نحبه يتربصون بدفنه مدة اربع وعشرين ساعة يضعونه في خلالها في صندوق من الصفيح وفي هذه البرهة يرسلون رقاع الدعوة لحضور الاحتفال بالجنـازة ثم في الوقت المعين يضعون الصندوق في نعش مزدان بالأيقونات واكاليل الزهر فيحمل الى البيعة ليصلى عليـه ثم يحمل الى المقبرة وامامه صفوف الكهنة يترنمون بآيات من الانجيل ووراءهم عظماء الطائفة وتلامذة المكاتب وحملة الصلبان والشموع وقد اكتنف النعش اربعة من كبار الطائفة يمسكونه من اربع

اطرافه بسفائف من الحرير الاسود وحينما يصلون به الى اللحد يضعه الحمالون عن كواهلهم و يتقدم احد الادباء فيرثيه نظماً او نثراً ثم يوارونه في لحده و يصطف اهل المتوفي للتعزية ويمر عليهم المشيعون لجنازته لتعزيتهم وفي مقدمتهم المطران ولفيف الكهنة . ولبعض الاسر الغنية دياس تحت الارض مختص بدفن موتاهم يقال له خشخاشة يودعون فيه النعش دون ان يهيلوا التراب عليه وقد يكون هذا الدياس بناية تشبه البيت مبنية على وجه الارض .

في اليوم الثالث من الوفاة يحتفل للمتوفى بصلاة في البيعة يسمونها جنازاً يسرجون فيها من المصابيح قدر مايقع عليه الاتفاق من النقود بين اهل الميت و بين كهنة طائفته وهذه الصلاة تعاد في اليوم التاسع وفي يوم الاربعين وفي نصف السنة وتمام السنة . وحداد الولد على ابويه ثلاث سنين والاخ على أخيه والزوجين احدهما على الآخر والأبوين على ابنيهما سنتان .

***

ومما يستعمله اليهود الحلبيون من العادات في افراحهم واتراحهم ان يختنوا الطفل بعد يومين من ولادته واذا كان من سبط اسرائيل وكان بكر ابويه وجب على ابيه ان يفتديه من كاهن من سبط هرون يضع الطفل في حجره و يقول لأبيه . هذا المولود حق سبط الكهنة فيستوهبه ابوه منه بمقدار معلوم من الفضة . ومتى بلغ عمر الطفل سنة يأخذه ابواه كل سنة الى وليمة قدس اي زفاف يطعمانه من طعام (السيعوداه) فاذا بلغ الثانية عشرة يؤمر بصيام ذلك اليوم واذا بلغ الثالثة عشرة يلبسونه « كنفوت » وهو صدرة تربط اطرافها الاربعة بفتائل من الغزل و يشد على رأسه وعضده الايسر « تيفلين » وهو سير من الجلد يشتمل على الكلمات العشر والاصحاح الاول من سفر الوصايا وحينئذٍ يعتبر رجلاً متماً صلاة الجماعة التي لا تتم الا بعشرة رجال و يرث سهمين من تركة ابيه .

واذا بلغ الثامنة عشرة وجب عليه الزواج فيباشر الخطبة ومتى انتقى مخطوبة يكتتب بينهما فنيان اي عهد يسمونه شيطاراً يعينان فيه مقدار المهر المدفوع من الطرفين و يذكران ماانفقا عليه من الشروط ثم في اليوم المعين تنعقد جمعية يسمونها (كِتِبَّة)

فيها يكون تسلم الزوج الامتعة والنقود التي تعهدت الزوجة بتقديمها اليه وبعد ثلاثة ايام تكون حفلة الزفاف المعروفة باسم « قدوس » فيحضر المدعوون وتعزف آلات الطرب وتدار كؤوس ابنة العنب من وقت العصر الى وقت الغروب ثم يقوم رؤساء الدين و يجرون العقد بين العروسين و يقرأ احدهم قداشين يقف الزوجان مدة قراءة الاول متقابلين ومدة قراءة الثاني متحاذيين ويفتح على رأسيهما ملاءة من الصوف يسمونها « طليطة » اي طيلسان . وفي هذه الساعة يقدم الزوج الى زوجته قطعة من الفضة فتأخذها منه و يشهد بذلك رجلان ليس لهما قرابة لاحد الطرفين وحين تسلم الزوجة القطعة المذكورة من الزوج يخاطبها بقوله (هاري آت ميقديشت لي بي طباعت زكيدات موشي واسرائيل) اي انت مقدسة لي بهذه القطعة مثل دين موسى واسرائيل . ثم يتقدم الحاخام الكبير وبيده كأس من الخمر فيبارك عليه بدعاء طويل باللغة العبرانية و يشرب منه جرعة ثم يدار على الحاضرين فيشرب من شفافته كل واحد منهم جرعة ثم يعاد الى الحاخام فيرميه الى الارض فينكسر وبعد ذلك يدخل الزوجان البيت المعد لخلوتهما فاذا التقى آدم مع حواء في تلك الليلة وجب عليه ان يمسك عنها مدة خمسة عشر يوماً وان ينطبل اي ينغمس في حوض خصوصي وعلى الزوج ان يدعو في ثاني يوم من زواجه عشرة من رؤساء الدين و يولم لهم وعلى رئيسهم قبل الاكل ان يبارك على المائدة سبع مرات كما بارك على كأس الخمر يوم الزفاف .

ومما يستعملونه في أتراحهم ان المريض متى احتضر جلس عند رجليه رجلان يذكرانه بقولهما (شيماع اسرائيل ادوناي ايلو هينو ادوناي احاد) اي اسمع يااسرائيل الديان الهنا الديان واحد . فاذا قضى نحبه وضعوه على «اللوحوت» اي المغتسل وغسلوه بالماء الفاتر وادرجوه في ثوب من الكتان يعيبونه بالتقريض والخروق كيلا يطمع به نباشو القبور ثم يضعون جثة الميت في « الأورت » اي النعش و يحضر احد اقربائه و يقرأ عليه قداشاً اي يصلي عليه صلاة الميت ثم يحمل النعش بين ثلاثة اشخاص وعلى كل من مرت به الجنازة ان يمشي معها اربعة اذرع او اكثر و يطلب من الميت السماح فاذا وصلوا بالنعش الى الكنيسة قرأ عليه احد اقربائه قديشاً آخر ثم يحملونه الى مدفنه و يوارونه في ترابه و يقوم احد الحاضرين و يبارك عليه بقوله : (باروخ

ديان ها اييت) اي تبارك من شرع الحق : ثم يقرأ ولده قديشاً ثالثاً و يعود هو ومن معه من الاقارب والاصحاب الى بيت الميت وفي اثناء الطريق يغسل كل واحد من الحاضرين يديه و يقول : (عينينو لو رأو و يادينو لو شافيخو بيدام هذه) اي عيوننا ما رأت وايدينا ما سفكت هذا الدم . فاذا وصلوا الى بيت الميت قام احد الحاضرين الى كل وارث له وخرق ثوبه من زيقه وهو يقول : (باروخ ديان ها اييت) ثم تحضر مائدة عليها اطعمة متنوعة يرسلها احد الحاضرين فيأكل منها ورثة الميت على شرط ان يضع الطعام بايديهم احد الحاضرين و يباركهم بقوله : (باروخ ميناحيم ابيليم) اي تبارك الذي يسلي الحزين . وعلى ورثة الميت ان يلزموا منازلهم سبعة ايام لا يعملون فيها علاً مطلقاً ويسمونها « التآبيل » اي الحداد . وفي اليوم السابع يصنع طعام للفقراء وهكذا في اليوم الثلاثين وبمرور تسعة اشهر ومرور السنة اه .

* * *

عادات لبنان واخلاقه } كانت عادات لبنان الى اواخر القرن الماضي ، قبل ان يبدأ اهله بالهجرة الى اميركا ، كعادات معظم جبال الشام ، تغلب عليها السذاجة والفطرة السليمة ، وفي اهله مضاء ووفاء وإباء . يقل الكرم و يكثر الحرص في اهل القسم الشمالي منه وهم الموارنة والروم ، وكان العكس في حال اهل القسم الجنوبي وهم الدروز والسنة والشيعة والنصارى الذين كانوا من اصول عربية ، فان اخلاقهم ظلت عربية بحتة ، ولهم في باب الكرم وحفظ العهد فصول . وقد يكون الشماليون الين عريكة ، واقرب الى السكون في الاحايين ، والجنوبيون اشد باساً واقوى شكيمة . ودخل تبدل كبير في العادات بانتشار المدارس الاجنبية في الجبل منذ نيف وستين سنة ، واستبدلت العادات الافرنجية ببعض العادات الوطنية الا قليلاً . وحمل الذين عادوا من المهاجر بعض عادات من نزلوا عليهم ، فاصبحت عادات الجبليين مزيجاً من الغربية والشرقية . ويكثر التقليد في سكان الشمال اكثر منه في سكان الجنوب . وهناك فروق ليست بقليلة بين سكان الجرود الشمالية والجنوبية .

كان اللبنانيون من اول من نفخ في ديارهم بوق الهجرة الى اميركا ، ولبوا دعوتها

سراعاً قبل غيرهم من الشاميين ، لان حاصلات ارضهم قليلة لا تكفي لعولهم · وكانوا من قبل مولعين بمواطنهم ، لا يحبون ان يتنقلوا ولو في ارجاء هذا القطر ، وكان من يسافر من احدى قرى الجبل الى دمشق يضرب به المثل في بعد الهمة وكثرة الشجاعة · وكثيراً ما كانوا يتغنون بقولهم :

« جوزك يا مليحة راح عالشام وحده »

وكان اقصى ما يبلغه تصورهم من البعد « انطاكية » شمالي الشام و« دنقلة » في السودان ، و يقال الى اليوم « اوصلك الى دنقلة » · وكان اذا نشط احدهم للسفر الى مصر او الاستانة ، يعد كمن وصل الى المريخ ، يقصدونه من القاصية ليسمعوا ما يقص عليهم من عجائب رحلته · فلما بدأوا بالهجرة و كثر عديدهم ، واستسهلوا ركوب المخاطر في بلاد المهجر ، ونجحوا وارتاشوا ، تبدلت عقليتهم بعض الشيء ، وهم كاكثر من يهاجرون في طلب الرزق يعتمدون على انفسهم ومضائهم وتضامنهم ، لا علم يحميهم ولا دولة يهمها امرهم · حملوا في جنوبهم عزماً وحزماً ، وحملوا ايضاً روح التحزب والفرقة الذي امتازوا به لما نشأهم عليه رؤساؤهم · وكان المتعلمون منهم في هذه السبيل اشد مراساً من العوام · ولما كان العائدون من طبقة الفلاحين والعاملين الى قراهم من ديار المهجر ، اكثر من الراجعين من اصحاب المعامل والمزارع والتجارات ، وبعبارة ثانية ان عدد الراجعين الآيبين كان اوفر من عدد الآيبين من المتعلمين والمقتنين — اصبح تسرب العادات الغربية لا يكاد يشعر به بين العامة على كثرتهم ، وهو ظاهر محسوس بين الخاصة على قلتهم ·

وقصارى ما يقال في هذا الباب ان اهل لبنان اخذوا مدنية الغرب من مدارسه هنا وبالاختلاط باهله وراء البحار بلا قيد ولا شرط ، على حين كان غيرهم ولا يزالون يأخذونها ببعض الحذر والحيطة · ولبنان منذ عهد متطاول كانت علائقه بالغرب اكثر من غيره من اهل هذه الديار · والروح اللاتيني ترفرف عليه · يحمله الى ربوعه الرهبان الموارنة من رومية وغيرهم من دعاة النصرانية والاستعمار · ولو مكنت طبيعة الجبل من انشاء مدن كبرى فيه ، لظهرت هذه الفروق على جليتها في اهله ، كما تتجلى مثلاً في اهل المدن الداخلية ·

لم يبرح الدروز يعدون في المحافظين على عاداتهم القديمة واخلاقهم العربية من اباء ووفاء وحسن عشرة وكرم وحسن وفادة ، يعظمون رؤساءهم ولو كانوا في سن صغيرة جداً . والدروز، ماخلا الطبقة المتمدنة منهم التي تلبس السراويل بل المعاطف والسترات والاقمصة الافرنجية على الاساليب الغربية ، مازال جمهورهم يلبس لباساً واحداً في جميع البلاد التي ينزلونها : عمائم بيضاء وقفاطين من الاقمشة الغليظة القطنية واعبئة قصيرة مخططة واحذية بلدية ساذجة . كأن لباسهم لم يتبدل منذ حلوا هذه الارض ، ونساؤهم محجبات قليلاً يسبلن على رؤوسهن شاشاً ابيض فاذا رأين غريباً اظهرن احدى عينيهن فقط اي ان حجابهن الحجاب الشرعي .

كان اهل لبنان قبل حادثة سنة ١٨٦٠ يقسمون الى خاصة وعامة ، فالخاصة هم الامراء والمقدمون والمشايخ . والمشايخ على ثلاث طبقات ، مشايخ الاقطاع ، والمشايخ الذين يدلون الى مشايخ الاقطاع بنسب ، وكانوا يعرفون بمشايخ الطبق ، ثم مشايخ الطبقة الثالثة . وتختلف مصطلحات هذه الطبقات باختلاف العصور ، وكلامنا هذا يتناول الاخيرة منها التي ثبتت الى ظهور الجبل بمظهر الاستقلال الداخلي بعد حادثة الستين . ولهم عادات راسخة في خطابهم وكتابهم ومجالسهم وافراحهم واتراحهم ، امست عندهم بمثابة القواعد العامة ، وتختلف عن مجموع ما هو من نوعها في سائر البلاد ، والسر في ذلك ان لبنان مدين بظهوره بمظهر المنعزل المستقل منذ عهد المماليك والعثمانيين لامراء كانوا يتولون جباية الجبل على سبيل الاقطاع مقابل مال يؤدونه ، وهم ينصرفون الى توظيف طبقات البلاد ، وتصنيف اهلها على ما يرون . ومما أثبت هذه الاصول بين أشراف لبنان ان الارستوقراطية فيهم كانت ثابتة لا تتحول عنهم لفقر او غيره . و يغلب على الظن انهم جمعوا في عاداتهم بين العادات العربية ، وشيء من العادات الغربية اكتسبوها في مخالطتهم الصليبيين .

وفي الحق ان لبنان القديم وليد امرائه من المعنيين والتنوخيين والشهابيين واللمعيين والارسلانيين وآل علم الدين . وقد أقر هذه العادات المشايخ الجنبلاطية والعمادية والنكدية والتلاحقة والملكية وبنو العيد وفي المسيحيين آل الخازن والدحداح والضاهر وحبيش وغيرهم . واخذت تحتفظ كل طبقة باصولها وعاداتها لا يباح لاهل طبقة

ان يتزوجوا من اهل طبقة أخرى ، ولا ان يخالطوا بهم الاختلاط اللازم · وكان الجلال والوقار يغلبان على اهل كل طبقة · ويعدون من اسباب السقوط ان يسفّ ابن أُسرة من أُسر الامراء او المقدمين او المشايخ فيصهر الى غير اهل طبقته ، ولذلك غلب ضعف الاجسام على بعض هذه الطبقات ، وتأصلت فيها بالوراثة الامراض العضالة لخروجهم عن الطبيعة في الزواج ·

وكانت لهم عادات نشأهم عليها حكامهم في السلام والجلوس والخطاب · وهم يغالون في الحرص على كرامتهم ، ويعد اكبر أعيانهم من الشرف ان يكتب اليه الحاكم و يلقبه بالاخ العزيز و يوقع له بالمحب المخلص · و يكتب الامير الى الطبقة الثانية من الشعب وهي طبقة المشايخ « عزيزنا » او « اعز المحبين » او « حضرة عزيزنا » او «جناب» بدل «حضرة» · واذا كان طبق الورق صغيراً او كبيراً ، اوكان توقيع الحاكم في أسفل الكتابة او في اعلاه فان لكل ذلك معاني عندهم · والغالب ان القوم كانوا لقلة أشغالهم يتسلون بمثل هذه التافهات ، و يضعون لها قواعد من عند انفسهم ، و يتنافسون في رضا الحاكم والوصول الى مجلسه وتقبيل يده وثوبه ، تأصل هذا الداء فيهم الى العصر الاخير ، فكان من كتب له هذا الشرف تناقل خبره اهل بيته خلفاً عن سلف وعدوه في مفاخرهم · وقد كثر فيهم حب الظهور حتى ان المرء ليبيع بستانه وداره و يبذل ماله لينال عملاً صغيراً في الحكومة او ليكتسي الحرير هو وعياله و يتعاظم على اهل قريته · ومنهم من ابتعدوا عن مواطن الشرف ليتزلفوا الى من اعتقدوا ان في ايديهم إسعادهم · وكم من بيوت خربت بسبب هذا التمجد بالباطل والتقرب من اصحاب السلطان بفساد الاخلاق ·

وكانوا الى عهد قريب يقدمون الرجالَ على النساء في اعطاء القهوة او الخمر ، يرفعون مقام الرجل فوق مقام المرأة ، ولا يزال اثر ذلك ظاهراً في الطوائف الاسلامية · فلما اقتبسوا المدنية الحديثة أصبح الرجل عند المسيحيين لا شيء تقريباً في بيته ، والحكم لامرأته تصرفه على هواها ، خصوصاً اذا كانت اكثر تعلماً منه ، او كانت أُسرتها أغنى من أُسرته وجاءته ببائنة او جهاز · وهذه الاخلاق ماثلة في بيروت وفي بعض البلاد المكتظة بالسكان · و يحترم الاولاد آباءهم كما كان ذلك

في سائر بلاد القطر ، على صورة فيها التشدد الزائد ، حتى ان الولد لا يكاد يجالس أباه ولا يقعد امامه ، ولا يواكله ولا يدخن أمامه ولا يرفع صوته ، ولو تزوج واولد ، ولا سيما في البيوت التي احتفظت بتقاليدها . وكانت العادة ان لا يتفرق اهل البيت الواحد مهما كثر افراده ، يسكنون في دار واحدة واذا كانت الأُسرة فقيرة ففي غرفة واحدة . وكثيراً ما يخصون الولد الاكبر في الارث بشيء من العقار او الارض او المال ، يؤثرونه به على اخوته ، لاحتياجه الى الظهور وحفظ كرامة البيت وقبول الضيفان ، والغالب انهم يحرمون الابنة ارث ابيها ، لئلا تنتقل الثروة الى أسرة أُخرى ، شأن كثيرين من المنحطين في سلّم المجتمع ، بل شأن من يعدون انفسهم في الراقين ايضاً .

كان اللبناني يتزوج في الثامنة عشرة اوالعشرين من عمره ولا سيما في الطوائف الاسلامية ، والمسيحيون قد يتأخرون الى الثلاثين وبعضهم الى الاربعين . وقد يخطف العروس عروسه في بعض الطبقات ، اذا كانت من طبقة غير طبقته ، وتظاهر اهلها بانهم يأبون زواجه ، اولعداء بين اهل الخاطب والمخطوبة ، او لعدم الكفاءة في النسب او المال . وكانوا يحبون كثرة النسل بخلاف مانراهم اليوم بعد الهجرة ، فانهم أصبحوا على مثال الامم التي تريد تقليل الذرية في البيت ما أمكن حتى لا يدخله الفقر . وكانوا يعدون كثرة العيال من اليسر والبركة ، ويقلقون لمن يتأخر حملها من نسائهم ، ويشرعون بمداواتها او وضع التعاويذ المصطلح عليها بينهم ، وينذرون النذور ان رزقت ولداً ، يقدمونها الى قديسيهم واوليائهم . ولهم كغيرهم خرافات كثيرة منها تخويف الاولاد في صغرهم بخيالات ، فينشأ الولد عند بعض المسيحيين جباناً ، والدروز يلقنون اولادهم الشجاعة والفروسية فيأتون شجعاناً اقوياء . ولذلك كان الدروز منذ القديم في هذا الجبل على قلة عددهم يخاف جيرانهم بأسهم . وقد زاد هذا الجبن كثيراً بعد انتشار التعليم ومعرفة قدر الحياة ، فأصبح يجبن من لم يكن يجبن ، ونزعت الاخلاق الحربية الا من الدروز ، وأصبح القوم يؤثرون الراحة ويتطلبونها حيثما وجدوها ، ويزهدون في سكنى جبالهم على كثرة غرامهم بها ، وتمجيدهم لهوائها ومائها ومناظرها وهنائها . وربما كان اهل لبنان من اكثر الشاميين اقتداراً على الاعلان عن ارضهم ، والاعجاب بجبلهم ، والتبجح بثروتهم واثاث بيوتهم ، وتمجيد رؤسائهم

وعلمائهم وأدبائهم · وهذا مما ساعد على اعمار الجبل بما جلبه المهاجر اللبناني من المال الى ارضه ، وسمت الهمم باهله ان يعمروه هذا العمران الواسع بالنسبة الى البقاع الاخرى ، ولولا ذلك لكان كسائر جبال الشام انحطاطاً وفاقة ·

تسربت العادات الغربية الى لبنان اكثر من غيره ، فبعد ان كان اللبناني يأكل واهله وضيوفه على سفرة في الارض او على خشبة مستديرة من صحفة واحدة ، بادوات منها الخزف ومنها ملاعق من الخشب من صنع البلاد ، أصبح يجلس الى خوان وامامه صحاف وملاعق وشوكات وسكاكين ومائدته مغطاة بثوب ابيض ، وعلى يده منديل الغمر ابيض ، والوان الطعام تأتيه أرسالاً · واكثر هذا محسوس الاثر بين المسيحيين ولا سيما سكان الساحل · وقد بلغ ببعضهم حب التقليد ان أصبحوا لا يكتفون بخمر بلادهم ، ويتغالى بعض اغنيائهم المترفين فيجلب خمور الغرب يسقيها ضيوفه على مائدته · وغدا لا يطيب له الزجل والمواليا والمعنّى والقراديات والغناء العربي والقصائد العربية ، وكانت تنبسط أرواح أجداده الى سماعها ، بل يحاول ان يسمع النغمات الافرنجية لانها اجمل وهو « تفرنج » و « تأورب » ويحب ان يقطع صلاته مع آبائه ·

وهكذا يقال في الرقص والالعاب كلها فانها أصبحت بين طبقات المتعلمين افرنجية محضة في بيروت وفنادق لبنان الكبرى · وقد ولع بعض النساء في البيوت الراقية على الطراز الحديث بالرقص والمخاصرة والمقامرة ولاسيما في بيروت ، ولوعاً لا تكاد تجد له مثيلاً فيما بلغنا وعرفناه من اخبار الاقطار الغربية · فقد ترى المرأة البيرونية ولاسيما من المسيحيات ترقص من الهزيع الاول من الليل الى الساعة الثالثة والرابعة صباحاً · وترى السيدة المتقدمة في السن منهن تجلس الى منضدة القمار تقضي الساعات الطويلة ، وقد يكون بناتها الفتيات واقفات ينتظرنها ليذهبن الى النوم وهي مستغرقة · وكثير عدد النساء اللائي فقدن صحتهن وشرفهن لشدة ولوعهن بالقمار والرقص ، واذا رأيت ازياءهن ، حسبتهن اوربيات وزيادة ، أفرطن في التقليد ، وغرتهن الظواهر من مدنية الغرب فاجتزأن بها ، وكانت المرأة المسيحية في جنوبي لبنان في القرن الماضي تحتجب وتتجافى عن غشيان مجالس الرجال من غير محارمها ·

وفي أندية بيروت في الشتاء والفنادق الكبرى في الجبل مدة الصيف ، نموذج من الحياة البيروتية التي أصبحت مزيجاً غريباً من الاخلاق والعادات ، يبدو فيها التكلف والتصنع ، و يفقد منهــا الروح العربي ، وليس المسلمون فيهــا على مستوى جيرانهم في النهوض الاجتماعي حتى ترسم لهم الآن صورة بعينهم · وقد اخذت بعض البيوت التي اخذت المدنية الحديثة لا تتكلم في بيوتها او مجالسها واجتماعاتهــا الا بالافرنسية وقليل منها بالانكليزية ، او يمزجون لغتهم الاصلية باللغة التي تعلموا بعضهــا في المدارس ، واصبحت معظم عادات السكان افرنجية مقتبسة منقولة لا أصلية أصيلة ·

وانت اذا دخلت اليوم دار لبنــاني متعلم ممن كتب له السفر كثيراً ، ورأيت العادات القديمة محفوظة يأخذك العجب ، لان اللبناني يحاول ان يقلد ، ولطالما عولج في هذه السبيل حتى تنزع منه عاداته وتقاليده ، و يلحق بالافرنج في مناحيه ومنازعه · ومن أبشع ضروب التقليد انه اخذ بعد ان تعلم بعضهم في المدارس تعليماً ناقصاً أبتر يستعمل في سلامه وحديثه بعض الفاظ افرنجية ، تساوى في ذلك البحري الجاهل والتاجر المتمول ، فصارت احاديثهم مزيجاً من العربية والافرنجية كعاداتهم واخلاقهم · وأثبت ابن هذا الصقع انه ما استطاع ان يتخلى عن القــديم برمته ، ولا استعد لان يقتبس الجميل من الجديد بجملته ·

واللبناني اكثر من غيره من سكان هذا القطر اقتصاداً وتؤدة ، ومعرفة باساليب الحياة ، وبعدَ هِمم ، وشدةَ حذر · وهو نظيف لا كابن الجبال الاخرى ، وفي مسكنه وزراعته وصنائعه شيءٌ من النظام · وقد تبيت في بيت الفقير منهم في احدى المزارع الحقيرة ، ولا تستنكف من مؤاكلته ، ولا تأنف من النوم في فراشه ، والجلوس على مقاعده ، والاتكاء الى وسادته · فالزعامة الزمنيــة من قبلُ عند غير المسيحيين ، والرياسة الدينية عند المسيحيين ، كانتا بين اللبنانيين على أتمهما لسهولة تسلط الزعيم او الرئيس الروحي على رعاياه ، لضيق الرقعة التي يمتد عليها نفوذه · وقد استفاد ابن الجبل من هذه الزعامة ترتيباً ونظاماً على الجملة ، وولد فيه حب التضــامن والصدق بما يلقنه اياه الشيخ اوالكاهن ، ورُبط الناس بقيود يصعب التفلت منها بعض الصعوبة

وهذا أقرب الى النفع من فوضى تضرب أطنابها بين سكان الجبال الاخرى ، وجهالة ممتدة الرواق على الكبار والصغار لا تدري متى ينقشع ظلامها · وقد اضطر السكان ان يقلد بعضهم بعضاً في باب الاخذ باسباب الترقي والتعليم · وكان للموارنة التقدم ثم لمن يليهم من الروم والكاثوليك ثم يأتي الدروز والسنة فالشيعة ·

فقدت عادات ليست بقليلة من الجبل ومما فقدوا وكاد لباس الفلاحين وهي العمائم والسراويل والعباءآت ولا سيما من القرى التي هي مصطاف البيروتيين والطرابلسيين والمصريين ، ولباس جمهور عظيم منهم الآن هو اللباس الغربي ، والقبعة الافرنجية شائعة الاستعمال في النساء والرجال ، ولاسيما عند من تعلموا التعليم الغربي في مدارس التبشير في بيروت وما اليها من القرى والمدن · والقبعة اليوم تهزم الطربوش والعمامة والكوفية والعقال أمامها ، كما تنهزم المدنية الشرقية أمام المدنية الغربية طوعاً او كرهاً ، وربما كان لحالة لبنان السياسية مؤخراً دخل كبير في هذا التمثل السريع · والمغلوب ابداً مولع بشعار الغالب · وكل ما قام به اللبناني من اقتباس التمدن قبل هذا العهد كان مقدمة الى هذه النتيجة · ولولا ان الهجرة نخرت عظام اللبنانيين ، وتغلغل حبها في شغاف قلوبهم ، لكان الخطر كبيراً من هذه السرعة في اقتباس عادات ليست عاداتهم ، وأخلاق قلما تلائم أخلاقهم ، في ارض هي مفتاح باب البحار · وكأنا بلبنان اذا ظلّ غرام اهله بالرحيل عنه على هذه الصورة طلبَ الغنى ، يوشك ان يفرغ من سكانه ، وسكانه يتعلمون لا ليكونوا فلاحين وصناعاً بل تجاراً ومستخدمين · وقد أولعوا بتقليد الامم العظيمة الغنية في عامة مناحيهم وهم لا ثروة ثابتة لهم ، وفي ذلك ما يخشى عليهم من عواقبه ، ومن أظهر شؤمه على مجتمعهم ما نسمع به اليوم بعد الآخر من كثرة الاختلاس والاحتيال في دواوين حكومتهم وبيوت تجارتهم بحيث كادت ترتفع ثقة الغرب منهم ، ذلك لان الصعلوك فيهم يحاول ان يعيش عيش ارباب الطبقة الوسطى ، وهؤلاء لا يقنعهم الا ان يدانوا الطبقات العليا ، وتقليد اوربا أوقعهم في شر امورهم ، وفاتهم ان الأُمة لا تفلح الا باقتباس الجديد ، والاحتفاظ بالقديم المفيد ، وان كل شعب يحاول ان يرتجل عاداته ، ويصطنع اخلاقه ، يندغم في غيره ، ويذوب في بوتقة من يريدهم ولا يريدهم ·

العادات في الارجاء الاخرى تختلف العادات في القرى وتتقارب ، بحسب قربها وبعدها عن الحواضر على الاغلب ، وبحسب اصول سكانها ، فاذا كانوا من اصول عربية تجلت فيهم عادات البادية كاهل حوران مثلاً فانهم على قربهم من دمشق قد رسخت فيهم العادات البدوية ، كاهل الحواضر والبوادي من سكان اقصى الجنوب . ذلك لان العرب تسربوا الى الشام اولاً من الجنوب قبل الاسلام بقرون ، وما زالت موجات الهجرة تأتيها من تلك الاصقاع . وبينا تجد اهل غوطة دمشق كاهل الحاضرة في مناحيهم كما يقول الرحالة ابن بطوطة ، ترى اهل المرج مرج دمشق ، وماهم من الغوطة ببعيدين ، كاهل حوران ، في عاداتهم ولباسهم وطراز معيشتهم . تتمثل فيهم عيش البداوة ، وهم فلاحون مقيمون على الحرث والكرث وماشيتهم قليلة . وعادات المسيحيين في حوران وجبل الدروز ومادبا والكرك كعادات المسلمين السنة والدروز ، والتعديل القليل يدخل على عادات المسيحيين لانهم اسرع الى التعلم من الاكثرية وان كانت الاقليات في الغالب تفنى في الاكثريات . بيد ان الحال كانت على ذلك قبل الانتباه الاخير في الاقلية . مثال ذلك ان النساء المسيحيات في نابلس وحماة يحتجبن كالمسلمات مراعاة لعادات الاكثرية .

ولباس اهل بلاد غزة والخليل ونابلس كلباس اهل حوران ، كوفية وعقال وعباءة وقفطان . وكذلك اهل بر حماة وحمص والمعرة وما اليها مما هو في سمت الشمال من الاصقاع . وسكان قرى حلب القريبة ، كسكان قرى دمشق يلبسون العمائم . وهذه لا تلبث ان تزول بالطربوش ، لان المتعلمين من ابناء القرى يؤثرون لباس الطربوش على العمامة او الكوفية . دع اهل المدن فقد قلت العمائم فيها . ولذلك يصح ان يقال ان القبعة تهزم الطربوش من الساحل ، والطربوش يهزم العمامة في الوسط ، والعمامة تهزم الكوفية والعقال من سائر اطراف القطر النائية . وهكذا لا ترى وحدة في اللباس في اية ناحية من انحاء الشام اجتزت بها . وقد يظن الغربي الذي اعتادت عيونه رؤية التوحيد في الملابس ، اذا مرّ باحدى الحواضر عندنا ، انه في قاعة تمثيل هزلي ، تعرض فيها صور من البشر غريبة في حركاتها والبستها .

جاء في « دواني القطوف » ان عادات الحورانيين في أعراسهم وولاداتهم

ومآتمهم شبيهة بعوائد سورية القديمة ممتزجة ببعض عادات العرب ، مثل دفع الخاطب لوالد عروسه نقدها في القديم عشرة آلاف غرش نخفض الى ستة آلاف ثم الى الفي غرش فقط لعهدنا هذا عند المسيحيين · وعندهم الالطاف (النقوط) ورشق العروس عند مرورها في البلد بالعنصل (بصل الفار) · وفي المآتم يحملون الطعام الى بيت الميت · ومدة النوح سبعة ايام كاملة · ومن العار عندهم بكاء الرجال الى غير ذلك · واهم ملابس الرجال القمصان الطويلة البيضاء المرسلة الاردان ، والغنباز من نسيج الديما القطنية او الحريرية ، وسلطة (قنطيشة) واسعة الكمين قصيرة ، من الجوخ الازرق ، مطرزة بالحرير الاحمر الناتئ ، والفقراء يتخذونها من الخام الازرق بلا طراز · وعلى رؤوسهم الكوفية والعقال · وفي ارجلهم المداس و « الجزمة » (الحذاء) · اما ملابس النساء فقميص ازرق ملون التطريز ، واسع الاردان والاكمام ، وفوقه « سلطة » اكبر مما يلبسه الرجال اما من الخام او الجوخ · وعلى رؤوسهن « شنبر » اسود حريري · فالمتزوجات يتلفعن به و يربطنه من الوراء · والعزبات يعصبن رؤوسهن فوق المنديل · و يلبسن « البوابيج » (السراميج) الصفراء والجزمات القصيرة ، ويتخذن زناراً من الفضة (حياصة) قيمته اكثر من الف غرش ، وله ذوائب مسترسلة ، وفي معاصمهن اساور فضية ضخمة ، وفي ارجلهن خلاخيل فضية ، وفي آذانهن تراكي ذهب (حلق مستدير) ، وعلى رؤوسهن عصابة من قماش مرصوفة بنقود ذهبية تعرف بالشكة ، وفي اصابعهن خواتم فضية · ويستعملون جميعهم نساءً ورجالاً الوشم الى غير ذلك مما يختلف باختلاف حالتهم اه ·

وعادات السكان في القرى تتشابه وكذلك ألبستهم ، وكلما بعدوا عما يقال له التمدن تمازجوا وتضامنوا ، فما يزال المسلمون في بعض قرى وادي بردى اذا كان عند جارهم المسيحي فرح او ترح يأتي المسلمون يخدمون ضيوفه ، ويقدمون له الهدايا ليبيضوا وجهه أمام الواردين عليه و بالعكس · وهذا من أجمل العادات في التضامن بين اهل البلد الواحد · وعادات المسلمين في الساحل والداخل متشاكلة ، وكلها مقتبس من عادات اهل دمشق · فدير الزور وحلب وحماة وحمص والمعرة وانطاكية واللاذقية وطرابلس وبعلبك وبيروت وصيدا وصور وصفد والنبطية والصلت ونابلس وعكا

وحيفا و يافا والقدس والخليل وغزة ، و بالجملة فكل بلد فيه كتلة اسلامية او مسيحية من السكان لاتجد عاداته الا دمشقية ، واهله يقتبسون من دمشق الى اليوم مايروقهم من عاداتها ، ومدينة دمشق محبوبة تهفو اليها نفوس الشاميين عامة ، واهلها محبوبون للرقة التي فطروا عليها ، ولانهم يعطفون كثيراً على الغريب وربما اغرقوا في عطفهم وآثروه على ابن حيهم وكل من دخلها ولاسيما من سكان القطر متى خرج منها اكتأب ودعا لها بالعمار ولو خسر فيها جزءاً من ماله . قال القزويني : « واهل دمشق احسن الناس خلقاً وخُلقاً وزياً وأميلهم الى اللهو واللعب ولهم في كل يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب . » ووصف اجتماعهم هذا الذي يدعى اليوم سبتية اي يوم يسبتون وما يجري فيه من المساخر والصراع والغناء والالعاب بما لايخرج الآن عما كان منذ نحو الف سنة . والغالب ان السبتية من عادات اليهود سكان البلاد الاصليين كما ان إضراب بعض المشايخ عن القراءة ايام الثلاثاء ، من عادات الصابئة لان يوم البطالة عند الصابئة يوم الثلاثاء . ومع هذا فقد مُدح الدمشقيون منذ القديم كثيراً وهجوا كثيراً . ولعل المادح والقادح لا يخلوان من مبالغة .

ومن يتزوج من اهل هذا القطر بامرأة دمشقية يحسب نفسه سعيداً ، فالدمشقيات يتغربن كثيراً ، وما برحت دمشق تضم اليها الغرباء من اهل البلاد الاخرى وتمثلهم وتعيضها عمن يدخل اليها من الرجال بعض نسائها ، يدخلن فيها عادات العاصمة الأموية ، ويمزجن اهل الوطن الواحد من طريق الأسر والبيوت . والبدو والحضر من جميع النحل يؤثرون البنين على البنات ، وكلهم يلدون كثيراً ، ويعيش الأطفال في المدن اكثر من القرى ، للعناية بصحتهم ووجود الاطباء والقوابل . ولولا ان البدوي يولد له كل سنة لانقرض نسله لكثرة الغزو والذبح في الدهر السالف .

وجميع النساء المسلمات في الشام في القرى سافرات يعملن مع الرجال في الحقول والمراعي على صيانة لاتبذل فيها ، ماخلا بعض القرى القريبة من الحواضر فان عادة الحجاب سرت اليهن ، فيلبسن ملاءات من حبر اسود او ازرق على الاغلب . وفي بعض المدن ملاءات ملونة باصفر واحمر معاً او بابيض فقط . ولكن نساء دمشق خاصة اخترن زياً من الملاءات ومناديل الوجه ، اقتبسنها عن نساء الاستانة ايام كان

الحجاب شائعاً في نساء الترك . فلما كشف الحجاب في تركيا في العهد الاخير وأصبح زيهن كزي الغربيات قبعات على الرؤوس وأثواب قصيرة خفيفة . وزال الحجاب او كاد عند نساء مصر بالطبيعة لتغلب المدنية عليهن ، بقي نساء حواضر الشام كبيروت ودمشق وحلب وطرابلس حائرات يطمح بعضهن الى تقليد التركيات والمصريات . ولكن شدة المسيطرين من الرجال ، اضطرتهن الى الوقوف الآن عند حد حجابهن القديم ، فيظهرن في الشوارع في حبرات سوداء مسدولة الى اعقابهن ومناديل سود مسبلة على وجوههن ، وقد تكون في المتبرجات شفافة جميلة لا تكاد تحجب الوجوه بل تزينها وتدعو الناظرين الى ارسال الطرف اليهن .

ومنذ هاجر الجركس من القافقاس بعد الحرب الروسية التركية سنة ١٢٩٤ الى الشام واسكنتهم الدولة العثمانية في بعض قرى منبج وحمص وسلمية ودمشق وعمان وجرش والقنيطرة ، أدخلوا الى البلاد بعض عاداتهم في تربية المواشي والفلاحة والصناعات الزراعية . ويغلب على الجراكسة الامساك والتضامن لانهم في حاجة اليه لدفع عادية البوادي عنهم ، ويغلب التدين على شيوخهم والشجاعة على شبانهم . واذا أراد الشاب منهم ان يخطب فتاة خطفها من بيت ابيها مهما كانت منزلتها ومنزلته . ونساؤهم يظللن سافرات مادمن أبكاراً وعانسات ، حتى اذا تزوجن عمدن الى الحجاب وابتعدن عن مجالس الرجال . والفتيات يختلطن بالفتيان ويغنين ويرقصن معاً ويتسامرون ويتحدثون من دون نكير . ويقل فيهم تعدد الزوجات ، والمرأة الجركسية مثال المرأة الصالحة في تربية اولادها وادارة شؤون بيتها .

وقد اخذ الصهيونيون في فلسطين يدخلون عاداتهم منذ كثر سوادهم فيها ، ولكن من الصعب ان يقتبسها السكان الاصليون لانهم ينظرون اليهم نظر اعداء ، وان كان في عاداتهم الجميل جداً كحب النظام والترتيب والنظافة والاقتصاد ، وتجويد الاعمال الزراعية على اختلاف ضروبها . وكذلك الحال في المهاجرين من الارمن الذين تسربوا من الشمال وامتدوا الى الجنوب قليلاً والى الغرب ، فان من عاداتهم ما هو المعقول ، وهو تضامنهم الى ما لا حد له ، واقتصادهم ومهارتهم في التجارة والصناعة ، بيد انهم لا يمتزجون بالشاميين ويريدون كالصهيونيين ان يعاملوا اهل البلاد ليربحوا

منهم فقط ، لا لتكون بينهم المنافع مشتركة كما هو الحال بين ابناء هذا الوطن الواحد على اختلاف نحلهم ، وعلى كثرة ما يوقد الواقدون من الرؤساء المتعصبين من جذوة التعصب ، يوشكون ان يقاطعوا غير ابناء جنسهم ، ولكن السواد الاعظم اذا عاملهم بالمثل وعمدوا الى مقاطعتهم لا يبقى أمامهم سوى الرحيل .

واهل دمشق وحلب بل واكثر المدن الداخلية من اشد الشاميين محافظة على عاداتهم واخلاقهم ، ولهم غرام الى اليوم بالتلقيب بالفاظ التشريف ، واستعمال الالقاب الضخمة ، راجت رواجاً كثيراً على آخر عهد الترك العثمانيين ، لان رتبهم والقابهم مما كانوا اسرفوا في منحه للرفيع والوضيع ، فصار اهل الطبقتين الوسطى والدنيا لا يتخاطبون الا بلقب « باشا » او « بك » او « افندي » و « دولتك » «عطوفتك » « سعادتك » « سماحتك » « فضيلتك » « سيادتك » . اما القاب سيدنا ومولانا فتكاد تؤلف جزءاً مهماً من احاديثهم . ابتليت الامة بهذه الالقاب كما ابتليت بالتلقيب بالدين في القرن الخامس الى القرون الاخيرة . وقد وصف ابن جبير مآتم اهل دمشق وجنائزهم في الدولة الصلاحية فقال : ونقباء الجنائز يرفعون اصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة واعيانها ويحلونهم بخططهم الهائلة التي قد وضعوها لكل واحد منهم بالاضافة الى الدين[1] فتسمع ما شئت من صدر الدين او شمسه او بدره او نجمه او زينه او بهائه او جماله او مجده او فخره او شرفه او معينه او محييه اوزكيه او نجيبه الى مالا غاية له من هذه الالفاظ الموضوعة ، ونتبعها ولا سيما في الفقهاء بما شئت

(١) اول من لقب بالدين في الاسلام بهاء الدولة بن بويه ركن الدين وذلك في القرن الرابع للهجرة . وسرى هذا التلقيب الى العلماء ثم سمت نفوس العامة الى التلقب بالدين فأصبحت بعد القرن الخامس لا تسمع الا القاباً هائلة مضافة الى الدين تساوى الناس في التمجد بها ولم تخل من التحلي بهذه الحلية سوى الاندلس لان دولهم بقيت عربية الروح والجسم حتى في الايام التي كان الحكم فيها للبربر . وقد حمل بعض العلماء قديماً على هذه الالقاب المبتدعة لمخالفتها للشرع ولما فيها من تزكية النفس المنهي عنها . قال القلقشندي : وبقي الامر على التلقيب بالاضافة الى الدولة الى ايام القادر

ايضًا من سيد العلماء وجمال الائمة وحجة الاسلام وفخر الشريعة وشرف الملة ومفتي الفريقين الى ما لا نهاية له من هذه الالفاظ المحالية ، فيصعد كل واحد منهم الى الشريعة ساحبًا اذياله من الكرنزيًا عطنه وقذاله قال : ومخاطبة اهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة واذا لقي احد

بالله فافتتح التلقيب بالاضافة الى الدين وكان اول من لقب بالاضافة اليه ابو نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه زيد على لقبه بهاء الدولة « نظام الدين » فكان يقال « بهاء الدولة ونظام الدين » . قال ابن حاجب النعمان : ثم تزايد التلقيب به وأفرط حتى دخل فيه الكتاب والجند والاعراب والاكراد وسائر من طلب واراد وكره حتى صار لقبًا على الاصل . ولا شك انه في زماننا قد خرج عن الحد حتى تعاطاه اهل الاسواق ومن في معناهم ولم تصر به ميزة لكبير على صغير حتى قال قائلهم :

طلع الدين مستغيثًا الى الله وقال العباد قد ظلموني
يتسمون بي وحقك لا اعرف منهم شخصًا ولا يعرفوني

وقال ابو الريحان البيروني : وبنو العباس لما لقبوا أعوانهم بالالقاب الكاذبة ، وسووا فيها بين الموالي والمعادي ، ونسبوهم الى الدولة بامرهم ضاعت دولتهم ، فانهم أفرطوا في ذلك حتى احتيج للقائم بحضرتهم الى فرق بينه وبين غيرهم فثنوا له التلقيب ورغب في مثل ذلك غيرهم ، وكان الراغب يُنجح حاجته بالبذل ، وتنزاح علته بالادلاء ، فاحتيج ثانيًا الى الفرق بين هؤلاء وبين المختص بحضرتهم ، فثلثوا له التلقيب والحقوا به الشاهانشاهية . وبلغ الامر غايته من التكليف والتثقيل ، حتى ان الذاكر يملّ ذكرهم قبل ان يبتدئ به ، والكاتب يفني زمانًا واسطرًا ، والخاطب لهم على خطر من فوت وقت الصلاة . قال وكذلك وزراء الخلافة قد لُقبوا بالاذواء كذي اليمينين وذي الرئاستين وذي الكفايتين وذي السيفين وذي القلمين وأمثال ذلك . وتشبه بهم آل بويه لما كانت الدولة منتقلة اليهم ، وبالغوا فيه واستغرقهم الكذب فسموا وزراءهم بكافي الكفاة والكافي الاوحد وأوحد الكفاة . ولم ترغب السامانية ولاة خراسان في هذه الالقاب بل اكتفوا بالتكنية . وكانوا يذكرون في

منهم آخر مسلماً يقول جاء المملوك اوالخادم برسم الخدمة كناية عن السلام ، فيتعاطون المحال تعاطياً ، والجد عندهم عنقاء مغرب . وصفة سلامهم ايماء للركوع اوالسجود فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض و بسط وقبض وربما طالت بهم الحالة في ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً . وهذه الحالة من الانعطاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء . وعند استعراض رقيق الاماء ، فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال لقد ابتذلوا انفسهم فيما تأنف النفوس الابية منه واستعملوا تكفير الذمي المنهي في الشرع عنه لهم في هذا الشأن طرائق عجيبة في الباطل فيا للعجب منهم اذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تساوت الاذناب عندهم والرؤوس ، ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس اه .

بمثل هذا اللسان الغريب وصفنا ابن جبير . ولما افرط القوم في عاداتهم في الجنائز والمآتم والافراح والمجتمعات والقيام والقعود وتبادل السلام وتقديم القهوة والشاي وغيرهما ، ودخلت في طور من الهزل عجيب ، زهد فيها المتعلمون على المناحي الغربية ، وانشأوا ينبذونها نبذ النواة . وخفت ايضاً الفاظ التكريم عن عهد الترك وهي آخذة بالزوال ، وبقدر ما يكثر سواد المتعلمين يقل سواد المداهنين والمرائين ، على ما يقل المخرفون والمعتقدون . فقد كان بعض الناس يعتقدون بالفال والمندل والكيمياء والاحلام والكشف ، فقلّ اليوم من يلتفتون الى هذه المسائل ، وخفت وطأتها حتى من القرى البعيدة . والمنورون من الناس قسمان قسم وقف عند حدود الشرع واكتفى باوامره ونواهيه ، وآخر نزع ربقة الدين ولكن في سره دون الجهر من القول .

حياتهم بالملك المؤيد الموفق والمنصور والمعظم والمنتصر وبعد وفاتهم بالحميد والشهيد والسعيد والسديد والرضي وأمثال ذلك . ولكنهم لقبوا قواد جيوشهم بناصر الدولة وعمادها وحسامها وعميدها وسيفها وسنانها ومعينها ونصيرها اقتداءً بافعال الخلفاء . وكذلك فعل بغراجان من تلقيب نفسه بشهاب الدولة ، وجاوز نفر منهم هذا الحد فسموا انفسهم بامير العالم وسيد الامراء . فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا وأظهر لهم ولغيرهم عجزهم اه .

وبعض العادات لا تقوى على نزعها الا الايام الطويلة والنشوء السريع ، وهذا متعذر الآن لتعذر نشر التعليم الاجباري في الشعب ، فقد كان النساء الى عهد قريب في الاحياء البعيدة عن مدينة حلب يخرجن في الجنائز مسخمات وجوههن مخمشات لها لابسات ثياب الحداد ، باكيات مولولات منتحبات وهذا من عادات الجاهلية التي منعها الاسلام . واول المسؤولين عن اقرار مثل هذه العادات المشايخ والوعاظ وارباب الصحف . وقل ان رأينا من المشايخ والوعاظ من يتعرض لانكار مثل هذه البدع والعادات الضارة . اما الصحف فعلى كثرة ما نشرت من الانوار في طبقات مخصوصة من الناس وفي البلاد الممدنة ، فقد بقيت في ناحية من النواحي مقصرة كل التقصير ، وهو البحث في العادات المضرة والاخلاق الساقطة . وانا ليحزننا ان كان في الصحافيين اناس لا يزيدون المجتمع الا فساداً فوق فساده ، لانهم يلقنون العامة الكذب والخديعة والملق ، ويدعون ان قراءهم لا يرضون منهم الا بهذه الطرق . ولكننا على يقين من انهم هم يبيعون من قرائهم ما يتفق مع مصلحة جيوبهم واكياسهم . ومن اصعب الاشياء على النفوس الكريمة ان يندس في غمار رجال الصحافة أناس في الغاية من السفاهة والجهل المركب . وهذا من عواقب الحرية المفرطة ، فكل من يئس من تحصيل رزقه وسدت في وجهه مذاهب المعاش لا يرى له باباً اعود عليه بالفوائد من انشاء صحيفة ، والطعن والقذف بالناس او اغرائهم بالمدح والتبجيل . وهذا من اسخف ضروب الاحتيال والتدجيل . فكان التدجل الى عهد قريب من خصائص بعض مشايخ الطرق فذهبت الآن ريحهم او كادت وخلفهم هذا الضرب من الناس .

يمكن إرجاع اهم صفات الناس في هذا القطر الى مادتين اصليتين « الوفاء والكرم » ولا تزال هاتان الصفتان ماثلتين في معظم الشاميين على كثرة ما اعتور مجتمعهم من تبدل وتعديل . وتجد هاتين المزيتين على أتمها في كثير من اهل الطبقات الوسطى والدنيا ، يقومون عليها غالباً من دون ان يتوقعوا عنهما اجراً سماوياً او مظهراً دنيوياً . اما الطبقة العليا فمن النادر ان يكون فيها الوفاء والكرم ، وان وفت فلامر ما تفي ، او تكارمت فلغرض ترتجيه . وكلما ضعف لوازع الديني في القوم ، وهاجمتهم عادات الغربيين ، انحلوا من عهدة الوفاء والكرم ، ولذلك ترى

الاوفياء والكرماء بعيدين الا قليلاً عن المناطق التي اختلطت بالغريب على سواحل البحر ، واخذت من معارفه ، وتخلقت باخلاقه ، واعتادت عاداته .

ومنذ شاع الكذب والحسد في الشاميين ، ضعفت مادة حياتهم من التجارة والصناعة ، وكادت ثقة الغرب ترتفع منهم ، واذا كتب لهم ان عاشوا في الجملة اليوم فبفضل الأسس القديمة التي قام عليها مجتمعهم وجامعتهم ، وبفضل نشاطهم في مهاجرهم حيث رأوا انفسهم أمام جاليات كثيرة من الامم اضطرتهم الحال معها ان يظهروا بمظهر الامانة ليعتاشوا و يرتاشوا . اما التحاسد والمشاغبة فلم تنقطع شأفتها فيهم حتى في ديار الغربة ، وربما زادوا على ما كانوا ألفوه منها ما رأوه في مهاجرهم عند الامم الاخرى فاقتبسوه وأضافوه الى رؤوس أموالهم . وربما بلغت الجالية الشامية نحو الف الف نسمة اي نحو سبع سكان القطر ، فما امرهم باليسير اذاً حتى لا يشار اليهم بجملة ، لانهم على الاقل يمثلون صورة من اهل البلاد في الخارج ، والاجانب لا يعرفون الا انها صحيحة مطابقة للاصل ، او انهم من أمثل طبقات الشعب . ولو تفرقوا في البلاد التي ينزلونها ، كما تفرقت قلوبهم في موطنهم الاصلي ، لكان لزاماً ان يؤثر ذلك في أخلاقهم وعاداتهم ، ولكنك تراهم في مهاجرهم يجتمعون اهل كل إقليم باقليمه على الاكثر ، وقد لا تختلط لفائفهم بسكان الديار التي ينزلونها الا كما يختلط الشامي بالمصري اذا نزل مصر ، يخالطه به ليربح منه و يحتفظ بشاميته وتقاليده بعد جيلين وثلاثة وأحياناً بعد اربعة وخمسة .

***

عادات القبائل وأخلاقها ثمن او سبع اهل القطر الشامي اليوم اي نحو خمسمائة الف نسمة بادية او قبائل رحالة ، ويقال لهم في الاصطلاح العرب او العربان ، تصطاف في مكان وتشتو في آخر ، وقلَّ من يألف منها سكنى الدور ، وبيوتهم من الخيام والمضارب تنسج من شعر المعزى ، يعمدونها بعمد و يشدونها باطناب ، ويضربونها حيث نزلوا لرعية ماشيتهم ، يحملون معهم اثاثهم وخُرثيهم ودوابهم ومؤنتهم ، وهم شاوية يقومون على تربية الشياه والعنز و يربي بعضهم الاباعر ، والشاوية من الاسماء التي تطلق على عشائر دير الزور على الفرات خاصة لانهم جماعة

شياه . ومعاش البدو من مواشيهم وما تدرُّ عليهم من السمون والالبان والاجبان والزبد وما يبيعون من نتاج قطعانهم ، او من غزو بعضهم بعضاً ان كانوا اشراراً على الفطرة لم تتدمث اخلاقهم قليلاً بالاحتكاك بالمتحضرين ، واذ كان سكان البادية على هذه الحالة من التنقل واكثرهم يوغل في الشتاء الى وسط بلاد العرب انتجاعاً للكلاء والماء ، أصبح من المتعذر ان تنشأ لهم حالة ثابتة يتأتى معها وصف كل قبيل منهم في عاداته وأخلاقه .

وعرب الشام من اصول شتى وقد تتغير اسماء قبائلهم مهما عظمت في كل قرن او قرنين ، فقد تغيرت اسماء القبائل التي كانت معروفة بدخول الاسلام الشام ، في القرن الثالث اوالرابع ، وما عرف من اسمائها في القرن الثامن او التاسع تبدل في القرن الحادي عشر والثاني عشر ، وهكذا تتبدل اسماء العشائر تبعاً للمتأمر عليها ، وقد تسمى القبيلة كلها باسم اميرها او شيخها . والعشائر كلها تنقسم الى أفخاذ وبطون ، والامارة او المشيخة ترجع على الأغلب لمن كان له اصل قديم من بيته ، او من كان اذكى قومه جناناً ، وابسطهم بالكرم يداً ، وأشجعهم يوم النزال قلباً ، وأصلبهم في الحوادث عوداً ، ثم تنتقل بالوراثة .

وغزو القبائل بعضها بعضاً يحول دون بقاء الثروة الناطقة والصامتة فيهم ، فقد تكون القبيلة اليوم في الغاية من طيب العيش ، ناعمة البال بحلالها اي ماشيتها ، فتغزى من الغد في عقر دارها ، فلا تلبث ان تصبح أعرى من مغزل لا سبد لها ولا لبد . دع ما يصيبها من نقص في الانفس ، فقد كان من النادر ان تجد رجلاً بلغ اقصى سن الشيخوخة لانه يُعتبط في الغزوات ، و يُقتل في سن الفتوة غالباً . والحكومات الشامية اليوم تحظر على القبائل الغزو ، وهم يخافون سطوتها لمكان السيارات ورشاشاتها في الارض ، والطيارات وقذائفها في الجو ، وتحاول كل حكومة ان تعطي البادية ارضاً تزرعها لتأوي الى البيوت الثابتة ، وتتخلى عن عيش البداوة وما تستلزمه من شقاوة وشقاء . ومن عشائر الشام ما عرف انها كانت رحالة فأصبحت مزارعة مقيمة ، ولذَّ لها عيشها الثاني فاغتنت يوم تحضرت ، مثل الدنادشة او بني دندش فهم قبيلة يمانية جلت الى حوران منذ نحو ثلاثمائة سنة ، ثم انتقلت الى أرجاء تل كلخ من عمل

حصن الاكراد ، ولهم اليوم قرى عامرة وبيوت وقصور في قرى القنايا والحوز ومدان وحير البصل والموح ومشتى حمردة ومشتى حمزة وبرج الدنادشة وغيرها ، وظلت اخلاقهم الى عهد قريب اخلاق العشائر يحبون الغزو والسطو ويحمون الذمار والجار ، وهم على حصة موفورة من الكرم والوفاء وصحة العهد . واتفق مثل هذا التحول لكثير من عشائر الحديديين والموالي وبني خالد ، فانهم لما امتلك السلطان عبد الحميد الثاني ارضاً واسعة في الشمال الشرقي من الشام في ارجاء حماة وحمص ، حمى العشائر ومنع الغزو بينها ، فتحضر من هذه العشائر عدد كبير انصرفوا الى اعتمال الارض والعناية بالزرع والضرع . وهكذا كانت الحال في القديم والحديث ، تدخل البادية في الحضارة ، وقلَّ ان خرج افراد من الحضارة الى البداوة ، لان الترقي سنة الطبيعة ، والبداوة اصل ثم يذوب اهلها على الزمن في الحضر .

تبعد منازل البدو عن سواحل البحر المتوسط غالباً ، ولا تزال تمتد في الداخل حتى ينتهي العامر من ديار الشام في الجنوب والشرق ، وهناك البداوة باجلى مظاهرها . والاولى ان يقال مثلاً في عشائر النضل والهوادجة والبحاترة النازلين على ضفاف بحيرة الحولة ، وبني صخر الضاربين في البلقاء ، وبني حسن في عجلون ، والحسينة والفواعرة والعكيدات في ارجاء حمص ، وبني خالد عرب حماة ، والحديديين والموالي واللهيب والغيار عرب حلب ، والسبعة والفدعان من عنزة النازلين من بحيرة الجبول الى سلمية وعشائر البشاتوة والبواتية والغزاوية والمساعيد ونقار والصقور عرب بيسان ونابلس وجنين وطول كرم ، وعشائر شرقي الاردن التي تشتو في وادي العربة او الاغوار ، او الحماد اي الصحراء العربية شرقاً ، وتصطاف في بلاد معينة الحدود معروفة — فالاولى ان يطلق على هذه القبائل اسم نصف حضرية لان منها من يزرع الارض ، ومن افلح في الفلاحة ، وايقن على الايام ان العيش الثابت خير من المتقلقل ، وان من يدفع للدولة اجرة حمايته ، اهنأ بالاً ممن يتكل في حمايته على نفسه وسيفه وعصبيته .

وهكذا يقال في عرب الغياث والعمور في اللجا والصفا ، وعرب العدوان والايديات والعباد والمشالخة والحمايدة والشوابكة والدعجة والعجارمة والنمر والكايد في اطراف عمان والصلت ومادبا ، والخرشان والجبور في الموقر والعليا والنقيرة ، وبني

حميدة والسليط والحجايا والحباشنة والصرايرة والطراونة وكثربة والمعايطة والمجالي والمدانات في ارجاء الكرك ، والحويطات والدمانية وابي تاية والمطالقة والنعيمات والديابات وبني عطية في جهات معان ، وعرب الشرور وبني عطا والهلالات والعبيدية والعلايا في وادي موسى وجبال الشراة ، والحميدات وعبدين والبجارات والكلالدة والوهبيات والمناعين في الطفيلة ، فان كثيراً منهم يزرعون الارض ، و يقومون على تعهد الماشية ، وقد يبعدون في الانتجاع ثم يعودون ادراجهم ·

وعلى مثل هذه الحال عشيرة العمور في ارجاء تدمر وعشائر بو شعبان في السبخة والجبور في البوكمال والكعيدات في الميادين ودير الزور وغيرهم من العشائر النازلة على شط الفرات الغربي فانها كلها نصف متحضرة وبقليل من العناية تدخل في المدنية وتترك عاداتها وشقاءها ، ويسوغ لنا ان نستنتج ان البادية حتى اكثرها ايغالاً في البداوة يمكن تحضيرها اذا أُكرهت على التحضر خلافاً لما يذهب اليه بعض اهل الغرب · وفي الشام قبائل من البدو مثل عرب الروالة من عنزة وهم لا يقلون عن عشرين الف نسمة ، يتنقلون ابداً كالوَر او الغجر كل مدة في ناحية ، ولا ينزلون المدن الالابتياع حاجاتهم وبيع جمالهم واصوافهم والبانهم · والنور جيل من الناس في احط طبقاتهم ، يرتحلون كالبدو ويعملون الاعمال الخسيسة ، ولذلك يحتقرهم جميع اصناف العالم من اهل المدن والقرى والبدو ، وهم قلما تخلو منهم بلاد ومنهم عدد كبير في بلاد اوربا ·

ولا تختلف عادات العشائر لانها كلها في حالة اولية فطرية هدتهم اليها الحاجة الى الحياة فعشائر ولد علي والسرحان والمجل والسردية والنعيم في حوران والقنيطرة والزوية ، والزرقات في طرابلس والتياهة والعزازمة والترابين والجبارات والحناجرة والكعابنة والصرايعة والجهالين وفقرة وثبانى وسارين وفرحات وزويديين وضواحك وسلامات وصقرير والرسيلات وابي صونية والغوالبة في اقصى فلسطين اي في ارجاء بئر السبع وغزة والخليل والمجدل ، وعشائر القدس ورام الله وبيت لحم واريحا و يافا والرملة كالسويطرة وعرب النبي روبين والجماسين وابي كشك والسوالمة والعوجا والدبوك والنويعمة والخطباء والفهيرات والعرينات والنصيرات والتعامرة والعبيدية والسواحرة وعرب وحيفا وعكا زمارين والناصرة وطبرية وصفد وهم الغابة والعواضين

والشقارات والزبيدات والتواجة والكعابية والضيبة وبني عزة والنغناغية والرمل وعرب التركمان وجسر الزرقاء وقسارية والفقرة ونفيعات والدمايرة والسواعيد والسمنية والغوارنة والسويطات والحجيرات والطوقية والمريسات وصبيح والحجيرات والمزاريب والسبارجة والجواميس والغزالين والتلاوية والمواسي والسرجونة والسدور والسمايرة والخرامية والسماكية والمنارة وكراد الخيط والملاحة والشمالنة والبويزية والزنغرية وزبيد وقديرية وطوبا وحسينية وعلانية ووقاس والصويلات والنميرات ، وعشرات من القبائل كلها متشابهة في عاداتها واحوالها الطبيعية وجلها لا تسد مطامعه الا الغارات واستباحة حمى المعمور من البلاد ، عرفوا بذلك منذ عرف تاريخهم . وكان الرومان خاصة يقيمون المخافر خوفاً من اجتياحهم القرى ويقيمون لهم منهم زعماء يصدونهم عن الاعتداء بعضهم على بعض ، او يحولون دون اعتدائهم على المقيمين من سكان المزارع والدساكر .

وكما عرف البدوي بانه يجير الملتجيء اليه ، فهو كذلك اذا آنس ضعفاً من احد ابناء السبيل في البرية سرق منه ماله وثيابه او هميانه ودابته ، وندر ان يقتله فشأنه شأن معظم البشر عبد القوة لا يحاذر غيرها . ولطالما كان الجنود الشاميون ايام كانوا يفرون على عهد الترك من اليمن تطيل البادية عليهم ايدي الاعتداء تارة و يكسونهم و يطعمونهم تارةً اخرى ، وهكذا كان الفار يعرى و يكتسي مراراً حتى يصل الى المعمور من دياره .

وماذا يعمل البدوي وماشيته ترعى أمامه ، وكيف يصرف ليله ونهاره ، وكيف تطيب له الحياة في الصيف والشتاء ، وهو معرض لاشد الحرارة واشد البرودة ، وخائف على الدوام يترقب غزوة خصمه وقبيله الذي يعاديه ? لا جرم ان البدوي ، وهو بذكائه وفراسته معروف موصوف اكثر من الفلاحين اهل القرى ، يعرف من الاخبار التي تهمه من انباء العالم ما ينبغي له الاحاطة به ، ويتناقله بسرعة البرق ، حتى ان ما يحدث في الحجاز او العراق ، يصل خبره الى ابن بادية الشام وما وراءه من العرب ، قبل ان تصل السيارة والبريد ، فينتقل الخبر في الافواه من فم الى فم ، ويسمون الاخبار «العلوم» واول ما يسأل البدوي في البادية او المعمورة عن العلوم .

واذا لم يكن عند البدوي ما يتسلى به من القصص والاخبار التي تكون في العادة نمطاً واحداً يأخذ شاعر القبيلة ربابه يضرب عليهـا ، و يفكههم من نظمه او من محفوظه باشعار . وفي الغالب ان يكون ما ينشدهم اياه بلهجتهم التي يألفونها . و يحتوي على الاكثر الحماسيات وأخبار الغزاة والغزوات وايام الشجعان وحوادث الكرماء والضيفان . والرقص معروف عندهم وهو الدبكة او السحجة يرقص في الغالب الفتيان والفتيات ، دون الرجال والنساء المتزوجات . ومهور النساء غالية في بعض العشائر ، وتكون من الجمال والشياه غالباً لا من النقود لقلة تداول النقد بينهم فهم يتقايضون الحاصلات ، كما يتقايضون البنات بالحيوانات . والبدوي يُخصب ان جادت المراعي من خيرات السماء ، والا فقد أترب وأجدب ، ونفقت دوابه فأعوزته اللقيمات .

و يجلس الرجال في العراء في خيمة مضروبة تكون في الغالب خيمة الشيخ اوالغني ، يتعاطون قهوة البن وهم يجيدون طبخها لفراغهم وتوفرهم على معالجتهـا . وقد يستغني البدوي عن الاكل او يقلل منه كثيراً ، ولكنه لا يستغني بحال عن تعاطي القهوة في كل ساعة فهي نُقله وحلواؤه وشرابه المنعش ، وقد يصرف احدهم ثمن بن في السنة اكثر مما يصرف على طعامه ولباسه . واحب الهدايا الى قلب البدوي ان تحمل اليه مقداراً من البن . وطعامهم من أسهل الاشياء ، مقصور على بعض الالبان والبر والجريش والأقط والعصيدة ، ولباسهم ساذج للغاية و كسوتهم متشابهة : قفطان من القطن ، وعباءة خفيفة ، وزنار عادي ، و كوفية وعقال ، ولا يلبسون في الاعم من حالاتهم قمصاناً وصُدَراً وسراويل ، واكثرهم حفاة ، و يصطنع بعضهم كسكان وادي موسى نعالاً من جلود الاباعر يخيطونها بحبال يدخلون فيها أباهم ارجلهم تعلق بها .

قل ان تجد في البادية من يقرأ ويكتب ، فقد تبلغ العشيرة الف نسمة ولا تظفر فيها بمن يكتب جملة . ومن العشائر من تستأجر خطيباً من اهل الحضر يكون معها في مشتاها ومصيفها ، يقرئ بعض ابناء العشيرة القرآن ، وينظر في الانكحة والطلاق ويعظهم بما يعلم من امور الدين . واكثر البادية لا يتطهرون ولا يصلون ولا يصومون ولا يعرفون من الاسلام الا ان الله واحد وان محمداً رسوله . ولولا هاتان الكلمتان

لقلنا انهم كعرب الجاهلية حذو القُذَّة بالقذة وقد تصلي بعض القبائل كالزوالة ، ولما كان الماء يعوزهم في منتجعاتهم وتنقلاتهم فهم يتيممون صعيداً طيباً ، والله يعلم هل يحسن اكثرهم قراءة فاتحة الكتاب ، او يعرفون بعض سوره الصغار . وما كانت هذه العشيرة تصلي من قبل لولا ان لابسها بعض دعاة الشيعة وعلموا كل فريق منهم اقامة الصلوات ، ولقنوهم بعض معتقدات التشيع من حيث لا يدرون . وقد تديَّن اليوم اي دان بالمذهب الوهابي قسم من الزوالة لما لحقوا بنجد ، والمذهب الوهابي مذهب محمد بن عبد الوهاب هو مذهب احمد بن حنبل باصوله وفروعه .

واذ كان من الامور العادية في البادية ان تكون القبائل في خصام دائم ، وهي أشبه بحكومات صغرى تتقاتل وتستعين بالغريب على خصمها ، مست الحاجة الى قضاة يفصلون بينها في المنازعات ، وقضاتهم منهم يتقاضون عندهم باجر معلوم ، وأحكامهم سريعة نافذة ، ومن أحكامهم ما هو مطابق للشرع الاسلامي ، ومنها ما هو من بنات افكار القاضي ، او يأخذه من العرف والعادة . والاختلافات تفض بين المتخاصمين على ايدي الرؤساء صلحًا على الاكثر . وقلَّ ان يراجع البدوي الحكومة في مسائله لان من اصولها البحث والتحقيق ، وهو يحب قضاءً عاجلاً ، وان يحكم له او عليه في جلسة واحدة ، و ينفى القاتل في بعض القبائل سبع سنين فاذا صالح اهل القتيل ودفع الدية يعود الى عشيرته ، وتختلف دية القتيل بين ٣٣الف غرش الى ١٥ الفًا ، ولا يحق عند بعضهم لاحد بعد سبع سنين ان يثأر للقتيل ، والاخذ بالثأر كثير عندهم ، ولا مدة عند معظمهم للمطالبة بالثأر . ومن المأثور عنهم ان البدوي اخذ ثأره بعد اربعين سنة وقال انني تعجلت اخذه . وجزاء السارق تغريمه المال المسروق من ضعفين الى اربعة اضعاف ، وينجو السارق بالفرار ، و يدفع الضارب للمضروب اذا عطل منه عضواً نصف الدية . والزاني يرجم عندهم حتى يموت ولكنهم تساهلوا في هذا الحكم ، والفحش عندهم على نسبة ما هو عند الحضر ويكثر في بعض العشائر ويقل بحسب اختلاطها باهل المدن وبعدها عنها والخمور لا اثر لها في البادية لان العرب قلما يشبعون الخبز والادام فمالهم اذاً والمُدام والشظف العيش عندهم يعدون في الاعياد اليوم الذي ينزل على شيخهم ضيف يجب ان ينحر له شاة فانهم في تلك الوجبة مدعوون كلهم بالطبيعة

وعندما يأكلون اللحم فترى قطعانه تسافر من فوق الرؤوس حتى يُطعم من «المنسف» البعيد منهم عنه وتسمع عندها تعريق اللحم عن العظم اشبه باصوات حيوانات وقعت على عظام .

ويكثر تعدد الزوجات بينهم خصوصاً عند من يملك بعض نعجات او بضعة أباعر فتراه طول النهار وجزءاً من الليل ، تحت خيمته يتقهوى اي يشرب القهوة مستلقياً على قفاه ، يقص أقاصيصه وينعم ببطالته ، على حين ترعى امرأته وبناته الغنم والجمال ، و يحتطبن الحطب او يجمعن العشب ، وتحمل المرأة الماء على رأسها من مكان بعيد ، او تستقيه في قُرَب تحملها على حمار ان كان صاحبها من اهل اليسار ، وتستخرج المرأة الزبد والسمن وتعمل الجبن وتخبز الخبز وتهيئ الطعام . ويعيش اولادهم كالسائمة في البرية بدون عناية ويهلك معظمهم قبل الخامسة من العمر ولهذا تكون أجسام من يفلتون منهم من الموت قوية تبعاً لقاعده بقاء الانسب . وهم لا طبيب عندهم ولا جراح ولا قابلة الا ما تعلموه من اجدادهم من الوصفات ، وثقفوه بطول الزمن في مداواة الجروح ، و يداوون اكثر الامراض المستعصية بالكي وآخر الدواء الكي او بادهان وحشائش لهم يعرفونها . وامراضهم قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم وجشوبة طعامهم وقلة تطهرهم ، وذلك لمكان الهواء النقي والشمس المطهرة من اجسامهم ، ولندرة ما يطعمون من الاطعمة المركبة من حامض وحلو وحار و بارد ، ولقلة الهموم التي تساورهم وما تساور في العادة الا سكان المدن والقرى ممن يفقهون واجبات الحياة ، و يكدحون في طلب المعاش ولا يزالون مأخوذين بجب التقليد . والبدوي حاد النظر يرى الاشباح من مسافة بعيدة جداً وقد يرى والقمر ليلة هلاله مالا يبصره الحضري ، ومن رآه في تمييز المرئيات عن بعد باعد ، يكاد يصدق ماذكرته العرب عن نظر زرقاء اليمامة . وكما كانت ابصارهم حادة كانت أسنانهم وأضراسهم سليمة براقة للطف اخلاطهم وتخليطهم .

قال الاستاذ اديب وهبة : « ان سكنى البدوي في بيت الشعر في البوادي المحفوفة بالاخطار والمشاق ، وبعده عن الحامية وانتباذه الاسوار ، قد ولد فيه عدة مزايا يمتاز بها على الحضري ، منها الشجاعة والعصبية والكرم والوفاء والأنفة والنجدة .

فتوغل البدو في البادية ، وتولعهم بالغزو والغارات قد جعلهم في قتال اواستعداد دائم للقتال ، فأصبحت الشجاعة فيهم طبيعية ، وتعذر قيام الفرد مهما كان شجاعاً بمقابلة العدد العديد من العدو قد اضطرهم للالتجاء الى العصبية ، وهي التضامن المطلق بين أفراد القبيلة ، حتى تطلب العشيرة باجمعها بحق احد افرادها ، وأقرب اسبابها لديهم الاخوة والأبوة والعمومة ، ومنها تتألف الأسرة ، ومن الأسر تتألف الفصيلة وتتدرج بهذه الصورة الى القبيلة . والذي عليه عشائر الشرق العربي انها تطلب وتطالب بحقوق أفرادها الى الجد الخامس من جدود الطالب والمطلوب ، اي كل فرد يتصل مع ايهما بالجد الاول اوالثاني اوالثالث الى الخامس ، له الحق بطلب حق قريبه ، وعليه ان يخضع للحق المطلوب منه ، ولهم بذلك قوانين وقواعد موروثة . ثم ان ابتعاد البدو عن المدن وتفردهم في الارض المقفرة يضطرهم الى اكرام الضيف والقاصد وحماية الضعيف والملتجئ ، حتى اذا وقع احد افراد قبيلتهم بمثل هذا الامر الذي يكثر حدوثه لديهم يتقاضى ما أسلفه . وقد قويت هذه المزية فيهم حتى ضرب بكرمهم المثل ، وفاقوا به سائر الامم . وان مطاوي التاريخ العربي مستفيضة باقاصيص كرماء العرب وكرمهم العجيب . والبدوي يعتقد انه لا ذكر له ولا ارث أفضل من سمعة الكرم والجود . وان هذه المزية لا تزال عند بدو الشرق العربي على ما كانت عليه في زمن أجدادهم الجاهليين . فلا يحل ضيف بيت احدهم غنياً كان او معدماً ، الا ويسرع لتهيئة كل ما يرضيه ويسره ، وان الكثيرين منهم يضطرون الى تحمل اعباء الدين الثقيلة لارضاء قاصدهم . واذا استأمنهم مستأمن على امانة فدوا لحفظها اموالهم واولادهم وانفسهم ، وكذلك اذا التجأ اليهم خائف ، او استجار بهم مظلوم ، او نزل عليهم موتور مطرود » .

* * *

رأي في الاخلاق الشامية تمثل الامم في العادة طبقتان من ابنائها « الوسطى والعليا » . والطبقة الدنيا وهي طبقة العامة مستتبعة لا متبوعة ، لان ما هي فيه من تأخر اسباب الحياة ، لا يترك لها مجالاً للتفكر في شيء ، غير ما يقع تحت حسها مباشرةً ، وتشتد حاجتها الطبيعية اليه . وقد تقلد

الطبقة السفلى الطبقة الوسطى تقليداً خفيفاً لا يكاد يشعر به ، وتقليد الطبقة الوسطى الطبقة العليا أشد ظهوراً من تقليد الدنيا للوسطى . وتتجلى في الطبقة العليا مظاهر السعة في العيش ، والبسطة في العلم والحضارة ، وهي ابداً حريصة على مكانتها ، تحاذر سقوط شأنها من انظار الطبقتين التاليتين ، وتعد السؤدد كل السؤدد ، ماهي فيه من جاه ومال ومجد وعلم .

يُعد من الطبقة العليا العلماء والعظماء والقواد وارباب الاموال ، ممن يسيرون الجماعات الى حياتها او موتها ، وينفثون في روعها ما يرفع مستواها العقلي ، ويطهرون نفوسهـا من الآثام والآلام ، وبايديهم زبدة ثروة الامة وجهودها ، واليهم منتهى ما بلغته قرائح ابنائها يمثلون التسلسل في الفكر ، وتتجسم فيهم الارادة الثابتة والعزيمة الصحيحة ، وهم صورة البيوت الخالدة ومنعكس التأثيرات الطريفة والتالدة ، ومثال الشعب ورقيه ووجهه الوضاح الجميل ، وفي قبضتهم مفاتيح المفاخر ومغاليق المآثر وهم المذكورون وهم المشهورون ، ومصير غيرهم الى الخمول والعفاء .

من اجل هذا كان على تلك الطبقة ان تتحلى بحلى الفضيلة والشرف ، وان تكون عفيفة الطعمة حسنة الأحدوثة ، بعيدة عن الموبقات والبذخ والسرف ، حريصة على النهوض بالبلاد تشارك في المسائل المدنية عن عقيدة راسخة وتأخذ بايدي العاثرين والبائسين ، وتلقن ابناء امتها علماً ينتج الثروة ويحفظ المجد ، ويولي الكرامة . واذا جُنت بالظهور من دون استعداد له وحاولت الاحتفاظ بمكانتها دون ان تتذرع باسباب البقاء وبتجديد مواد حياتها الحين بعد الآخر ، فان عزها لا يلبث ان يزول ، وسعادتها على شك ان تضمحل ، ومن العبث ان تعيش هذه الطبقة بشهرة اجدادها من الحكام واهل الشرف وارباب المظاهر ، وان تعتقد ان جماع المفاخر وقف على احسابها وانسابها ، وتطلب من كل انسان ان يرفع مقامهـا لان من اجدادها من كان على شيء من الفهم او الظهور ، او انه كان يسفك الدماء ويستحل اكل اموال النـاس حتى اثرى وخلف عقاراً وقرى وصامتاً وناطقاً . ورب صعلوك في نظر المتمجدين كبير في عيون الخلق . والكبير من كبرت اخلاقه ، ونفع الناس وانتفع بهم .

واذا جئنـا نحاسب مثلاً بعض من انتسبوا الى الدين ، وهم اشرف الفئات في

العرف نراهم اقرب الناس الى امتهانه باعمالهم ، يأتون مالا ينطبق على جلال منزلتهم . فقد فشت المطامع فيهم واستحلوا الاموال مهما كان لونها وطعمها ورائحتها واتوا للاحتفاظ بمظاهرهم القديمة من الاعمال ما بدت به مقاتلهم ، فقضوا بفساد ذممهم على اوضاع الامة ، وركبوا مراكب الهوى واستمرؤا لانفسهم اكل ما اعتقدوه حلالاً طيباً فاضاعت الامة مشخصاتها ومقوماتها ، واصبحت مزيجاً غريباً لا تعرف كيف تكيفه . وليس في المجتمع من يناقشهم الحساب ، وكيف يناقشون وهم المرجع وهم المادون . وكان المشار اليهم بالبنان من اهل هذه الطبقة في الدهر الغابر ، يدلون بشممهم على الخلفاء والسلاطين ، ويسيطرون باخلاصهم على القضاة والحاكمين ، ومن هانت عليه عزة نفسه يوشك ان يستهين بكل محمدة . ولقد ادركنا احد كبار شيوخ العلم ، لما شاهد هذا التسفل في طبقة العلماء يشير على طلاب العلم الديني ان يتقن كل واحد منهم صناعة حتى لا يسف لاحد يستجدي نواله ، ولا يمسي عالة على ابواب الحكومات وارباب السلطات ، ان احتاج الى صناعته احترف بها ، والا كان لمناصب الدين والدنيا مخطوباً لا خاطباً .

ولي سويد بن عبد العزيز قضاء بعلبك سنة ١٦٧ هـ وكان محتاجاً ، فلقيه داود ابن ابي شيبان الدمشقي فقال له : يا ابا محمد وليت القضاء بعلم العلم والحديث . قال نشدتك الله أتحت جبتك شعار ؟ فقال داود : نعم . فرفع سويد جبته وقال : لكن جبتي ليس تحتها شعار . وقال أنشدك الله هل هذا الطيلسان لك ؟ قال داود : نعم . قال سويد : فوالله ما هذا الطيلسان الذي ترى عليّ لي ، وانه لعارية ، أفلا ألي القضاء بعد هذا ، فوالله لو ولوني بيت المال فانه شر من القضاء لوليته اهـ . هذا قول عالم في زمن كان صاحب السلطان يطلب الاكفياء الى القضاء فيفرون منه فرار السليم من الاجرب . ومنهم من ضُرب لانه لم يقبل ان يلي القضاء ، وكان محتماً عليه قبوله لانتهاء الرياسة في العلم والعمل اليه . كان هذا في ذاك العصر الذهبي فما بالك بالعصر الاخير ، والجهال يتطلبون مناصب الدين الا في الندر ، ويقدمون لتوليتها الرشى والهدايا وقلّ فيهم النزيه الذي يستحق ان يطلق عليه اسم العالم ، أفلا تسقط بجدك هيبة هذه الطبقة من النفوس بعد هذا ؟

وبينا تجد بعض القائمين على الدين من اهل السواد الاعظم لا يهتمون لغير املاء جيوبهم وبطونهم ، تشاهد بعض رجال الدين من ابناء الطوائف الصغيرة يجمعون شمل من التفوا حولهم ، يقودونهم الى محجة سعادتهم ، ويؤسسون لهم دور التعليم والقربات ، وينشلونهم من السقوط الذي صاروا اليه بحكم الايام . فلا بدع ان جاء مجموع الطوائف المسيحية على قلته في الشام ، ارقى من مجموع الطوائف الاسلامية على وفرة عدده وسعة ثروته . وكان من اثر الرياسة الدينية المنتفية من الاسلام ان استخدمها اهل النصرانية في المصالح المهمة ، فكان لهم فيها عموم النفع . وكانت هذه الرياسة على ما فيها ناجعة في تهذيب الشعب عندهم ، فأخرجوه من تيه الفوضى الى باحة النظام . وهذا هو سر الترتيب الذي تراه ماثلاً في المجتمع المسيحي وهو على حصة ضئيلة في المجتمع الاسلامي ولا يؤاخذ الاسلام بانحطاط اهله وما المؤاخذ الا من أخذوا على انفسهم عهداً بان يطبقوا مفاصله فأهملوا واجبهم ، ولو كان الدين عاملاً من عوامل سقوط أمة ما كانت اليابان وهي تدين بالبوذية في مقدمة أمم الارض علماً وعمراناً .

ولا مشاحة في ان من طبقة الدينيين فئة صالحة ، ولكنها كانت في كل عصر تلقي الحبل على الغارب لغلبة اليأس عليها ، وهناك فئة أشد تأثيراً وظهوراً وهي التي طالما قدمت وأخرت في سير المجتمع وباعت من هذه الامة المسكينة ما شاءت وشاءت منافعها ودارت في كل دور مع مطامعها كيف دارت . الا ان الدهر عاقب هذه الطبقة بما احتقبته من الكبائر ، فضربها ضربة آذنت بانقراضها لانها خالفت طبائع الاكوان ولم تجار الزمن في نشوئه ، كأن تكون مثال الفضائل ترفأ بانفسها عن الغيبة والنميمة وتتشرب افئدتها حب الصدق والصدع بالحق وتتحامى مزالق التغرير والتضليل وتحصر كدها في واجبها من إرشاد العامة من طريق العلم الصحيح ، في زمن اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث ، او بين الدين والالحاد ، وتجلى الانتقال في كل مظاهر الحياة . وما زالت هذه الفئة تحاول ان تسترد بالثرثرة والتبجح مجداً زائلاً ، وهي في حالة المحتضر لا تبدئ ولا تعيد . وما تحدثت ان تخرج

من جهالتها ، وتتطور بطور العصر ، وتأخذ بحظ من العلم الديني والمدني ، وتتحلى بشيء كثير من مكارم الاخلاق .

* * *

كان احد افراد هذه الطبقة أبلى في الدعوة الدينية بلاءً حسنًا ، ورُزق قلماً ماضيًا، وعزمًا مؤاتيًا ، واستعد للنزول والنزال في ميدان دعوته ، يحمل اكثر أدواتها . وما عتم ان ترك ما هيأته الفطرة له واكسبته اياه التجربة وطول المدة وحاول بلوغ مظهر جديد اعتقد انه جماع المظاهر ، وهو لم يتمرس بآدابه ، ولا عرف مداخله ومخارجه ، وغلبه حب الشهرة فادعى مالم يُخلق له ولا تخلَّق به ونسي الغرض الذي يضطلع به ، وراح يستغل موضع الضعف من فطرته ولا يعتمل فيما يرجى فيه كماله ، ترك سيرته الاولى وهام بمظهره الثاني ، زهد فيما يحسن وحاول التلبس فيما لا يحسن . وغريب من انسان لم يقنع بمنزلة طيبة وضعته فيها بيئته وتربيته ، و يجاهد جهاداً آخر في ساحة الوغى ولا سلاح معه يستخدمه ، ولا آلة من ادوات الحرب يتقنها . الذكاء وحده ينفع الى حد معين ، وادوات النجح في طريقه تحتاج الى علم وفطرة . والعلم بالتعلم والتريض ، والفطرة هبة لا تُباع ولا تشرى .

انت يا هذا اذا حفظت قواعد علم من العلوم ، يتعذر عليك ان تدعي الكيمياء والطبيعة او السياسة والاجتماع ، علوم مختلفة طويلة الذيل لا ينفع معها التخليط . القواعد المجملة التي تحفظ من كتاب في موضوع تحتاج في اتقانها الى صرف طائفة طويلة من عمرك فلا تعطيك القريحة قياد كل امر ولا تيسر في سبيلك كل دعوى . ولذلك ترى من هذا شأنه صاعداً متدليًا ، ينفي اليوم ما اثبت امس ويحارب حينًا من سالمه زمنًا ، يصانع ارباب القوة طوراً ثم يقلب لهم ظهر المجن تارة ، اذا لم يستمريء ما اطعموه ولم يستقل من امره ما استدبر في وضع الخطط التي خطها لهم ، والناس كلهم في نظره صغار عقول وارباب فضول وهو لا يرى غير نفسه استجمعت ضروب المحامد ، ولذلك لا يضن عليها بما يمجدها ، و يضع الالقاب الضخمة لها وينوه ابداً بماانطوى عليه من شرف وعلم وعمل ، ومن رضي عنه من الناس ينيله من عطفه ما لو وزن ايضًا في ميزان القسط لشالت كفته . والعاقل من انصف

نفسه قبل ان ينتصف الناس منه ومن ظلم نفسه كان حرياً بان يظلم غيره ، ولهذا امثال غير قليلة فيمن يلقبونهم بـ « البارزين » اليوم وهم المسمّون اي النابهون ·

نموذج آخر · بينا تجد الاول يجرع دعوته كما يجرع الصاب والعلقم ويستعلي ويستطيل ويحاول ان يثبت انه مصدر كل خير ، لو استمع الناس له لتمت سعادتهم الدنيوية والاخروية ، ترى اخاه قد اتخذ في الحياة غير طريقته وخالفه في سيره وسيرته ، فقد لقن في صباه مجملات يحكم فيها بالجزئيات على الكليات حكماً مسمطاً ويتلطف ويتظرف ليجد السبيل الى قلوب العامة والسوقة لانهم كثيرسوادهم يستميلهم بالدعابة والفكاهة ، وماذا يهمه من الخاصة وهم قليل عديدهم، وما يناله من غضبهم ورضاهم ما دام الجمهور عنه راضياً · واحسن ما يراه للوصول الى قلوب العامة ان يرضي كل صاحب سلطان ، لان في رضى القوي تنطوي المظاهر والدنيا وهو عبدها وغايته من الحياة السجود على ابواب سدنتها ، لايبالي ان يصعق كل من لم يمالؤه و يتوهم ان النقاد لا يفرقون بين الزيف والبهرج ولا بين الهازل الماجن والجد المجاهد والعلم الحقيقي يولي صاحبه عزوفاً ، واذا قرن بالتهذيب لا يحاول صاحبه درجة اذا تخطاها ادركه العثار ·

عرفت عالمين دينيين أُريدا على ان تفتح لهما ابواب الرزق ، وتغدق عليهما المظاهر على ان يسفا اسفافاً خفيفاً يكون في السكوت عن رجل كان لهما صاحباً قديماً فحاز مظهراً كبيراً من مظاهر الدنيا حسده عليه عبيد المطامع والشهوات ، وكان جوابهما كل مرة ان من لا يعمل للمصلحة العامة لا يستحق صداقتنا ، ليأت ما استطاع من الخير ونحن بالطبع له الاخلاء الاوفياء لا نريد منه جزاءً · وهكذا قاطعاه وهو الحاكم المتحكم في الدولة ، وهكذا عزفت نفسهما عن ان يرقصا للقرد في دولته ويزينا للظالم ظلمه وهو في اوج عزته · زهدا في الجاه العريض لزهد صاحبه في الفضائل وشدة هيامه بدرهمه وديناره · رجلان يأكلان اللقمة بالتسفل والرياء وآخران جاهرا بانهما تؤكل بدون هذا · وهذا مثال من اخلاق بعض المعاصرين ، وعبرة للاعقاب في الغابرين ·

* * *

ظهر التعطيل في الاسلام منذ قرون ، بما قام به المبتدعة من اهل الطرق وسخفاء الدجالين والقصاصين ، فانحطت العقول وضعف مستوى العلم والتهذيب في الناس (١) فمن تصدى يا ترى لمحاربة هذه الضلالات التي لم ينزل بها سلطان ؟ فشت اخلاق سيئة تخالف هدي الدين وتدك معالم الحضارة ، فتغافل الموكول اليهم هداية الخلق عن انتشار سمومها كأنهم يقرونها ، وتركوا رعيتهم هملاً كالسائمة . وكانت دروس العلم مباحة موروده الى اوائل هذا القرن ، وبتساهلهم كاد العلم الاسلامي ينقرض من انحاء الشام ، وجاء كثير من مرتزقة الوعاظ والخطباء والائمة والقضاة جهلاء يفتون بغير علم ، و يخطبون بالمبتذل الساقط ، و يلهون الجمهور بالقشور ، و يبيعونه من سلعهم الكاسدة ما لو ائتمر العوام باوامرهم لرجعوا الف سنة الى الوراء . واذا اجتمع هؤلاء الدينيون الى اكثر زعماء الاديان الاخرى ، ظهر الفرق بين التقصير والعناية وتجلت المباينة بين من ساروا مع الزمن ، ومن عاندوا الحقائق وحاربوا العقل وجمدوا في الفكر ، ومالوا الى الكسل عن العمل . وفوق هذا تراهم يجمعون اموالهم بخرق حرمة كل قانون وشريعة ، وهم متخاذلون متفاشلون لا يكاد واحد منهم يزكي اخاه ،

---

(١) قال الراغب الاصفهاني : لاشيءَ أوجب على السلطان من مراعاة المتصدين للرياسة بالعلم ، فمن الاخلال بها ينتشر الشر و يكثر الأشرار ، و يقع بين الناس التباغض والتنافر قال : ولما تركت مراعاة المتصدي للحكمة والوعظ ، ترشح قوم للزعامة بالعلم من غير استحقاق منهم لها ، فأحدثوا بجهلهم بدعاً استغووا بها العامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة ، فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم .

فكل قرين الى شكله كأنس الخنافس بالعقرب

وفتحوا بذلك طرقاً منسدة ، ورفعوا بها ستوراً مسبلة ، وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوا اليها بالوقاحة وبما فيهم من الشره فبدّعوا العلماء وكفروهم ، اغتصاباً لسلطانهم ومنازعة لمكانهم ، وأغروا بهم اتباعهم حتى وطؤهم باخفافهم واظلافهم ، فتولد من ذلك البوار والجور العام اهـ . كهذا كانت الحال في القرن الخامس فكيف هي بعد ثمانية قرون والتفسخ بادٍ في هذا الجسم .

ولا تجد خمسة منهم اتفقوا على مقصد واحد من مقاصد الخير . والعاقل يرجح الامية على هذا العلم الذي لم ينتج خيراً لاهله ولا لغيرهم ، لان الأميين لا تصدر منهم هذه الجرأة على العبث بناموس الكمال . ومن تفلتوا من حدود الشرائع على قربهم منها ، كانوا اشد انتقاضاً عليها من الجاهلين والغافلين .

وننصرف على هذه الطبقة ، طبقة تتحم بالخاصة او العليا ايضاً ، من جماعة المتعلمين على الاصول المدنية الحديثة ، فقد دب في بعض هذه الطبقة سوس الفساد ولما تزل في بدء تأسيسها ، وظهر لارباب البصائر ان الدروس الطبيعية والرياضية والاجتماعية والفلسفية والحقوقية تنير العقل ، ولكنها لا تحسن الاخلاق ، اذا كانت منحطة من اصلها . وربما كان العلم في بعض هذه الطبقة أداة شر تستخدمه حبائل اصيد ما يسد المطامع . والاخلاق مغروسة في الدم والأسرة ، والعلم صناعة يتعلمها الذكي الدائب .

ولقد تلونت صبغة هذه الفئة في هذه الارض الطيبة ، بالوان اهوية البلاد وجوائها ، بل بالوان المدارس التي تخرجت باساتيذها ، فمن تعلم منها في مدارس التبشير التي انعم بها اهل اوربة واميركة على آسية وإفريقية ، جاءت الا قليلاً منحلة من ربقة حب الوطن وعهدة حب الجماعة ، واستحكمت في كثير من افرادها الانانية والأثرة استحكاماً هوّن عليها كسر قيود الحكمة والخروج على الادب الصحيح .

وقد اشتهر بعض هذه الطائفة بمعاداة الدينيين والاعيان والازراء بسائر الطبقات واكل الحسد والحقد قلوبها ، فهي لا تتحاب بينها ولا تحب غيرها ، ولا تعرف من محيطها اكثر مما يعرف الدخلاء . شمخت بانوفها ، واحتقرت كل من لم يجر على مثالها ، ولا تثقف تثقيفها . ومنهم من دفعه ما لقفه من تربية وحصله من تعليم ناقص ، الى خدمة مصلحة الغريب كيف كانت ، والفناء في محبته والدهشة بكل ما يأتي على يده وقبول كل ما حمله من خُلق وثقافة والتغني بتاريخه ومجده والتغزل بجمال بلده والإعجاب باوضاعه ، اخذ كل ما اعطاه شاكراً مغتبطاً ، فخرج بذلك عن قوميته . وكثير منهم هجر بلده ، الى مكان ينبت بزعمه العز ويدر اخلاف الرزق .

ومنهم من تعلموا في مدارس الدولة المنقطعة وتخلقوا بغير اخلاقهم ، وانخلوا زمناً من قوميتهم فلا يفكرون ولا يتكلمون الا بالتركية ، ولا يكتبون ان كانوا ممن

يحسنون الكتابة الا بالتركية . فلما تبدلت الحالة السياسية بعد الحرب العامة دفعتهم الضرورة الى ادعاء العربية وكانوا من قبل يعقونها وهم من ابنائها ، زاعمين انهم تبدلت اخلاقهم بمجرد الانتقال من دور الى دور . وليست الاخلاق بذلة تنزعها ، ولا طلاء تزيله وتستبدل غيره به . ولما كان معظم من تعلموا هذه العلوم في العهد السابق من اهل الطبقات النازلة في اصولهم ، كان الموروث لهم والماثل فيهم من الاخلاق مثالاً من اخلاق اهل جرثومتهم ، ولذلك هان عليهم و يهون في كل دور ان ينزلوا عن مشخصاتهم لاول طارئ . وهذه الفئة مضرّة باخلاقها على المجتمع اكثر من الجهال لانها تعلمت تعلماً ممسوخاً ظنته كل شيء . ومذ فارقت المدارس التي تفاخر بانها تحمل شهاداتها ، وكثيراً مانال شهاداتها المتوسط والغبي ، ظنت انها قبضت على قياد العلوم وودعت الكتب فصارت ترجع القهقرى في معارفها الاولية وتجلت اخلاقها في كل ما عانته من الاعمال ، فكانت اذا وسد اليها امر تلتهم الاخضر واليابس واذا بدا لها طمع تهزأ بالفضائل اذا لم تجلب لها السعادة التي تتصورها .

رأت البلاد من سقوط الاخلاق في بعض اهل هذه الطبقة ماتندى الجباه من تسجيله رأت منهم من يقول ولا يخجل انه اذا قيل له ان الحالة الحاضرة ستتبدل بعد عشرين سنة يفكر مذ الآن في امر راتبه الذي يقبضه من سلك ما كان يحلم ان يحشر في جملة اهله ، و يقول ابداً اعذروني اذا خدمت اغراض كل صاحب قوة كما يشتهي ، واذا كنت له آلة في كل ما يحب . هو غني الجيب فقير النفس . جاهل يحشر نفسه في العلماء والطبيعة تضعه حيث تريد .

ومنهم من جعل رأس ماله في مصانعة ولاة الامر مهما كانوا والتقرب اليهم بكل حيلة ، لينال مظهراً يظهر به ، لاعتقاده واعتقاد كثيرين ان الشرف كل الشرف في التقرب من الحكام وان كل مجد جاء من غير طريقهم لاوزن له اذا نصبت الموازين ، وهؤلاء المتصدرون اسوأ مثال لمن حولهم . يحببون اليهم الاتكال وضعة النفوس ، وكأنهم يقولون ان سبيلهم لا غيرها هي سبيل الفلاح والتمجد ، وان الفضائل لا شأن لها امام المغانم . وان العلم لا ينفع بغير تدليس ، والطريق المسلوك عندهم طريق المداجاة والمحاباة ، واتقان المؤمرات والسعايات .

ومنهم اناس ظنوا ويا لسوء ما ظنوا ، ان السعادة مناط القحة والسعادة هي المال والمال محلل اخذه من كل وجه ، فتراهم يرتكبون كل شائن من العمل ليجمعوا مالاً ويعددوه ويستمتعوا بمتع الحياة ، فهم حراص على كل ما يوصلهم الى غايتهم سلاط في التسور على مقامات اهل الفضل ، يصمونهم بكل كبيرة و ينبزونهم بالخفة والرعونة . جوزوا لانفسهم السرقة لانهم لا مأرب لهم في غير الاثراء وجمع المال جماع المزايا في نظرهم . احتقروا الشرائع فهان عليهم تبدبل مذهبهم والتقرب الى اهل كل دين وطريقة بدينهم وطريقتهم . ولو أنصفوا لعدوا لصوصاً عارفين باللصوصية ، واللص يسرق خفية من طريق واحدة قد يكون فيها مكرهاً ليطعم نفسه وعياله ، وهذا يسرق جهرة من كل طريق و يزيد على لؤم طباعه تبجحاً بالمبادئ والشرف والامانة ، ومن الغريب ان يُرى حتى من الاذكياء من يجلونه او يغالطون انفسهم في انحطاط اخلاقه وهم يعرفونها ورحم الله شاعر مصر اسماعيل صبري حيث قال :

غاض ماء الحياء من كل وجه ... فغدا كالح الجوانب قفرا
وتفشى العقوق في الناس حتى ... كاد رد السلام يحسب برا
اوجه مثلما نثرت على الاج ... داث ورداً انهن ابدين بشرا
وشفاه يقلن اهلاً ولواد ... ين ما في الحشا لما قلن خيرا

ومنهم أناس ورثوا عن آبائهم استحلال اكل السحت والعبث بحقوق العباد . فلما تلقفوا القشور اللازمة لهم في المدارس التي سموها بالعليا ومرنوا على النفاق والباطل ومردوا على آداب الاديان وخرجوا عن اوضاع المجتمعات ، جاؤا سراقاً يسكنون القصور وعاشوا طول حياتهم في ذل النفوس يجمعون بين المنازع المختلفة في وقت واحد علماً بان احدها لا بد ان تكتب له الغلبة فاذا نجح كان لهم حظ من نجاح اهله واذا اثمر الآخر لم تفتهم خيراته ، جعلوا بيوتهم للخمر والقمر اندية ومسارح وفطموا نفوسهم الا عن اشباعها المال الحرام . وهم باصحاب الملاعب اشبه منهم بالمتعلمين أصحاب المراتب واذا دخل الغِرّ حانتهم وفيها كل مفعول جائز هانت عليه انتهاك الحرمات ، واذا عاشرهم تعلم في بؤرتهم من التزوير والتغرير ما يعاب به الحيوان فضلاً عن الانسان .

ومنهم من ورثوا التذبذب من بيوتهم واخذوا الدس والوقيعة بالسند المتصل بآبائهم وكان قصاراهم ان يحرزوا مناصب تمكنهم من المتاجرة بحقوق الناس ودمائهم ليتأثلوا وينفقوا في السفه ما تأثلوه ، فهم لا يستنكفون عن التقرب من اصحاب الشأن بكل ما لديهم من الوسائط ويبسمون لعامة اصناف الناس بل ويصانعونهم على حين تلعنهم قلوبهم ، وهم موقنون ان المصانع على الجملة يعرف كذب مصانعه ومع هذا يمضون في طريقهم وهم لا يحبون احداً ولا يحبهم احد . ونزع عقيدة عُرفوا بها امس ، لتقلد غيرها اليوم ، اسهل عليهم من نزع احذيتهم وقمصانهم . قضوا أعمارهم في نصب الحيل والمكايد ، لا يلذهم من دنياهم غيرها ، واكبر أفراحهم يوم يغشون و يسري في الناس غشهم ، كأن المدرسة التي تعلموا فيها لم تعلمهم غير ذلك . ولكن هي الفطرة اذا فسدت فكل خير يأتيها يكون عارضاً عليها ، تنبذه ولا تسيغه .

ومنهم أناس عرفوا منذ قبضوا على زمام اعمالهم بسلب نعمة الضعيف ومحاولة التقرب من القوي نبذتهم الطبيعة اولاً ، ثم عمي الدهر عنهم فبلغوا مآربهم من المراتب ، ولم تسعهم جلودهم يوم شاهدوا العز بعد الذل ، فظهروا في مظاهر من الكبرياء والعظمة ، ومن اين للسافل باصله ان يكون فرعه عالياً . حصروا همهم في العبث بالمصالح العامة ، فلا يفكرون بغير املاء جيوبهم ، والدهان لساداتهم مهما كانوا ، وتوفير المنافع لمن يحف من حول عروشهم ، وان كانوا من أحط الطبقات معرفة واخلاقاً . وقد رأينا من هذه الطائفة من يغير سيرته في السنة الواحدة مرتين ، ويدخل في آن واحد في عدة أحزاب وجمعيات سرية وجهرية ، ويقسم لكل واحد منها اليمين الغموس ، معاهداً كل طائفة على الاخلاص لطائفتها وحزبها وطريقتها دون غيرها ، وهو لا يتوقع من هذه المرونة المستغربة الا ان يكون له شأن مع كل حزب اذا كتب له الظهور .

ومن هذه الفئة أناس لا يهنأ لهم بال الا اذا اغتنوا ، فلما انتفخت صناديقهم بالوَرَق والوَرِق ، ضيقوا حتى على بنيهم وبناتهم لئلا يسرفوا في أموالهم ، فاضطروهم الى ارتكاب كل شنعاء ، اما هم فعادوا يدعون الفاقة ، فتراهم لا ينفقون الا ما يحفظ عليهم مظهرهم ، ويوصلهم الى مراميهم ، كأن الدينار جعل للخزن فقط ، والسعيد

من يجمعه ولو لم يستمتع به حياته ، ويخلفه لمن هم عليه أشد الاعداء ، يصرفونه في العهر والخمر والزمر والقمر . ولو أنصف هذا نفسه لأنفق عشر دخله على ما يرفع مستوى أمته ويزيل بؤسها ، وفي هذا ظهور له ايضاً ان تاقت نفسه الى الظهور .

ومنهم طائفة تصلي وتصوم ، وتلزم المساجد ودروس الوعظ ، وتتظاهر بالدين ، وتتقرب الى حملة الشرع وارباب الصلاح لا تُفلت السبح من ايديها ، تتظاهر بانها تذكر اسم الله في غدوها ورواحها ، وهي في باطنها من أشد الخلائق عداوة للمجتمع الانساني ، تقول بالسنتها ما ليس في قلوبها ، ولو كشفت عنها الغطاء لايقنت انها من الشفقة بحيث لو شاهدت صغاراً يتضورون جوعاً ما أطعمتهم فتات موائدها ، ولو بصُرت ببائسين يرتعدون دنقاً وعرياً ما كستهم بلاس بلاطها ولا زودتهم حثالة مطابخها وأهرائها (١) ، واذا وقع لها ان أكرهت على نجدة بائس مؤوف تبجحت بما اتت ، وقامت تقول بافضالها على المجتمع وتومئ بلسان الحال الى انه لولاها لانهار بناؤه

(١) قال بعض الحكماء : ما من انسان الا فيه خلق من أخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات لكون الانسان مشاركاً لها في الجنسية وان كان مبايناً لها في النوعية ، فمن الناس غشوم كالاسد ، وعائث كالذئب ، وخبّ كالثعلب ، وشره كالخنزير ، وجامع كالنمل ، ووقح كالذباب ، وبليد كالحمار ، وألوف كطير الوفاء ، وصنع كالسُرفة ، وآنف كالاسد والنمر ، وغيور كالديك ، وهادئ كالحمام . ومنهم حسن المنظر والمخبر كالاترج ، ومنهم بخلاف ذلك كالعفص والبلوط ، ومنهم قبيح المنظر حسن المخبر كالجوز واللوز ، ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلي . والمؤمن الخير هو في الحيوانات كالنحل يأخذ أطايب الاشجار ، ولا يقطف ثمراً ، ولا يكسر شجراً ، ولا يؤذي بشراً ، ثم يعطي الناس ما يكثر نفعه ، ويحلو طعمه ، ويطيب ريحه ، وهو في الاشجار كالاترج يطيب حملاً ونوراً وعوداً وورقاً . والمنافق الشرير هو في الحيوانات كالقمل والأرضة ، وفي الاشجار كالكشوث ، فلا اصل له ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا زهر ، يفسد الثمار ، ويبيس الاشجار ، وكالشجرة التي قلّ ورقها وكثر شوكها وصعب مرتقاها اهـ .

وتداعت صروحه ، وتوهم ان وجودها رحمة ، وعملها غبطة ونعمة ، ولها في نشر ما تخيله محامد ، أساليب غريبة مضحكة ·

ومنهم أناس اذا عرفتهم في العهد الماضي عرفتهم بعجمتهم التي لا غبار عليها ، وهم ما كانوا يجوزون لانفسهم التكلم بلغتهم الاصلية ، فلما تبدلت سياسة البلاد تبدلوا لساعتهم ، وصاروا لغير ما سبب معقول حرباً على من كانوا بالامس يتمنون رضاهم ، واخذوا انفسهم وابناءهم بتعلم لغة من جاؤهم ، وغيروا عاداتهم ولهجاتهم ، وأنشأوا يستخدمون كل الطرق للاحتفاظ بكراسيهم ، حتى اذا جلسوا عليها نسوا فضل المفضلين عليهم ، وقد عاهدوا انفسهم ان يخدموا كل صاحب قوة بالصورة التي تروقه مع ذكاء فيهم وتجربة أحرزوها فهان عليهم ان يبيعوها مقابل عرض قليل ومظهر ضئيل · التجسس فيهم فطرة والازراء بالقومية والوطنية من مألوفاتهم ما اساؤا استعمال ما اؤتمنوا عليه الا ليغتنوا بطرق عرفوها ، و يغنوا ابناءهم ولو كان في ذلك هلاك مئات من الناس ·

* * *

ومنهم أناس كانوا في اخذ المال كالعلقة يمتصون الطاهر وغير الطاهر ثم يفيضون منه على القانع والمعتر ، ويطعمون الطعام ويكسون الايتام · ومنهم من جمعوا عشرات الالوف ولا تجود انفسهم بدانق لتعليم اطفال الفقراء وإنجاد البائسين واكساء العراة · واذا تصفحت جرائد الجمعيات الخيرية التي قامت منذ نحو عشرين سنة لتعليم اليتامى واغاثة المحاويج ، لا تسقط فيها الا نادراً على اسماء بعض ارباب السعة بمعنى ان هذه الطبقة كانت اقل الناس في معاونتها · والطبقتان الوسطى والنازلة هما اللتان جمعتا الدرهم فوق الدرهم ، اقتطعتاه من رزق عيالها ، لتطعما به من هم اجوع منها ، وتنشل من السقطة من هم اكثر سقوطاً من بنيها ·

وفي هذه الديار عشرات من الاغنياء يدمجون في سلك الاعيان يعتزون باموالهم ، ويضنون بها كل الضنانة ، اللهم الا اذا كان في صرفها ارضاء شهواتهم ، وتوفير انواع رفاهيتهم · واذا أشير اليهم ان يشاركوا في المصالح الوطنية لووا وجوههم ، وهزؤا في باطنهم بهذه الاعمال التافهة ، حتى اذا حلت بهم مصيبة اخذوا يستنجدون

ولا ينجدون ، ويطلقون السنتهم في رجال كانوا بالامس يقدسونهم ، وأنى للامة ان تعرفهم ايام شقائهم ، وهم لم يتعرفوا اليها ايام سعادتهم . هذا وهم انصار كل حكومة تسوغهم اكل حقوقها وحقوق الضعاف ، وتطلق ايديهم في ظلم الفلاحين والمغفلين ، وتعاونهم في محاكمها على فض قضاياهم بما يتفق مع رغائبهم ، وتوسد اليهم امورها المنتجة لهم مالاً وجاهاً .

في هؤلاء الاعيان رجل كان عنده من ادوات الزينة والتبرج ما يساوي المئات من الدنانير ، وربما كان ثمن ربطات رقبته المعمولة من الحرير لا يقل عن الف جنيه لان عددها كان الفي ربطة معروضة في قاعة كبيرة ، وكنت اذا اردته على ان يبتاع جريدة ليقرأها شكا اليك ضيق ذات يده ، واظهر ان القراءة مما لا تسمح له به اوقاته الثمينة ، وكان يدفن امواله في الارض ، حتى لا يظهر عليها الناس اذا وضعت في المصرف ؛ فظهر منها الوف بعد ان اصيب بنكبة اضطرته الى نبشها . وبلغ الشح ببعضهم انه كان يطعم خدامه واولاده طعاماً غيرما يطعمه نفسه وزوجه ، ويدعي مع كل من يجتمع اليه انه فقير مملق ، لا طاقة له على تحمل شيء ، فلما اضطر الى الكشف عن دفائنه كانت الوفاً عدا مايسلفه بالربا الممقوت اضعافاً مضاعفة وعدا مزارعه وحدائقه . ومن الغريب ان يتطوع مثل هذا الرجل الذي رد الى ارذل العمر في الجاسوسية وهو يتظاهر بالتقوى . واكثر هؤلاء الاشحة يظهرون في العامة بمظهر المتصدقين والمحسنين ، كأن تجود نفوسهم ببعض دريهمات لبعض المستكدين على رؤوس الاشهاد ، ليقال عنهم انهم اهل خير وصلاح . وهناك رجل كذب على قومه طول حياته الطويلة ، بنسبه وعلمه وتقواه ، فلم يعدم بين ضعاف العقول من صدقوه في دعاويه وعاش بمداهنة الناس وبلغ من ثقة القوم به انه اذا حانت منية احدهم ، يلوب على من يأتمنه على اولاده بعده ، فلا يجد غير هذا المزوّر يقيمه وصياً على عياله لما اشتهر من امانته بين السذج في كل دور ، فلا يلبث مال الموصي ان يزرق بيد الوصي . وهكذا كان هذا المدعي بعد نصف قرن من المشار اليهم المجمع على تكريمهم ، وقدعرف ايام تولى القضاء بتبرئة المجرم وتجريم البريء . ومن العجب انه لم يسأله احد من اين جاء بثروته ، والعادة على الاكثر ان لا يسأل الغني عن طرق غناه بل يتمسح به ويتبرك

بانفاسه ، ولو كان لا ينزل منه عن قطمير لاحد ·

ظهر كثير من العامة في حوادث وقعت بمظهر الغيراء على المصالح الوطنية ، وابانوا عن حمية واريحية ما كان يرجى صدور مثلها من ارباب الطبقة العليا ، ولا ممن اعتادوا ان يجعلوا من الاديان سلماً الى درك شهواتهم وقام من صنوف الأميين واهل المتربة أناس جعلوا هدفهم ما اعتقدوه حقاً نافعاً مخلصين في اقوالهم وافعالهم ، معتقدين الخير فيما بذلوا انفسهم ونفائسهم في سبيله · وتجلى النبوغ في افراد منهم بحكم قانون الرجعة ، فاثبتوا في الشدائد بهذا الشرف المغيب انهم ربما كانوا من سلالة عظماء اكارم · وهناك أناس ظاهرهم مهذب براق آثروا امتهان النفس في أخس الاعمال مقابل عرض ينالونه او اقبال يتخيلونه ، فارتكبوا كل ما يورثهم عار الابد فكان ظاهرهم مجملاً وباطنهم خبثاً وخديعة يفادون بكل ما ليس لهم فيه مصلحة ويداجون كل من يلقاهم بما يريد ، ولعلك على حق اذا قلت ان صيغ الكلام تضيق عن وصف أفعالهم · فهم ممن حُبب اليهم من دُنياهم اذى القريب لا ينامون ملء جفونهم الا يوم يوقعون باصحاب الشرف والمروآت ·

ومالنا والإكثار من ضرب الامثلة بفئة هي معقد الآمال في اصلاح البلاد وهي لم تكد تحقق رجاءً الى الآن ، وليست في اخلاقها مما يرغب المرء كثيراً في تكثير سوادها ، لان منها من تجرد من معنى الحق والصدق · ولو حللت نفوس اكثرهم تحليلاً دقيقاً لرأيتهم أعرف الناس بالمدخل والمخرج واعراهم من اكثر الفضائل الكسبية والمدنية · ضعف عطفهم على جنسهم وهان عليهم ان يبيعوا وجداناتهم لمن يضمن لهم مظاهرهم · فهم ابداً سلاح الغريب على القريب ، وهم يده الباطشة وأظافره الخادشة ·

ولطالما نصب حلم ارباب الحلوم من تلاعب أناس استناروا بقبس العلم الحديث يتهارشون على ابواب جمعية مدنية وهم في الحقيقة لا يهمهم من دعوتها ، الا ان يحموا بسلطانها سلطانهم ويستروا في حمى كهفها معايبهم ، ومن الغريب انه لا يكاد يرقى في درجاتها الا من عرفوا بالاسترسال في حظوظهم وكانوا من الممقوتين في العرف والعادة هذا وقانون الجمعية شديد في التسامح مع امثالهم ، ولكن كل قانون

ينصبغ بصبغة محيطه وما دام المحيط على ما ترى فلا بدع ان كان بعد هذا أعظم قانون سماوي او ارضي في حكم العدم ٠

* * *

ولا يفوتنك ان الطبقة الوسطى في ديارنا هي التي تمثل فيها الامة حقيقة لامجازاً ويكثر فيها الخير ويقل الشر وهي التي تقوم بجلب المنافع ودرء المضار وتعيش في خوف الديان وتهتم لسعادة الاوطان هي في الغالب محدودة بعقول ابنائها كثيرة بما يتم على ايديها من الخيرات باجتماعها وهي التي تفكر وتقدر وقد قام كثير من الاعمال النافعة بصنيعها ومن وضعها ٠ فيهم الصبر وفيهم الأناة وفيهم الرحمة خسيسهم اقل من رفيعهم هم قوة الظهر في جيش الامة بل في طليعته المتيقظة ٠ السخاء مغروس في اكثرهم والمروءة والوفاء غريزتان يورثها الآباء لابنائهم وهم يبعدون عن ارباب السلطات دأبهم التوفر على صناعاتهم وتجاراتهم وزراعاتهم وقلما تحدثهم أنفسهم ان يتخذوا بديلاً عن عمل عاناه آباؤهم واجدادهم ٠

الاخلاق التي تعبث بكيان المجتمع هي التي رسخت في بعض العلية من اهله ٠ وشهد الله ان هذه الامة لا تشكو قلة علمها بقدر ما تشكو ضعف اخلاقها واذا أخذت المطامع البشعة من قلوب دعاة الاصلاح وحماة الحوزة كيف يوجه اللوم على من كان دون طبقتهم ؟ ومما يسوء وينوء ان كان أقرب الناس الى ادراك معنى الفضائل أسرعهم الى عقوقها وانتهاك حرماتها ٠ واذا كانت في الطبقة الوسطى هنات لا يخلو منها انسان فهي كالعوذة يتقى بها شر الحاسد ويصان بها جمال المكرمات والمحامد وقلما يخلو بشر من عيوب صغيرة ضررها على صاحبها وحده ٠

اكثر ما تعاب به هذه الامة عصيانها على الانظمة والشرائع لا تُطبق منها الا ما لا يمس بمصالحها الخاصة فاذا كان في بعضها ما يخالف الشهوات والاغراض خرجت عليها وحاربتها والمهيمنين عليها ٠ ولذلك صعبت هنا في كل قرن مهمة المصلحين في اصلاحهم لقلة الثبات ووني الهمم ٠ فقد يسرع بعضهم في التصديق خصوصاً اذا احسنت الدعاية بادئ بدء ولكنهم الى نقض العهد أسرع من الماء الى الحدور ٠ ومن أضر ما يضر هذا الشعب انه قلما يخضع للزعيم خضوعاً حقيقياً تقرأ معانيه في

حركاته وسكناته ولو كان الزعيم في الغاية من حسن الاخلاق وارادة الخير لها . وهذه اخلاق العرب بعينها أفرطوا في حب حريتهم فحاول الصعلوك فيهم ان يكون وجيهاً فسارع الانحلال الى دولهم بالطبيعة وظهر التخبط في احرازهم الرياسات منذ فجر الاسلام . وظلت هذه الاخلاق متسلسلة في دمائهم الى هذه العصور . وقد يريد الطامع في شيء من اعمال المجتمع ان تنقلب الدولة رأساً على عقب وتنتقل ولو الى عدوه على ان يتولاها قريبه الذي لايحبه وان يهلك في الحمم والنيران المستعرة فريق عظيم من قومه اذا كان له من هذا الحريق مايشوي به سمكته .

وانت اذا حللت روح المجتمع الشامي تراه فرادى لا يقلُّ كثيراً عن غيره من المجتمعات الشرقية الراقية واذا جئت تحلله جماعات فهناك التفسخ في القوى والانحلال في الروابط . الشاميون اذا اجتمعوا تخالفوا عادة على الرياسة والتصدر (١)

(١) وصفنا اديب عربي اغترب زمناً طويلاً في بلاد الغرب فقال : عرف عنا نحن العرب انا ميالون الى التطرف في كل شيء الى تضحية النفس والى الانانية الزائدة الى الحب العذري والى التهتك الى الصداقة النادرة والى الحقد الذي لا نهاية له الى التأله والى الشغف بالماديات الى الديمقراطية الحقة والى عبادة الشخصيات البارزة الى الاعتداد بالنفس والى عدم الاعتماد عليها والى سرعة اليأس والى السقوط في القنوط عند اول صعوبة نجدها في طريقنا . وبعبارة أخرى ان في الامة العربية قوى عظيمة تارةً تدفعها الى أشرف الاعمال وطوراً الى اسفلها واخسها . قال وسبب ذلك على ما يظهر له ان هذه الامة العظيمة الذكية العاقلة على الاطلاق تعيش وتتمسك بعواطفها القوية اكثر مما تعيش وتتمسك بعقولها وتسير في حياتها واعمالها اليومية بقوة المصالح الشخصية التي لا تترك سبلاً للحصول عليها الا طرقته . هذا تاريخنا يشهد علينا اننا قوم ذوو ذكاء ومقدرة على الاعمال وذوو نظر بعيد لكننا سراع التأثر ضعاف قوى التوازن وسرعان ما نقع في اليأس ان اصابتنا مصيبة وان اصابتنا حسنة اخذتنا سورة الفرح وكدنا نفقد رشدنا . قال وهذا الحكم ينطبق على الافراد والمجموع ويجري على كبيرنا صغيرنا وعالمنا وجاهلنا الا ماندر .

وتباينوا في الفكر والاجتهاد لان الذكاء غالب عليهم وحب الذات مستحكم في شغاف قلوبهم وكل واحد يريد ان ينفذ قوله ولو كان مغلطاً واذا لم يوافقه رفقاؤه على ما ارتآى عاداهم وربما آذاهم كأن الاختلاف في الاجتهاد يستلزم العداوة والسخيمة . فلا تستغرب بعد هذا ان أُصيبت اكثر اعمال الجماعات عندهم بالشلل والفشل ومنها ما يموت كالجنين في بطن أُمه قبل ان يتمثل بشراً سويا . وقد ينشئ غير المسلمين الجمعيات والجامع ويحالفهم النجاح اكثر من غيرهم لانهم على تربية متقاربة وعلى تضامن ودؤوب في الجملة . وما ندري لعل العامل في هذا النجح الضرورة التي دعا اليها تماسك الصغير امام قوة الكبير على حين ترى ان هذا الكبير لا يحسن على الاغلب الا الادلال بقوته الموهومة والإعجاب بماضيه يقف عند حده ولا يعرف ان يبرهن على العظمة الغابرة بسداد اعماله الحاضرة .

ومن عيوب السواد الاعظم ان الهزل يغلب عليهم ، والجد قليل فيهم ، يحبون المداعبة والهزل واللهو ويسوءُ بعض اللئام ان يروا في قربهم من يجد . يهزأون بمن يعملون وهم لا يعملون ولا يعرفون كيف يعملون فسبيلهم سبيل العاطل والمعطل . ومن عيوبهم انهم لا يصدقون صاحبهم لان سوء الظن غالب عليهم هذا ولو جاءهم مستنصحاً مسترشداً لانهم اميل الى المصانعة لا الى الصدع بالحق واقرب الى ان يرضوا جليسهم ويسكتوا امامه عن هفواته وربما التمسوا له في حضرته المعاذير حتى اذا غاب عن عيونهم سلقوه بالسنة حداد ونحتوا أثلته واغتابوه وعابوه بما قد لا تلزمه تبعته . ومن اجل هذا تأصلت في القوم عادات واخلاق كان يتأتى نزعها لو كتب لها من ينقدها وينكرها غير مداهن ولا مُوالس . فالنعومة الظاهرة التي تشاهد في بعض الشاميين يحتاجون معها الى شيء من الخشونة والقسوة .

كانوا في الايام الماضية اذا ارادوا الحط من شخص سلبوه صفاته واتهموه « بالمروق من الدين » وربما اوصلوه بهذه التهمة الشنعاء الى ضرب عنقه وهذا سر قلة النوابغ في القرون المتأخرة . واليوم نشأ لهم زي جديد من ازياء التهمات يلبسونها من لا ترضيهم حاله ، اضافوا الى من يحاولون النيل منهم تهمة « المروق من الوطنية » كأن الوطنية ماهم فيه من الختل والتخاذل وطلب الظهور بقاصمة الظهور . وبالشقاء الذين

والوطن كم اتجر بها متجرون في الغابر والحاضر . ومن تدبر احوال هذه الطائفة بادنى نظر ادرك ان كل من يتبجحون بهذه الدعاوي هم اول من يدوس كل مقدس لبلوغ غرض حقير .

والدواء الناجع في مداواة هذه الاخلاق هو ان يكون للصغار مدارس وطنية متقنة تلقنهم العلم الصحيح والاخلاق الصحيحة والقومية الصحيحة . اما الكبار الذين اشتهروا بسوء القالة فيقاطعون و يتجهم لهم العقلاء في كل افق ، لا يدنونهم من مجالسهم مهما بلغ من سلطانهم وجاههم ومالهم . فان من السخف التلطف مع الاشرار في المحضر والتهامس في قبيح سيرتهم في المغيب . يجب ان يناقشوا الحساب ولا يؤمن لهم على خطاب و « المؤذي طبعًا يقتل شرعًا » .

* * *

سيقول فريق ممن يقرأون هذه الصفحات انها اغرقت في وصف اخلاق الطبقات وفضحت ماكان مكنوناً لا يعرفه الا ارباب البصيرة ونحن في زمن احوج ما نكون الى السكوت عن المعايب حتى لا يبدو عوارنا لغيرنا كأن غيرنا لا يعرفنا اكثر مما نعرف انفسنا . وكان الاولى في عرفهم ان نجامل ونجمجم بيد ان السكوت عن العيوب عيب كبير وكتمان العلة مدرجة الى الهلكة والتاريخ لا يكتب على الهوى ولا يُملى لارضاء الناس . وما نخال منصفًا بصيراً الا ويعترف وهو مثلنا جدُّ آسف انما اصاب هذه الديار من المصائب منذ عهد طويل لم يكن الا بسوء اخلاق من تولوا من ابنائها امرها وانه من المستحيل بعد ان صرح الحق عن محضه ان نؤلف الشام كياناً يذكر ونقوم في ساحة الحضارة البشرية بعمل يشكر ولو أوتيت علم الجرمانيين واللاتينيين ورُزقت غنى الانكليز السكسونيين مادامت اخلاق اهل الحل والعقد فيها لا تعالج بالتقويم ولا يحاول القضاء على مواطن الضعف من نفوسهم وعقولهم . فالساكت عن الحق شيطان اخرس وصديقك من صَدَقك لا من صدَّقك .

فصدّقته لكن على عقلي فما مقياس عقلك كان لي معروفا

استدراكات وتصويبات

فاتنا في الاجزاء الستة من خطط الشام تدوين بعض حوادث ووثائق كانت مدوَّنة في مفكراتنا ، او عثرنا عليها في كتب ومدوَّنات أُخرى بعد انجاز الطبع . ووقعت لنا اغلاط منها ماانتبهنا اليه بعد النشر ، ومنها ماتفضل بعض العلماء والادباء فأرشدونا اليه ، فضمنا تلك المستدركات وهذه التصويبات في الصفحات التالية ، إرادة التحقيق ، شاكرين كل الشكر لمن انتقدونا فأسدوا يداً الينا والى العلم جزاهم الله خيراً . ومن الناقدين الذين نظروا في الخطط من بعثوا الينا مباشرةً بنقداتهم ، ومنهم من كتبوا في المجلات العلمية . فممن نقده من الاعلام المرحوم الشيخ سليم البخاري في دمشق نشير اليه بحرف «س» واحمد تيمور باشا في القاهرة «ت» والامير شكيب أرسلان في لوزان من سويسرا «ش» والسيد عبد الله مخلص في حيفا «د» والسيد عمر الصالح البرغوثي في القدس «ب» والسيد عيسى اسكندر المعلوف في زحلة من لبنان «ع» والاب أ. س. مرمرجي في القدس «م» والسيد جميل البحري في حيفا «ج» .

ونقد الخطط في المجلات المرحوم الدكتور يعقوب صروف في مجلة المقتطف بالقاهرة «ص» والاب انستاس ماري الكرملي في مجلة لغة العرب في بغداد «ر» والسيد عارف النكدي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق «ن» والمرحوم الاب لويس شيخو والاب هنري لامنس في مجلة المشرق في بيروت «خ ، ل» والسيد

اسد رستم والسيد انيس الخوري المقدسي في مجلة الكلية في بيروت « أ ، ي » والدكتور فيليب حتي في مجلة الجمعية الآسياوية الاميركية الانكليزية (Journal of American oriental Society) نشير اليه بحرف « ف » .

المجلد	الصفحة	السطر	
١	٧	١٤و١٩	لاحظ (ر) ان وادي موسى هي سَلع (بفتح فسكون) لا البتراء وسلع في شمالي غربي معان او في جنوبي الشراة . وقد أطلقنا كما اطلق غيرنا على وادي موسى البتراء ، والبتراء هي دون تبوك الواقعة في شماليها وذلك لان وادي موسى يقال لها (Pétra) عند الافرنج ومن هنا جاء الوهم من مشابهة الاسمين . الان كل أمة اعرف على الغالب بحالتها — اعرف على الغالب بحالتها من غيرها بها (ر) .
١	٨	٨و١٦	لا يقول (ر) بجمع ميل على ميول وان فشا بين الكتاب اذ لم يجد له اثراً عند الفصحاء ولا عند المولدين . وكذلك انكر اعدمه والاولى ان يقال قتله او اتلفه
١	١١	٢	و . . « المخطوطات العربية » . المتوفى اوائل المئة السابعة صوابه سنة ٦٠٢ هـ (د)
١	١٢	١١	العلائي بدل العلاي (د)
١	١٣	٢٤	للربيع الزبيدي — للديبع الزبيدي (ت)
١	١٧	٣	جمال يوسف بن ايوب . صوابه جمال الدين يوسف بن ايوب
١	١٩	١	الشبه لابن نقطة — النسبة لابن نقطة (ت)
١	٢٠	٢٥	الاشارات الى معرفة الزيارات ، لا في معرفة الزيارات للهروي المتوفى سنة ٦١١ هـ (د)
١	٢١	٧	يضاف الى ماطالعنا منها : مفكرات توفيق طارق في مصانع دمشق ومدارسها وجوامعها وماحوت من نفائس الصناعة الثابتة والمنقولة (بالعربية والتركية) .

المجلد الصفحة السطر

مفكرات نجيب نصار في بلاد فلسطين .

محاضرة في شرقي الأُردن لاديب وهبة

تقرير في التعليم في فلسطين على عهد الاتراك والانكليز لاحمد سامح الخالدي .

الكشاف عن اسرار الاوقاف لمحمد سعيد الباني

المعلومات الزراعية والاقتصادية والادارية عن لواء دير الزور لوجيه الجزار

رسالة في تاريخ جبل عامل ووصف قراه لاحمد رضا

قصيدة عبد الرحمن ابن النقيب المعروف بابن حمزة التي يذكر فيها المغنين والندماء في الدولتين الأُموية والعباسية بشرح خليل مردم بك .

جداول قرى دولة سورية وضعت بمعرفة وزارة الداخلية في سورية .

محاضرة في عمر بن عبد العزيز لعارف النكدي

تحفة الادب في الرحلة من دمياط الى الشام وحلب لاحمد بن صالح الادهمي الطراباسي المتوفى سنة ١١٥٩ (في الخزانة التيمورية في القاهرة) .

١ ٢٣ ١٢و٢٤ (٥٧٧) القاهرة . (٢٤٦) رومية بدلاً من بيروت

١ ٢٧ ٦ ظهيرة — ظهيرة (ليبسيك)

١ ٣٠ ٨ القرن السادس — القرن السادس (القاهرة)

١ ٣٢ ١٨ للسيد اسعد منصور (بيروت) والصحيح ان محل طبعه غير معلوم (د)

١ ٣٤ ٩ يحذف ٥٠١ لوروده في ص ٢٨ س ٢٤ .

١ ٣٦ ٢١ تاريخ العلويين لمحمد امين الطويل (اللاذقية)

الفلاحة اليونانية لقسطوس بن لوقا الرومي ترجمة سرجس بن هليا الرومي (القاهرة)

الموشح للمرزباني (٣٨٤) (القاهرة)

المجلد الصفحة السطر

كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري (ليبسيك)
تاريخ العلم العثماني لاحمد تيمور (القاهرة)
سيرة عمر بن عبد العزيز لابي محمد عبدالله بن عبدالحكم المتوفي سنة ٢١٤ هـ (القاهرة)
الاعلام لخير الدين الزركلي (القاهرة)
عامان في عمان له (القاهرة)
ديوان خير الدين الزركلي (القاهرة)
ابو العلاء وما اليه لعبد العزيز الميمني الراجكوتي (القاهرة)
ذكرى ابي العلاء لطه حسين (القاهرة)
شعراء النصرانية بعد الاسلام للاب لويس شيخو (بيروت)
بيروت تاريخها وآثارها له (بيروت)
منهج التعليم الابتدائي في فلسطين (القدس)
نظم العقيان في اعيان الاعيان للجلال السيوطي (نيو يرك)
من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام لبندلي جوزي (القدس)
قطعة من تاريخ ابن طولون فيها حوادث من سنة ٨٨٥ هـ الى سنة ٩٢٦ نشرها ر يشار هارتمان (برلين)
النشر في القراآت العشر لابن الجزري (٨٣٣) (دمشق)
العصور القديمة للدكتور جايمس هنري براسند تعريب داود قربان (بيروت)
تاريخ اليهود في بلاد العرب للدكتور اسرائيل ولفنسون (ابو ذؤيب) (القاهرة)
فتوح مصر واخبارها لابن اعين القرشي المصري نشره شارل توري
كتاب الدين والدولة لابن ربن نشره منغانة (القاهرة)

المجلد الصفحة السطر

الانتصار لابي الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط المعتزلي نشره الدكتور نيبرج (القاهرة)

سورية والسوريون من نافذة التاريخ للدكتور فيليب حتي (نيو يرك)

حروب ابراهيم باشا المصري في سورية والاناضول نشرها الخوري بولس قرألي وهي لمصنف مجهول (القاهرة)

حاضر العالم الاسلامي تأليف لوثروب ستودارد نقله الى العربية عجاج نويهض وفيه فصول وتعليقات للامير شكيب أرسلان (القاهرة)

تحفة الاحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات للسخاوي (القاهرة)

حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين الدميري (٨٠٨)

حلبة الكميت لشمس الدين النواجي (٨٥٩)

سفينة الملك لشهاب الدين محمد بن اسماعيل عمر

تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة لمحمد عبدالله عنان (القاهرة)

منتهى المنافع في أنواع الصنائع لرشيد غازي الدمشقي (بيروت)

ثلاث رسائل للجاحظ في الرد على النصارى وذم اخلاق الكتاب ورسالة القيان (القاهرة)

رسالة الدلائل والاعتبار منسوبة للجاحظ (حلب)

رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء (القاهرة)

غاية الحكيم واحق النتيجتين بالتقديم المنسوب الى ابي القاسم مسلمة بن احمد المجريطي (المانيا)

اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء لمحمد الخضري (القاهرة)

رسالة في فضيلة العلوم والصناعات للفارابي (حيدرآباد الدكن)

تنوير الاذهان في تاريخ لبنان لابراهيم الاسود (بيروت)

الجلد الصفحة السطر

مذكرات تاريخية لاحد كتاب الحكومة الدمشقيين نشرها الخوري قسطنطين الباشا (حريصا في لبنان)

اسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر لانيس زكريا النصولي (بيروت)

كتاب الدولة الأموية في الشام له (بغداد)

المختصر في جغرافية فلسطين لحسين روحي (القدس)

مفتاح باب الابواب لمرزا مهدي خان التبريزي (القاهرة)

عبد البهاء والبهائية لسليم قبعين (القاهرة)

يا الهي بهاء كتاب عبد البهاء عباس الى موزال تعريب توفيق وفايق (القاهرة)

تاريخ نجد الحديث وملحقاته لامين الريحاني (بيروت)

الاسلام واصول الحكم لعلي عبد الرازق (القاهرة)

كتاب الزراعة الحديثة العملية لمصطفى الشهابي (دمشق)

الدليل اللبناني السوري لالياس وجرجي جدعون (بيروت)

دعوة عامة من المجلس الشرعي الاسلامي في فلسطين ويليها دليل الحرم الشريف (القدس)

بيان المجلس الشرعي الاسلامي الاعلى في فلسطين لسنة ١٣٤١ — ١٣٤٢ هـ (القدس)

تذكار اليوبيل الذهبي لكلية القديس يوسف للاب لويس شيخو (بيروت)

خمسة تقارير في أعمال المجمع العلمي العربي بدمشق لمؤلف الخطط .

جامع التصانيف الجديدة ليوسف اليان سركيس (القاهرة)

« لاحظ غير واحد من نقاد هذا الكتاب اننا ذكرنا من الكتب والرسائل ما لا يجدر ذكره بين الامهات التي اعتمدنا عليها .

المجلد	الصفحة	السطر	
			ومعذرتنا اليهم اننا اذا قلنا اننا اطلعنا على الكتاب الفلاني فليس معناه اننا اخذناه واعتمدنا في نقلنا عليه ، فالكتب كالاشخاص نتعرف الى كثيرين ولا نختار اصدقائنا منهم الا من يوثق بصدقه ووفائه » .
١	٣٧	٩	تاريخ تدينات . صوابه تدنيات بتقديم النون على الياء
١	٣٧	٢٥	بيوك تاريخ عمومى (التاريخ العام الكبير) لاحمد رفيق (الاستانة) آيك تاريخى (تاريخ الشهر) (مجلة) (تركيا)
١	٣٨		ورد في رقم ٥٩٥ كتاب مؤرخي الحروب . والصواب مقتطف وهم يريدون بذلك مجموعة مقتطفة من عدة مؤرخين . وفي رقم ٥٩٩ القاموس السياسي والاجتماعي صوابه معجم صغير في السياسة والاجتماع . وفي رقم ٦٠٣ جبل انوس والمشهور اثوس بثاء مثلثة . وفي رقم ٦١٧ في الصفحة التالية موآب والمشهور عن العرب مآب او مؤاب (ر) .
١	٤٢	٣	الجليل بالجيم بدل الخليل بالخاء

« يضاف الى قائمة الكتب الفرنسية »

المجلد	الصفحة	السطر	
١	٤٥	٨	Dussaud : Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale

طبوغرافية الشام التاريخية في العهد القديم والقرون الوسطى لدوسو

Miot : Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en Egypte et en Syrie

مفكرات تؤخذ منها مادة لتاريخ الحملات على مصر والشام لميو

Choix d'inscriptions de Palmyre

منتخبات من كتابات تدمر

المجلد الصفحة السطر

Louis Rambert : Notes et impressions de Turquie . L Empire Ottoman sous Abdul-Hamid II 1895-1905

مفكرات وتاثرات عن تركيا او المملكة العثانية على عهد عبدالحميد الثاني من سنة ١٨٩٥ — ١٩٠٥ تأليف لويز رامبر

F. Charles-Roux : Les échelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe-siècle

شطوط سورية وفلسطين في القرن الثامن عشر لشارل رو

Pierre La Mazière : Partant pour La Syrie

في طريق الشام تأليف بيرلامزايير

Gontaut-Biron : Sur les routes de Syrie après neuf ans de mandat

على طريق الشام بعد مرور تسعة اعوام على الانتداب

Lawrence. : La révolte dans le désert (1916-1918 »

الثورة في البادية في سنتي ١٩١٦ — ١٩١٨ تأليف لورانس

A. Rabbatt : L'évolution politique de la Syrie sous mandat.

النشوء السياسي في الشام على عهد الانتداب لادمون رباط

Louis Halphen : Les Barbares. des grands invasions aux conquêtes turques du XIe siècle

البربر من الغارات الكبرى الى الفتوحات التركية في القرن الحادي عشر الويز هالفن

Arnold van Gennep : Traité comparatif des nationalités

مختصر في المقابلة بين القوميات لارنولد فان كنيب

Ramsy Muir : Nationalisme et Internationalisme

القومية والتوسع فيها لرمزي موير

G. Contenau : Le Congrès international d'archéologie de Syrie - Palestine avril 1926

مؤتمر الآثار الدولي في سورية وفلسطين في شهر نيسان سنة ١٩٢٦

المجلد	الصفحة	السطر	
١	٤٧	٥	الصحيح انه لم يطلق اسم سورية على الشام قبل عهد اسكندر الكبير ولم يطلق منذ عهد الفراعنة (أ) .
١	٤٨	٨	يكوم — يكون
١	٥٠	١٩	قولنا شاطئ البحر الابيض المتوسط في موطن بحر الروم وهو الاسم المشهور عند سلفنا لا وجه له وتسمية هذا البحر بالبحر الابيض تسمية تركية لا حظ لها من الصحة (ر) .
١	٥١	٢	وهذا الحد مصنع كل التصنيع والاولى ان يقال موضوع كل الوضع او مختلق او مفتعل او موهوم (ر) .
١	٥٢	١٩	القارّة هي من (قره) تركية وهي من وضع المترجمين من الاجانب وعندنا لفظة البرّ (ر) .
١	٥٣	٤	يضاف على المدن التي خربت او تأخرت « أُم قيس » من بلاد عجلون المشرفة على الغور و « صرخد » و « السويداء » و « شهبة » في حوران و « عرقا » في سورية الشمالية و « عمان » في البلقاء و « بانياس » في الحولة (ش) وعسقلان في اقصى فلسطين (ب) .
١	٥٣	١١	يضاف الى اسماء المدن التي يختلف عددها بين العشرين والثلاثين الفاً حيفا ونابلس واللاذقية والخليل ودير الزور .
١	٥٣	١٤	يضاف الى اسماء المدن التي هي اشبه بقرى او القرى التي هي اشبه بمدن مما نفوسه عشرة آلاف او اقل او اكثر «الشويفات» و «بشري» و «اهدن» و «البترون» وفي لبنان اكبر بلدة زحلة فبشرّي فاهدن فالشويفات فبيت شباب فبسكنتا فالبترون فكفر ذبيان فدير القمر فبعقلين فشحيم فالشوير (ش) . وقال اننا اغفلنا ذكر راشيا مع انها اكبر من حاصبيا . ونسينا بين المدن التي تزيد على عشرة آلاف حيفا وعكا . ومن كبار القرى شفاعمرو والطيرة وجنين .

المجلد	الصفحة	السطر	
١	٥٤	٣و٧و١٢و١٥و١٧	صارونة — شارون اوسارون · يرى (ش) ان نهرعكا هو «الكابري» لا « الكابرة » و يظنها محرفة من الكوبري لان عبدالله باشا هو الذي جاء بهذا الماء من كعب جبل صفد وعمل له جسوراً · كما ينمو الغنم والماعز كان حقها ان تكون المعزى او العنز واما الماعز فهو واحد المعزى كما تقول الخروف واحد الغنم · (ش) النيلة — النيل · الاسفلت — القيراو القار · البترول – النفط او الزيت الحجري · الانتيمون — الاثمد (ر)·
١	٥٥	١٢	تحذف (والنصيرية) وتجعل في السطر١٣ قبل (والاسماعيلية)
١	٥٥	١٣	الموارنة قوم لا نحلة او مذهب · (ر)
١	٥٥	٧	يضاف الى من رأت الشام من الفاتحين خالدبن الوليد وموسى بن نصير
١	٥٥	٢١	يضاف بعد الشعوب المسيحية ، واليهودية ·
١	٥٧	٢و٥و١٧	العمو — الامو · العمور بين — الامور بين · على ما يظهرا بذرية لود — على مايظهر بذرية لاوذ كداود وبذال معجمة في الآخر · (ر) قلنا ان آرام الابن الخامس لسام والمحققون على ان معنى ارام البلدان العالية وان الاراميين سكان البلاد العالية ·
١	٥٨	٨	الحوض الاعلى — السقي الاسفل · (ر)
١	٥٨	١١	تزاد هذه العبارة : والحثيون جنوبيون وشماليون وكان الجنوبيون في جهات فلسطين والشماليون نزلوا اولاً جبل اللكام (امانوس) ثم انتشروا بكرور الايام من الفرات الى حماة وحمص ومن دمشق وقريتة تدمر الى كبدوكيا ولم يكن لهم ملك واحد بل كان لكل فصيلة منهم ملك · ولم يعرف شيءٌ عن الحثيين الشماليين قبل ان يمر الرحالة بروكهارت بحماة سنة ١٨١٢ ويرى على جدار ازقتها

المجلد	الصفحة	السطر	
			خطوطاً قديمة بالخط المسند المصري اي الهيروغليفي تختلف عن الآثار المصرية وعثر على كثير من مثل هذه الآثار في حماة وحمص وحلب ومرعش وكركميش وغيرها وقد علم من هيئة وجوه الحثيين الشماليين على ما رسموا في الآثار المصرية انهم اقرب الى الرومان منهم الى سكان فلسطين ولون وجوههم ابيض ضارب الى الحمرة .
١	٥٨	١٤	انكر (أ) كون العبرانيين اتوا من جبال ارمينية الى سهول الفرات وانكر دخول العرب فلسطين منذ خمسة آلاف سنة وقال انه لا يعرف اصلاً تاريخياً واحداً يثبت هذا القول . فليحرر القولان .
١	٥٩	٤و٢٢	القافقاسي — القافي او كوه قافي . الدم — الرس . نرام سين — نرحم سين وهو من الكلدان لا من الاشوريين . (ر)
١	٦٠	٨	الامبراطور — الانبراطور او الانبراذور . (ر)
١	٦١	٤و١٣	تغلت فلازر او تغلث فلاسر او تجلث فلاشر — الصواب تكلت فلاسر . وهو الثالث لا الثاني لان الثاني طوي بساط ايامه في سنة ١١٢٠ ق . م اما الثاني فقد ملك من سنة ٧٤٥ الى سنة ٧٢٧ . شرطها لهم — شرطها عليهم . اثبت المحققون ان كلمة « حارث» اذا دخلت عليها ال التعريف كتبوها بدون الف بعد الحاء والا كتبوها حارث (ر)
١	٦٢	٢	العماير — العمائر (ر) .
١	٦٣	٥و١١و١٩و٢٤	القائد بومبي — القائد بومبيوس واحسن منها بونبيوس . السميذع — السميدع بالدال المهملة . الزباء بنت عمرو بن عدي بن نصر — صوابه بنت عمرو بن الظرب واما عمرو بن عدي فهو قاتلها بحسب رواية مؤرخي العرب (ت) .

المجلد الصفحة السطر

صنوبر ضبط بكسر الصاد وفتح النون المشددة والمعروف بفتح الصاد والنون واسكان الواو (ر) ٠

١ ٦٤ ٤و٥و٨ وليكونوا عدة ضد الفرس — ليكونوا عدة على الفرس ٠ زياد ابن الهبولة — زياد بن الهبولة اوابن هبولة اوالهبول ٠ ابن عزيز اللخمي — ابن عزبروزان صغير ٠ ومرو والحيانيات — ومرو والحيانيات ٠ (ر)

١ ٦٥ ٥و٢٠ قال الاخنس بن شهاب من شعراء الجاهلية :

وغسان حيٌّ عزُّهم في سواهم يُجالد عنهم مِقنب وكتائب
وبهراءُ حيٌّ قد علمنا مكانهم لهم شرك حول الرُّصافة لاحب

ومعناه هم ملوك ولم يكونوا كثيراً وكانت الروم تواليهم وتقاتل عنهم فعزهم في غيرهم وانما كانوا نزولاً مع قوم من العرب ٠ والمقنب الجماعة والجمع المقانب ٠ والشَّرَك جمع شَرَكة بينات الطريق وهي النحائز واحدتها نحيزة والشَّرَك الموارد والآثار والرُّصافة ناحية حمص وهي لهشام بن عبد الملك ٠ واللاحب الطريق الماضي المنقاد ٠

كون الغسانيين كانت منازلهم في جلق صحيح لانه منقول عن ثقات العرب ووارد في الشعر الجاهلي ٠ وقال (أ) ان المعول عليه اليوم ان بني غسان لم يتولوا الحكم على سورية الا على قبائل حوران وشرقي الأردن وقد اثبت هذا الخبر شيخ المستشرقين نولدكي الالماني ٠

١ ٦٦ ١٤ والسباتجة — السبابجة ، واحدهم سبيجي انظر المخصص ج ١٠ ص ٢٩ (ث)

١ ٦٧ ٢٣ قرية خربتة ٠ الاصح خربثة اما خربتة فهي مكان آخر (ب) ٠

١ ٦٨ ١٤ كانت دمشق محتاجة الى ثغر بحري وكانت بيروت ميناءها الطبيعي

المجلد	الصفحة	السطر	
			وكان المردة يتعدون على الطريق بين الشام وبيروت ولما جاء ابو جعفر المنصور الى دمشق قدم عليه الامير ارسلان بن مالك من المعرة ومعه جماعة فشكوا اليه توالي القحط عليهم بسبب الجراد فاقطعهم جبال بيروت الخالية وعهد اليهم بحفظ الطريق فرجعوا ونادوا بالرحيل بعشائرهم فجاؤا ونزلوا بحصن ابي الجيش ثم نزلوا جبل المغيثة (ظهر البيدر) ومنها الى سن الفيل وصارت بينهم وبين المردة الوقائع . والغالب ان الامير فند بن مالك واخاه الامير ارسلان يجب ان تكون الامير ارسلان بن مالك بن بركات (ش) .
١	٦٩	٣و١٨	عند ذكر انتقال الموارنة من جهات حمص كان يناسب ان يقال وجبل القلمون لان كثيرين منهم جاؤا من هناك والعناحلة فئة كبيرة في جبة بشرّي اصلهم من عين حلية في القلمون الادنى (ش) . واستعربوا وحكومتهم — واستعربوا هم وحكومتهم (س) .
١	٧٢	١٤	يقول (ش) ان سكان الحولة والغور واريحا جيل مستقل بنفسه يقال لهم الغوارنة ليسوا بعرب .
١	٧٧	١٥	يصح ان يشار هنا الى الكتابة الكرشونية التي هي عربي باحرف سريانية وكتب كثيرة للموارنة بالكرشوني (ش) .
١	٧٨	١٠و٢٣	وكان السابقون — وكان السابقين . سلسلة — سلسة .
١	٧٩	١١	قربهم — وقربهم (س) .
١	٨١	٩و١١	بين امراء الافرنج الذين كانوا يحسنون العربية صاحب قلعة الشقيف الذي ذكره بهاء الدين بن شداد في سيرة صلاح الدين (ش) . الحثيون في الشمال والكنعانيون في الجنوب — الحثيين في الشمال والكنعانيين في الجنوب (س) .

المجلد	الصفحة	السطر	
١	٩٠	٢	ذكران نينوى سقطت سنة ٦٥٥ ق ٠ م والصحيح سنة ٦٠٥ وهو غلط طبع وفي (ص ٩١) ذكرنا انها سقطت سنة ٦٠٧ نقلاً عن مصادر اخرى ٠ وقال (أ) ان الاعتقاد كان منذ بضع سنين انها سقطت سنة ٦٠٦ اما اليوم فان الاختصاصيين مثل اومستد الاميركي وغيره يعتقدون انها سقطت سنة ٦١٢ق ٠م ٠
١	٩١	١٣	ثم قا — ثم قام ٠
١	٩٤	٢٣	فانشأ المكابيون يحترمون عبادة اليهود — هم يهود متشددون في دينهم (ب) ويمكن اصلاح العبارة على الوجه الآتي : وأنشأ المكابيون وهم يهود يحترمون عبادتهم
١	٩٥	١٥	طيطوس او تيتوس المشهور تيطس (ب)
١	٩٨	٤	كانت دولة بني سميدع في تدمر ونواحيها كما كانت دولة النبطيين في شرقي جنوبي الشام
١	١٠١	١٢	كابيتولوزا الاصح كابيتولينا (ب)
١	١٠٤	٢	ولما حاصر كسرى القسطنطينية خلت ارض الشام من جند الروم وكان في مدينة صور اربعة آلاف يهودي فكتبوا الى اخوانهم ببيت المقدس وقبرص ودمشق وجبل الجليل وطبرية ان يجتمعوا كلهم في ليلة فصح النصارى ليقتلوا النصارى بصور و يصعدوا الى بيت المقدس فيقتلوا كل نصراني بها و يغلبوا على المدينة فبلغ الخبر البطريق المقيم بصور فأخذ اليهود وقيدهم وسجنهم وأغلق أبواب صور وصير عليها المنجنيقات والعرادات ٠ فلما كانت ليلة فصح النصارى اجتمع اليهود من كل بلد الى صور وكانوا زهاء عشرين الف رجل فحاربوهم حرباً شديدة من فوق الحصون فهدم اليهود كل كنيسة كانت خارج صور فكانوا كلما هدموا كنيسة أخرج اهل صور من اليهود المقيدين عندهم مائة رجل

المجلد الصفحة السطر

فيوقفونهم على الحصن و يضربون أعناقهم و يرمون برؤوسهم الى خارج فضربوا أعناق الفي رجل ثم انهزم اليهود ·

١ ١٠٥ ٩ اذا قيل الجاهلية والاسلام فالمراد بالاسلام كما قال النووي من حين انتشر وشاع في الناس وذلك قبل هجرة الرسول الى المدينة بنحو ست سنين ·

١ ١٠٦ ٢١ ومؤتة والحرباء — ومؤتة والجرباء بالجيم المعجمة ·

١ ١٠٨ ٥و٨و١٠ هذا نص الكتاب الذي بعث به الرسول عليه الصلاة والسلام مع دحية الكلبي على يد عظيم بُصرى ليدفعه الى هرقل وهو بالشام على ما جاء في الصحاح : « بسم الله الرحمن الرحيم · من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم · سلام على من اتبع الهدى · اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، أسْلِم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وان توليت فان عليك اثم الأَريسيين (الفلاحون وقيل الاتباع) ، و يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئًا ، ولا يتخذ بعضنا بعضًا ارباباً من دون الله ، فان تولوْا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون اه » ·
وكتب الرسول ايضًا الى الحرث بن ابي شمر الغساني امير دمشق وبعث اليه بشجاع بن وهب ·
وحمارة يعفور — وحماره يعفور (ت)
اجاز رسوله مسعوداً باثنتي عشرة اوقيــة ونش · النش نصف اوقية وهو عشرون درهمًا لانهم يسمون الاربعين درهمًا اوقية ويسمون العشرين نشًا ويسمون الخمسة نواة — قاله الجوهري ·
ومنــه الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يصدق امرأة من نسائه اكثر من اثنتي عشرة اوقية ونش الاوقية اربعون والنش عشرون فيكون المجموع خمسمائة درهم ·

المجلد الصفحة السطر

١ ١٠٩ ٢و١٥ انحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة — وجعلوا على ميمنتهم رجلاً من عذرة يقال له قطبة بن قتادة وعلى ميسرتهم رجلاً من الانصار يقال له عبادة بن مالك اه ٠

ذكر الثقات انه كان لسبإ بن يَشْجُب بن يَعرب بن قحطان واسمه عبد شمس صاحب اليمن عشرة اولاد سكن الشام منهم اربعة وهم لخم وغسان وجُذام وعاملة ٠

١ ١١١ ٧و١٨ يبنى وأزدود ٠ والمشهور اشدود (ب)

غزا المسلمون الشام سبع غزوات ٠ عن سلمة بن نُفيل الحضرمي قال : فتح الله على رسول الله فتحاً فأتيت رسول الله فدنوت منه حتى كادت ثيابي تمس ثيابه فقلت يارسول سُيِّبت الخيل وعطلوا السلاح ، وقالوا قد وضعت الحرب اوزارها ٠ فقال رسول الله : كذبوا الآن جاء القتال الآن جاء القتال ، لا يزال الله يزيغ قلوب أقوام تقاتلونهم و يرزقكم الله عز وجل منهم حتى يأتي امر الله وهم على ذلك وعُقر دار الاسلام بالشام ٠

١ ١١٥ ١٣ الواقوصة وذكرها ابن بطريق بلفظ الياقوصة وهو اسمها اليوم تقع في مكان مرتفع يطل على وادي اليرموك بجهة محطة وادي كليد المحرفة عن وادي خالد (د)

١ ١١٦ ٢٥ ولما انتصر المسلمون في وقعة اليرموك كان هرقل في بيت المقدس وقد جاءها للاحتفال بتخليص الصليب الذي استرده قبل ذلك ٠

١ ١١٧ ٢و٩ فقاتلهم — فقاتلهم المسلمون (س)

فكانت فحل — فكانت وقعة فحل (س)

١ ١١٩ ١ كتب عمر الى ابي عبيدة وكان كتب اليه في امر الشام : امابعد فابدؤا بدمشق وانهدوا لها فانها حصن الشام وبيت ملكهم ٠

وهي لا يخفى — وهي كما لا يخفى

المجلد الصفحة السطر

١ ١٢٠ ١١و٢٥ ذكر في الاصل ان وقعة اليرموك كانت في رجب سنة ١٥ هـ وقد ظهرت وثيقة سريانية تثبت ان الوقعة كانت في اليوم الثاني عشر من رجب سنة ١٥ هـ الموافق ٢٠ آب سنة ٦٣٦م عثر على هذه الوثيقة رايت من علماء المشرقيات وحلها بالاشتراك مع المستشرق الالماني نولدكي (د)

١ ١٢١ ٢١ وحاضرها — وحاصرها .

١ ١٢٣ ٥ ولم تعص الا قيسارية في فلسطين . ويقول (ب) ان عسقلان ايضاً امتنعت وحوصرت زمناً طويلاً . وفي فتوح عسقلان قالوا : وكتب عمر بن الخطاب (رض) الى معاوية يأمره بتتبع ما بقي من فلسطين ففتح عسقلان سنة ٢٣ هـ صلحاً بعد كيد . ويقال ان عمرو بن العاص كان فتحها ثم نقض اهلها وأمدَّهم الروم ففتحها معاوية وأسكنها الروابط ووكّل بها الحفظة اهـ .

١ ١٢٨ . فلننه الروم — فلننه على الروم .

١ ١٢٩ ١٤و١٧ له بد ان من — له بد من ان .

وفي الامهات المعتبرة ان عياض بن غنم كان بالشام مع ابن عمه ابي عبيدة بن الجراح فلما توفي ابو عبيدة استخلفه بالشام فأقره عمر بن الخطاب وقال لا أُغير اميراً أمّره ابو عبيدة .

١ ١٣١ ٤ وقال عمر لئن عشت ان شاء الله لأُسيرن في الرعية حولاً ، فاني أعلم ان للناس حوائج تقطع دوني ، اما عمالهم فلا يرفعونها ، واما هم فلا يصلون اليّ . فأسير الى الشام فأُقيم شهرين ، وبالجزيرة شهرين ، وبمصر شهرين ، وبالبحرين شهرين ، وبالكوفة شهرين ، وبالبصرة شهرين . وكان عماله رضي الله عنهم على مثاله من العدل والزهد وحب الحق . قالوا انه ولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص وكان لا يقبض رزقه وعطاءه ولما قدم عمر

المجلد الصفحة السطر

حمص امر ان يكتبوا له فقراءهم فرفع الكتاب اليه فاذا فيه سعيد بن عامر فبكى عمر ثم عد الف دينار فصرها وبعث بها اليه فبكى سعيد وانتحب ثم اعترض جيشاً من جيوش المسلمين فاعطاهم اياها ولامته زوجته على عمله وقالت: لو كنت حبست منها شيئاً تستعين به فلم يلتفت الى قولها .

١ ١٣٣ ١٥و٧ حاشية عند الكلام على قنسرين: كانت قنسرين عاصمة البلاد الحلبية واستعمل ابو عبيدة عليها حبيب بن مسلمة بن مالك وأمَّر عمر على حمص وقنسرين سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي ثم امر عمير بن سعد بن عبيد الانصاري . وقد مصر معاوية قنسرين وافردها عن حمص وقيل انما فعل ذلك ابنه يزيد وما برحت قنسرين مصراً مهماً في الشام حتى كان عهد عمر بن عبد العزيز فولى عليها هلال بن عبد الاعلى ثم ولى عليها ايضاً الوليد بن هشام المعيطي والفرات بن مسلم على خراجها ووليها الوليد بن القعقاع واليهم ينسب حيار بني عبس والى ابيهم تنسب القعقاعية قرية من بلد الفايا ووليها يزيد بن عمر بن هبيرة وكذلك مسرور بن الوليد وعبد الملك بن الكوثر الغنوي اه .

وذكر بعض المؤرخين ان عثمان اضاف الى معاوية حمص وحماة وقنسرين والعواصم وفلسطين مع دمشق وكان عمر قد ولاه الشام كلها بعد موت اخيه يزيد ، وجزع عمر على اخيه ورزق معاوية الف دينار كل شهر واقره عثمان بعد عمر .

١ ١٣٤ ١٦ بشر بن ارطاة — الغالب بسر بالسين . وفي اليعقوبي بسر بن ابي ارطاة . وقيل ابن ارطاة العامري من بني عامر بن لؤي وفي أسد الغابة بسر هو بضم الباء وسكون السين وهو بسر بن ارطاة وقيل بن ابي ارطاة واسمه عمير ومثله في كتاب الطبقات الكبير لابن سعد .

المجلد	الصفحة	السطر	
			بعث معاوية عمرو بن العاص في سنة ثمان وثلاثين الى مصر ومعه اهل دمشق عليهم يزيد بن اسد البجلي وعلى اهل فلسطين رجل من خثعم ومعاوية بن حديج على الخارجة وابو الاعور السلمي على اهل الاردن فساروا حتى قدموا مصر فاقتتلوا بالمسناة وعلى اهل مصر محمد بن ابي بكر فهزم اهل مصر بعد قتل في الفريقين جميعاً . قال عمرو وشهدت اربعة وعشرين زحفاً فلم ار يوماً كيوم المسناة ولم ار الابطال الا يومئذ . فلما هزم اهل مصر تغيب محمد بن ابي بكر فأخبر معاوية بن حديج بمكانه فمشى اليه فقتله (عن كتاب الولاة والقضاة) .
١	١٣٦	٦	لما بعث علي عماله على الامصار كان من جملة من بعث سهل بن حنيف الى الشام فاما سهل فانه لما انتهى الى تبوك وهي تخوم ارض الشام استقبلته خيول لمعاوية فردوه فانصرف الى علي فعلم علي عند ذلك ان معاوية قد خالف وان اهل الشام بايعوه .
١	١٣٩	١ و٢٢	لما بدأت الفتنة بين علي ومعاوية ضاق هذا من قيصر الروم وقد جمع الجموع ليخرج اليه فيحاربه على الشام فقال له عمرو بن العاص: اكتب اليه تعلمه انك ترد عليه جميع من في يديك من أسارى الروم وتسأله الموادعة والمصالحة تجده سريعاً الى ذلك راضياً بالعفو منك . قال الدينوري واهل الشام ايام صفين اذا انصرفوا من الحرب يدخل كل فريق منهم في الفريق الآخر فلا يعرض احد لصاحبه وكانوا يطلبون قتلاهم فيخرجونهم من المعركة ويدفنونهم .
١	١٤٠	٤و٨و١٠	قال الدينوري : لما رأى الحسن من اصحابه الفشل ارسل الى عبد الله بن عامر بشرائط اشترطها على معاوية على ان يسلم له الخلافة ، وكانت الشرائط الا يأخذ احداً من اهل العراق بإحنة

المجلد الصفحة السطر

وان يؤمن الاسود والاحمر ، ويحتمل ما يكون من هفواتهم ، و يجعل له خراج الاهواز مسلماً في كل عام ، و يحمل الى اخيه الحسين بن علي في كل عام الفي الف درهم ، و يفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس ، فكتب عبد الله بن عامر بذلك الى معاوية فكتب معاوية جميع ذلك بخطه وختمه بخاتمه وبذل عليه له العهود المركبة والايمان المغلظة واشهد على ذلك جميع رؤساء اهل الشام ووجه الى عبد الله بن عامر فاوصله الى الحسن (رض) فرضي به وكتب الى قيس بن سعد بالصلح و يأمره بتسليم الامر الى معاوية والانصراف الى المدائن فلما وصل الكتاب بذلك الى قيس بن سعد قام في الناس فقال : ايها الناس اختاروا احد الامرين القتال بلا امام ، او الدخول في طاعة معاوية . فاختاروا الدخول في طاعة معاوية . فسار حتى وافى المدائن وسار الحسن بالناس من المدائن حتى وافى الكوفة ووافاه معاوية بها فالتقيا فوكد عليه الحسن (رض) تلك الشروط والايمان اه . قال الاحنف بن قيس وقد اتاه كتاب الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما يستنصره : قد بلونا الحسن وآل الحسن فلم نجد عندهم ايالة الملك ولا صيانة المال ولا مكيدة الحرب . ولم يجبه الى ما طلبه اليه اه .

عمرو بن العاص قريب معاوية والحقيقة انه من بني سهم وهو بطن مستقل عن بني أمية (ب) .

١ ١٤١ ٢٢ يرى (ب) ان وصية معاوية الى ابنه يزيد موضوعة لان عبد الرحمن بن ابي بكر توفي قبل معاوية على الصحيح .

١ ١٤٥ ٢ بالغذقدونة من قلقية – والصواب خلقيدونية وهي واقعة بازاء الاستانة . (ل)

المجلد	الصفحة	السطر	
١	١٤٩	١٢	رأى (ب) تناقضاً في الروايات التي نقلناها عن صلح عبد الملك ابن مروان مع الروم في هذه الصفحة وفي صفحة ١٥١ و ١٥٢ والاضطراب واقع في نوع المدفوع ومهلة الدفع .
١	١٥٢	٢١	كان موريق وموريقان من قواد ملك الروم في القسطنطينية حار بالموارنة لقولهم بالطبيعتين والمشيئتين وانتهى جيشهما الى طرابلس وضرب خيامه ما بين اميون وقرية الناووس ثم وفد وفد من لاون القائد الذي سجنه الملك الى البطريرك يوحنا والامير سمعان و بشرهما بانه قد نجا من الحبس وقبض على يستنيان الملك وقطع انفه ونفاه وتولى السلطة مكانه واباح لهما ان يحار با الجيش الموجه عليهما ، فلما عرف الجبليون واهل العواصم بهذا الخبر انهالوا على الاروام من اعالي الجبل انهيالاً فقاتلوهم حتى قتلوا اكثرهم ، وانهزم الباقون . قال الدويهي : و بسبب هذه الحملة على يوحنا مارون ولا سيما بسبب الواقعة التي جرت بين اهل الكورة وجبة بشرّي كان بدء التفرقة بين الموارنة والملكية لان الذين اتبعوا جيش الروم وانقادوا لرأيهم سموا ملكية تبعاً للملك ، والذين ثبتوا في الامانة تحت طاعة البطريرك يوحنا مارون سموا موارنة .
١	١٥٧	٢	يزيد بن الوليد — يزيد بن عبدالملك . (د)
١	١٥٨	٤و٥و٨	وكان ذلك من العوامل الكبيرة في قتله — لم يقتل يزيد بن الوليد الملقب بالناقص بل مات على فراشه . (ت) كان الخليفة من بني أُمية اذا مات وقام آخر زاد في ارزاقهم وعطاياهم عشرة دراهم فيقولون « عير بعير وزيادة عشرة » اي رجل برجل . وأصبح ذلك من أمثال الشاميين اه . قال الطبري لما بلغ يزيد (١٢٦) امر حمص دعا عبد العزيز

المجلد الصفحة السطر

ابن الحجاج فوجهه في ثلاثة آلاف وامره ان يثبت على ثنية العقاب . ودعا هشام بن مصاد فوجهه في الف وخمسمائة وامره ان يثبت على عقبة السلامة وامرهم ان يمد بعضهم بعضاً اهـ .

١ ١٦٠ و٩١ لما خالف اهل الغوطة (١٢٧) ولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحصروا دمشق واميرها زامل بن عمرو فوجه اليهم مروان من حمص ابا الورد بن الكوثر في عشرة آلاف فلما دنوا من المدينة حملوا عليهم وخرج عليهم من بالمدينة فانهزموا واستباح اهل مروان عسكرهم وأحرقوا المزة وقرى من اليمانية وأخذ يزيد بن خالد فقتل .

ادبار الأمويين — ادبار الأمويين .

١ ١٦١ ٢و٢٠ قرية بوصير في الصعيد — قرية بوصير قرب القاهرة . (ل)

قلنا ان علم الامويين نُصب في بكين عاصمة الصين والاولى ان يقال في ارض الصين وقد لاحظ ذلك (ل و ف)

١ ١٦٢ ١٠ من جيد مدح الأخطل في بني أُمية :

حُشْدٌ على الحق عُيَّاف الخنا أُنف
إذا أَلمت بهم مكروهة صبروا

شُمس العداوة حتى يستقاد لهم
وأعظم الناس أحلاماً اذا قدروا

« ومعناه حشد اذا دعوا أجابوا مسرعين . وأُنف جمع أنوف مبالغة من انف بمعنى استنكف . وشمس جمع شموس وهو الرجل الصعب الخلق . واستقدت الامير من القاتل فأقادني منه اي قتله مثل استعديته فأعداني اي طلبت انصافه فأنصفني والاحلام العقول » .

١ ١٦٤ ١و١٥ قواد الأمويين — قواد الأمويين واسباب انقراضهم .

المجلد الصفحة السطر

سطر مكرر وهو من (اسحق بن مسلم الى معاوية بن حُديج) .

١ ١٦٦ ٣و٢٥ علل الاستاذ المرحوم رفيق العظم سبب سقوط الدولة الاموية بان الأمويين ارتكبوا أغلاطاً في المبالغة باضطهاد العلويين منها تسميم ابي هاشم بامر سليمان بن عبد الملك وان الأمويين فقدوا أعاظم الرجال الذين كانوا يخدمون الدولة باخلاص فأحرجوا من أحرجوا منهم حتى أخرجوهم كخالد بن عبد الله وقتيبة بن مسلم و يزيد بن المهلب وموسى بن نصير ففقدت الدولة بفقدهم وفقد أمثالهم جانباً لا يقدر من قوتها وانحطت هيبتها ، وان تباعد أطراف المملكة بما صار اليهم من الفتح الى عهد هشام بن عبدالملك ساعد على اختلال نظام الدولة ، فقد اتسعت دائرة ملكهم الى مالم تبلغه قبلهم دولة الرومان . وضبط مثل هذا الملك المترامي الاطراف مع صعوبة المسالك والمواصلات لذلك العهد ، متعذر جداً ولاسيما على أمة حديثة العهد في سياسة الامم . وان الأمويين حافظوا على خشونتهم الاولى الى خلافة هشام ، واخذ الخلفاء بعد الوليد ابن يزيد يميلون الى الترف والراحة ، يضاف الى ذلك انقسام العرب في خراسان التي هي منبع الدعوة العلوية والعباسية الى مضرية ويمانية وتنازع رؤسائهم على الولاية في إبان الدعوة . اما ما يقوله بعض المؤرخين من ظلم الدولة الاموية و يعزي اليه دمارها فمبالغ فيه ، وما كان منه صحيحاً فهو في نظر المؤرخ ثانوي ، والحقيقة ان الخلفاء الأمويين كانوا أشداء على خصومهم دون سائر الناس ، وكانوا في منزلة من العناية بالرعية والاهتمام بالعدل بين الناس فوق منزلة كثير من الحكومات المطلقة .

يزيدا — يزيد (س) .

١ ١٦٧ ٢و١٧و١٨ يزيدا — يزيد (س) .

المجلد الصفحة السطر

من النقاد الذين يقام وزن لآرائهم الاستاذان (ش ، ن) فقد اتهمانا بالتعصب لبني أمية وقال الاول : اننا دافعنا حتى عن يزيد فالنعرة الشامية بادية في الكتاب لا تخفى على احد . وقال الثاني في تساؤلنا عما عمل خصوم الأمويين : انهم اوجدوا الأمويين وحسبهم هذا حسنة . نعم اذا كان بنو أمية قد أنشأوا دولة غراء هي احدى مفاخر العرب على الدهر فانهم كانوا ايضاً ملوك العرب وخلفاء الاسلام ، والملك والخلافة لم ينشئها الأمويون ، ولاهم الذين وضعوا أساسها ، بل السابقون الاولون ، الحاملون أمية على الاسلام بالسيف ، وفي طليعتهم علي بن ابي طالب «صاحب الحماسة والخطب والزهد والتقوى » اه . هذا ما قالاه وهو كلام لا يخلو من نزعة علوية ايضاً . ونحن في كلامنا على الأمويين عمدنا الى ما قاله الثقات من المؤرخين فيهم ، ووزنا عملهم بميزان العقل والانصاف ، والتاريخ لا يهتم لغير الاعمال التي خرجت من القوة الى الفعل ، فعمل الأمويين أثمن مئة مرة من عمل العلويين على ما خص به صاحبهم « كرم الله وجهه » من الصفات الممتازة . وما أظن الاستاذين المشار اليهما ، ومن يقول بقولهما من عقلاء الامة ، يجوزون في هذا العصر ان نشايع أناساً في الأمويين لا يرمون الا الى نزعة دينية وتقليد استثمروه قروناً تبعاً لاهوائهم ، على حين نتوخى ان نكتب للامة تاريخها بما علمناه وعلمه من قبلنا مثل ابن خلدون وابن تيميـة وابن جرير والدينوري وغيرهم من المجمع على علمهم وعقلهم من سلف هذه الامة .

روى ابن تيمية في منهاج السنة عن بعض العلماء ان علياً كان زاهداً ولكن الصديق أزهد منه لان ابا بكر كان له المال الكثير في اول الاسلام والتجارة الواسعة فأنفقه في سبيل الله وكان حاله

المجلد الصفحة السطر

في الخلافة ماذكر ثم رد ماتركه لبيت المال ٠ وقال ابن زنجويه واما علي فانه كان في اول الاسلام فقيراً يعال ولا يعول ثم استفاد المال والرباع والمزارع والنخيل والاوقاف واستشهد عنده تسع عشرة سرية واربع نسوة وهذا كله مباح ولله الحمد ٠ قال شيخ الاسلام وخطب الحسن بعد وفاته فقال : ماترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم بقيت من عطائه ٠ وروى الاسود بن عامر حدثنا شريك النخعي عن عاصم بن كليب عن محمد بن كعب القرظي قال قال علي لقد رأيتني على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اربط الحجر على بطني من شدة الجوع وان صدقة مالي لتبلغ اليوم اربعين الفاً ٠ الى ان قال : واما علي رضي الله عنه فتوسع في هذا المال من حله ومات عن اربع زوجات وتسع عشرة ام ولد سوى الخدم والعبيد وتوفي عن اربعة وعشرين ولداً من ذكر وانثى وترك لهم من العقار والضياع ماكانوا به من اغنياء قومهم ومياسيرهم هذا امر مشهور لا يقدر على انكاره من له اقل علم بالاخبار والآثار ومن جملة عقاره ينبع التي تصدق بها وكانت تغل الف وسق تمر سوى زرعها اه ٠

١ ١٧١ ٨ يرى (ب) ان الامويين انتبهوا الى مقاصد اعدائهم قبل هذه المدة بكثير ٠

١ ١٧٢ ٢٣ جيوش العباسيين الصحيح جيوش الأمويين ٠

١ ١٧٥ ٤و١٣و٢٥ يقول الطبري ان المجلس الذي اعد لقتل رجالات بني أمية كان على نهر بالرملة ويقول (ب) الاصح انه نهر العوجاء ٠ وقتل في قلنسوة شمال هذا النهر بعض ابناء بني أمية كما ذكر ذلك ياقوت ٠ ذكر (ن) ان في الكتاب ابياتاً من الشعر بعضها لا موضع له في التاريخ ، والبعض الآخر ليس محله حيث استشهد به ٠ ونحن

المجلد	الصفحة	السطر	
			نوافقه على ان بعض ما استشهدنا به قد لا يصح ايراده الا من باب التجوز الضعيف . اما الاستشهاد بالشعر فقد قصدنا به اولاً تقوية الموضوع ، او بيان صورة امر وقع وما قيل فيه في عصره ، وقد نستشهد بالشعر لادنى مناسبة ترويحاً لنفس القارئ ، بعد ان يكون تلا صفحات من الوقائع الجافة وسردنا عليه اشياء اضطررنا الى سردها حتى لا تضيع سلسلة الوقائع والاحداث .
			وبقي فيها وذريته — وبقي فيها هو وذريته .
١	١٧٧	١٢	تصحح الجملة هكذا : ولم تكد تنقطع هذه النغمة في الشام . وفي سنة ٢٩٤ زعم رجل انه السفياني .
١	١٧٨	١٦	باللجون بين فلسطين والاردن . والاصح في شمال فلسطين (ب)
١	١٧٩	١٢	و بالجملة فان اهل الشام والوا عبد الله بن علي وكانوا معه لحاربه المنصور وهزمه ثم ان المنصور عفا عن اهل الشام .
١	١٨١	١٦	العواليك الصحيح الصواليك (ب) .
١	١٨٣	١٤و١٧	عبدالله بن سعيد الحرسي — الحرشي (ب) .
			بالعميطر — بابي العميطر (والذي في القاموس العميطر ولكن شارحه صححه بابي العميطر) (ث) .
١	١٨٤	٢٣	ثلاثمائة فارس من الصباب — من الضباب (ب) .
١	١٨٥	٤	وزاره — وزراؤه
١	١٨٦	٤	ذكر المسعودي ان عبد الملك بن صالح توفي بالرقة سنة ١٩٧ وكان العامل على الجزيرة وجند قنسرين والعواصم والثغور واضطربت البلد ان بعد وفاته ، وتغلب كل رئيس قوم عليهم ، وصار الناس حزبين حزب يظاهر بمحمد وحزب يظاهر بالمأمون ، فلم يبق بلد الا وفيه قوم يتحاربون ، لا سلطان يمنعهم ولا شيء يدفعهم . ولما افضت الخلافة الى المأمون كان بقورس وما والاها

المجلد الصفحة السطر

من كور العواصم العباس بن زفر الهلالي وبالحيار وماوالاها من كور قنسرين عثمان بن ثمامة العبسي و بالحاضر الذي الى جانب حلب منبع التنوخي · وقد كان يعقوب بن صالح الهاشمي يحارب الحاضر فهرب اهل قنسرين و كان بمعرة النعمان وتل منس وما والاها من اقليم حمص الحواري بن حنطان التنوخي · و بحماة وما والاها حراق البهراني و بشيزر وما والاها بنو بسطام وبمدينة حمص بنو السمط واقام بدمشق والأردن وفلسطين جماعة من رؤساء القبائل حتى ولى المأمون عبد الله بن طاهر اه ·

١ ١٨٩ ٢١ المعروف بابن شكلة الهاشمي ، الاصح ان يقال المنبوز وكذلك يصحح ماورد في الصفحة التالية سطر ١٤

١ ١٩١ ١٧ في سنة ٢١٨ كتب المأمون الى عامله على دمشق في التقدم لى عماله في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الاذى عن اهل محله قال : فتقدم الى عمالك في ذلك اشد التقدمة واكتب الى عمال الخراج بمثل ذلك · وكتب بهذا الى جميع عماله في اجناد الشام جند حمص والاردن وفلسطين ·

١ ١٩٥ ٧ ابا الغراء — ابا المغراء (ب) ·

١ ١٩٧ ١٥ الفراعنة — الفراغنة (وهم جند من فرغانة وسمرقند وتلك النواحي) (ت وب) ·

١ ٢٠٠ ١٣و٢٥ ايتاح صوابه ايتاخ بالخاء المعجمة (ت و ب)

توفي ماجور — توفي اماجور ·

١ ٢٠٢ ٥و٢٣ ذكرنا ان احمدبن طولون ادعى الخلافة لنفسه بمصر وقد حقق (ت) انه لم يدعها وهو الصحيح · وقال مثل ذلك (ت) وذكر انه حاولها ·

ذكرنا ان الخليفة طلب الى ابن طولون ان يزوجه ابنة ابنه

المجلد	الصفحة	السطر	
			خماروبه وقد قال (ث) ان الذي يذكره ان طلب الزواج وقع بعد وفاة ابن طولون وان خماروبه هو الذي طلب ان يزوج ابنته لولي العهد فقال المعتضد بل انا اتزوجها . قال و يذكر ايضاً ان الخليفة هو الذي دس على خماروبه من يزين له هذا الطلب . وهذا هو الاصح على ما ذكره الثقات .
١	٢٠٣	١١	المتوكل — المعتمد .
١	٢٠٥	٣و٧و١٣	اي المعتضد — بابي المعتمد . نهر العوجاء هو غير نهر الطواحين (ب) فقتل سعد فقتل سعداً (س) .
١	٢٠٦	٢٤	واخلف جيش حبيش — وخلف جيش حبيش .
١	٢٠٧	..	قصة القرامطة مكررة بالحرف والمعنى في صفحة ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠ (ب) وانتقد (ن) مثل هذا فقال ان عبارات تكررت بعينها في صفحات متقاربة مما لا وجه له ولا فائدة منه . وقد نورد في بعض الاحيان اسماء اشخاص لاهم يعرفون عند الجمهور معرفة تامة ولا نحن نذكرهم ذكراً كافياً . وعذرنا عدم الاطلاع على تراجم هؤلاء الاشخاص واذا تكررت بعض عبارات بعينها او اوردنا قصصاً بلفظين مختلفين فلا يكون الا من العجلة .
١	٢٠٩	١٢	وقالوا في تعليل لقب القرامطة انه محرف عن كرميتة ومعناه بالنبطية احمر العينين وذلك ان القرمطي الاول مرض مرة فأخذه الى بيته رجل اسمه كرميتة لقب بذلك لحمرة عينيه فسمي باسم مضيفه (ش)
١	٢١٠	٤	تصحح العبارة على هذه الصورة بين عساكر الخليفة ... وبين القرامطة بمكان ...
١	٢١١	٢٤	المكتمري — البكتمري
١	٢١٥	٧	فبلغ كافور — فبلغ كافوراً

المجلد الصفحة السطر

١ ٢١٦ ٤ و٥ ليستلمها — ليتسلمها (ت)

آخذنا (ن) ان رأى في عرض الكلام : دولة تسقط ، وأخرى تقوم ، وثورة ينجم قرنها ، وجيش تنهزم جموعه ، فلا نعلل لذلك تعليلاً يكشف الغطاء عن حقيقة الاسباب . وجوابنا عليه اننا مثله نشعر بذلك ، ولكننا لم نجد مستنداً نستقريه حتى نستنتج كل مرة ، ولعل هذا النقص يُسد بعدنا ، فان المادة التي استقينا منها الكتاب على وفرتها لم تبعث الهمة على ان نعلل كل حادث مخافة ان نقع في تضليل القارئ . وقد قال غستاف لوبون : اذا كان من الصعب على الفرد ان يكتشف الاسباب الحقيقية التي قدرت عليه أفعاله الخاصة ، فكيف يستطيع مؤرخ ان يدرك الاسباب السرية المستورة بضباب الدهر من الوقائع التي يجهل أصحابها انفسهم مباديها اهـ .

١ ٢٢٢ ١٤ لحاضرة بني العباس — صوابه لحضرة .

١ ٢٢٧ ٨ داولة علوية — دولة علوية

١ ٢٢٩ ١٤و٢٥ وفي تاريخ العلويين انه كان اليهود يقطنون في القرن الرابع جهات صهيون وينزل المسيحيون في اللاذقية والعلويون في النواحي النصيرية في الجبل ولما استولت الروم على أرجاء اللاذقية في سنة ٣٥٧ شعر العلويون بالتنظيمات الادارية والعسكرية وأعلنوا الثورة على الروم وكان يرأسهم حسين بن اسحق الضلعيني العلوي التنوخي ففاز واستقل باللاذقية سنة ٣٦٨ ثم حكم مدة محمد بن اسحق التنوخي ثم عقبه اخوه ابراهيم .

الف — الفاً .

١ ٢٣٤ ٢٤ قرغويه — قرعويه

١ ٢٤٢ ١٩ بعقوه — بعفوه (س)

المجلد	الصفحة	السطر	
١	٢٤٣	٢	وهم — دهم (س)
١	٢٤٨	٧	المدبرين — المدبرون
١	٢٥٢	١٩	واختنق بالنار — واختنق بالنهر (س)
١	٢٥٨	١٣و٢٥	الى عمله و يقتل وآله — الى عمله و يقتل هو وآله (س) الوزير بن — الوزير ابن
١	٢٦٣	١١	فيقوى بها وعسكره — فيقوى بها هو وعسكره (س)
١	٢٦٤	٢٢	لم يخطب بعدها في دمشق للعلويين والحقيقة انه خطب لهم مراراً كما جاء في نفس الصفحة وبعدها في صفحة ٢٧١ و٢٧٣ (ب)
١	٢٧١	٣و٩و١٣	تنتش الى اخيه = تنتش الى ملك اخيه . تستلم = تتسلم (ت) أرْتُق = أُرْتُق (ت)
١	٣٠٠	١٩	دير ايوب وكفر بصل ليسا باليرموك وانما هما خلفه (ب)
٢	٥	٤و٥	افي = في . بطالهم = ابطالهم (س)
٢	٧	٢٣	فنهض وحسان = فنهض هو وحسان (س)
٢	٩	٢٥	بعد بطنيين = بطنين
٢	١٠	٣	تائب = نائب
٢	٢١	٩	أرتق = أبق وفي ص ٢٩ س ٢٣ مجير الدين أبق (أرتق) . اي انكم توقفتم فيه وقد نصّ ابن الفرات في تاريخه على انه أبق ونص عبارته « وأقام الامير معين الدين أتسز الاتابك مكان الملك جمال الدين محمد ولده الملك عضدالدولة مجيرالدين ابا سعيد أبق بعد الباء الموحدة قاف بن جمال الدين محمد بن بوري وهو آخر ملوك دمشق من بيت طغتكين » . (ت)
٢	٢٤	١١و٢١و٢٣	طعتكين = طغتكين تاثر = ثائر

المجلد	الصفحة	السطر	
			تُرداد = تزداد
٢	٣٢	٢٥	الملوحة = الملاحة (ب)
٢	٤٠	٥	وغزا صلاح الدين والحقيقة نور الدين (ب)
٢	٥٦	٢٠و٢٢	وفرقة نحو عيذاب = وفرقة سارت نحو عيذاب · وأرسله مع حسام الدين (اي الاسطول) والمعروف استعمال أرسله لمن يعقل وأُرسل به لما لا يعقل · (ث)
٢	٥٨	١٥و١٨	مجد البابا = مجدل بابا · ريحا = اريحا · (ب)
٢	٦٢	٣و٢١	وهي الأمنة = وهي من الأمنة · الملك آماري = اموري(ب)
٢	٦٣	٨	وقنع الفرنج بيافا وعكا وصور = لم يملكوا سوى صور · (ب)
٢	٦٩	٢٥	فلقي الاهل والبلد — والولد
٢	٧٠	١٩	كان صلاح الدين كثيراً ما يقول ان مرادنا من البلاد رجالها لا اموالها ، وشوكتها لا زهرتها ، ومناظرتها للعدو لا نضرتها ·
٢	٧٢	١	الكاسات = الكوسات
٢	٧٤	٧	خمارد كين = خمارتكين (ب)
٢	٨٧	٧	وبلغ = ولما بلغ
٢	٨٨	٧	في تاريخ العلويين ان النصيرية هدموا جبلة في الحروب الصليبية ولم يبق سوى تل التويني قرب جبلة · واتحد الاسماعيليون مع الاكراد في الحروب الصليبية على العلويين فاستنجد هؤلاء بالامير حسن المكزون السنجاري فجاءهم سنة٦١٧ في خمسة وعشرين الفاً من العلويين ونزل على عين الكلاب بقرب قلعة ابي قبيس وعلى سطح جبل الكلبية فتجمع الاسماعيلية مع حلفائهم الاكراد واجتمعوا في مصياف وأغاروا ليلاً على جناح الامير وعساكره وغلبوه فرجع الى سنجار خائباً اه ·
٢	٨٩	٣	ساي لوي أُسر في الحملة الصليبية السابعة كما ذكر في ص ١٢٨

المجلد	الصفحة	السطر	
			اي في مدة الصالح نجم الدين ايوب وابنه قوران شاه . (ت)
٢	٩٠	٨ و٢١	ابن شامة = ابو شامة
			المنيقة = الميقفة
٢	٩١	١٧	الى عمه الأشرف = الى اخيه الاشرف . (ت)
٢	١٠٥	٨	بعد صاحبها = بيد صاحبها .
٢	١٠٨	١٣	متضعضة = متضعضعة
٢	١٠٩	٢٠	وص ١١٠ س ٥ الباذراي لعله الباذرائي .
٢	١١٧	٢٢	عفى عنه = عفا عنه
٢	١٢١	١٦	الناصر قلاوون = المنصور قلاوون
٢	١٢٢	١٤	استقرت الهدنة بين الملك الظاهر بيبرس وبين الاسبتار بحصن الاكراد والمرقب في رابع شهر رمضان سنة خمس وستين وستمائة لمدة عشر سنين متوالية وعشرة ايام وعشرة اشهر وعشر ساعات على ان يكون النصف من غلات قرى جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة للملك الظاهر والنصف لبيت الاسبتار (والهدنة في سبع صفحات من الجزء الرابع عشر من صبح الاعشى) .

واستقرت الهدنة بين الملك الظاهر بيبرس ايضاً وبين ملكة بيروت من البلاد الشامية في شهور سنة سبع وستين وستمائة حين كانت بيدها مدة عشر سنين متوالية على ان يكون جميع المترددين من بلاد الملكة الى بلاد الظاهر وبالعكس آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم براً وبحراً ليلاً ونهاراً ، وعلى ان الملكة لا تمكن احداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

المجلد	الصفحة	السطر	
			وعقدت هدنة بين السلطان الملك الظاهر وولده الملك السعيد وبين الفرنج الاسبتارية على قلعة لدّ بالشام في سنة تسع وستين وستمائة على ان تكون قلعة لدّ والجهات المذكورة الى آخر الزائد للملك الظاهر ولا يكون لبيت الاسبتار ولا للمرتب فيها حق ولا طلب بوجه ولا لاحد من جميع الفرنجة فيها تعلق ولا طلب بوجه ولا بسبب . (وصورة هذه الهدنة دخلت في تسع صفحات ايضاً) .
٢	١٢٣	٢٤	قصة خبر موت الملك الظاهر بالسم مذكورة في ابي الفدا وابن الشحنة ايضاً . (د)
٢	١٢٥	١و٧	ولا بلاد ولده الصالح يحقق لفظ الصالح . (ت)
٢	١٢٦	٤	لما فتحت طرابلس كتب محيي الدين بن عبد الظاهر كتاباً يصف هذا الفتح : واستمر ذلك (الحصار) من مستهل شهر ربيع الاول الى يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر فزحف عليها في بكرة ذلك النهار زحفاً يقتحم كل هضبة ووهدة وكل صلبة وصلدة ، . . وطلعت سناجق الاسلام الصفر على أسوارها ودخلت عليهم من أقطارها . . . وكان اخذها من مائة سنة وثمانين سنة في يوم الثلاثاء واستردت في يوم الثلاثاء (وفي رسالة أُخرى انها قامت بيد الافرنج مئة سنة وستاً وثمانين سنة) .
٢	١٢٧	٧و٢٢	عقدت هدنة بين السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية وولده الملك الصالح علي ولي عهده وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام في شهور سنة اثنتين وثمانين وستمائة وهي يومئذ بايديهم لمدة عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة ايام وعشر ساعات على ان لا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات الا ما شرح في هذه الهدنة وعين فيها من

المجلد الصفحة السطر

البلاد وعلى ان الفرنج لا يجددون في غير عكا وعثليث وصيدا مما هو خارج عن اسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات لا قلعةً ولا برجاً ولا حصناً ولا مستجداً. ومما جاء فيها ان شواني السلطان وولده اذا عمرت وخرجت لا تتعرض باذية الى البلاد الساحلية وان انكسر شيء من هذه الشواني في مينا من مواني البلاد التي انعقدت عليها الهدنة وسواحلها فان كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدمي بيوتها عهد فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت بحفظها وتمكين رجالها من الزوادة واصلاح ما انكسر منها والعود الى البلاد الاسلامية ومتى تحرك احد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جُوَّا البحر لقصد الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادهما المتفقة عليها هذه الهدنة فيلزم نائب المملكة والمقدمين بعكا ان يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم الى البلاد الاسلامية الداخلة في هذه الهدنة بمدة شهرين واذا قصد البلاد الشامية عدو من التتار وغيرهم في البر واغارت العساكر الاسلامية من قدام العدو ووصل العدو الى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة فيكتب الى كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها ان يدرؤا عن بيوتهم ورعيتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم اليه وان حصل جَفل من البلاد الاسلامية الى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ويكونون آمنين مطمئنين بما معهم.

وعقدت هدنة سنة ٦٨٠ بين الأشكري صاحب القسطنطينية وبين الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب على ان لا يحارب احدهما الآخر ويرعيا التجار في بلادهما.

المجلد الصفحة السطر

في الانس الجليس : ام الكنائس بدلاً من جمع الكنائس وفي رواية أخرى ادمى الكنائس وهي اوجه · والابيات لابن ضامر الضبع في عكا ·

٢ ١٢٨ ٢٣ وأمر وجميع = وأسر هو وجميع · (س)

٢ ١٢٩ ١١ قال مكسيم بني في تاريخ الشعوب العام اثناء كلامه على اخفاق الحملة الصليبية الاولى ما تعريبه : لئن كان الصليبيون متحمسين تحمساً دينياً فقد كان ينقص هذه الستمائة الف رجل وحدة القيادة والتجانس والالتحام ، ولم يكن لنواب البابا ادنى سلطة ادبية · ان وحدة الغاية المراد بلوغها لم تكن لتحول دون ظهور المطامع والمنافسات والدسائس ، ويضاف الى هذا السبب في الضعف أسباب أخرى مادية ، وهي صعوبة الطريق وقلة اسباب التموين وتدني القوى الحربية بسبب تفرق الجيوش في المدن المفتوحة او رجوع بعض الصليبيين الى الغرب الى ما هنالك من قحط واوبئة وخسائر في الحرب · وقال في الحملة الصليبية الثانية ان قلة ايمان الكسيس وصعوبة التموين وقلة المؤنة جعلت الحملة شؤمى فقتل الثلاثمائة والخمسون الف رجل الذين كانت تتألف منهم قتلاً ذريعاً في مريسوان واركلي ·

وذكر من جملة فوائد الحروب الصليبية انها أوقفت سير المسلمين نحو اوربا وقربت بين شعوب اوربا وجمعتهم تحت لواء واحد وأشعرت قلوبهم حب الوحدة الادبية وساعدت على ايجاد فكرة اوربية · واخذ المسلمون والمسيحيون يعرف كل منهم صاحبه ويعرفون كيف يحترم بعضهم بعضاً ، وعقدت بينهم المعاهدات والصلات خلال الهدنات والانقطاع عن استعمال السلاح وقد جهز ريشاردس فئة من العرب جعلهم فرساناً ، وعقد انكحة

المجلد الصفحة السطر

بين الطائفتين ، ودخل التسامح المتبادل في الأخلاق وقال ان الصناعات والهندسة والفنون والازياء واللباس والفنون الحربية لم تخل من تأثيرات الشرق ، وان المدنية الشرقية دخلت في مدنية الغرب بدون ان تستغرقها اه .

كان في جيش الصليبيين نروجيون فقد أعانت نروج بعشرة آلاف منهم بودوين الاول على فتح صيدا بزعامة ملكهم سيكور (Sigurd).

٢ ١٣٧ ٣ الناصر قلاوون (ان كان المراد الأب فالصواب المنصور وان كان المراد ابنه فيقال الناصر بن قلاوون) . (ت)

٢ ١٤٠ ١٩ قال علاء الدين علي الاوتاري الدمشقي : لما استولى التتار على دمشق في سنة تسع وتسعين وستمائة :

احسن الله يادمشق عزاكِ … في مغانيك يا عماد البلاد
وبرُستاق نيْربيكِ مع المزّ … ة مع رونق بذاك الوادي
وبأُنس بقاسيون وناسٍ … أصبحوا مغنماً لاهل الفساد
طرقتهم حوادث الدهر بالقتـ … ـل ونهب الاموال والاولاد
وبنات محجبات عن الشمـ … ـس تناءت بهن ايدي الاعادي
وقصور مشيدات تقضت … في ذراها الايام كالاعياد
وبيوت فيها التلاوة والذكـ … ـر وعالي الحديث بالاسناد
حرقوها وخربوها وبادت … بقضاء الاله رب العباد
وكذا شارع العقيبة والقصـ … ـر وشاغورها وذاك النادي

٢ ١٤٣ ١٧و٢٠ وقال شمس الدين السيطي في هذه الوقعة في مرج الصفر (٧٠٢)

يامرج صفر بيضت الوجوه كما … فعلت من قبل والاسلام يؤتنف
ازهر روضك ازهى عند نفحته … ام يانعات رؤوس فيك تقتطف
غدران ارضك قد اضحت لواردها … ممزوجة بدماء المغل تغترف

الى ان قال :

المجلد	الصفحة	السطر	
			دارت عليهم من الشجعان دائرة فما نجا سالم منهم وقد زحفوا ونكسوا منهم الاعلام فانهزموا ونكصوهم على الاعلام فانقصفوا ففي جماجمهم بيض الظبا زبر وفي كلا كلهم سمر القنا تصف فروا من السيف ملعونين حيث سروا وقتلوا في البراري حيثما ثقفوا فما استقام لهم في «اعوج» نهج ولا اجارهم من «مانع» كنف وقع الاتفاق سنة ثلاث وسبعمائة مع صاحب سيس على ان يكون المسلمين من نهر جاهان (جيحان) الى حلب وللارمن حد النهروان .
٢	١٤٤	٢٢	قشتمر وكذلك في ص ١٤٥ س ٢ وص ١٥٦ س ٤ وصوابه طشتمر .
٢	١٤٩	٢٢	قلاوون = ابن قلاوون
٢	١٥٤	٣ و ٨	يبغا = يلبغا
٢	١٥٨	٤	ففر معه جماعة = فنفر معه جماعة
٢	١٥٩	١٨	في ايام الشراكسة ثم في ايام الاتراك أخلافهم . الصواب في ايام الاتراك ثم في ايام الشراكسة أخلافهم . (ت)
٢	١٨٢	١٧	ولما بلغهم = لما بلغهم
٢	١٨٥	١٧	الامير جرم = امير عرب جرم (فرع من طي) . (ب)
٢	١٨٦	٢١	وثمان مائة = وثماني مائة
٢	١٨٧	٢٣	لان شيخ المحمودي = لان شيخًا المحمودي .
٢	١٨٩	٧	ان فارس = ان فارسًا
٢	١٩٠	٢٠	قربغا المشطوب = تمربغا . (ت)
٢	١٩٢	٦	فدخل نوروز دمشق = فدخل شيخ دمشق
٢	١٩٥	١٦	في شذرات الذهب : في سنة ست عشرة وثمانمائة ظهر الخارجي الذي ادعى انه السفياني وهو رجل عجلوني يسمى عثمان ابن ثقاله اشتغل بالفقه قليلاً في دمشق ثم رجع الى الجيدور ودعا الى

المجلد الصفحة السطر

نفسه فاجابه بعض الناس فأقطع الاقطاعات ونادى ان مغل هذه السنة مسامحة ولا يؤخذ من اهل الزراعة بعد هذه السنة التي سومح بها سوى العشر فاجتمع عليه خلق كثير من عرب وعشير وترك وعمل له الوية خضراء وسار الى وادي الياس وبث كتبه في النواحي يحث الناس على الانضمام اليه فارسهم وراجلهم مهاجرين الى الله ورسوله ليقاتلوا في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا . فثار عليه غانم الغزاوي وجهز اليه طائفة وطرقوه وهو بجامع عجلون فقاتلهم فقبضوا عليه وعلى ثلاثة من اصحابه فاعتقل الاربعة وكتب الى المؤيد بخبره فارسلهم الى قلعة صرخد .

٢ ١٩٨ ٦ نخلف = فخلف

٢ ٢٠١ ٢٢ حسن الطويل = حسناً الطويل

٢ ٢٠٧ ٣ وفي يوم الجمعة سابع رمضان (٨٩٣هـ) منها قبل عصرها دقت البشائر بقلعة دمشق وشاع ان عسكر ابن عثمان انكسر شاليشه بباب الملك وفرح الناس بذلك وفي يوم السبت ثامنه انكسر نائب الشام ورجع وانحاز الى تحت صنجق نائب حلب وشاعت كسرتهم وهرب ابن اسماعيل شيخ جبل نابلس وابن الحنش واستادار الغور . وفي عاشره هجم العسكر القبلي على عسكر ابن عثمان وقتلوا منهم خلقاً وانتصروا عليهم . ووصل الى دمشق بعد ذلك رؤوس جماعات من عسكر ابن عثمان مقطعة عدة ثلاثين رأساً وصنجق من صناجقه وتلقاها الناس وهرعوا اليها . وخرج هذه السنة الحاج الحلبي هاجين من الفتن وظلم العسكر الذي خرب بلاد ابن عثمان وانما فعلوا ذلك لاجل مافعل هو بقاصدهم الامير ماميه فانه حبسه في مطمورة . ودخل في هذه الاثناء الجلبان الدمشقيون والمصريون وضيقوا على الناس وتعطلت مصالحهم اه . (عن ابن طولون)

المجلد الصفحة السطر

٢ ٢٠٨ ٢٤ وقايتباي كان أعظم ملك في المماليك البرجيين حتى كان في الخارج اعظم ملك في الاسلام قال زو برنهايم : ان قايتباي كان محتاجاً لعماراته وحملاته الى مواد مهمة ولقلة انتظام المالية انتظاماً حسناً لم يستطع ان يجبي الخراج الا بالقوة . وقد انتقده المؤرخون انتقاداً شديداً ونرى ان ما عمله من الواجب وهو امر مفهوم بذاته في بلاده ليعيد الاسباب اللازمة للدفاع عنها. وقد ادى عدم الترتيب في الجباية الى خراب مملكة المماليك والسلطان كان مضطراً من اجل هذا الى استعمال الشدة في الجباية اه .

٢ ٢٠٩ ١٥ « جان بلاط بن يشبك الاشرفي » وفي س ١٧ طومان باي بن قانصوه ابي النصر الاشرفي قايتباي » فاذا كنتم حققتم ان الاول ابن الثاني في الموضعين فبها ونعمت والا فيكون الصواب (من) بدل (بن) فاني رأيت التعبير بذلك في مواضع لا تحصى كثرة من تراجمهم وأخبارهم اذا أرادوا ان يذكروا شخصاً كان مملوكاً لآخر او منسوباً اليه قالوا (فلان من فلان) وكنت أظنه في بادئ الرأي محرفاً عن ابن ثم ظهر لي انه تعبير جروا عليه ولكني لم أصل فيه الى رأي قاطع ونص صريح فلعلكم بالبحث تصلون فيه الى شيء . ولا يبعد ان يكونوا عبّروا بالابن عن المملوك او المنسوب ثم تحرّف من النساخ بمن ولكن ورود (من) في كثير من العبارات لعدة مؤرخين يستبعد معه ان يكون محرفاً فيها جميعاً . (ت)

٢ ٢١٢ ٥ من ابن طولون في حوادث سنة ٩١٠ اتفق رأي المباشرين ان تعرض المشاة من كل حارة بدمشق وكذلك الجند إرهاباً للعدو فعرض عليهم غوغاء ميدان الحصا والقبيبات بالميدان الاخضر وازداد طغيان زعرهم (احداثهم) وعلموا العجز من ارباب الدولة ثم قام

المجلد	الصفحة	السطر	
			بالشاغور أزعرهم ابو طاقيــة وجمع زعر الغوغاء وما حولها من القرى وزعر بقية حارات دمشق واخذوا من اموال الناس شيئاً كثيراً واعاره الامير اركاس شيئاً كثيراً من آلة الحرب ، ثم خرجوا أطلاباً أطلاباً بترتيب يعجز عنــه ارباب الدولة حتى عرضوا بالميدان الاخضر ، فاستقل الترك بانفسهم ولم يبق لهم حرمة . وبعد ايام ركب الامير قلج متسلم دمشق والبس جماعته وخرج معه مشاة ارسلهم له ابن الحنش ودار بهم حول دمشق وبين يديه منادٍ ينادي بالامان وترك حمل السلاح اه .
٢	٢١٣	٥	ملوك قون ممخرو = ملوك ممخرقون
٢	٢١٩	١	ويؤخذ مما قال ابن طولون ان السلطان جم الاخ الاصغر للسلطان بايزيد الثاني العثماني لما قصد هو وجماعته سلطان مصر ايده هذا بامور على ان يأخذ الملك من اخيه فخرج من مصر وترك امه وولده بها ونزل الى اخيه فلما علم به ارسل له عسكراً فكسره ففر جم الى بلاد الافرنج فأرسل بايزيد الى بعض امرائهم ليضبطوا اخاه في بلادهم ولا يمكنوه من الخروج منها . وهذا كان السبب في معاداة ملك الروم لسلطان مصر ثم مات السلطان جم ولم يرسل صاحب مصر والشام يعزي اخاه السلطان بايزيد الثاني فتأكدت العداوة . هلك السلطان جم سنة ٩٠٠ ودفن في بروسة .
٢	٢٢٠	٢٠	ان السلطان سليم = ان السلطان سليماً .
٢	٢٢٢	١٤	ثلاثة عشرة قلعة = ثلاث عشرة قلعة .
٢	٢٢٣	٦	ثامن عشرين شعبان = الثامن وعشري شعبان (س) .
٢	٢٢٧	١٣و٢١	في ٤ صفر ٩٢٤ فوض الخنكار (السلطان سليم الاول) نيابة دمشق لجنبردي الغزالي من بلاد المعرة الى عريش مصر على مال معين قدره مائتا الف دينار وثلاثون الف دينار واضاف

المجلد الصفحة السطر

امر الجراكسة بدمشق من الحجوبية الكبرى والثانية ودوادارية السلطان وامرية ميسرة وغير ذلك من الامريات اليه اه ·
والحجوبية في الشام كانت ثلاثة اصناف حاجب الحجاب ويكون مقدم الف من شأنه الجلوس بدار العدل ولا يقف كما يقف حاجب الحجاب بين يدي السلطان بالديار المصرية واذا خرج النائب عن دمشق كان هو نائب الغيبة عنه ويقوم بامر البلد الى ان يقام نائب آخر · والحاجبان الآخران طبلخانتان او طبلخاناه وعشرة وربما كانوا اربعة : حاجب الحجاب وثلاث طبلخانات او طبلخانتان وعشرون او عشرة ورتبهم في المواكب ان يكون حاجب الحجاب والذي يليه في المرتبة ميمنة والثاني ميسرة · كل هذا من ترتيب دولة المماليك ابقاه الفاتح العثماني بحاله ·
السوالم = السوالمة ·

٢ ٢٢٨ ١٢و٢٣ ويقول ابن طولون في حوادث سنة ٩٢٦ انه جيء برؤوس افرنج الى دمشق مع جماعة من اهل بيروت واخبروا انه طلع من البحر الى عند عين البقر هؤلاء الفرنج في زي الاروام وراموا اخذ ميناء بيروت فتاق عليهم المسلمون واقتتلوا فقتل من المسلمين نحو مائة ومن الافرنج نحو الاربعمائة وهرب الباقون وقد كانوا جاؤا في تسعة مراكب منها خمس برشات والباقي اغربة اه ·
الدوادار حامل الدواة ويطلق في عهد المماليك على اشخاص يوصلون كتب السلطان ويقدمون اليه السفراء وغيرهم ممن يمثلون امام الملك ·

٢ ٢٣١ ٧و١٨ من ثمان سنين = من ثماني سنين ·

يرى بعض الناقدين ان من المؤرخين من قالوا ان الخليفة المتوكل الذي اخذه السلطان سليم فاتح مصر الى الاستانة لم يقتل كما كان

المجلد	الصفحة	السطر	
			يظن بل بقي الى مدة السلطان سليمان وانه اطلقه من سجنه ووسع عليه وقال بعضهم انه اذن له في السفر الى مصر فسافر اليها ومات بها مدة ولاية داود باشا على مصر . ونرى ان مسألة هذا الخليفة ما زالت موضع نظر فلتحرر .
٢	٢٣٢	١١و٢٤	حكم الامير فخر الدين المعني من حدود يافا الى طرابلس ويقول (ب) انه لم يتجاوز صيدا وعكا
			الاصبهانية = الاصباهيّة (ت) .
٢	٢٣٩	١٠	ثمان سنين = ثماني سنين .
٢	٢٤١	٧و٢١	شخص واحدة = شخص واحد .
			الباس = الياس .
٢	٢٤٢	٣	محمود = محموداً .
٢	٢٤٨	١٣	اخذ المحارزة قلاع القدموس والعليقة والمينقة مراراً وكان الاسماعيليون يستردونها بعد مدة وفي سنة ١٠٠٠ تقريباً هجم الاسماعيليون على القدموس عندما كان العلويون مشغولين بالعبادة في يوم الغدير وقتلوا من المشايخ ثمانين شخصاً عدا العوام وتملكوا القدموس (تاريخ العلويين) .
٢	٢٥٢	١٠	الكاحل = المكاحل .
٢	٢٥٥	..	وقيشلق = قيشلق .
٢	٢٦٤	١٧	نوله = نوله او نولا . (ع)
٢	٢٧٣	٣	البراعنة = البراغثة (ب)
٢	٢٧٥	٢	ذكر المحبي درزية آل معن وحبذا لو وضعت حاشية على خطإ المحبي لان المعنيين من السنة ونسبتهم الى التدرز وَهْمٌ من تسمية اميرهم (امير جبل الدروز) . (ع)
٢	٢٨٥	٢	طورسون = طوسون

المجلد الصفحة السطر

٢ ٢٩٠ ١٧ في سنة ١٧٣١م ١١٤٤هـ (٤ نيسان) قام الانكشارية في طرابلس على واليها ابراهيم باشا فأهلكوه وجاء بعده عثمان باشا محتاطاً مما وقع فيه سلفه من الاغلاط ولكن وقع خصام بين بعض رجاله واحد الفلاحين فتجمع الناس واستعد رجال الباشا لقمع الفتنة فقتلوا اولاً اثنين او ثلاثة من الانكشارية اتوا بهم الى مجلسه ، وقالوا له ان الانكشاريه والاهلين يجب اخذ الثأر منهم لانهم اهانوا سيدهم اي الباشا فأمرهم بضرب المعتدين فأخذوا يطلقون النار على المارة فقتلوا سبعة او ثمانية اشخاص وجرحوا نحوهم ، ثم استدعى الباشا الانكشارية ليسجنهم في قصره فرأوا انه يتربص بهم الدوائر ففروا من سجنهم تحت جنح الليل وهاجوا وماجوا ومن الغد نالوا من جند الباشا في وقعة معهم وطرد الانكشارية عسكر الباشا من البلدة واخرجوهم من اماكنهم فقتلوا من جماعته من لم يستطع الفرار وقطعوا اجسامهم ارباً والقوها في النهر. ودامت المعركة يوم ٦ نيسان طول النهار فقتل من رجال الباشا من ٢٥ الى ٣٠ ومثلهم من الجرحى كانوا في حالة خطرة وقتل ٦ أو ٧ من عسكر المدينة اي الانكشارية ومن الغد جرت مناوشات خفيفة ثم عقد الصلح بين الباشا والانكشارية على ان يعزل قائم مقامه او كيخيته وكان اخاه وبعض الضباط ويخرج عسكره من المدينة ويكتفي لحمايته بالانكشارية والجند الوطني. والبس رؤساء الشعب من الانكشارية كسوات وخلع عليهم فطافوا على أعيان المدينة وقنصل الانكليز فأهدوهم جوخاً والبسة ورضخوا لهم بدر يهمات ، وجاء هؤلاء المشاغبون الى تجار الفرنج (الفرنسويين) وأعطاهم قنصل فرنسا جوخاً بقيمة ستين قرشاً ، ولما بلغ مسامع رجال الباب العالي هذه الفتنة عزل عثمان باشا

المجلد	الصفحة	السطر	
			وخلفه سليمان باشا فعادت طرابلس الى سكينتها . (ملخصاً من تقرير قنصل فرنسا الى وزارة البحرية في بلاده والى غرفة التجارة في مرسيليا)
٢	٢٩٢	١	في تاريخ العلويين لم يكن العلويون يتحاربون مع الاتراك فقط بل كانوا يحاربون بعضهم بعضاً ايضاً لان المنطقة ضيقة والنفوس كثيرة وفي عهد الاتراك اصبح يقتل الاخ اخاه ليأكل ما عنده ودامت الحرب بين الكلبيين وبني علي سنة ١١٤٠ مدة سبع سنين واتحدت اخيراً العشائر الكلبية والنواصرة والقراحلة والياشوطية والجهينية وبيت محمد وهجمت على عشيرة بني علي بالاتفاق وحرقوا قراها وعند تجمع بني علي في قلعة عين الشقاق حاصروها بعد ان هدموا جميع قراها ولم يبق ملجأ لبني علي سوى الحصار الذي كان مبنياً على سبعة طوابق ودام بنو علي على الدفاع في ذلك الحصن ثم دك العثمانيون الحصن الذي كان في قرية عين الشقاق .
٢	٢٩٣	٨	القبوقول والاوط = ولعلها الاورط والاورطة الطابور في وجاق الانكشارية .
٢	٢٩٤	١٧	الامير حيدر = الامير حيدراً .
٢	٢٩٦	١٤	فاعمل وجنوده = فاعمل هو وجنوده (س) .
٢	٣٠٠	٢١	قرية العرابة = قرية عرابة
٢	٣٠١	٨و١٧	اغار وجماعته = اغار هو وجماعته . الصواب مجلة الجنان بدلاً من الزهرة وهذه المقالة لنعمان القساطلي (ع)
٢	٣٠٣	١٤	أعلى = على .
٢	٣٠٤	٤	أبي الذهب = أبو الذهب
٢	٣٠٨	٢١	عرب غزة = عرب عنزة
٢	٣١١	١٨	علي باشا المعروف بچه طلجلي الاوفق ان ترسم بجتالجه لي نسبة الى مدينة جتالجة .

المجلد الصفحة السطر

٢ ٣١٣ ٨و١١ ورفع سورها الداخلي = ورفع سور عكا الداخلي ·
وبنى عثمان قرية شفاعمرو وصوابه وبنى قلعة قرية شفاعمرو (ع)
والصواب انه رمها وعمرها·

٣ ١٣ ٢٠ وادي الملك = وادي الملح · (ب)

٣ ٣١ ١١و١٢ المدفعين = المدفعيين

٣ ٣٥ ٢٠ استلام = تسلم

٣ ٣٧ ١ واستلم = وتسلّم

٣ ٣٨ ٢ وفتحت بروسيا = فتحت روسيا

٣ ٣٩ ٢٠ جينين نابلس = جينين ونابلس

٣ ٤١ ٤ الاعيان المتغبة = الاعيان المتغلبة

٣ ٤٤ ٧و١٨ ولا من يرد عنهم = ولا من يردعهم ·
الولايات = والولايات ·

٣ ٥٠ ١٤ أحرزه = أحرز

٣ ٥١ ١٩ فوصل الى حيفا وفتحت له غزة ويافا = وصل الى يافا ونزل
فيها بعد فتحها · (ب)

٣ ٥٢ ١٠و٢١ لما كانت الجيوش المصرية تحاصر عبدالله باشا في عكا جاءه
من نابلس ستمائة رجل واخترقوا صفوف العسكر المصري ودخلوا
عكا لمساعدة وزيرها شاهرين سلاحهم ضاربين من عارضهم ·
عباس باشا بن محمد علي = الصواب انه حفيده لانه عباس بن
احمد طوسون بن محمد علي هذا اذا أردتم تحقيق النسبة والا
فولد الولد ولد · (ت)

٣ ٥٤ ١٩ وهنأ عزيز مصر وولديه ابراهيم وعباس = الصواب عباساً
ولاحسن ان يقال وولده ابراهيم وحفيده عباساً · (ت)

٣ ٥٦ ٠٠ آخر الصفحة شريف باشا نسيب ابراهيم باشا = يحقق هذا فانًا

المجلد	الصفحة	السطر	
			لا نعلم انه صاهره . (ت)
٣	٥٩	١٩	عند مبرك سليمان = عند برك سليمان . (ب)
٣	٦٣	١٤و١٥و٢٠	ومعها من كبار طائفة من ضباط = ومعها طائفة من كبار ضباط .
			نزّيب والاولى ان يذكر بعدها بين قوسين (نصيبين) والاستاذ زكي باشا يصرّ على ذلك والاستاذ معلوف يقول انها غيرها (ت) . ذكر المصنف المجهول في تدوين حروب ابراهيم باشا ان وقعة نزّيب كانت يوم ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ (٢٤ حزيران سنة ١٨٣٩) وان ابراهيم باشا استولى من العثمانيين على مائة وعشرين مدفعاً وعشرة آلاف بندقية وجميع مهماتهم وذخائرهم وعتادهم وقتل منهم اربعة آلاف وخمسمائة وجرح ١٨ الفاً وأسر ثمانية آلاف وخمسمائة وقتل أُمراء كثيرين وقتل من جيش ابراهيم باشا اربعمائة وجرح ثمانمائة وفقد اربعمائة ثم قصد بيره جك (البيرة) فهرب العثمانيون وغنم منهم ٣٢ مدفعاً بعتادها اه .
٣	٦٦	١٥	من سيئاتها = من سيئاته .
٣	٧٣	٨	من الفناء = من العناء .
٣	٧٩	٢٣	حدثت الفتنة في القدس . الاصح في القدس وبيت لحم . (ب)
٣	٨٠	٢	بسبب كنيسة القيامة = وكنيسة المهد في بيت لحم . (ب)
٣	٨٤	١٦	وبعده = وبعد
٣	٩٥	١٩	قضايا الكاثوليك = قضايا الكاثوليك والموارنة .
٣	١٠٠	٦	ذكر في تاريخ العلويين انه في سنة ١٢٨٠ شبت حرب شديدة بين بني علي والكلبية وهاجم الكلبية والنواصرة بني علي حتى بلغوا قرية ست يللو ثم حرقوا بتغراموا وديروتان ومغسلة وخربوها وكان الرجال يحاربون والنساء يشتغلن بالتخريب والاحراق

المجلد الصفحة السطر

وهجم بنو علي على الفرقية وديرونة ورويسة البساتنة وحرقوها ٠

٣ ١٠٢ ١١ ١٣٩٣ = ١٢٩٣ (ح)

٣ ١٠٣ ١٣ ثماني = ثمان

٣ ١١٦ ٧ اليوم رضوا = يوم رضوا ٠

٣ ١٣١ ١ المسمى بالبراق = المبكي واقع في حي البراق ٠ (ب)

٣ ١٣٢ ١١و١٢و١٨ لم يستول اليهود على نصف قضاء صفد و يافا وهذا مبالغ فيه كثيراً ٠ (ب)

لونها أزرق الاصح أزرق وأبيض ٠ (ب)

خاتم سليمان = ترس او مجن داود ٠ (ب)

٣ ١٣٣ ١ لهم بريد خاص = لهم طوابع بريد في قراهم ٠ (ب)

٣ ١٣٦ ٥ ليستلم = ليتسلم

٣ ١٣٧ ٢و٧ بفكر وجماعته = بفكر هو وجماعة ٠ (س)

على هذه القرية = هي مركز قضاء فيه مستشفى ودار حكومة (ب) ٠

٣ ١٣٨ ١٨ ونقار = ونقارير

٣ ١٤٨ ٥و٢٠ تشتت اهلها والصحيح انهم كانوا مهاجرين قبل المعركة ٠ (ب)

وادي صرار حفير = الصرار الحفير ٠ (ب)

٣ ١٤٩ ٤و١٥ اختراق الانكليز الجبهة التركية في ١٩ من سنة ٠ الظاهر ان اسم الشهر قد سقط في الطبع وهو ايلول سنة ٩١٨ ويا حبذا لو ذكرت تواريخ فتح كل مدينة فحيفا سقطت في ٢٣ ايلول ٩١٨ وكذلك عكا والناصرة ويمكن طبرية ونابلس وطول كرم = التي اسمها في معاجم البلدان العربية طور كرم (ع) ٠

اللبان — اللبن ولم يبق هناك المان ٠ (ب)

٣ ١٥٩ ٣و١٣و٢٢ اخذوا العريش ثم رفح ثم بئر السبع على الصحيح المعلوم المحقق (ب)

واحتلت البحارة الافرنسية ميناء اسكندرونة يوم ١٨ تشرين الثاني ٠

المجلد	الصفحة	السطر	
			بلاد كافية متقدمة = بلاد متقدمة تقدماً كافياً .
٣	١٦٠	١٢	القنابل والقنابر = القنابل محرفة عن القنابر فالصواب الاكتفاء باحداهما . (ت)
٣	١٧٣	٢	لم يقرر المؤتمر السوري كما قلنا ان يكون ولي عهد الملك فيصل اخاه الاصغر الامير زيد .
٣	١٧٥	٢٠	في تاريخ العلويين ان الثوار الاتراك اعتدوا على القرى الساحلية المحايدة واحرقوا ستين قرية وقتلوا بعض العلويين ودامت الفتنة ستة اشهر قتل فيها من اهل الجسر وصهيون اكثر ممن قتل في الحرب العمومية الكبرى .
٣	١٧٧	٦	مجموع النفوس لا ينطبق على التفصيل (ب) .
٣	١٨٤	٢٢	على بلادها تعدها — على بلاد تعدها .
٣	١٨٥	٣	يقول (ف) ان مااوردناه بشأن الانتداب على الشام بقولنا : وقيل انه كان (ويلسون) يضمر ان يجعل الانتداب على الشام للارجنتين وعلى فلسطين للبرتقال الخ فيه نظر ونحن معه في هذا الشأن ولذلك اوردنا الكلام بصيغة المجهول ولم نفهم قوله اننا نحافظ على التقاليد الموروثة واوجه النظر الخلية (ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٦٧ ، ١٧٧) ونحن هنا روينا ما علمناه وتحققناه ولعل حضرته ينظر الى تاريخ البلاد غير نظرنا اليه و يجب ان نكتب برأي غيرنا او بما يمليه تعصب المتعصبين الذين تخرج بهم بعض من يكتبون في تاريخنا .
٣	١٨٧	٢٤	الكفاآت — الكفايات . (ت)
٣	١٨٩	٢١	والمؤمرات — والمؤامرات .
٣	١٩٠	٧	كما جعل لفلسطين علم آخر والصحيح ان علمهم انكليزي . (ب)
٣	١٩٧	٣و٧و١٧	في ٢٢٠٠ مقاتل ٢٦٠٠ مقاتل = في ٢٢٠٠ — ٢٦٠٠ مقاتل .

المجلد	الصفحة	السطر	
			الزيزاء — زيزاء ·
			وبنو صخر هم المقصودون الاصح عمان والامير عبد الله · (ب)
٣	١٩٩	١٨	الكفاءة — الكفاية ·
٣	٢٠٣	١	وها نحن نقدّم — وها نحن اولاء نقدّم ·
٣	٢٠٤	١	يار كوخبا — بار كوخبا ·
٣	٢٠٦	٢و٩و١٢	الدنية — المدنية ·
			زيوف — زبون ·
			ساقط بعد عشرة مؤامرات تأتي على خلاصة عملها ·
٣	٢٠٧	٩	ساقط الصهيونية مما دل على انه
٣	٢١٢	١٤	حتى وكدت — حتى كدت ·
٣	٢١٦	٧و٢٤	اعتراض — اغراض ·
			المانيا الاصح ايطاليا ·
٣	٢٢٨	١٦	تدعى ساسوليل لا هامو ليل
٣	٢٣٤	١و٥و١٢	زبينا — زنوبيا
			والثاني حوران — الأردن
			اي افرادها — اي افردها ·
٣	٢٣٥	٩	ولاية رأسها — ولاية برأسها ·
٣	٢٣٦	١٢	القدس لم تكن ايالة مستقلة بل كانت تابعة الى بيروت ودمشق ثم استقلت مؤخراً ·
٣	٢٣٧	٢٠	الزيزة — زيزاء اوالجيزة ·
٣	٢٤٣	١١	الحاميتين — الحاميتان ·
٣	٢٧٤	٠٠	يقتلنا بلادقود — بلا قود
٣	٢٩٤	١٢	واثار يوسف كرم هذا وكان قائم مقام النصاري في شمالي لبنان على متصرفه داود باشا فتنة ، وعرقل مساعيه في اصلاحه ،

المجلد	الصفحة	السطر	
			ومن جملتهـا رفع الخراج في لبنان من ٣٥٠٠ كيس الى ٧٠٠٠ ليزيل العجز من ميزانيـة الجبل ، وادى النفور بين المتصرف و يوسف كرم الى الحرب فكسر عسكر داود باشا فاستنجد المتصرف ولاة بيروت ودمشق فأرسلوا اليـه زهاء عشرة آلاف مقاتل فسارت على كرم وعنـدها تدخل قنصل فرنسا في الامر ومنح الحماية الافرنسية ليوسف كرم فركب من بيروت على دارعة قاصداً الى فرنسا وكان ذلك سنة ١٨٦٦ م .
٤	١٢	١٦	كان في غزة مدرسة قديمة تفاخر بمشاهير علماء البيان فيها ، وكان فصحاؤها على العهد اليوناني المرجع الاول في البلاغة والفصاحة . وكان في قيسارية في القرن الثالث للمسيح مدرسة علمية يعلم فيها اوريجين احد رجال الكنيسة وتخرج فيها الاسقف اوزيب ابو التاريخ الكنسي . وقيل انه كان في اريحا مدرسة اسمها ايليا .
٤	١٥	١٣	فون الشعر — قول الشعر .
٤	١٩	٢٢	يحذف اسم رجاء بن حيوة لانه من اهل القرن الثاني وقد ورد اسمه ص ٢٥ س ٧ .
٤	٢٠	٤و١٤	اسماعيل بن عبد الله بن ابي مهاجر مولى بني مخزوم من اهل دمشق كان يؤدب اولاد عبد الملك بن مروان . ومن كتاب بني امية بدمشق اسود بن قبيس الحميري .
٤	٢١	٢٠و٢١	له كان ولع — كان له ولع .
٤	٢٢	٧	تساءل (ص) عن القـدر الذي نستطيع ان نثق به من اقوال تؤخذ بالسماع ولو أجمع عليها عشرة من الرواة ، وقال هاك الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ كيف نثق بكل ما كتبه عن العرب في جاهليتهم وهل كان لديه كتب كتبت في عصر الجاهلية وفقدت

المجلد الصفحة السطر

كلها الآن . وكذلك ابن النديم صاحب الفهرست توفي سنة ٣٨٥ وهو من الثقات لديناولدى كل المستشرقين الاوربيين والاميركيين ، ولكننا نرى فيما ذكره اموراً كثيرة يصعب تصديقها . قال ثم ان الكتب العربية القديمة لا يرجع تاريخ كتابتها الى أبعد من سنة ٣٥٠ وهذه قلما تكون سالمة من الادخال الخ . هذا ما قاله وهو يرمي الى ايقاع الشك في كل ما كتب ودوّن في حضارة العرب . وبهذا النظر يسقط علم التاريخ لا محالة ، بل ان حوادث العالم الكبرى لا تثبت بعد ذلك على محك هذا المنطق . فقد رأينا من علماء الفرنج من انكروا مجيء السيد المسيح عليه السلام وقالوا ان التاريخ لا يؤيد بعثته ولا وجوده . وكتبوا في ذلك الكتب ومما تصفحناه على ما نذكر كتاب في مجلدين اسمه « المسيح في نظر التاريخ لم يعش قط »

Jésus devant l'histoire n'a jamais vécu.

وانت ترى انا اذا اخذنا بمذهب التشكيك يبطل كل خبر واثر في القديم والحديث . ثم ان الجاحظ لما كتب ما كتب عن الجاهلية ، لم يؤلف قصة خيالية بل استمد الى ما دونه اهل القرنين السالفين من اخبارهم مما لا سبيل الى انكاره ، اذ لم يقم دليل صادق على خلافه . وعجيب كيف يثق بعض المشككين بروايات ابن النديم ثم ينقضونها في اماكن أخرى بمجرد خاطر عرض لهم . وابن النديم قد دوّن ما عرفه على ما اجمع الباحثون عليه وثبت عنده من اخبار المدنية ، بل نقلاً عما رآه من الكتب بعينه وعمن عاصرهم من المؤلفين . فكيف تحلل هذه مايروقها حيناً وتحرم ما لا يروقها احياناً . وكان الأمثل بمن يذهب مذهب الشعوبية اي بفضل العجم على العرب ان يسلم بكل مايقبله العقل ،

المجلد الصفحة السطر

ولا شيءَ في النقل ما يناقضه . واذا ادعى انه لم ينته الينا كتاب واحد من القرن الاول ، فالجواب من اين نقل اهل القرن الثاني اذاً ؟ والثابت ان التدوين وقع في النصف الاول من القرن الاول . وليت شعري كيف سكت العلماء عن مناقشة من دوّنوا ، على حين كانوا يحاسبونهم على كل دقيق وجليل في العلم . وهل من المعقول من مثل الجاحظ على علمه وعقله ان يتقول على التاريخ ويدوّن الترهات ، و يسكت عنه خصومه وهم اكثر من مواليه . ومن خصومه من حاولوا ان ينالوا منه في اقلّ من هذا . وكانت البصرة وبغداد في عهده تغصان بالعلماء والفلاسفة والباحثين بل بالمؤمنين والملحدين والسفسطائيين ، وكانوا في عهد الرشيد والمأمون ممتعين بحرياتهم ، يجهرون بما يرون ويؤلفون كما يشتهون .

ولعل أصحاب الشك يدعون ان جميع الامة تواطأت على الكذب ، وهذا منقوض بالبديهة ، وكيف تُسمع هذه الدعوى بعد الذي انتهى الينا من اخبار المسلمين وتدوينهم حتى ما يغض من قدرهم وقدر مقدساتهم . واذا لم يكتب البقاء لكل مادوّنه الناس ولم يساعده القدر فيأتنا بحروفه وخطوطه لا اقحام في نصوصه ولا ادماج ، فليس معنى ذلك ان القليل الذي وصلنا لا شأن له ولا يعتقد بصحته بعد الذي عهدنا من تواتر المصائب الارضية والسماوية على هذه الامة وديارها خلال ثلاثة عشر قرناً . نعم لم تصلنا كتب خالد بن يزيد الأُموي ولا كتاب اهرن بن اعين ولا كتاب عبيد بن شَرْية من اهل القرن الاول ، ولكن كتب سهل بن هرون من اهل القرن الثاني لم تصلنا ايضاً ، والجاحظ ينقل عنها ، أفمن المنطق ان ندعي ان سهلاً لم يؤلف للناس ورجال التاريخ كلهم مجمعون على انه الف وذكروا لنا جريدة باسماء كتبه .

المجلد الصفحة السطر

ولما ذا لا يثق هؤلاء الناقدون بما كتبه العرب ، وتثلج صدورهم بكل ما كتبه من قبلهم ، او ما قيل انهم عرفوه ، يأخذونه قضايا مسلمة لا تقبل النقض ، ويعدون كل ما صدر عنهم من أعاجيب المدنيات التي يجب ان تُدرس وتبحث . أمن العدل ان نثق بكل مايروى عن الحثيين والاشوريين والبابليين والمصريين والكنعانيين والفينيقيين ، مع بعد اعصارهم عنـا ، وقلة ماصح من تاريخهم ، وانتهى الينا من مكتوباتهم . ولا نثق بمن دوّنوا لنا كل شيء وكانوا في تصحيح السند من اغرب ماروى الراوون في الامم . ومانخال من يذهبون هذا المذهب الا محاولين بانكار ما ينكرونه الحطّ من قدر مدنية العرب ، ليخلصوا من هذه الدعوى الى ان المسلمين ليست لهم مدنية تذكر ، لانهم على رأي (ص) لم يقيموا التماثيل البديعة ولم يبرعوا في التصوير والنقش شأن سائر الساميين وان عدّ هو ذلك من الكماليات . وعندنا ان اصحاب هذا الرأي يحاولون انكار البديهيات ، والاولى ان لا يناقشوا ، لان اهواء الناس كثيرة في كل عصر ومصر ، وقد أضاع وقته كل من يتطاول الى نزع هذه العقيدة من نفوسهم لانها من افكار رهبان القرون الوسطى ، كانت بالامس تنبعث من فكرة دينية واليوم تتشبع بدعوة سياسية ودينية معاً .

٤ ٢٥ ١٩ احمد بن سليمان بن جندلم . وفي ص ٣٤ س ٢٣ ابن جدلم صوابه ابن حذلم كما في الثغر البسام في قضاة الشام لابن طولون ومادة حذلم من شرح القاموس . (ت)

٤ ٢٦ ١٨ من القرنين — في القرنين .

٤ ٣١ ٩ قال والده — قال ولده .

٤ ٣٢ ٦و١٠ قال الصفدي وكانوا يسمون عصر سيف الدولة الطراز المذهب

المجلد	الصفحة	السطر	
			لان الفضلاء الذين كانوا عنده والشعراء الذين مدحوه لم يأت بعدهم مثلهم .
			منصور النمر — منصور النمري .
٤	٣٣	١٤	قال الصفدي ان السلامي والببغاء والوأواء والخالديين من خزان كتب سيف الدولة .
٤	٣٤	٢١	وابو الدحداح احمد بن محمد بن اسمعيل التميمي محدث دمشق كان يسكن بدمشق في ربض باب الفراديس في طرف العقيبة (٣٢٨) قال القاسمي واليه تنسب مقبرة الدحداح .
٤	٣٦	٢٤	اسامة بن مرشد الكناني الخ . عددناه في هذا الموضع من اهل القرن الخامس وهو صحيح باعتبار مولده لانه ولد سنة ٤٨٨ ثم اعدنا ذكره بين اهل القرن السادس ص٤٢ س ١٦ وهذا صحيح ايضاً باعتبار وفاته لانه عمر وتوفي سنة ٥٨٤ ويقول (ت) غير ان المصطلح عليه عند المؤرخين ان يعدوا الشخص من اهل القرن الذي توفي فيه ولو كان أغلب حياته في القرن الذي قبله .
٤	٤١	٥و١٠	حمزة بن أسد ابو يعلى التميمي الدمشقي العميد بن القلانسي الكاتب صاحب ذيل تاريخ دمشق المطبوع توفي في عشر التسعين واربعمائة . تولى رئاسة دمشق وجمع بين كتابة الانشاء وكتابة الحساب . عبد الرحيم البياني — عبد الرحيم البَيْساني .
٤	٤٣	١٠	المقايسات — المقابسات .
٤	٤٤	١٢	عبد الرحمن البازري — عبد الرحيم البارَزي (بتقديم الراء المفتوحة على الزاي) (ت) .
٤	٤٥	٦و٧	صاحب مرآة الزمان في التاريخ المطبوع (والاصح ان يقال المطبوع منه الجزء الثامن وهو الاخير) (ت) .
٤	٤٧	٣	ست الكتبة بنت الطراح المحدثة .

المجلد	الصفحة	السطر	
٤	٤٩	١٨	شرح المفصل للزمخشري وشرح التصريف الملوكي لابن جني وهما مطبوعان (والذي طبع شرح المفصل واما شرح التصريف فلم يطبع وانما طبع متن تصريف ابن جني في ليبسيك وفي مطبعة التمدن بالقاهرة (ت)
٤	٥٣	١٨و١٩	كبكادي — كيكادي . بدر الدين محمد بن جماعة جاء مكرراً بعد اربعة اسطر في الصفحة ذاتها .
٤	٥٤	٤و١٢و١٧و٢١	اسماعيل بن محمد جمال الدين بن الفقاع الحموي (٧١٥) العالم بالقراآت والعربية درس في عدة مدارس بحماة (السيوطي) . نور الدين عبد الرحمن بن العيني عالم دمشق في هذا القرن . وبعده س ١٩ عبد الرحمن العيني فقيه الخ . هذا الاسم مكرر نبهنا الى تكرره (ت) . شهاب الدين محمود الحلبي جاء مكرراً في الصفحة نفسها بعد اسطر قليلة . الكاتب المجود (٧٣٩) والصواب ٣٢ او ٣٣ . شهاب الدين محمود الحلبي ورد ذكره في ص ٢٠ وفاته ٧٥٥ . ابو العباس احمد بن الخضر الدمشقي محدث كان حياً في سنة ٧٧١ وست العرب ابنة محمد بن علي الدمشقية المحدثة كانت حية (٧٦٦) وقاضي قضاة دمشق ابراهيم بن احمد الباعوني من اهل هذا القرن ومن اهله ايضاً يوسف بن شاهين الكركي وجمال الدين ابو المحاسن .
٤	٥٧	١	للجزري كتاب طبقات وله النشر في القراآت العشر طبع مؤخراً .
٤	٦٠	٢و١٣	وفي حلب خليل بن احمد الشيخ غرس الدين (٩٧١) عالم بالحساب والميقات والهيئة والوفق والموسيقى والطب وهو صاحب شجرة الافادة بشرقية جامع حلب الاعظم . وبوران بنت الشحنة الشاعرة الحلبية (٩٣٨) .
٤	٦٢	١و١٥	احمد بن الملا النجحواني — النخجواني بالخاء المعجمة ثم الجيم) .

المجلد	الصفحة	السطر	
			يحيي المنسي — البهسني .
٤	٦٧	١١	ميخائيل جردة — ميخائيل جروة (ع) .
٤	٦٨	٩ ٨	انطون الخلع — جبرائيل بن يوسف الخلع وهو ترجم الكلستان (ت)
٤	٦٩	٠٠	عمر اليافي . اسمه مكرر لانه ورد في ص ٧١ س ٢٢ (ت) .
٤	٧١	٩	يضاف: محمد الطنطاوي عالم العربية والاصول والفقه والفلك والميقات
٤	٧٣	٧و١١و١٤	محمد البيطار فقيه . حسن الشطي فقيه . محمد الجوخدار فقيه . عبدالله الحلبي فقيه اصولي . احمد الحلواني شيخ القراء . محمد الخاني متصوف فقيه . عمر العطار فقيه عالم بالعربية . عبدالرحمن الطيبي فقيه . محمد المرعشلي أديب وفقيه . عبدالرحمن البوسنوي عالم بالعربية . احمد فوزي الساعاتي عالم بالعلوم المادية والدينية . عبد المجيد الخاني أديب شاعر . عبد الحكيم الافغاني عالم بالفقه والاصول . ملا عيسى الكردي فقيه اصولي . محمد محمود الاتاسي فقيه اصولي . علاء الدين عابدين فقيه اديب . صالح قنباز عالم بالتربية والطب له عدة رسائل وكتب . له مؤلف — له مؤلفان امين ارسلان — محمد ارسلان
٤	٧٤	٢٢	سعيد الحاسني . محمود الماضي . عوني عبد الهادي . يوسف الخيري .
٤	٧٥	٥و٩	يزاد على العالمين بالعلوم المادية : عبد الوهاب القنواتي . مصطفى تمر . هاشم الفصيح . صلاح الدين الكواكبي . يوسف قدورة . عمر الترمانيني . يزاد على العالمين بالعلوم الاجتماعية : جميل صليبا . حبيب الخوري . اسكندر الخوري البيتجالي . روحي عبد الهادي . عثمان الطباخ . فرنسيس خياط . بولس شحادة . حسن فهمي الدجاني . احمد سامح الخالدي . ساطع الحصري . كامل نصري . حسن يحيي الصبان .

المجلد	الصفحة	السطر	
٤	٧٦	٩و١٥و١٦	انطون جرجس — انطون صالحاني وقد وقعت لفظة «صالحاني» بعد سطرين تحذف ·
			جودت الماردبني ·
			مصطفى الخيري · محمد علي السراج ·
٤	٧٩	٢٢	الموارنة وبطاركتهم — ومطارنتهم ·
٤	٨٤	٧	او من مدارس المبشرين — او على مدارس ···
٤	٨٩	٦و٧	وكفاءاتهم — وكفاياتهم
			ومجاميع علمية — مجامع علمية
٤	٩١	٣و٢٤و٢٥	واربع مجلدات — واربع مجلات
			اقتحام هذا المركون — هذا المركب
			فلا يلبث ما ينشب — ما ينشئون
٤	٩٢	٢٣	نشهد الاغنياء — نشهد الاغبياء
٤	٩٤	٢٠	وفي سنة ١٦١٠م أُنشئت مطبعة دير قزحيا في لبنان وهذا الدير يبعد نحواً من ثلاث ساعات عن قنوبين وقد طبعت في هذه المطبعة الكتب الدينية باللغتين العربية والسريانيه · والطبع كان على الحجر لا بالحروف ·
٤	٩٦	··	اللهم في — اللهم الا في ·
٢	١٠٠	٩و٢٠	عنواة — عنوان ·
			الفنيقيون ساميون وليسوا عرباً ساميين · (ب)
٤	١٠٢	١٩	شيخو الى ان — شيخو ان ··· انستاس
٤	١٠٤	١٧	ومثلك قد اصبيت لعله احببت · على ان البيت بمجموعه مغلط لم يتحل
٤	١١٣	٣و١٥	صور أُخرى من — صور من ···
			والابداع في عمل — وابداع في عمل ·
٤	١١٨	٢١و٢٢	الكوادن — الكرازن جمع كرزن ويطلق في الفارسية على تاج

المجلد	الصفحة	السطر	
			صغير مرصع بالجوهر كان ملوك فارس يعلقونه فوق سرير الملك ويلبسونه احياناً ، ويطلق ايضاً على قلنسوة من الديباج مرصعة وهي المرادة هنا (ت).
			وفي آذانها الاجراس الثقال — الصواب الاخراص جمع خُرص بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وبالصاد المهملة في آخره وهو الحلقة من الذهب والفضة او حلقة القرط (ت) .
٤	١٢٠	٣	عبد الملك هو باني المسجد الاقصى
٤	١٢٣	٩و١٣	يقول (ع) ذكر ابن قاضي شهبة في تاريخه المخطوط في باريز ان علي بن محمد بن صالح الرسام عالم صفد المتوفى سنة ٧٤٩ ﻫ كان في اول امره يرسم القماش وقال ان عنده كتاباً في علم الفلك صورت فيه جميع الابراج والنجوم بليقني الكتاب اسيے بالاحمر والاسود وتحت كل صورة أُرجوزة بتعريفها .
٤	١٣٩	٥و١٤	الغالب انه الصارد بدلاً من الصادر بتقديم الدال على الراء .
			معاوية بن فَرْمل — معاوية بن قرمل .
٤	١٤٤	٢٠	من القصاصين اي الحكوية (الحكواتية) او الادباتية الخ وهؤلاء لا يسمون في مصر بالادباتية بل يقال لهم المحدثين اي المحدثون واما الادباتيه تحريف — الادباء فطائفة مختصة بارتجال الازجال تطوف على الدور والحوانيت بطبل للكدية (ت) .
٤	١٤٨	٣و١٦	الا ليقيموا — الا ليقوموا .
			اكثر من ارض — اقل من ارض .
٤	١٤٩	٢٢	الاراضي التي — الارض التي .
٤	١٥٩	٤	اكل مدرسة — اكل قرية .
٤	١٦٢	٨	يستمده من عمله — يستمده المرء من عمله .
٤	١٦٧	١٧	بعض الاشجار — بعض القري .

المجلد	الصفحة	السطر	
٤	١٨٣	١٠	الحمامات المعدنية او الحمّات : زرقامعين التي في « شرق الاردن » درجة حرارتها ١٤٢ بميزان فارنهيت ، والمالح في قرية تياسير في الغور غور الاردن من جهات نابلس درجة حرارته ٩٨ ف · وحمة ابي ذابلة بجانب نحل وحمة ابي سليم في موقع المهدّ من اراض صنمة بقرية سحم الكفارات · وحميمة بزور النيص من اراض صنمة ايضاً ودرجة حرارتها فوق ١٠٠ ف · اما حمامات طبرية فدرجة حرارتها ١٤٤ فارنهيت وحمة جدر ماؤها عذب جيد الطعم يشرب سخناً و بارداً بخلاف طبرية (ع) ·
٤	٢٢١	٩	أعجب احد سياح غاليا الذي زار الشام على عهد المروانيين بما كان في اسواق حلب من البضائع الثمينة ·
٤	٢٤١	٢٣	القيشاني : كان في المسجد الاقصى مصنع له كامل الادوات وذلك في عهد الملوك العثمانيين واولهم سليمان القانوني وهو اول من استعمل القاشاني في زخرفة خارج قبة الصخرة ، ولا تزال بعض قطعه محفوظة في المسجد ، و يوجد الآن مصنعان فيها لرجلين أرمنيين أتيا بيت المقدس من كوتاهية التي كانت من اشهر معامل القاشاني في بلاد الدولة العثمانية و يشتغل المصنعان بصناعة القاشاني التي يرغب الفرنج في اقتنائها وهي جيدة الصنعة بعض الشيء الا انها لا تحاكي الأنواع القديمة طبعاً · و يؤخذ التراب لهذه الصناعة من مطحون حجارة الصوان الذي يطحن بآلة بخارية قوية (ع)·
٤	٢٦٦	٥	الشام وقاعدة — الشام قاعدة ·
٤	٢٧١	٩	يقول بعض الكتاب ان التجارة البحرية لم تنقطع في البحر الرومي في القرن الاول للاسلام الا بما كان يبدو من حركة الاسطول اليوناني ولكن تجارة الشام منيت بالتأخر مع اوربا لما اصبح للشام

المجلد	الصفحة	السطر	
			منافس كالبصرة التي كانت لقربها من الهند اكثر منافسة للشام ·
٤	٢٧٤	٦	بلادنا كله كان في ذلك — بلادنا كان في ذلك كله ·
٥	٤	٢٣	١٦ الف — ١٦ الفاً ·
٥	٧	١٠	« وان احتاج امير المؤمنين الى جند وكتب الى من ولاه ناحية من بلاده باشخاصهم اليه والى اي ناحية من النواحي او الى عدو من اعدائه خالفه او اراد نقض شيءٍ من سلطانه ان ينفذ امره ولا يخالفه ولا يقصر في شيءٍ كتب به اليه · »
٥	١١	٥	كل جحفل يجمع خمسة رجال وذكر منهم اربعة فقط ولم يذكر الخامس (ب) ·
٥	١٢	١٦	وقال ابن طولون : كان سنجق الجراكسة من حرير اصفر اطلس بطرز مزركش بشراريب وهلاله من ذهب شبه نعل المصطفى اه وقال غيره كانت للماليك راية كبيرة صفراء وهي مطرزة بالذهب وعليها القاب السلطان وبعدها راية عظيمة صفراء ايضاً وفي رأسها خصلة من الشعر وهي التي تسمى بالجاليش ويتلو ذلك رايات صفر صغار تسمى الصناجق ·
٥	١٨	١١	اول من وضع البريد في الاسلام معاوية والاصح انه عمر بن الخطاب وانما معاوية نظمه ورتبه · (ب)
٥	١٩	٨	ارسل اماجور امير دمشق في ايام المعتمد على الله وكانت امرته سنة ٢٥٦ الى اليرموك رجلاً واعطاه طيوراً وقال له ارسل الطيور يخبرك طيراً بعد طير · مما يستدل منه ان الزاجل كان معروفاً عند العرب في القرن الثالث للهجرة ·
٥	٣٤	١٧	وكان الناس يغزون بنسائهم في المراكب على ما قال المقريزي ·
٥	٣٥	١	جزيرة رودس والاصح على ما اعلم انها ارواد وقد اشتبه هذا الاسم على كثير من المؤرخين (ب) ·

المجلد	الصفحة	السطر	
٥	٤١	٣	ازدود والاصح اسدود وهي قرية لا تزال الى الآن (ب) .
٥	٥٤	١٦	عامر بن جذيم — عامر بن حذيم
٥	٧٤	١٩	في سنة ٧٠٢ سامح الناصر قلاوون بالبواقي في ذمم الجند والرعايا بالشام وصدر بذلك منشور بخط العلامة كمال الدين محمد الزملكاني من انشائه وقرئ على المنبر بالجامع الاموي وجملة ذلك من الدراهم الف الف وسبعمائة الف وستة واربعون الفاً ومائة وخمسة واربعون درهماً ومن الغلال المنوعة تسعة آلاف واربعمائة واثنتان واربعون غرارة ومن الحبوب مائتان وثمان وعشرون غرارة ومن الغنم خمسمائة رأس ومن الفولاذ ستمائة وثمانية ارطال ومن الزيت الفان وثلاثمائة رطل ومن حب الرمان الف وستمائة رطل اهـ.
٥	٧٥	١٠	صدر مرسوم سنة ٧٦٥ عن نائب المملكة الطرابلسية الى نائب حصن الاكراد بابطال ما احدث بالحصن من الخمارة والفواحش والزام اهل الذمة بما أجرى عليهم احكامه امير المؤمنين عمر ابن الخطاب .
٥	١٠٢	١	تصحح هكذا : فقيراً غير متمول فيه .
٥	١٠٦	١٨	نصف اراضي — نصف ارض . وجمعت بعد صفحات ارض على اراضٍ ايضاً وهو غير صحيح فجمعها ارضون .
٥	١٢١	١٩ و٢١	المرصد يملكهم — المرصد لا يملكهم . ووضعوا اسماء لهم — ووضعوا لها اسماء .
٥	١٢٦	١٤	كانت مهجورة — سواء كانت مهجورة .
٥	١٢٩	١٩	التي قضت بتأليفه — الذي قضت المفوضية بتأليفه .
٥	١٣٣	٦	غير محصور على الاسلام — غير محصور بالاسلام .
٥	١٣٦	٥	ومدحت في الشام — ومدحت باشا في الشام .

السطر	الصفحة	المجلد	
٢١	١٦٦	٥	سهل كيسون — والاصح سهل قيشون . (ب)
١٨	١٦٧	٥	مرفأ قيسارية اليوم لا مرفأ هناك . (ب)
١٩	١٧٢	٥	نقدر والزاوية — ونقدر الزاوية .
١٦	١٧٦	٥	والاتساع — واتساع
١١	١٩٢	٥	قطعها على — قطعها
١٠	٢٠١	٥	اعظم المقويات — اعظم القربات
١٢و١٣	٢٢٣	٥	الظروف والاحوال — الاحوال محرومة من — محرومه
٦	٢٢٤	٥	يبنة التي بين غزة و يافا صوابها يُبْنى كما في ياقوت . وان جاءت في احسن التقاسيم للمقدسي يُبنا فهي غلط املاء و ياقوت اصح .
٩	٢٤١	٥	تحذف « والرقة » لان الرقة لا تعد من بلاد الشام بحسب مصطلحنا لانها على الشاطيء الشرقي من الفرات .
٦	٢٥١	٥	استخدمها الرومان — ايام استخدمها الرومان .
٢١	٢٥٨	٥	حوران ولبنان وافامية وغيرها — حوران ولبنان وغيرهما .
٢٣	٢٦٥	٥	واعطى المجزّمين — واعطى المجذّمين .
٣و٧و١٥	٢٦٩	٥	الكتابة الاثرية هي على المثمنات :

١ : بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله صلى الله عليه . بنى هذه القبة المباركة .

٢ : عبدالله عبد [الله الامام المأمو] ن امير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضي الله عنه آمين .

والكلمات الثلاث الموضوعة ضمن قوسين هي بخطٍ اصغر ونقش اغبر وهي كانت ولا شك [الملك بن مروا] وقد أبدلتها يد صناع اما الذي تولى عمارة القبة سنة ٢١٦ هـ من قبل المأمون فهو صالح بن يحيى ولكنهم نسوا ان يرفعوا التاريخ الاصلي لبناء

المجلد الصفحة السطر

القبة وهو سنة ٧٢ ولو رُفع لأُخفيت الجريمة (ع) .
كان في مسجد بيت المقدس ثلاث مقاصير للنساء طول كل مقصورة سبعون ذراعاً .
الملك الظاهر بيبرس توفي سنة ٦٧٦ وعمر المسجد الاقصى والصخرة سنة ٦٦٨ ﻫ لا سنة ٦٨٨ (ع) .

٥ ٢٨٢ ٢٣ وذكر صاحب الاغاني ان المأمون دخل دمشق فطاف فيها وجعل يطوف على قصور بني أُمية ويتبع آثارهم فدخل صحناً من صحونهم فاذا هو مفروش بالرخام الاخضر كله وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب اليها وفي البركة سمك وبين يديها بستان على اربعة زواياه سروات كأنها قصت بمقراض من التفافها .
وفي ذلك دليل آخر على ان قصور بني أُمية ظلّ بعضها الى اوائل القرن الثالث ولم تخرب كلها .

٥ ٢٨٥ ١١ وهب صاحب حلب محمود بن نصر لابن ابي حصينة المعري الاديب (٤٥٧) مكاناً بحلب تجاه حمام الواساني فجعله داراً وزخرفها فلما تم بناؤها نقش على دائرة الدرابزين فيها :

دار بنيناها وعشنا بها في دعة من آل مرداس
قوم محوا بؤسي ولم يتركوا عليَّ في الايام من باس
قل لبني الدنيا الا هكذا فليحسن الناس الى الناس

ولما تكامل البناء عمل دعوة حضرها الامير محمود بن نصر فلما رأى حسن الدار وقرأ الابيات المتقدمة قال : يا ابا الفتح كم صرفت على بناء الدار قال : يا مولانا هذا الرجل تولى عمارتها ولا أدري كم صرف عليها . فسأل المعار فقال : غُرّم عليها الفا دينار مصرية . فأمر باحضار الفي دينار وثوب أطلس وعمامة مذهبة وحصان بطوق ذهب وسرفسار ذهب فسلمها الى

المجلد الصفحة السطر

ابن حصينة وقال له :

قل لبني الدنيـا الا هكذا فليحسن الناس الى الناس

٥ ٣٠٠ ١١ ويقول الظاهري الخ هذه العبارة وردت في س ٧ ص ٢٩٩ .

٥ ٣٠٢ ٨ كتب سيف الدين احد الامراء التنوخيين على باب داره في عبية لبنـان :

قسماً بمن ضمت اباطح مكة ومنى وزمزم والكتاب المنزل

ما شدتها طمع الخلود وانما هي جنة الدنيا لاهل المنزل

والدار لا تزال قائمة وطيدة الاركان .

٦ ٣ ١٠و١٦ من نابلس = فوق نابلس .

يقول (م) ان الافضل ان يطلق اسم بيعة او كنيسة على معبد النصارى و يخصص اسم كنيس بمعبد اليهود .

٦ ٤ ٥و٢٤ يقول (م) راجع سفر الملوك الثالث من التوراة تر َ وصفاً مدققاً لهيكل اورشليم وان النصرانية كانت قد انتشرت قبل قسطنطين والدليل ملايين الشهداء الذين سفكوا دماءهم في عامة اقطـار العالم في سبيل نصرتها انما نالت النصرانية الحرية على يد القيصر قسطنطين الكبير اه . وقوله فيه نظر لان ما قلناه هو رأي علماء التـاريخ من الافرنج الذين كتبوا بغير مؤثرات دينيـة وتعصبات مذهبية .

وقـال ايضاً : لم يكن الاسقف رئيس دير الا من باب العرض حتى ان اول الرهبان لم يكونوا من مصاف الكهنة ، انما الاسقف من باب الوظيفة والدرجة رئيس ابرشية اي ولاية كنيسة اه .

٦ ٥ ١٢و١٩و٢٣ بطورز يتا = الطور

بنو الحارث = بني الحارث

اوزيب = يقول (م) ان الاسم الشائع هو اسابيوس .

المجلد الصفحة السطر

٦ ٦ ٥ واعاد هرقل بناءَ ما كان خرب كسرى من الكنائس في مصر
والشــام · وذكر المؤرخون ان الفرس خربوا كنائس القدس
بمعاونة اليهود ومما خربوا كنيسة الجسمانية وكنيسة المنية وظلتا
خرابًا الى القرن الرابع للهجرة ولما انصرفوا عمر النصارى كنيسة
القيامة والمقبرة والاكرانيون ومار قسطنطين اه ·

٦ ١٢ ١٣ بطر يريكا = بطر يركاً ·

٦ ١٤ ٣و١٧ من مما = مما ·
الارمن القديم = الارمن القدماء ·
كاثوليك الرومانيين = اللاتين ·

٦ ١٦ ٤و٦و٨و١٠و١١و١٣و١٥ الاكس هومو = الاكسي هومو ·
واديار سان سبولكر = وكنيسة القيامة ·
واخوات روز ير = واخوات الوردية ·
والبند كتيين = والبند كتيات ومثلها في سطر ٢٢ ·
سيدة صهيون = راتسبون ·
لاخوات روز ير = لراهبات الوردية ·

٦ ١٩ ا و٥و١٢و١٣و١٤و٢٥ وكنائس صغيرة ثابتة = للفرنسيين والروم
الارثوذكس والكاثوليك والموارنة ومدارس الخ (م) ·
من رأي (م) ان النصرانية انتشرت اولاً في المدن كالقدس
وانطاكية والاسكندرية وافسس الخ حتى وصلت الى داخل
بلاط القياصرة ·
للكرمليين = للكرمليات (م)
ومدرسة اكليركية ومجمع الاب = ومدرسة اكليركية لجمعية
آباء القلب القدس وجمعية الاب ·· (م)
وفي الطور دير وكنيسة لكل من الفرنسيين والروم الارثوذكس ·

المجلد	الصفحة	السطر	
			وكنيسة الفرنسيسيين من أبدع كنائس العالم · (م)
٦	٢٣	١٢و١٥و١٦و٢٤	وللراهبات الورديات = ولراهبات الوردية (م)
			العشرون = الاطرون (ب)
			راهبات البندكتيون = الراهبات البندكتيات (م)
			دمشق = دمشق وتاسعة في يافا (م)
٦	٢٤	٢و٣و١٨و١٩	راهبات الفرنسيسكان = الراهبات الفرنسيسيات البيض (م)
			في يافا = في بيت لحم (م)
			عين كريم = عين كارم
			حربثة = حربصا (م)
٦	٢٩	٢٤	علقمة المري = عُلَفَّة المري (ب)
٦	٣١	١٣	ليس هذا قبر موسى لان هذا النبي لم يعبر الأُردن ولم يدخل قط ارض الميعاد اي فلسطين بل مات على جبل نابو اي في جبال موآب المقابلة لجبال اليهودية = راجع سفر التثنية الاشتراع من التوراة فصل ٣٢ آية ٤٨ — وفصل ٣٣ (م) ·
٦	٣٤	١٢	يوحنا المعمودانى = المعمدان (م)
٦	٣٥	٧	بحر الميت = البحر الميت (م)
٦	٤٣	٢٣	ايادر = اديار
٦	٥١	١١	اذبـعر = ابذعر
٦	٥٦	٧	تهدم جامع عمر ومكانه الآن كنيسة القديسة حنة شمال كنيسة مار يوحنا والجامع الباقي مع المأذنة من آثار قلاوون · (ب)
٦	٥٧	٥و٩	سويقة علوان = سويقة علّون (ب)
			قرية نرواتا = قرية زواتا (ب)
٦	٦٣	١٩	في مفكرات طارق ان اسم سوق القطن القديم بدمشق سوق

المجلد الصفحة السطر

الفسقار وفيه جامع هشام انشأه القاضي بدر الدين بن مزهر (٨٣٠) وان محراب جامع التوبة مهم هو ومنبره ونوافذه وكذلك جامع الشامية وجامع التبان في المناخلية فان فيه عمودين مهمين وفيه قاشاني ومنبر قديم، وملاصق جامع السيدة سكينة جامع من بناء الملك الظاهر عليه كتابات ، وفي جامع ركن الدين منكورش المعروف بالركنية في حي الاكراد نقوش وكتابات مهمة ٠

٦ ٦٥ ١٥ قال ابن طولون في رسالته المعزة فيما قيل في المزة : و بالمزة العتيقة قبر دحية الكلبي ٠ قال الصلاح الصفدي ودفن ابن عنين بمسجده الذي انشأه بارض المزة قرية على باب دمشق ٠ وذكر في الاعلاق الخطيرة مساجد المزة منها مسجد العنابة مسجد امين الدولة الوزير ويعرف بالخلخال ، مسجد بني عمير مسجد مسجد بني ظنة قديم، مسجد العامود جوار بستان الشيرازي ، مسجد المرج جوار بستان الصاحب تاج الدين ، مسجد البسطامي جوار بستان ابن سلام ، مسجد بمغارة حمص المعروف بحميص ، مسجد صفي الدين الخادم انتهى ٠ و بها من الجوامع الجامع الذي عمره الوزير صفي الدين بن شاكر من اهل المئة السابعة وهو الذي بلط جامع دمشق واحاط سور المصلى عليه وعمل الفوارة ومسجدها وعمر جامع المزة وجامع حرستا ٠ وجامع المزة انشأه ابن السعادة وفي سنة ٧٢٠ كمل جامع المزة بناه المرجاني الزاهد وانفق عليه نحواً من عشرين الفاً ٠ واجل من انتسب الى المزة الحافظ المزي المشهور المتوفى سنة ٧٤٢ دفين مقابر الصوفية وممن انتسب اليها الحافظ ابو الفتح العوفي الاسكندري الاصلي المزي المتوفى سنة ٩٠٦ ٠ قال وهدم الملك الظاهر بدمشق كنيسة اليهود وكنيسة المصلبة بالقدس التي للنصارى وغير ذلك ٠ ومن زوايا المزة زاوية الشيخ سعيد التي خارجها

المجلد	الصفحة	السطر	
			شرقي مصلى العيدين . وفيها من الترب تربة التاجر عبد الرحيم الرحبي وقد جعل فيها مسجداً ووقف عليها اوقافاً (٧٣٥) .
٦	٧١	١٥	خمسة عشر رطل = خمسة عشر رطلاً .
٦	١٠١	٢٥	تحذف « يراجع الدارس » .
٦	١٤٨	٩	مندرسة النورية = مدرسة النورية .
٦	١٥٧	١٤	هذه اسماء من هلك في ارض الشام من الصحابة الكرام : أُبي بن كعب . ابو الدرداء . ابو امامة . ابو عبيدة . ابو هاشم بن عتبة . اوس بن اوس . بلال الحبشي . تميم الداري . جعفر ابن ابي طالب . جبارة بن مالك . الحارث بن هشام . الحباب ابن منذر . حرملة بن زيد . خالد بن الوليد (؟) . خزيمة بن ثابت . زيد بن حارثة . سعد بن عبادة . سبرة بن فاتك . سهيل الانصاري . سهيل بن عمرو . شرحبيل بن حسنة . وشمعون وصهيب الرومي . الضحاك بن قيس . ضرار بن الخطاب . ضرار بن الازور . عبد الله بن حوالة . عبدون بن السعدي . عبد المطلب الهاشمي . عبد الله بن سعد . عبدالله بن رواحة . عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق . محمد بن ابي حذيفة . مدرك الفزاري . معاوية بن ابي سفيان . المقدام بن معدي كرب . معاذ بن جبل . واثلة بن الاسقع . عبد الرحمن بن عوف . فضالة بن عبيد .
٦	٢٠١	١٦	« الشعور بالعومة » « الشعور بالعور » .
٦	٢١٦	٢٠	وعلى اهل المسلمين = وعلى المسلمين .
٦	٢٣٦	٩	ينتسبن الى النواسك = ينتسبون الى الناسك .
٦	٢٥٦	٣٢	وصفوا اساس = وضعوا اساس .
٦	٢٦٨	١٥و٢٤	وفي سنة ٧١٧ سومح بمكوس على جهات مستقبحة بالمملكة الطرابلسية

المجلد الصفحة السطر

وابطال المنكرات وكتب بها في دولة الناصر قلاوون منها بيع الخمور جهاراً وان يعمر النصيرية في بلادهم بكل قرية مسجداً اه.
امر الحاكم بكتب سب الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع والقياسر والشوارع والطرقات وكتب السجلات الى سائر الاعمال بالسب ثم امر بقلع ذلك وكان في بعض ابواب دمشق في الاسكفة العليا منقوشاً في الحجر اه.

٦ ٣١٧ ٢٢ في تاريخ فلسطين ان العزة والسيطرة والسيادة كانت في جميع بلاد الساحل والسهل للبدو واهل الوبر فبلاد السبع وغزة كانت منقسمة بين العزازمة والحناجرة والترابين والتياها والجبارات فالعزازمة يمانيون ومشايخهم اجداد ابن سعيد وامراء الترابين عائلة ابي ست وامراء التياها الهزيل وانساب هذه القبائل غير صريحة فانها مزيجة من عشائر مختلفة وقبائل متنوعة وفيهم القيسي واليماني وبلاد الخليل اكثرها قيسية ومقاطعة القدس يمانية وقيسية اه.

٦ ٣٣٤ ٣ قال ابن عبدربه العرب تسمي العجمي اذا اسلم المسلماني ومنه يقال مسلمة السواد والهجين عندهم الذي ابوه عربي وامه اعجمية والمدرع الذي امه عربية وابوه اعجمي وقال الفرزدق :

اذا باهلي انجبت حنظلية له ولداً منها فذاك المدرع

والعجمي النصراني ونحوه وان كان فصيحاً ، والاعجمي الاخرس اللسان وان كان مسلماً اه.

(وقعت أغلاط قليلة في الطبع يهتدي الى صوابها بالبداهة).

حياة محمد كرد علي

مؤلف خطط الشام

« ترجمته بنفسه »

اصل أسرتنا من السليمانية تنسب الى الاكراد الايوبية ، جاء جدي الى دمشق في التجارة وكان من اهل اليسار فراقته وسكن فيها . ثم ذهب في بعض السنين الى الحجاز متجراً ، واتفق له ان انتقد ذات يوم عملاً من أعمال محافظ الحج ، وكان ظالماً جباراً ، فشق ذلك عليه ، وامر بمصادرته في كل ما يملك ، فاضطر ان يذهب الى الاستانة مستعدياً . ومازال يعمل الوسائط حتى اجتمع بالسلطان ، واقترح عليه هذا ان يصرف النظر عن دعواه على محافظ الحج ، ويأخذ مقابل ماله قريتين في الشام إقطاعاً له ولاولاده من بعده ، فأبى وقال للسلطان : ما جئت لآخذ صدقة بل جئت أطلب عدلاً وانصافاً . وهكذا رجع الى دمشق مجرداً من ثروته وهلك قهراً بعد قليل . وخلف والدي يتيماً فقيراً فاشتغل لاول امره في صناعة الخياطة ثم بالتجارة ، فأثرى مرات وخسر مرات ، وابتاع في آخر امره مزرعة صغيرة في الغوطة تمزرتها انا واخوتي منذ كنا صغاراً والى الآن .

ولدت في دمشق أواخر صفر سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦م ، من أم شركسية ، ولما بلغت السادسة في العمر اخذت بتلقي القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الاسلامية والحساب والطبيعيات في مدرسة كافل سيباي الاميرية ، ونلت شهادتها من الدرجة

الاولى . ثم دخلت المكتب الرشدي العسكري فدرست مبادئ التركية ، وكانت دروس الافرنسية ناقصة فأتاني والدي بمعلم الى الدار اخذت عنه نحو هذه اللغة وصرفها على الاصول مدة ثلاث سنين ، وبرعت بالترجمة من الافرنسية الى العربية وبالعكس . ولما أحرزت شهادة المدرسة الرشدية من درجة متوسطة ، لاني لم أتمكن على ما يجب من الرياضيات لاصابتي بالحسر وضعف البصر — بحيث لم أكد أتبين عن بعد ما يرسم الاستاذ من أشكالها وخطوطها في اللوحة ، ففاتني التبحر فيها مع الاسف — عينت مدة ست سنين موظفاً في قلم الامور الاجنبية ، فأخذت في خلالها أتقن آداب التركية . وشرعت أنشئ فيها كما أنشئ بالافرنسية ، وقد اختلفت حولين كاملين الى مدرسة اللعازاريين للاضطلاع بآداب اللغة الافرنسية ، ودرست الطبيعيات ودروس الكيمياء بهذه اللغة لأزيد تمكناً منها .

وقد اقتطعت مع ذلك جانباً من الوقت لدرس الآداب العربية والعلوم الاسلامية وتلقيت اللغة الفارسية حتى حذقتها ثم أنسيتها . وفي خلال تلك المدة اتصلت بالأساتذة الشيخ طاهر الجزائري والسيد محمد المبارك والشيخ سليم البخاري واخذت عنهم وعن غيرهم من مشايخ الطبقة الثانية كل ما وسعني قراءته ، من كتب اللغة والأدب والبيان والاجتماع والتاريخ والفقه والتفسير والفلسفة . وكان العامل الاكبر في توجيه ارادتي نحو الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي ، والإقدام على التأليف والنشر ، وإشرابي محبة الأجداد والتناغي بآثارهم ، والحرص على تراث حضارتهم ، أُستاذي الاكبر الشيخ طاهر الجزائري ، فما زلت ألزمه منذ اتصلت به الى ان ذهب الى ربه سنة ١٣٣٨ هـ حميد الأثر . وكنت بدأت بنظم الشعر فنهاني عن تعاطيه أُستاذي المبارك ، وارادني على اتقان الانشاء فقط ، وما ينبغي له من الادوات ، لئلا يشغلني الشعر بلذته عن طلب العلم . فصدعت بامره ، كما كنت قبلت نصيحة والدي ، وانا يافع ، بترك الانشاد بصوت رخيم . لان ذلك كان يعد في نظره شيئاً وضيعاً كما روى ذلك عن شيخه . وهكذا حرمني والدي الموسيقى ، وحرمني شيخي الشعر . ولولا نصيحتهما لعنيت بهذين الفنين ، وكانا لي سلوى واي سلوى . ولكن أُستاذي المبارك خرجني باللغة والانشاء . ووالدي ، وكان عامياً يقرب من الأمية ، أنفق عن

سعة ليعلمني . فكان مدة سنين يدر الرواتب على أساتذتي ، وقد ابتاع لي خزانة كتب كانت تعد في ذلك العهد شيئًا في بلدتي .

وأهم ما أولعت بمطالعته — بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي وجانب من المخطوط الذي عثرت عليه — كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، واصول الشعوب ومدنياتهم . وطالعت بالافرنسية أهم ما كتبه فولتير وروسو ومونتسكيو وبنتام وسبنسر وفوليه وتين ورنان وسيمون وبوتمي ولافيس وهانوتو وبوترو ولوبون و برونتير وبني دي جولفيل ولمتر وسانت بوف ، وتدارست المجلات الفلسفية والاجتماعية والتاريخية والادبية باللغة الفرنجية . وجريت منذ نشأت على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر ، وهي ان أقرأ اكثر مما اكتب ، وقلما دوّنت موضوعًا لم أدرسه في الجملة ولم تتشرب به نفسي .

وعهد اليّ سنة ١٣١٥ ﻫ . بتحرير جريدة « الشام » الاسبوعية فحررتها ثلاث سنين كانت مدرستي الاولى في الصحافة . وساعدتني فيها معرفة التركية والافرنسية . ثم دعيت الى المؤازرة في مجلة المقتطف المصرية اكبر مجلاتنا العربية . فنشرت فيها أبحاثاً جمة في التاريخ والاجتماع والادب مدة خمس سنين . فبدأت لي شهرة في عالم الأدب العربي لمنزلة هذه المجلة اذ ذاك بين أبناء اللغة العربية ، وكثرة من تقع تحت أنظارهم من العلماء والادباء والباحثين . وفي عام ١٩٠١ هبطت مصر للسياحة بقصد الذهاب الى باريز للدرس ، فعرض عليّ صاحب جريدة « الرائد المصري » نصف الاسبوعية ان أحرر في جريدته ، فلبيت الطلب متكارهًا ، اذ كانت عاقتني عن العودة الى الشام امور قام بها المشاغبون المتجسسة في دمشق . واتهموني تشفيًا بامور هي من المحرمات في عرف الحكومة العثمانية ، ثم رجعت الى الشام بعد عشرة اشهر . ومن اعظم ما استفدته من رحلتي هذه الاخذ عن عالم الاسلام والاصلاح الشيخ محمد عبده وحضور مجالسه الخاصة والعامة .

وفي شتاء سنة ١٣٢٣ فتشت الحكومة العثمانية داري في دمشق بحجة انه علقت مناشير في شوارع البلدة مكتوبة بلغة سلسة ، وفيها مطاعن في احد الأعيان والوالي ، ومثل هذه العبارة وهذه الافكار لا يحسنها ولا يعرفها غيري ! فظهر للحكومة افتراء المفترين واكتفت بان شردتني اياما عن داري .

وفي هذه الوقعة نظم صديقي العلامة الامير شكيب أرسلان قصيدة ارتجالية يداعبني بها ، و يصف ما حل بي مجسماً قال سامحه الله :

ألا قل لمن في الدجى لم ينمْ طلاب المعالي سمير الألمْ
ومن أرَّقته دواعي الهوى فدون الذي أرقته الحكم
فكم في الزوايا تخبى فتىً طريد الكتاب شريد القلم
يرى الارض ضيقاً كشق اليراع ويهوى على ذا الوجود العدم
وكم ذا بجسرين من ليلة على مثل جمر الغضا في الضرم
تمنى الاديب بها ندحة ولو بات يرعى هناك الغنم
وكم سروة تحت جنح الظلام كسر بصدر الاريب انكتم
يخاف بها حركات الغصون ويخشى النسيم اذا ما نسم
وان تشد ورقاء في أيكة تؤرقه في صوتها والنغم
وكم بات للنجم يرعى اذا أديم السما بالنجوم اتسم
وطال به الليل حتى غدا يظن عمود الصباح انحطم
ومن ذعره خال ان النجوم لتهدي الى مسكه عن أمم
اذا ما السماك بدا رامحاً توهمه نحوه قد هجم
ولولا الدجى لم يتم النجا وقد امكن الظلم لولا الظلم
ولله در القرى اذ خفته فما بالسهولة يخفى العلم
ففي «جسرين» «زبدين» و«الاشعري» ديار بها قد أوى واعتصم
ونحو «المليحة» رام الخفا وكم بالمليحة من متهم
ديار ابى اهلها غدره وآواه فيها الوفا والكرم
ولا شك رقوا لاحواله طريداً يعاني الجوى والسقم
ليالي كانون في الاربعين وبرد العشيات اغلى الفحم
بارض تراها سماءً وماءً ففوق السوافي وتحت الديم
يجول وقد صار مثل الخيال ودقَّ فلو لاح لم يقتحم
وفوق الخدود كلون البهار وتحت المآقي كلون العنم

وفي كل يوم سؤال وبحث | وأنَّى تولى وكيف انهزم
وقد كان في كبسهم بيته | بجلق قالـــ وقيل عمم
فكانت على كتبه غارة | كغارات عرب «الصفا» بالنَّعم
وقالوا سينفى الى « رودس » | وقالوا سيجزى بما قد جرم
وقالوا سيحمله أدهم | برقاه لا تستريح القدم
وقد قيل « فزان » من دونه | وتلك السموم وتلك الحمم
وبعض بسجن عليه قضى | وبعض بضرب عليه حكم
و « كرد علي » غدا عبرة | ففات ومنه الرجاء انصرم
فيا كرد لا تحزننك الخطوب | فان الهموم بقدر الهمم
ومن رام ان يتعاطى البيان | توقَّع ان يبتلى بالنقم
فذي حرفة القول حرّيفة | وكم أدركت من لبيب وكم
وكم نكتة أعقبت نكبة | وكم من كلام لقلب كلم
ومن بالكتابة ابدى هوىً | فان الكآبة منها القسم
فيا كرد صبراً على محنة | فكم محنة شيبت من لمم
وصبراً على ورقات لها | عيون المعاني يبكين دم
وواهاً لباقات زهر غدوت | لها جامعاً يا اخي من قدم
ازاهر تسهر في جمعها | فلا غرو ان فاح عرف فنم
وما نمَّ الا بنشر ذكي | وطيب يفوق عرار الأكم
فقولوا لواش بكرد علي | نشرت الثنا حين حاولت ذم اه

كان التضييق عليّ في الشام يزيد كلما استفاضت شهرتي ، والشهرة حقيقة كانت على صاحبها آفة في الدور الحميدي ، فرأيت بعد طول التأمل ان المقام فيه عبثاً ، فأخذت بالاستعداد للهجرة الى مصر لأصدر مجلة المقتبس ، فأصدرتها في اول سنة ١٣٢٤ هـ ، وتوليت معها رئاسة تحرير جريدة الظاهر اليومية ، وبعد سنة عُينت امين سر تحرير جريدة المؤيد . والجرائد الثلاث التي توليتها في مصر هي « الرائد المصري » و « الظاهر » و « المؤيد » وكانت من الصحف التي تصدع بالوطنية

المصرية ، وننتقد سياسة المحتلين ، ولذلك كثر اصدقائي من الوطنيين المصريين ، فعددت بهم مصر وطني الثاني ، وكادوا هم يعدونني منهم . وقد آزرت في مجلة « العالم الاسلامي البارزية » التي مازالت تصدر في باريز باللغة الافرنسية الى عهد قريب . حتى اذا حدث الانقلاب العثماني (١٩٠٨م) رجعت الى دمشق وأصدرت في ١٧ كانون الاول ١٩٠٨ جريدة المقتبس يومية سياسية ، بعد ان صدر المقتبس ثلاث سنين في القاهرة مجلة شهرية علمية ، وعدت الى إصدار المجلة ايضاً .

وكان المقتبس السياسي معتدلاً بلهجته ، وطنياً بمسلكه ، ينتقد ما يمكنه نقده من مواطن الخلل في الادارة العثمانية ، وما رمى الى الانفصال عن الترك قط ، بل كان يرمي الى استحصال حقوق العرب ضمن الجامعة العثمانية الكبرى ، فلم يرق هذا ايضاً بعض رجال الدور الحميدي ، واخذوا يقاومون المقتبس وصاحبه ، ويقيمون عليه الدعاوي المزورة ، يصدرها الظالمون المرتشون من الموظفين ، ممن دأبنا على الكيد لهم ، والعمل على تنحيتهم ، حتى جاء زمن وعلى المقتبس عشرات من الدعاوي ، يطلب فيها أصحابها جزاء المفتري على الأكثر ، لانهم أبرياء بزعمهم مما نسب اليهم .

ومن أغرب دعوى الوالي الحميدي عليّ في السنة الاولى اتهامه إياي بالارتجاع ، اي إرجاع عهد عبد الحميد الاستبدادي ، وهو الدور الذي بكيت من أهواله ، وقد هجرت الاهل والوطن فراراً من كابوسه ، ولكن أعمالي في خدمة الحرية سنين طويلة ، كذبته وأشياعه من الحميديين الاتحاديين . وقد اضطررت في هذه الدعوى الى مغادرة الشام ، فركبت البحر الى فرنسا ، واخذ الوالي يهدد القضاة بالعزل اذا لم يحكموا عليّ بالجناية ، وصرفت الوقت في باريز أدرس مدنيتها وأستفيد من لقاء علمائها وساستها ، ووقفت وقوفاً حسناً على حركتها العلمية والسياسية ، وذلك بواسطة جماعة من أصدقائي علماء المشرقيات ، عرفوني الى الطبقة العليا التي أردت التعرف اليها في عاصمة الفرنسيس ، وفي مقدمتهم فيلسوف فرنسا المرحوم اميل بوترو . وقد سألته ان يكتب لي جريدة بامهات الكتب التاريخية والاجتماعية والادبية والاقتصادية ، فتفضل وكتب لي ما أردت ، فابتعته وطالعته كله مطالعة درس ، ولا أزال الى اليوم أجعل تلك المجموعة المختارة سلوتي في خلوتي وجلوتي .

كتبت خمساً وثلاثين مقالة ومحاضرة في وصف سياحتي ، ولا سيما في وصف عاصمة فرنسا ، وطبعت هذه المقالات في كتاب سميته « غرائب الغرب » وما كان في الحقيقة الا غرائب باريزليس الا . وبعد ان اقمت ثلاثة اشهر في « كارتيه لاتين » بباريز عدت الى الاستانة عن طريق ڤينا مبرأ مما نسب اليّ . وفي سنة ١٩١٢ اقام نفس الوالي الحميدي دعوى على المقتبس وقبض على مديره المسؤول المرحوم اخي احمد ، واخذ عالماً من علماء المدينة اسمه الشيخ ابراهيم الأسكوبي ، وارسلهما الى الاستانة فسجنا مدة ، وذلك بتهمة ان المقتبس نشر قصيدة لهذا العالم تمس الآل السلطاني . والحقيقة انها تأوهات ونصائح ، وكانت نشرت في جريدة من جرائد الشام قبل ان تنشر في المقتبس بعشرين يوماً . اما انا فتمكنت من الفرار كالمرة الاولى ، وهبطت مصر عن طريق البر مع تجار الجمال . فدخلت الاسماعيلية بعد سير اربعة عشر يوماً ، قطعت فيها الشام من الوسط الى اقصى تخومها الجنوبية . ثم برئت مما نسب اليّ كالمرة الاولى ، وعدت الى دمشق بعد ستة اشهر ، وعاد المقتبس الى الصدور . الا ان الوالي كان تمكن من اجبار احد اخوتي على بيع مطبعتنا ، فأباعها بثمن بخس ، فأضيفت الخسارة بها الى ما خسرناه في اغلاق صحيفتنا السياسية مرتين . ولم يعوض علينا احد شيئاً مما خسرناه . واكتفى المقتبس الى ذاك الحين باشتراكاته واعلاناته ومطبوعاته فقط . وقد استقبلت يوم عودتي الى دمشق كما يستقبل العظماء ، فضحكت من تبدل الرأي العام ، وبالغ بعض من استقبلوني بالحفاوة ، وهم يزيدون على الفين ، كانوا يوم وقعت في الدعوى ينكرون عملي في انتقاد الحكومة ، ومن قبل كانوا يصفقون ويستحسنون ، ويحبذون ويدعون ، فلم ادر وجهاً لرضاهم ولا لغضبهم ، فكتبت الى صديقي المرحوم العلامة رفيق بك العظم اقول له ان القوم لاقوني في دمشق في هذه المرة كما يلاقون الملوك . فلم افرح لهذا الاقبال ، ولا ساءني ذاك الادبار ، وعجبت لجنون من ينخدع بالجماعات الذين لا يثبتون بحال على افكارهم .

وفي سنة ١٩١٣ زرت ايطاليا وسويسرا وفرنسا والمجر والاستانة ، وكتبت ٣٣ مقالة في وصف مدنية تلك الممالك . وكان الداعي الى هذه الرحلة الثانية البحث عن المخطوطات التاريخية التي نقل عنها بالتصوير الشمسي صوراً ، الامير ليوني كايتاني

من علماء ايطاليا وعظمائها . وقبل نشوب العرب العامة ببضعة اشهر وقف والي دمشق المقتبس ، بدعوى انه نشر عبارة في كشف الحجاب ، وهي منقولة عن الصحف التركية ، والحقيقة ان المقتبس كان نوفر على كشف حجاب الاتحاديين ، واصلاهم حرباً عواناً هو وانصاره من رجال البلاد وحملة الاقلام فيها ، فأخذوا يختلقون له هذه التهم او يكفّ عنهم . ولطالما تقاضوه ذلك ، وله ان يتحكم في مطالبه الخاصة ما شاء فأبى ، وربما كان رده لهم غير جميل لا يخلو من بعض خشونة ، ثم ورد الامر من نظارة الداخلية بعود المقتبس الى الصدور ، فأبيت اصداره ، لما رأيت من الحيف والغرض وتربص الاتحاديين الدوائر به وبصاحبه ، وكانوا الحاكمين المتحكمين في السلطنة العثمانية بلا منازع . وألح ارباب الشأن باعادة المقتبس الى الصدور ، فكان جوابي انني زهدت في هذه الصناعة صناعة الصحافة ، مادامت احكامهم غاشمة ظالمة . الا ان الحكومة بقيت تحاذرني مدة اشهر . واقامت شرطياً امام داري يكتب كل يوم اسماء من يدخل عليّ من ارباب الطبقات المختلفة ، حتى اذا خرجت الى منتزه او زيارة احد يتبعني الجواسيس حيث سرت . اما كتبي وجرائدي و برقياتي فانها كانت تراقب اشد مراقبة ، بل اضحكها وابكاها .

وبينا كان حالي كذلك اعلنت الحكومة العثمانية النفير العام ، وجاء الشام والٍ عاقل عادل اسمه خلوصي بك فنشأت بيني وبينه صداقة ، ولا سيما عقب ان ظهر من تفتيش اوراق قنصل فرنسا انني كنت دائماً الى جانب خدمة العرب ، ولم أمل الى الخروج على الترك ، ولا اسففت الى خدمة غيرهم ، مع اني أُردت على ذلك مرات ، وأغلوا لي الثمن والجعالة ، فاحتقرت كل نفيس في سبيل خدمة المصلحة العامة ، وهذا سر نجاتي من مخالب قتلة الاتحاديين الذين لم يراعوا عظيماً ولا غيره في الحرب ، وصلبوا من صلبوا على اعواد المشانق بلا رحمة في مدن دمشق وبيروت وحلب .

ارادني خلوصي بك ست مرات على اصدار المقتبس وانا احاوله واطاوله ، ولكن قنصل المانيا كان يلح على الحكومة المحلية باقناعي لاصداره ، لما ايقن من تأثيره في افكار الشاميين بل في بلاد العرب ، فصحت بعد حين عزيمتي على اصداره ، خصوصاً بعد ان أوحى اليّ احد خلص أصدقائي ، بان القوم يتربصون بي الشر اذا لم أجبهم

الى إصدار المقتبس ، ولم أخدم الحكومة في تلك الحالة الحرجة . وانني اذا ظللت على إبائي يخشى ان يحاسبوني عما اجترحته في الماضي حساباً غير يسير ، وتكون حياتي في تهلكة ، فاعتذرت بان على المقتبس مبلغاً من الديون بسبب توقفه ثمانية أشهر و بيع مطبعته فقالوا انهم يسددونها عني ففعلوا . وفي خلال ذلك جاء الشام احد أساطين الاتحاديين « احمد جمال باشا » قائداً للجيش الرابع ، وحثني على التعجيل باصدار المقتبس ، وكان كلامه رجاءً في الصورة الظاهرة ، وتهديداً في الحقيقة ، فبادرت الى امتثال الامر فأصدرته ، وبقيت سنة لا اكتب فيه الا نادراً ، ويتولى اخي سياسته ، حتى تنبه جمال باشا للامر وأرادني على كتابة مقالات افتتاحية باسمي ففعلت ؛ وكثيراً ما كانت أفكاري ترشح اضطراراً من أفكار القائد العام مباشرة او بالواسطة ، فكانت ارادتي مسلوبة لتهديدي كل ساعة بنشر الحسابات القديمة مع الاتحاديين . وفي اواخر السنة الاولى للحرب أرسلني جمال باشا مع البعثة العلمية من علماء الشام الى الاستانة فجناق قلعة ، واوعز اليّ بانشاء رحلة هذه البعثة ، ووضع كتاب في رحلة انور باشا ، وكيل القائد العام وناظر الحربية ، الى الشام والحجاز . ففعلت مضطراً . وظهر هذان الكتابان الاول باسمي واسم ثلاثة من ارباب الصحف في الشام ، والثاني باسمي فقط . وهما من كتب الدعاية السمجة في الحرب المقوتة . وفي هذه السنة ايضاً أنشأت الدولة بايعاز المانيا وترتيبها في مدينة دمشق جريدة يومية عربية اسمها (الشرق) عهدت اليّ برئاسة تحريرها فوليته مدة ، واضطرني احمد جمال باشا الى رفع اسمي من جريدة المقتبس لتروج جريدة الشرق التي ظهرت الى اواخر الحرب . وكانت جريدة المانية تركية بحتة يقصد بها الدعاية والتأثير في العالم العربي خاصة والعالم الاسلامي عامة .

ولما بدأت جيوش الحلفاء تتقدم في جنوبي الشام غادر احمد جمال باشا البلاد ، فأرادني خلفه جمال باشا المرسيني ان أظل على ما كنت في جريدة الشرق فقلت له : « لم يستعبدني احد في حياتي غير سلفك العالي ولا أريد ان أستعبد مرة أخرى » . وقصدت الى الاستانة للتجارة فمانعني الاتحاديون هناك بايعاز من احمد جمال باشا ، ومنعوني من معاطاة أعمال لا أعرفها في الحقيقة . وبينا كنت أفاوضهم بذلك

سقطت دمشق بايدي الحلفاء، وانقطعت الطريق بين الشام والاستانة، فعدت الى دمشق بعد ثلاثة اشهر من سقوطها، لأعاود اصدار المقتبس، لكن الحاكم العسكري العام وكان من اصدقائي، الحّ عليّ ان أتولى رئاسة ديوان المعارف فقبلت متكارهاً، واخذت في درس حالة المدارس لاصلاحها على ما يلائم روح الامة العربية، وبدأت بانشاء دار للآثار وتجهيز دار الكتب الظاهرية بجهاز حديث. ثم حصل خلاف بيني وبين الحكومة فأردت التنحي عن رئاسة ديوان المعارف، فألحّت عليّ الحكومة بالبقاء، فقلت ان كان ولا بد فينقلب ديوان المعارف باعضائه ورئيسه الى مجمع علمي، وتكون علاقته مع رئيس الحكومة مباشرةً، فقبل هذا الاقتراح وشرعت في تأسيس المجمع العلمي العربي في ٨ حزيران سنة ١٩١٩.

وفي آخر تشرين الثاني سنة ١٩١٩ صدر الامر بدعوى الضيق المالي بصرف رئيس المجمع العلمي واعضائه، الا عضوين فقط للإشراف على داري الكتب والآثار. وكان ذلك تشفياً من بعض الاحزاب التي لم أشأ ان أسايرها على العمياء. ودمت منعزلاً في داري الى ان عهدت اليّ وزارة المعارف في ٧ ايلول سنة ١٩٢٠ اول دخول السلطة الافرنسية الى المدن الاربع، وهي الوزارة التي غيروا اسمها بعد مع سائر الوزارات باسم «مديرية عامة». وفي خلال ذلك اخذت عشرة من الطلاب للاخصاء في العلوم العالية في جامعات فرنسا. وزرتها للمرة الثالثة، كما زرت بلجيكا وهولاندة وانكلترا واسبانيا والمانيا وسويسرا وايطاليا، وكتبت الرحلة الثالثة في احدى وخمسين مقالة، وأعدت طبع «غرائب الغرب» وأدخلت فيه الرحلات الثلاث، فجاء في مجلدين. وكان احد اعوان الجنرال غورو اول مفوض سامٍ للجمهورية الافرنسية في سورية ولبنان نشر على لساني وبدون اطلاعي في احدى المجلات البارزية عبارة يقصد منها مدح الانتداب الفرنسي الى الني ليس بعدها وتقريظ غورو واعوانه. فكذبت ما عزي اليّ في الصحف. وكان احد موظفي البعثة الافرنسية في دمشق دسّ ايضاً على لساني في خطبة أردت القاءها باللغة الافرنسية في معرض بيروت التجاري على جماعة من الفرنسيس — جملاً بخصوص العهد الفيصلي لم تخطر لي في بال. فامتعضت مما وقع في المرة الاولى والمرة الثانية، ولما لم يرق عملي من التكذيب

في نظر وكيل المفوض استقلت من المعارف ، وبقيت في رئاسة المجمع ، وكنت أديره اثناء وزارة المعارف وبعدها . وكان في ذلك الخير لاني حصرت وكدي في خدمة المجمع وتأسيسه على ما يجب وبقدر ما يساعد المحيط والحالة المالية . وعرضت عليّ وزارة المعارف في الحكومة الموقتة خلال ثورة سنة ١٣٤٤ هـ فاعتذرت وآثرت الانقطاع الى المجمع واتمام كتابي « خطط الشام »

وفي ١٥ شباط سنة ١٩٢٨ م أسندت اليّ وزارة المعارف في حكومة صاحب الفخامة الشيخ تاج الدين الحسني وبقيت أدير شؤون المجمع العلمي الى الآن . وفي اواسط شهر تموز سنة ١٩٢٨ ندبتني دولة سورية والمجمع العلمي لتمثيلها في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بمدينة اكسفورد فرحلت الى بلاد الانكليز وزرت بلجيكا وفرنسا . وقد اغتنمت فرصة وجودي في وزارة المعارف فأنشأت مدرسة العلوم الادبية العليا جعلتها من فروع الجامعة السورية ، كما هيأت جميع اسباب افتتاح كلية الالهيات تضاف ايضاً الى الجامعة وبذلك تمت لها اربع شعب ، شعبة الطب ، وشعبة الحقوق ، وشعبة الآداب ، وشعبة الالهيات . واذا انفسح الزمن للعمل ففي النية اضافة الفرع الاخير من فروع الجامعة وهو الفنون والعلوم .

كان المقتبس عقب الهدنة قد عاد الى الصدور وظلّ يطرد نشره ، حتى أُلفت العصابات لغزو الساحل الشامي وأصبح القول الفصل لأناس من صعاليك العامة واغرار الشبان ، ممن اخذوا يهددوننا سراً وجهراً ان لم نمالئهم على رغائبهم ، في هيج الافكار ودعوتها الى الثورة ، فآثرت توقيف المقتبس على اصداره آلة للفتنة بين الناس ، واهراق دماء الأبرياء ليربح المستعبدون . على حين كنت على مثل اليقين ان الانتداب الافرنسي واقع لامحالة . وقد شق عليّ بعد ان بلوت من السياسة حلوها ومرها ، وكرعت خلها وخمرها ، ان آتي ما يكون وباله عليّ قبل غيري من رجال الصحافة ، في امر لافائدة منه الا لمن يستثمرون الثورات لمصلحتهم الخاصة . وبقيت جريدتنا معطلة سنة كاملة حتى دخل الجيش الفرنسي فعادت الى الظهور . وظهرت جريدة المقتبس بتحرير المرحوم شقيقي احمد كرد علي تصدر حرة في الجملة ، وطنية الصبغة والمنزع ، فلما هلك أصبح تحريرها أُعوبة في ايدي أُناس ارادوا تسخيرها

في خدمة أحزابهم ، فاضطررت الى اغلاقها في صيف سنة ١٩٢٨ بعد ان خدمت البلاد عشرين سنة ·

كان مذهب المقتبس السياسي معاونة الحكومة بالمعقول ، وانتقادها عند الاقتضاء · وتحبيذها اذا اتت ماتحبذ عليه · ينزع ابداً الى انارة الافكار ، وبث الملكات الصحيحة وتقوية روح القومية العربية ، وسياسته وطنية ليس فيها شيء من روح الكراهة للاجانب ، ويرمي الى فتح صدر الامة لمعظم ما في المدنيـة الغربية من اسباب الرقي · ولا يتحزب المقتبس لحزب الا اذا تجلى له غناؤه وبلاؤه في خدمة الامة · فقد دخلت في جمعية الاتحـاد والترقي قبل الانقلاب العثماني بنحو اثنتي عشرة سنة ، وخدمت ما استطعت وساعدت البيئة ، ولم أجدد في الانقلاب للاتحـاديين عهداً مع كثرة الحاحهم عليّ · اذ رأيت ذلك حطة وتناقضاً في الخطة ، لان مرامي الاتحاديين تجلت بانها تقصد الى تتريك العناصر ، ومن اول مقاصدنا الدعوة الى القومية العربية ، وانهاض العرب من كبوتهم ·

ولما عبث الاتحاديون بالمقصد الذي رسموه لانفسهم يوم نشأتهم الجديدة ، تألفنا في الشام والاستانة كتلة من العرب والترك ، وألفنا حزب الحرية والائتلاف اشتغلنا به مدة ، ثم رأينـا من المصلحة حله فحللناه · واقترح عليّ زمن الحكومة العربية غير مرة الدخول في الأحزاب فأبيت · ولكن لما تفاقم الشر ، واصبحت دمشق عاصمة في الصورة ، والمدبرون لها اغماراً غرباء في الاكثر ، صحت عزيمتنا مع جماعة من اهل الطبقة العاليـة مسلمين ومسيحيين وألفنا « الحزب الوطني » معدلاً لامزجة الاحزاب الاخرى · فكان حاجزاً دون انبعاث ما يكدر من العوام ·

وفي شباط ١٩٢٤ عُهد اليّ تدريس الآداب العربية في معهد الحقوق بدمشق ، فرأيت تفاوتاً في عربية الطلبة ، وكان منهم المقتدر الذي يصلح للكتابة والخطابة ، ومنهم الضعاف في مبادئ النحو والصرف ، لان مدرستي الحقوق والطب كانتـا تحاولان تكثير سواد الطلبة وتقبل منهم حتى المقصرين في الفروع المهمة ، ولا سيما اللغة العربية التي يعدونها ثانوية ! فاضطررت الى القاء بعض دروس نحوية مختصرة على التلاميذ ريثما يستعدون لتلقي الآداب ، وحاولت تعليمهم الانشاء والخطابة بالعمل

اكثر من النظر . ولم ترق بعض الطلبة العلامات التي نالوها في الفحص العام ، وكان بعض اساتيذهم يشوقونهم من طرف خفي على رفع أصواتهم بالشكوى من المدرس ليضموا درسه الى دروسهم ، ورأى رئيس الجامعة الطبيب الكحال السيد رضا سعيد الايتوني استثمار هذه الحركة لمصلحته ، ومصلحته ابداً في اقصاء الاكفياء ارباب الارادات المستقلة من تداريس الجامعة ، فقام مدفوعاً ايضاً بيد رئيس الحكومة اذ ذاك السيد صبحي بركات . وكان هذا مغيظاً محنقاً من صاحب الترجمة لان جريدة المقتبس لم تمالئه على خطته ، وصعب عليّ ان أترضاه ، ولو بان اذكر له على الاقل ان لاعلاقة لي بالمقتبس منذ مدة طويلة ، وانني لا أديره ولا أحرره ولا ينطق بلساني .

وكانت المؤامرة فاستكتب رئيس الجامعة بعض الصحف للنيل مني ، واعطاها فيما قيل دراهم لتكتب له المطاعن عليّ بما يفيد في تنحيتي . ومن الرسائل ما كتبه له بعض مستخدميه ممن كان يغضي عن مرقاتهم في مدرسة الطب مقابل هذا التطوع في خدمة اغراضه ، ومنهم طلبة مقصرون في دروسهم كافأهم على ما نشروه له من الطعن بي بان منحهم شهادة الطب ، ومعذرته انه في حاجة الى من يحسن من جماعته كتابة سطرين بالعربية ، لانه هو ورئيس الحكومة ابن بركات لا يحسنان كتابة سطر واحد، واذا قرأ آ او قرئ عليهما كلام عربي لا يفهمانه بحال . وهكذا جمع رئيس الجامعة بعض الطلبة المقصرين في دروسهم في دار احد من يدهنون له من اطباء مدرسته ، ولقنوهم كيف يجرأون على الشكوى من الدرس و يكتبون محضراً بهذا الطلب ، ومن لم يوقعه من الطلبة يُهدد بما يخاف منه على مستقبله . واخيراً تقرر ارسال بضعة من طلبة مدرسة الطب الى درس الخطابة في دار الحقوق لينادوا باسقاط خمسة من الاساتذة من جملتهم مدرس الآداب العربية ، وخطب بحضوري احد الطلبة ، وهو ابن احد اخصاء رئيس الحكومة خطبة لُقنها ، وكوفئ عليها بعدُ هو ووالده ، فخرجت من المدرسة على ان لا أعود اليها ، وتم لبعض الاساتيذ ما ارادوه ، فاستأثروا باكثر الدروس الشاغرة ، ولم يعد من المخطوب فيهم الا واحد وهو مدير المعهد السيد عبد القادر العظم الذي استرضى الطلبة وصانع رئيس الجامعة مع انه أضعف الاساتذة المشتكى منهم ولا صلة له بالعلم .

أهم المطبوع من كتبي مجلة المقتبس « ثمانية مجلدات وجزآن » صدر منها ثلاث سنين في مصر وخمس في الشام وهي تبحث في الاجتماع والادب والتربية والتعليم والتاريخ ومنها « رسائل البلغاء » و « غرائب الغرب » و « غابر الاندلس وحاضرها » و « تاريخ الحضارة » و « القديم والحديث » و « رواية المجرم البريء » و « قصة الفضيلة والرذيلة » . واول مانشرت رواية « يتيمة الزمان » سنة ١٣١٢ هـ . وآخره « خطط الشام » وهو كتاب في مدنية الشام وتاريخه صرفت في تأليفه ثلاثين عاماً ، وطالعت لاجله زهاء الف ومائتي مجلد باللغات الثلاث العربية والتركية والافرنسية ، وأنفقت في سبيل تأليفه نحو الف وخمسمائة جنيه ، و يدخل في ستة مجلدات وربما كان معجمه في اربعة . وعندي من التآليف التي لم تطبع « حرية الوجدان » و « الحرية المدنية » و « الحرية السياسية » معربة عن جول سيمون الفيلسوف الافرنسي . ومنها « كنوز الاجداد » و « مكتشفات الاحفاد » و « امراء الانشاء » و « اخلاق المعاصرين » الى غير ذلك من المقالات والأبحاث المنشورة في المجلات والصحف وآخرها مقالاتي وانتقاداتي في « مجلة المجمع العلمي العربي » خلال تسع سنين .

خلقت عصبي المزاج دمويّه ، مغرماً بالموسيقى العربيــة ، محباً للطرب والانس والدعابة ، عاشقاً للطبيعة والسياحة . وقد كان للمزرعة الصغيرة التي اورثنـا إ ياها المرحوم والدنا في قرية « جسرين » من قرى الغوطة اثر ظاهر في تربية ملكتي . و بها استغنيت انا واخوتي لاول امرنا عن طرق الأبواب للتحيل او التسفل للمعاش .

ولم أخلُ منذ اشتغلت بسياسة البلاد وحتى بعد ان تجردت للعلم المحض ، من جرائد كان من جملة أغراضها ثلبي ، وكثير من الكتاب الذين عُرفوا بالسفاهة كانوا يرزقون الجنيهات الكثيرة على حساب النيل مني ، والتطاول عليّ ، وما زلت حتى الساعة لا أخلو من أُناس يتطاولون عليّ حب الشهرة ، ينالونها من طريق الطعن بمن اشتهروا ، ولم يحدث لي ان أجبت احد هؤلاء الطاعنين في وقت من الاوقات . اللهم الا اذا كان هنالك تحريف لحقيقة وطنية اوقضية علمية ، فأذكر الواقع بدون اسم المتحامل المخالف . وقد وقع مرة لمجلة ألبسها اصحابها ثوب الدين ، ان سلخت نحو ثلاث سنين تكتب فيّ المقالات والقطع الصغيرة فلم أجبهـا ، ولم اقرأ اكثر ما كتبت ،

حتى اذا نضبت مادتها من المال والقول ، اجبتها بمقالة نشرت في كتاب « القديم والحديث » باسم « اعداء الاصلاح » وهي من المقالات التي لم تخل من حدة ٠

اعشق النظام والتدقيق ، واحب الحرية والصراحة ، وقد أولعت بالتجدد ، ومن عادتي ان اقف بمعالجته عند حد لا اتعداه الى هدم اصل من الاصول المقدسة ، وادور من الاصلاح التدريجي العلمي في دائرة لا تتعدي الثورة في الافكار ، أجاهر في الحق ، واطعن في المنافقين والتجهم لهم ، وأجبه المرتشين والمخربين ، لذلك يكثر اعدائي من اهل هذه الطبقة ٠ ولطالما كادوا لي وآذوني في مادياتي فلذ لي عملي ولم تسؤني نتائجه ٠ أخلص للصاحب واخدمه خدمة خالصة ، واغار على مصلحته ٠ وربما ارفعه فوق قدره ، حتى اذا بدرت منه بادرة سوء نحوي او نحو المجتمع ، الوي وجهي عنه آخر الدهر ٠ ولطالما آخذني بعض اصحابي على اسداء المعروف الى من هم اول من ينكرونه ، واسراعي الى تصديق من حولي ، في زمن يكذب فيه معظم اهله ، دعاني الى الاحسان الى أناس ليسوا احرياء به ، والى الاخذ بايدي فئة كان الاولى لهم ان يظلوا مغمورين ، ومعظمهم كانوا لمقاصد لهم يتخيلونها اول من حملوا علي وعادوني ، فكان الجواب ، اني احمل الناس على محمل الخير ، فاذا ظهرت تربيتهم الحقيقية ، وتبين اني كنت مغروراً بهم كان جزاؤهم الاعراض ، وهل يجوّز العقل ان تعض الكلب الذي يعضك ، والحيوان المفترس الذي يحاول اهلاكك ولو اطعمته وسقيته ٠

اكره الفوضى واتألم للظلم ، واحارب التعصب ، وامقت الرياء ، واذا حاربت لاجل المظلومين وهاجمت طغمة المتعصبين ، فانما احارب واهاجم بذوق وفهم على الأغلب ، واميل الى الشدة ، وقد تكون الى الافراط احياناً ، لتفعل البلاغة فعلها في عقول من يراد ارشادهم او اسقاطهم ٠ وتنقبض نفسي منذ الصغر من غشيان المجالس والمجتمعات الغاصة بانواع الناس ، واحرص على الوقت فلا اكاد انفقه الا لمنفعة عامة اوخاصة اهـ ٠

فهرست الجزء السادس

« من خطط الشام »